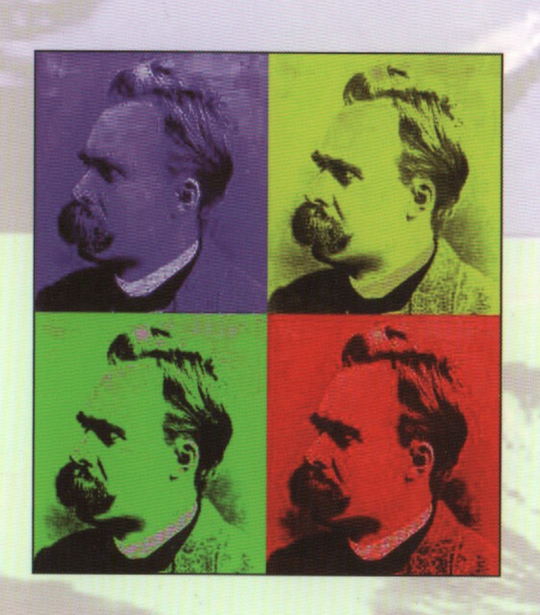
إرفين د. يالوم

عندما بكى نيتشه



ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

إرفين د. يالوم

عندما بكى نيتشه

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

إرفين د. يالوم، مؤلف كتاب «مشكلة سبينوزا» و«علاج شوبنهاور» و«مستلقياً على الكنبة» بالإضافة إلى عدة كتب دراسية عن التحليل النفسي. وهو أستاذ فخري في الطب النفسي في جامعة ستانفورد، ويقيم في بالو ألتو، بكاليفورنيا حيث يمارس الطب النفسي أيضاً.

إرفين د. يالوم: عندما بكى نيتشه، ترجمة: خالد الجبيلي

Irvin D. Yalom: When Nietzsche wept

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل ١

دقات ساعة سان سالفاتور أيقظت جوزيف بريوير من أحلام يقظته. أخرج ساعته الذهبية الثقيلة من جيب سترته. كانت الساعة التاسعة. للمرة الثانية، قرأ البطاقة الصغيرة ذات الإطار الفضي التي تلقاها البارحة.

٢١ تشرين الأول ١٨٨٢

دكتور بريوير،

يجب أن أراك لمناقشة مسألة بالغة الأهمية وعاجلة. إن مستقبل الفلسفة الألمانية على المحك. أرجو أن ألتقي بك في الساعة التاسعة من صباح الغد في مقهى سورينتو.

لو سالومي

يا لها من رسالة وقحة! فلم يسبق لأحد أن خاطبه بهذه الصفاقة. وهو لا يعرف أحداً باسم لو سالومي. لا يوجد عنوان على المغلف. لا توجد لديه وسيلة لإخبار مرسل هذه الرسالة بأن الساعة التاسعة ليست مناسبة، وأن السيدة بريوير لن تكون سعيدة لتناول الفطور وحدها، وأن الدكتور بريوير يمضي حالياً إجازته، وأنه لا يبدي أي اهتمام «بالمسائل البالغة الأهمية» ـ فقد جاء الدكتور بريوير إلى فينيسيا للابتعاد عن المسائل العاجلة تلك.

لكن ها هو يجلس هنا، في مقهى سورينتو، في الساعة التاسعة، يتصفح الوجوه حوله، متسائلاً أيّ منهم قد يكون لو سالومي الوقح.

«أتريد المزيد من القهوة يا سيدي؟»

أومأ بريوير للنادل، وهو فتى في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، شعره أسود ناعم رطب ممشط إلى الوراء. منذ متى استغرق في حلم اليقظة هذا؟ ألقى نظرة أخرى على ساعته. عشر دقائق أخرى أُهدرت من حياته. وأُهدرت على ماذا؟ كالعادة كان يحلم ببيرثا، بيرثا الجميلة، مريضته التي يعالجها منذ سنتين. لا يكفّ عن تذكّر صوتها المثير: «دكتور بريوير، لماذا تخشاني؟» تذكّر كلماتها عندما أخبرها أنه سيتوقف عن معالجتها: «سأنتظر. ستظل دائماً الرجل الوحيد في حياتي».

قال موبّخاً نفسه: «بحق الله، أرجوكِ توقّفي! توقّفي عن التفكير! افتحي عينيك! انظري! دعي العالم يدخل».

رفع بريوير فنجان القهوة وتنشق رائحة القهوة القوية وعبّ نفساً عميقاً من هواء تشرين الأول الفينيسي المائل للبرودة. تلفت حوله. كانت جميع الطاولات في مقهى سورينتو قد امتلأت بالرجال والنساء الذين راحوا يحتسون القهوة ويتناولون فطورهم، والذين كان معظمهم من السيّاح والمتقدمين في السن. كان عدد منهم يحمل صحيفة بيد وكوب القهوة باليد الأخرى. وخلف الطاولات، كانت غيوم زرق فولاذية من الحمام تحوم في السماء ثم تنقضّ فجأة. لم تكن تلك الحمامات تعكّر صفو المياه الراكدة في قناة غراند كانال التي تنعكس على صفحتها صورة القصور الفخمة الممتدة على ضفتيها بجمال أخاذ، سوى مويجات يوقظها من سباتها جندول يعبر فوقها. أما الجنادل الأخرى، فكانت لا تزال نائمة، مقيدة بأوتاد مثبّتة على أطراف القناة، مثل رماح ألقت بها يد عملاقة كيفما اتفق.

«نعم، صحيح ـ انظر حولك أيها الغبي!» قال بريوير لنفسه، «فالناس يتقاطرون من جميع أنحاء العالم لمشاهدة فينيسيا. أناس يرفضون أن يموتوا قبل أن يباركهم هذا الجمال».

تساءل كم ضاعت أمور في هذه الحياة؟ هل لأنه لم يكن ينظر حوله؟ أم لأنه كان ينظر ولا يرى؟ فقد تمشى البارحة وحده حول جزيرة مورانو، لكنه بعد ساعة من التجوال لم ير شيئاً، ولم يسجّل في عقله شيئاً. فلم تنقل شبكيّة عينه تلك المشاهد الجميلة إلى البؤبؤ. لقد أضاع وقته كله بالتفكير ببيرثا: ابتسامتها الخادعة، عيناها الساحرتان، نعومة بشرتها الدافئة، وأنفاسها المتسارعة، عندما كان يفحصها أو يدلك جسمها. هذه المشاهد تنطوي على قوّة معينة ـ تنبض بالحياة. كانت هذه الصور تدهم عقله وتغزو مخيلته. تساءل هل سيكون هذا قدري إلى الأبد؟ هل قُدّر لي أن أكون مجرد خشبة مسرح تؤدّي فيه ذكرياتي عن بيرثا مسرحيتها طوال الوقت؟

نهض أحد الجالسين إلى الطاولة المجاورة. أيقظه صوت احتكاك الكرسي المعدني على الأرضية. مرة أخرى راح يبحث عن لو سالومي.

ها هي! المرأة التي تسير في شارع ريفا ديل كاربون، ثم تدخل المقهى. لا بد أنها هي التي كتبت تلك الرسالة ـ تلك المرأة الأنيقة، الطويلة، الممشوقة، الملفعة بالفراء، التي تسير الآن نحوه بخطى وئيدة تشي بغطرسة عبر متاهة الطاولات التي تكاد تلتصق إحداها بالأخرى. عندما اقتربت، تبيّن بريوير أنها فتاة شابة، أصغر من بيرثا. لعلها لا تزال تلميذة مدرسة. لكن هذا الحضور الطاغي ليس عادياً.

اتجهت لو سالومي نحوه بثقة تامة. كيف يمكنها أن تكون واثقة تماماً من أنه هو الشخص المطلوب؟ بيده اليسرى مسّد الشعيرات الخشنة المائلة إلى اللون الأحمر في لحيته خشية أن تكون قد علقت فيها بقايا من طعام الفطور. شدّ طرف سترته السوداء إلى الأسفل بيده اليمنى لكي

لا تتجمع حول رقبته. عندما أصبحت على مسافة بضعة أقدام منه، توقّفت قليلاً، وحدّقت في عينيه بجرأة.

فجأة توقف عقل بريوير عن التفكير. لم يعد النظر الآن يحتاج إلى تركيز. فقد تعاونت شبكيّة وبؤبؤ عينيه تماماً، وتركتا صورة لو سالومي تتدفق بقوة إلى عقله. يا لها من امرأة فائقة الجمال: جبهة عريضة، وذقن قوية منحوتة بروعة، وعينان زرقاوان براقتان، وشفتان شهوانيتان ممتلئتان، وشعر أشقر فضّي ممشط بإهمال جمعته بتكاسل في شكل كعكة عالية، مظهراً أذنيها وعنقها الطويل الجميل. وبمتعة خاصة لاحظ خصلات شعرها التي أفلتت من كعكة شعرها وتدلت في جميع الاتجاهات.

بثلاث خطوات واسعة أخرى، أصبحت تقف أمام طاولته. «دكتور بريوير، أنا لو سالومي، هل لي أن...؟» وأمأت برأسها نحو الكرسي. جلست بسرعة بحيث لم يتسن لبريوير أن يحييها كما يجب ـ أن ينهض، وأن ينحني ويقبّل يدها، ويسحب كرسياً لتجلس عليه.

«أيها النادل! أيها النادل». طقطق بريوير أصابعه، «قهوة للسيدة. قهوة بالحليب؟» نظر نحو السيدة سالومي. أومأت برأسها. ثم خلعت معطفها الفرو، بالرغم من برودة الصباح.

«نعم، قهوة بالحليب».

لم ينبس بريوير وضيفته بكلمة واحدة للحظات. ثمّ نظرت لو سالومي في عينيه مباشرة، وقالت: «لديّ صديق ينتابه شعور باليأس، وأخشى أن ينتحر. وإذا انتحر فإن ذلك سيكون خسارة كبيرة لي، ومأساة شخصية عظيمة لأنني أتحمّل قدراً من المسؤولية. مع أنني أستطيع تحمّل ذلك. لكن» ـ مالت نحوه، وقالت بصوت أوطأ ـ «لكن قد

تتجاوزني هذه الخسارة أنا شخصياً: فقد ينطوي موت هذا الرجل على نتائج بالغة الأهمية ـ لك وللثقافة الأوروبية ولنا جميعاً. صدّقني».

أراد بريوير أن يقول: «لا بد أنك تبالغين يا آنسة»، لكنه لم يستطع نطق هذه الكلمات. فما قد يبدو غلواً في المراهقة لدى أيّ شابّة في سنها، فقد يبدو مختلفاً هنا. أمر يجب أخذه بجدية. لم يكن صدقها وتدفقها يقاومان.

«ومن هو هذا الرجل، صديقك؟ هل أعرف عنه شيئاً؟»

«لم يحن الوقت بعد لأخبرك من هو! لكن مع الوقت ستعرفه. يدعى فريدريك نيتشه. ربما تساعدك هذه الرسالة التي أرسلها ريتشارد فاغنر إلى البروفسور نيتشه على التعريف به». وأخرجت رسالة من حقيبتها. فتحتها وأعطتها لبريوير، وقالت: «يجب أن أقول لك في البداية إن نيتشه لا يعرف أنني جئت لأراك ولا يعرف أن بحوزتي هذه الرسالة».

الجملة الأخيرة التي نطقتها الآنسة سالومي جعلت بريوير يتوقف. هل عليّ أن أقرأ هذه الرسالة؟ فالبرفسور نيتشه هذا لا يعرف أنها تطلعني عليها، بل إنه لا يعرف أنها توجد بحوزتها! كيف حصلت عليها؟ استعرتها؟ سرقتها؟

كان بريوير يتفاخر بخصاله العديدة. فقد كان مخلصاً وسخياً، وكانت عبقريته في التشخيص أسطورية: ففي فيينا، كان الطبيب الشخصي لعدد من كبار العلماء والفنانين والفلاسفة مثل برامز وبروك وبرينتانو. وعلى الرغم من أنه في الأربعين من العمر، فقد كان ذائع الصيت في أنحاء أوروبا، وكانت شخصيات بارزة من جميع أنحاء الغرب تقطع مسافات طويلة وتأتي لاستشارته. والأهم من كل ذلك، فهو يتفاخر بنزاهته ـ فلم يرتكب عملاً شائناً في حياته. إلا إذا كان عليه أن يتحمّل المسؤولية عن

أفكاره الشهوانية المتعلقة ببيرثا التي كان يجب أن تتركز على زوجته، ماتيلد.

تردّد في أخذ الرسالة من يد لو سالومي الممدودة أمامه. لكن ذلك لم يدم سوى لحظات. مرة أخرى ألقى نظرة على عينيها الزرقاوين البلّوريتين، ثم فضّ الرسالة المؤرخة ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٢ التي بدأت بعبارة: «صديقي، فريدريك»، وأحيطت عدّة فقرات بدوائر.

لقد قدمتَ إلى العالم عملاً لا يوازيه عمل آخر. إن كتابك يتسم بأصالة عميقة. لقد أدركت أنا وزوجتي بأن هذا العمل هو الأمنية التي كنا نتوق إليها في حياتنا، الأمنية التي كنا نعرف أنها ستأتينا ذات يوم من الخارج وتأسر قلبينا وروحينا! لقد قرأنا كتابك مرّتين ـ مرة كل واحد منا على حدة أثناء النهار، ثم معاً بصوت مرتفع في المساء. وكدنا نتشاجر على قراءة النسخة الوحيدة المتوفرة لدينا، ونأسف كثيراً لعدم وصول النسخة الثانية الموعودة حتى الآن.

لكنّك مريض! هل عزيمتك مثبطة أيضا؟ إذا كان الأمر كذلك، كم يسرني أن أفعل شيئاً لتبديد شعورك بالاكتئاب! كيف أبدأ؟ لا يمكنني أن أفعل شيئاً آخر سوى أن أغدق عليك مديحي.

اقبله، على الأقل، بروح ودية، مع أنك لست مقتنعاً بذلك.

تحياتي القلبية،

ريتشارد فاغنر

ريتشارد فاغنر! دهش بريوير لدماثته وألفته وتبسطه مع الرجال العظماء في عصره. رسالة، ويا لها من رسالة، كُتبت بيد السيد نفسه! لكنه سرعان ما تمالك نفسه بسرعة.

«هذا أمر مثير للغاية يا آنستي العزيزة، لكن أرجو أن تقولي لي الآن ماذا يمكنني أن أفعل لك بدقة».

مالت لو سالومي إلى الأمام مرة أخرى، وأرخت يدها المكسوة بقفاز قليلاً على يد بريوير، وقالت: «إن نيتشه مريض، مريض جداً وبحاجة إلى مساعدتك».

«لكن ما طبيعة مرضه؟ ما هي الأعراض التي تنتابه؟» سأل بريوير الذي أثارته لمسة يدها، وبدا سعيداً الآن لأن يخوض في مياه مألوفة.

«قبل كل شيء فهو مصاب بالصداع. صداع شديد معذِّب؛ ونوبات متواصلة من الغثيان، وعمى وشيك ـ فقد بدأت قدرته على الرؤية تتدهور شيئاً فشيئاً؛ وتلبّك في المعدة ـ أحياناً لا يستطيع تناول الطعام لعدة أيام ـ والأرق. فلا يمنحه أي دواء النوم فيضطر إلى تناول جرعات كبيرة من المورفين؛ وشعور بالدوار ـ ينتابه أحياناً دوار البحر وهو على اليابسة لأيام عديدة».

لم تكن قائمة الأعراض الطويلة جديدة بالنسبة لبريوير الذي يرى عادة من خمسة وعشرين إلى ثلاثين مريضاً كل اليوم، وقد جاء الآن إلى فينيسيا لينال قسطاً من الراحة. لكن قوة تأثير حضور لو سالومي أرغمته على إبداء مزيد من الاهتمام.

«إن الجواب على سؤالك، يا سيدتي العزيزة، هو نعم. طبعاً سأرى صديقك. هذا أمر مؤكد. فأنا طبيب. لكن أرجو أن تسمحي لي بأن أسألك سؤالاً. لماذا لا تسلكين أنتِ وصديقك طريقاً مباشراً إليّ؟ لماذا لا تكتبان إلى عيادتي في فيينا وتحصلان على موعد؟» هنا، راح بريوير يتطلع حوله بحثاً عن النادل ليحضر له الحساب، وقال لنفسه كم ستكون ماتيلد مسرورة لو عاد إلى الفندق مبكراً.

لكن لم يكن ثمة شيء يمكن أن يثني هذه المرأة الجريئة، فقالت:

«دكتور بريوير، أرجو أن تمنحني بضع دقائق أخرى. إني لا أبالغ في خطورة حالة نيتشه. إن شعوره بالاكتئاب شديد جداً».

«لا أشكّ في ذلك. لكني أريد أن أسألك مرة أخرى يا آنسة سالومي، لماذا لم يأتِ السيد نيتشه لاستشارتي في عيادتي في فيينا؟ أو لماذا لم يستشر طبيباً في إيطاليا؟ أين يقيم؟ هل تريدين أن أعطيك إحالة إلى أحد الأطباء في المدينة التي يعيش فيها؟ ولماذا أنا بالذات؟ بالمناسبة، كيف عرفتِ أنني في فينيسيا؟ أو أنني من رواد الأوبرا ومعجب بفاغنر؟»

صمتت لو سالومي وابتسمت بينما راح بريوير يمطرها بوابل من الأسئلة، وبدأت ابتسامتها تزداد مكراً مع استمرار سيل الأسئلة.

«آنسة، إنك تبتسمين كما لو كنت تخبئين سرّاً. يخيل إلي أنك شابّة تستمتع بالاحتفاظ بالأسرار!»

«أسئلة كثيرة يا دكتور بريوير. هذا رائع - فلم نتحدث إلا لبضع دقائق، وهناك الكثير من الأسئلة المحيّرة. لا شكّ أن هذا يبشّر بالخير في أحاديثنا القادمة. اسمح لي أن أخبرك المزيد عن مريضنا».

مريضنا! أُعجب بريوير ثانية بجرأتها. تابعت لو سالومي كلامها وقالت، «فقد رأى نيتشه جميع الأطباء في ألمانيا وسويسرا وإيطاليا، لكن أياً منهم لم يفهم حقيقة مرضه أو حتى يتمكن من التخفيف من حدة الأعراض التي يعاني منها. فقد أخبرني أنه رأى خلال الأربع وعشرين شهراً الأخيرة أربعاً وعشرين طبيباً من كبار الأطباء في أوروبا. لقد هجر بيته وأصدقاءه، وتخلّى عن أستاذيته في الجامعة وراح يبحث عن منطقة يتحمّل مناخها للتخفيف من شدة الألم الذي يعاني منه».

صمتت الشابّة ورفعت كوبها لترشف منه وهي لا تزال تنظر إلى بريوير.

«آنسة، إني أرى في عيادتي عادة مرضى يعانون من حالات غير

عادية. لكن دعيني أحدّثك بصدق: لا يمكنني أن أفعل معجزات. وفي هذه الحالة ـ عمى وصداع ودوار والتهاب معوي ووهن وأرق ـ وقد استشار عدداً من كبار الأطباء ولم يعثروا على علاج مناسب له، لا أظن أنني أستطيع أن أفعل أكثر مما فعله كبار الأطباء الخمسة والعشرين الذين استشارهم خلال تلك الأشهر».

استند بريوير إلى كرسيه، وأخرج سيجاراً، وأشعله. نفث سحابة رقيقة زرقاء من الدخان وانتظر حتى تبددت، ثمّ تابع قائلاً: «للمرة الثانية أقول لك إنني مستعد لرؤية السيد البروفسور نيتشه في عيادتي، لكن يبدو أن علاج حالة معقدة كحالته لا يزال خارج قدرة العلم الذي وصلنا إليه في عام ألف وثمانمائة واثنين وثمانين. لعل صديقك ولد في جيل قبل جيله».

«ولد في جيل قبل جيله!» قالت ضاحكة، «إنها ملاحظة تنبّؤية يا دكتور بريوير. كم مرة سمعت نيتشه يردد هذه العبارة بالذات! الآن أصبحت متأكدة من أنك الطبيب المناسب له».

على الرغم من استعداده للمغادرة لأنه يعرف أن ماتيلد تنتظره في الفندق مرتديه ثيابها وتذرع الغرفة جيئة وذهاباً متململة، أبدى بريوير اهتمامه على الفور، وقال: «كيف ذلك؟»

«إنه يردد إنه «فيلسوف سبق عصره» ـ فيلسوف لم يفهمه العالم بعد. في الواقع، فإن الكتاب الجديد الذي ينوي كتابته يبدأ بهذا الموضوع ـ النبي، زارادشت، الممتلئ حكمة، ويقرّر تنوير الناس. لكن لا أحد يفهم ما يقوله. فلم يتهيأ الناس بعد لاستقباله، النبي، ويدرك أنه أتى في زمن قبل زمانه، لذلك فإنه ينكفئ إلى عزلته».

«آنستي، إن كلماتك تأسرني ـ فأنا شغوف بالفلسفة، لكن ليس لديّ

وقت كاف اليوم، ويجب أن أسمع رداً مباشراً على السؤال الذي طرحته وهو لماذا لا يستشيرني صديقك في فيينا».

«دكتور بريوير»، قالت لو سالومي مثبتتة عينيها في عينيه مباشرة، «اعذرني لأنني لم أكن دقيقة. لعلي لم أكن صريحة. فأنا أجد متعة كبيرة عندما أكون في حضرة عقول عظيمة ـ ربما لأنني بحاجة إلى قدوة كي أطوّر ذاتي، ولعلي أحبّ ببساطة أن أجمع هذه العقول. لكنني أعرف أني فتاة محظوظة لأنني أتحدّث مع رجل بعمقك وسعة أفقك».

تدفق الدم إلى وجه بريوير الذي لم يعد يحتمل نظرتها إليه فأشاح بوجهه عنها بينما واصلت كلامها.

«ما أقصد قوله هو أنني ربما كنت مذنبة لأنني لم أكن صريحة معك لكي أطيل فترة وجودنا معاً».

«هل ترغبين في المزيد من القهوة يا آنسة؟» قال بريوير وأشار إلى النادل، «وفي المزيد من شرائح الخبز اللذيذة. هل تعرفين الفرق بين طريقة خبز الخبز الألماني والإيطالي؟ اسمحي لي أن أصف لك نظريتي عن التوافق بين الخبز والشخصية الوطنية».

لم يعد بريوير مستعجلاً للعودة إلى ماتيلد في الفندق، وراح يتناول طعامه ببطء مع لو سالومي، مستغرقاً في التفكير بحالته. فمن الغرابة أنه جاء إلى فينيسيا لكي يزيل الضرر الذي أحدثته امرأة جميلة، وها هو الآن يجلس مع شابة أكثر جمالاً يتجاذب معها أطراف الحديث! ولاحظ للمرة الأولى بعد أشهر عديدة، بأنه لم يشعر بالقلق تجاه بيرثا.

قال لنفسه ربما يوجد عندي أمل. ربما أستطيع أن أستخدم هذه المرأة لأتمكن من إخراج بيرثا من مسرح عقلي. هل سأتمكن من اكتشاف علاج نفسي يصبح بديلاً عن الأدوية؟ فمن الممكن الاستعاضة عن المورفين الأكثر خطورة بدواء حميد مثل حشيشة الناردين. وكذلك،

ربما استعاض عن بيرثا بلو سالومي ـ سيكون ذلك تقدماً سعيداً! فهذه المرأة على درجة أكبر من الذكاء والحنكة. إن بيرثا ـ كيف يمكنني أن أقول ذلك؟ ـ امرأة لم تنضج جنسياً، امرأة غير مكتملة، طفلة في جسد امرأة على نحو سيئ.

لكن بريوير كان يعرف أن براءة بيرثا وعدم نضجها جنسياً هما اللذان جذباه إليها حقاً. إن المرأتين كلتيهما تثيرانه جنسياً، وأحدث التفكير بهما رعشات خفيفة أسفل بطنه. كما أثارت كلتا المرأتين خوفه: فهما امرأتان خطيرتان، لكن خطورة إحداهما تختلف عن الأخرى. إن لو سالومي هذه تخيفه بسبب قوة شخصيتها ـ بما يمكن أن تفعله له، أما بيرثا فإنها تخيفه بسبب ضعفها واستسلامها ـ بما يمكن أن يفعله لها. سرت في جسده رعشة عندما طرأت الأخطار التي يجازف بها مع بيرثا ـ فكم مرة أوشك على انتهاك القاعدة الأخلاقية للطب، ويدمر نفسه وأسرته، وحياته برمتها.

في الوقت نفسه كان مستغرقاً في الحديث مع رفيقته الشابة المفتون بها وهو يتناول طعام فطوره، التي عادت هي، لا هو، إلى موضوع مرض صديقها ـ خاصة إلى تعليق بريوير عن المعجزات الطبية.

«لقد بلغتُ الحادية والعشرين من العمر يا دكتور بريوير ولم أعد أومن بالمعجزات. وأدرك أن عدم تمكن أربعة وعشرين طبيباً من كبار الأطباء يعني أننا بلغنا حدود المعرفة الطبية المعاصرة. لكن أرجو ألاّ تسئ فهمي! فلا توجد لدي أوهام بأنك ستتمكن من معالجة نيتشه. ليس هذا هو السبب الذي جعلني أطلب مساعدتك».

وضع بريوير فنجان قهوته على الطاولة ومسح شاربه ولحيته بمنديله، وقال: «سامحيني يا آنسة، إني مشوش الآن حقاً. ألم تبدئي بالقول بأنك تطلبين مساعدتي لأن صديقك مريض جداً؟»

«لا، يا دكتور بريوير. لقد قلت إن لديّ صديق في حالة يأس، وهو معرّض لخطر أن يضع حداً لحياته. إني أطلب منك أن تعالج اكتئاب البروفسور نيتشه، لا جسده».

«لكن يا آنسة، إذا كان صديقك مصاب باليأس ولا يتوفر لديّ علاج له، فماذا بإمكاني أن أفعل؟ فليس بوسعي معالجة عقل مريض».

فهم بريوير إيماءة لو سالومي بأنها تعني أنها عرفت أن هذه كلمات طبيب ماكبث، وتابع قائلاً: «آنسة سالومي، لا يوجد دواء لحالات اليأس، ولا يوجد طبيب للروح. لا يمكنني أن أفعل أكثر من أن أوصي بأحد الحمّامات المعدنية العلاجية الممتازة في النمسا أو في إيطاليا، أو ربما يمكنه التحدث إلى كاهن أو مستشار ديني آخر، أو إلى أحد أفراد الأسرة - أو ربما إلى صديق جيد».

«دكتور بريوير، أعرف أنك تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك. لديّ جاسوس. فقد حضر أخي جينيا، الطالب في كلية الطبّ، إلى عيادتك في مطلع هذه السنة في فيينا».

جينيا سالومي! حاول بريوير أن يتذكر الاسم. هناك عدد كبير من الطلاب.

«عرفت منه أنك تحبّ فاغنر، وأنك ستمضي عطلة نهاية هذا الأسبوع في فندق أمالفي في فينيسيا. لكن كيف يمكنني أن أتعرف عليك. لكن الأهم من كل ذلك، عرفت منه أنك، في الحقيقة، طبيب يعالج حالات اليأس. فقد حضر في الصيف الماضي ندوة شرحت فيها الطريقة التي اتبعتها في علاج شابّة تدعى آنا و. - كانت مصابة باليأس، وأنك استخدمت طريقة جديدة في علاجها، «العلاج بالكلام» - وهو علاج يستند إلى الإدراك، إلى تفكيك تداعي الأفكار المتشابكة، ويقول

جينيا إنك الطبيب الوحيد في أوروبا الذي يستطيع أن يقدم العلاج النفسي الصحيح».

آنا و. أجفل بريوير عندما سمع الاسم، وانسكبت بضع قطرات من القهوة عليه عندما وصل الفنجان إلى شفتيه. جفّف يده بمنديله، راجياً ألاّ تكون الآنسة قد لاحظت ما حدث. آنا و.! آنا و.! أمر لا يصدق! فحيثما التفتَ، كان يصادف آنا أو. ـ الاسم السري لبيرثا بابينهيم. فقد دأب بريوير على الحفاظ على السرية التامة، ولم يكن يفصح عن أسماء مرضاه الحقيقيين أثناء مناقشة حالاتهم مع طلابه، بل كان يطلق اسماً مستعاراً على كل مريض بقلب الحرف الأول من اسمه: وهكذا فإن الحرفان B. P. (بيرثا بابينهيم) يتحولان إلى A. O. أو آنا و.

«إن جينيا معجب بك كثيراً يا دكتور بريوير. فعندما أخبرني عن تلك الندوة التعليمية التي تحدثت فيها عن معالجتك لآنا أو.، قال لي إنه يعتبر نفسه محظوظاً لأنه رأى نور عبقري، مع أن جينيا فتى لا يمكن أن يؤثر فيه شيء بسرعة. لم أسمعه قط وهو يتحدث هكذا. لذلك قررت أن أراك ذات يوم وأتعرف عليك، بل ربما أدرس على يدك. لكن «ذات اليوم» اقترب كثيراً بعد أن ساءت حالة نيتشه في الشهرين الماضيين».

تطلع بريوير حوله. كان العديد من رواد المقهى الآخرين قد أنهوا طعامهم وغادروا، بينما لا يزال هو جالساً هنا، ناسياً بيرثا تماماً، بصحبة شابة رائعة الجمال اقتحمت حياته منذ لحظات. سرت في جسده قشعريرة، برودة. ألا يوجد مهرب من بيرثا؟

«آنسة» ـ تنحنح بريوير وتابع كلامه بصعوبة ـ «إن الحالة التي وصفها شقيقك كانت مجرد ـ حالة منفردة جرّبت فيها طريقة في العلاج، ولا يوجد ثمة سبب يدعونا للاعتقاد بأن هذه الطريقة بالذات ستفيد صديقك. في الحقيقة، توجد جميع الأسباب التي تجعلنا نعتقد بأنها لن تكون مفيدة له».

«لماذا يا دكتور بريوير؟»

«أظن أن الوقت لا يسمح لي بأن أجيبك باستفاضة. يمكنني أن أقول ببساطة إن مرض آنا و. يختلف عن مرض صديقك اختلافاً تاماً. فقد كانت تعاني من الهستيريا ومن بضع أعراض جعلتها امرأة عاجزة، كما يمكن أن يكون قد شرح لك شقيقك. وتضمن النهج الذي اتبعته علاجاً منتظماً للتخلص من الأعراض التي تعانيها بمساعدة مريضتي على التذكر، وبمساعدة التنويم المغناطيسي، ومن خلال الصدمة النفسية المنسية التي نشأت فيها. وعندما يتم الكشف عن المصدر المعيّن، تزول الأعراض».

«أظن أن الشعور باليأس هو أحد الأعراض المرضية. ألا تستطيع علاجه بنفس الطريقة يا دكتور بريوير؟»

«يا آنسة، إن اليأس ليس عرضاً طبياً. إنه شيء غامض، غير دقيق. في حين أصاب كلّ عرض من أعراض آنا جزءاً منفصلاً من جسمها، وأطلق كلّ عرض منها إشارة تنبيه داخل الدماغ من خلال ممر عصبي. وكما قلت فإن الشعور باليأس الذي يعتري صديقك ما هو إلا وهم. وللأسف لا توجد بعد طريقة لعلاج مثل هذه الحالات».

للمرة الأولى تردّدت لو سالومي، وقالت: «لكن دكتور بريوير»، ووضعت مرة أخرى يدها على يده، «قبل أن تعالج آنا، لم يكن هناك علاج نفسي للهستيريا. وحسب علمي، كان الأطباء يستخدمون الحمّامات أو العلاج بالكهرباء المريع فقط. إني على قناعة تامة بأنكَ أنتَ، وربما أنتَ فقط، من يستطيع ابتكار علاج جديد لمعالجة نيتشه».

نظر بريوير فجأة إلى الساعة. يجب أن يعود بسرعة إلى ماتيلد، فقال: «آنسة، سأفعل كلّ ما بوسعي لمساعدة صديقك. اسمحي لي أن أعطيك بطاقتي. سأرى صديقك في فيينا».

ألقت نظرة سريعة على البطاقة قبل أن تدسها في محفظتها.

«دكتور بريوير، أخشى ألاّ يكون الأمر بهذه البساطة، لأنني أستطيع القول إن نيتشه ليس مريضاً متعاوناً. وفي الحقيقة، فهو لا يعرف أنني أكلمك هنا عنه. إنه شخص منغلق تماماً وذو كبرياء، ولن يقرّ أبداً بأنه بحاجة إلى مساعدة».

«لكنكِ تقولين إنه يتحدث علناً عن الانتحار».

«في جميع أحاديثه ورسائله، لكنه لا يطلب مساعدة من أحد. وإذا عرف بحديثنا هذا، فإنه لن يغفر لي، وإني واثقة من أنه سيرفض زيارتك. وحتى لو تمكنت، بطريقة ما، من إقناعه بزيارتك، فإنه سيقصر استشارته لك على أمراضه الجسدية. مطلقاً ـ ولا بعد ألف سنة ـ لن يطلب منك معالجته للتخفيف من حدة شعوره باليأس. إن لديه آراء قوية عن الضعف والقوّة».

بدأ يتملك بريوير شعور بالإحباط ونفاد الصبر، ثم قال: «هكذا إذن يا آنسة. ازدادت المسرحية تعقيداً. تريدين أن أرى بروفسور يدعى نيتشه تقولين إنه واحد من كبار الفلاسفة في عصرنا لأقنعه بأن الحياة ـ أو على الأقل حياته ـ جديرة بالحياة. ويجب أن أفعل ذلك من دون أن يعرف فيلسوفنا».

أومأت لو سالومي، وأخذت نَفَساً عميقاً، وتراخت في كرسيها.

ثم تابع قائلاً: «لكن كيف يمكنني عمل ذلك؟ ببساطة إن تحقيق الهدف الأول ـ لا يزال علاج اليأس في حد ذاته خارج متناول العلوم الطبية، أما الأمر الثاني ـ وهو معالجة المريض سراً ـ فإنه ينقل عملنا إلى عالم الخيال. هل توجد عقبات أخرى لم تخبريني بها؟ ربما كان البروفسور نيتشه لا يتحدث إلا باللغة السنسكريتية ـ أو أنه يرفض أن يغادر صومعته في التبت؟»

أحسّ بريوير بالدوار عندما رأى قسمات لو سالومي المرتبكة، لكنه تمالك نفسه بسرعة، وقال: «بجد، يا آنسة سالومي، كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟»

«ترى الآن يا دكتور بريوير! الآن ترى لماذا أتيتُ إليك ولم أتوجه إلى شخص أقل شأناً».

قرعت أجراس سان سالفاتور معلنة الساعة العاشرة. لا بد أن ماتيلد بدأت تقلق الآن... أشار بريوير إلى النادل مرة أخرى، وخلال انتظارهما وصول الحساب، وجّهت له لو سالومي دعوة غير عادية.

«دكتور بريوير، أوّد أن أدعوك لتكون ضيفي على الفطور غداً؟ وكما قلت فإني أتحمّل جزءاً من المسؤولية الشخصية لإصابة البروفسور نيتشه باليأس. ثمة أشياء كثيرة أوّد أن أحدثك عنها».

«غداً، آسف، مستحيل. صحيح أن امرأة جميلة لا تدعوني كلّ يوم إلى الفطور يا آنسة، لكنني لست حراً لقبول الدعوة، لأن زيارتي إلى فينيسيا مع زوجتي تجعلني لا أستطيع أن أتركها وحدها مرة أخرى».

«إذاً اسمح لي أن أقترح عليك خطة أخرى. لقد وعدتُ أن أزور أخي هذا الشهر. في واقع الحال، قررت أن أسافر إلى هناك مع البروفسور نيتشه. عندما أذهب إلى فيينا سأزودك بمعلومات أخرى. في غضون ذلك، سأحاول إقناع البروفسور نيتشه بزيارتك لمعالجة حالته الصحية المتدهورة».

خرجا معاً من المقهى. لم يبق سوى عدد قليل من الزبائن، وانهمك الندل في تنظيف الطاولات. عندما همّ بريوير باستئذانها ليغادر، شبكت لو سالومي ذراعها بذراعه، وسارت معه.

«دكتور بريوير، كانت هذه الساعة قصيرة جداً. إني أطمع بفترة أطول من وقتك. هل يمكنني أن أرافقك إلى الفندق الذي تنزل فيه؟»

رأى بريوير أن طلبها هذا ينمّ عن جرأة، جرأة ذكورية، لكن ما نطقته شفتاها يجب أن يكون أمراً طبيعياً. فمن الطبيعي أن يتكلّم المرء بهذه الطريقة. فإذا وجدت امرأة متعة في صحبة رجل ما، فما الضير في أن تشبك ذراعها في ذراعه وتطلب أن تسير معه؟ لكن هل توجد امرأة أخرى يعرفها يمكنها أن تقول مثل هذه الكلمات؟ هذه المرأة تنتمي إلى نوع آخر من النساء. إنها امرأة حرّة.

«لا يمكنني رفض دعوة كهذه»، قال بريوير، ضاغطاً على ذراعها، مقرّباً إياها منه، «لكن علي أن أعود إلى الفندق، ويجب أن أعود وحدي، لأنه لا بد أن زوجتي الحبيبة قلقة الآن وتنتظرني عند النافذة، ومن واجبي مراعاة مشاعرها».

«طبعاً، لكن» ـ وسحبت ذراعها من ذراعه، ووقفت أمامه، كرجل منكفئ على نفسه، وأضافت ـ «إن كلمة «واجب» كلمة ثقيلة ومرهقة بالنسبة لي. فهي تختزل جميع واجباتي إلى واجب واحد فقط ـ وهو إدامة حريتي. إن الزواج وما يرافقه من امتلاك وغيرة يستعبد الروح. لن أدع ذلك يهيمن عليّ. آمل، يا دكتور بريوير، أن يأتي ذلك الوقت الذي لا يظلم فيه الرجال والنساء أحدهم الآخر». استدارت بنفس الثقة التي أبدتها عندما وصلت، وقالت: «أوف ويدرسيهين. إلى اللقاء في فيينا».

الفصل ٢

بعد أربعة أسابيع، جلس بريوير إلى طاولة مكتبه في شارع باكرشتراسه ٧. كانت الساعة الرابعة مساء. كان ينتظر وصول الآنسة لو سالومي بفارغ الصبر.

لم يكن يتوقف عادة عن العمل طوال النهار، لكنه كان متلهفاً لرؤيتها، فأنهى فحص مرضاه الثلاثة بسرعة. كانت حالتهم جميعاً بسيطة لم تتطلّب جهداً كبيراً منه.

فقد كان المريض الأول والثاني ـ رجلان في الستينيات من عمريهما ـ يعانيان من أعراض متشابهة تقريباً: صعوبة في التنفس، وسعال جاف يصاحبه صرير في الشعب الهوائية. منذ عدة سنوات، كان بريوير يعالجهما من انتفاخ الرئة المزمن الذي تداخل في هذا الطقس البارد الرطب مع التهاب القصبات الهوائية الحادّ، مما أدى إلى إصابتها بالتهاب رئوي حادّ. ووصف لهما مورفين لمعالجة السعال (مسحوق دوفر، خمس حبات ثلاث مرات في اليوم)، وجرع صغيرة من مِقشّع (ipecac)، وتنشق البخار، ولصقات خردل توضع على الصدر. وعلى الرغم من أن بعض الأطباء كانوا يسخرون من لصقات الخردل، كان بريوير يؤمن بها ويصفها في أحيان كثيرة، خاصة هذه السنة التي بدا أن نصف سكان فيينا أصيبوا بمرض تنفسي. فلم تشهد المدينة الشمس منذ ثلاثة أسابيع، بل شهدت رذاذاً متجمداً لا يرحم.

أما المريض الثالث الذي كان يعمل خادماً في بيت ولي العهد الأمير رودولف، فقد كان مصاباً بالحمى، وقد كست وجهه حفر الجدري، وبالتهاب الحنجرة. كان خجولاً إلى حد أن بريوير كان يلّح عليه كثيراً لكي يخلع ثيابه لفحصه. كان مصاباً بالتهاب اللوزتين الجريبي. مع أن بريوير كان بارعاً في استئصال اللوزتين بسرعة وبمهارة باستخدام المقصّ والمبضع، فقد وجد أن لوزتي المريض ليستا ناضجتين بما يكفي لاستئصالهما. لذلك وصف له أن يضع كمادة باردة على رقبته، والغرغرة بكلورات البوتاسيوم، واستنشاق رذاذ ماء مكربن. ولما كانت هذه هي المرة الثالثة التي يصاب فيها بالتهاب هذا الشتاء، نصحه بريوير أيضاً بأن يقوي بشرته وقدرته على المقاومة بإجراء حمّامات باردة يومية.

خلال انتظاره لها، فتح الرسالة التي أرسلتها له الآنسة سالومي قبل ثلاثة أيام. وبذات الجرأة التي بدت في رسالتها السابقة، قالت إنها ستصل إلى عيادته اليوم في الساعة الرابعة لاستشارته. توّسعت فتحتا أنف بريوير وقال لنفسه: «إنها تحدد لي وقت وصولها. إنها تصدر أوامرها عليّ. إنها تمنحني شرف ـ».

لكنه تمالك نفسه بسرعة وقال: «لا تأخذ الأمر بجدية يا جوزيف. ما الفرق؟ فمع أنّ الآنسة سالومي لا تعرف أن بعد ظهر يوم الأربعاء وقت مناسب لرؤيتها. ففي خضم الأمور المتشابكة الطويلة، ما الفرق الذي قد تسببه؟»

«*تقول لي*...». تأمّل بريوير نبرة صوته: كانت تلك النبرة المتغطرسة التي يمقتها في زملائه الأطباء مثل بيلروث شنيزلير العجوز، وفي العديد من مرضاه المشهورين مثل برامز وويتغينشتاين. كان التواضع هو الصفة التي يحبها في أصدقائه المقربين الذين كان معظمهم مرضاه أيضاً. وهذا ما جذبه إلى أنطون بروكنر. لعل أنطون لم يكن موسيقاراً عظيماً بعظمة برامز، لكنه على الأقل، لم يكن يعبد الأرض تحت قدميه.

وكان بريوير يجد متعة كبيرة في أبناء بعض أصدقائه الشباب الذين لم يكونوا يبدون أي احترام ـ هوغو وولف وغوستاف ماهلر وتيدي هيرزل الشباب، وطالب الطبّ الذي لا يُحتمل، آرثر شنيزلير. وعندما يكون الكبار بعيدين عن مجال السمع، كان يبهجهم بتعليقات لاذعة. فخلال حفلة بوليكلنيك في الأسبوع الماضي مثلاً، راح يسلّي عدداً من الشبان المتحلقين حوله بالقول: «نعم، نعم، صحيح أن أهل فيينا متدينون ـ فإن إلههم يدعى *اللياقة*».

وتذكّر بريوير، العَالِم، السهولة التي كان ينتقل فيها، خلال بضع دقائق، من حالة عقلية إلى أخرى ـ من الغطرسة إلى التواضع. يالها من ظاهرة مثيرة! هل يستطيع أن يكررها؟

بين الحين والآخر، كان يجري تجربة فكرية. في البداية، حاول التسلل إلى شخصية أهالي فيينا التي تتسم بالغرور والتي يمقتها. بنفخ صدره والتمتمة بصمت قائلاً: «كيف يمكنها أن تجرؤ!» أغمض عينيه نصف إغماضة، وضغط على فصه الجبهي الدماغي. مرة أخرى انتابه شعور بالغضب وبالاستياء اللذين يصيبان عادة الذين يأخذون أنفسهم بجدية كبيرة، ثمّ أطلق زفرة واسترخى، وتركها تبتعد وعاد إلى طبيعته ـ إلى حالته العقلية.

لاحظ أنه توجد لكلّ حالة عقلية تلوينها العاطفي: فللشخص المنتفخ زوايا حادّة ـ وقاحة وطبع حادّ ـ والشعور بالعظمة والوحدة. أما الحالة الأخرى، فعلى النقيض من ذلك، فإنها تبدو مستديرة ناعمة مستجيبة.

إنها عواطف واضحة يمكن تحديدها، قال بريوير لنفسه، لكنّها عواطف متواضعة أيضاً. لكن ماذا عن العواطف الأقوى والحالات العقلية التي تعمل على تشكيلها؟ هل هناك وسيلة يمكن كبح هذه العواطف الأقوى من خلالها؟ ألا يمكن أن يؤدّي ذلك إلى علاج نفسي فعّال؟

نظر في تجربته الخاصة. فقد كانت حالاته العقلية المتقلبة تشمل نساء. هناك أوقات ـ اليوم، تتوارى في قلعة عيادته، إحداها ـ يشعر بأنها قوية وآمنة. وفي أوقات كهذه، يرى النساء على حقيقتهن: مخلوقات مكافحة، طموحة، تواجه مشاكل ملحّة لانهاية لها في حياتهن اليومية؛ ويرى حقيقة صدورهن: كتل من الخلايا الثديية التي تعوم في برك دهنية، ويعرف ما يسيل منهن، ومشاكل عسر الطمث، والتهاب العصب الوركي (عرق النسا) الذي يصيبهن، ومختلف النتوءات الشاذّة ـ وهبوط المثانة والرحم، وتورم البواسير الزرقاء، والدوالي.

لكن ثمة أوقات أخرى ـ أوقات من السحر والافتنان، نساء أضخم من الحياة، تكبر أثداؤهن لتصبح كرات سحرية قويّة ـ تعتريه رغبة جامحة لينصهر في أجسادهن، ويرضع من حلماتهن، وينسّل إلى دفئهن ورطوبتهن. قد تؤدي هذه الحالة العقلية المهيمنة، إلى قلب حياة بكاملها رأساً على عقب ـ وكاد يكلّفه، خلال معالجته بيرثا، كلّ غال وعزيز عليه.

كان كلّ ذلك مسألة وجهة نظر، تغيّر المزاج. لو كان بوسعه أن يعلّم المرضى عمل ذلك بمحض إرادتهم، لأصبح ما تسعى الآنسة سالومي هو أن يكون طبيباً لمعالجة اليأس.

قطع حلم اليقظة الغارق فيه صوت فتح باب عيادته الخارجي وإغلاقه. انتظر لحظة أو لحظتين، لكي لا يبدو أنه متلهف للقائها، ثم توجه إلى غرفة الانتظار لاستقبال لو سالومي. كانت مبلّلة بعد أن تحوّل مطر فيينا الخفيف إلى مطر غزير ـ لكن قبل أن يتمكن من مساعدتها على خلع معطفها الذي يقطر ماء، كانت قد خلعته وأعطته إلى ممرضته وموظفة الاستقبال في عيادته، السيدة بيكر.

بعد أن رافقت الآنسة سالومي إلى غرفة مكتبه وأشارت لها إلى كرسي يكسوه جلد أسود ثقيل، جلس بريوير على الكرسي إلى جانبها.

لم يتمالك نفسه عن إبداء الملاحظة، وقال: «أرى أنك تفضّلين عمل الأشياء بنفسك. ألا يحرم ذلك الرجال من متعة خدمتك؟»

«نعرف كلانا أن بعض الخدمات التي يقدمها الرجال ليس من الضروري أن تكون جيدة لصحة المرأة».

«سيحتاج زوجك في المستقبل إلى إعادة تأهيل شاملة. فليس من السهل إزالة العادات التي تشكلت طوال هذا العمر».

«الزواج؟ لا، ليس لي! لقد قلت لك ذلك. أوه، ربما زواج لفترة من الوقت ـ قد يناسبني أكثر، بشرط ألاّ يكون ملزماً».

نظر بريوير إلى زائرته الجميلة الجريئة. جذبته فكرة الزواج لفترة من الوقت. تناسى أنّ عمره يبلغ ضعف عمرها. كانت ترتدي رداء بسيطاً أسود طويلاً مزرّراً حتى رقبتها، وتلقي حول كتفيها قطعة من الفرو لها وجه وأقدام ثعلب صغير. من الغريب، قال بريوير لنفسه، إنها تخلع فراءها في فيينا الباردة، وتحافظ عليه في عيادتي المرتفعة الحرارة. لكن حان الأوان لبدء العمل.

«الآن يا آنسة»، قال لها، «لنبحث في مسألة مرض صديقك».

«ليس اليأس مرضاً. عندي عدّة توصيات. هل يمكنني أن أشاطرك إياها؟»

ألا يوجد حدّ لغرورها؟ تساءل بسخط. فهي تتكلم كما لو كانت زميلة لي ـ مسؤولة في مستشفى، طبيبة لديها ثلاثون سنة من الخبرة ـ وليست مجرد تلميذة عديمة الخبرة.

«هدّئ من روعك يا جوزيف! قال منبهاً نفسه. فهي شابة صغيرة، ولا تعبد إله فيينا، اللباقة. بالإضافة إلى ذلك، فهي تعرف البروفسور نيتشه أكثر مما أعرفه أنا. وهي فتاة ذكية وربما كان عندها أشياء مهمة

تريد أن تقولها. واللّه يعلم أنه لا توجد لدي فكرة عن معالجة اليأس: ولا يمكنني معالجة نفسي من اليأس».

أجاب بهدوء، «بالفعل يا آنسة. أرجو أن تواصلي».

«قال لي أخي جينيا الذي رأيته هذا الصباح إنك استخدمت التنويم المغناطيسي في مساعدة آنا و. لكي تتذكّر المصدر النفسي الأصلي لكلّ عرض من الأعراض التي تنتابها. أذكر أنك أخبرتني في فينيسيا أن الكشف عن مصدر كلّ عرض من أعراضها ساعد على حلّها بطريقة ما. كيف هذه «بطريقة ما» ما زالت تحيّرني. عندما يتاح لنا وقت، أرجو أنّ تعلمني الآلية الدقيقة التي يمكن من خلالها التوصل إلى معرفة المصدر الذي يزيل الأعراض».

هزّ بريوير رأسه ولوّح براحتيْ يديه باتجاه لو سالومي، وقال: «إنها مجرد ملاحظة تجريبية. حتى لو كان لدينا كل الوقت في العالم لنتحدث، فإني أخشى أنني لن أتمكن من تقديم المعلومات التي تريدين معرفتها بدقة. لكن ما هي توصياتك، يا آنسة؟»

«توصيتي الأولى هي: *لا تحاول أسلوب التنويم المغناطيسي مع* نيتشه. لأنك لن تنجح معه! إن عقله وذكاءه معجزة ـ واحدة من عجائب العالم، كما سترى بنفسك. لكنه، باستخدام إحدى عباراته المفضّلة، مجرد إنسان، إنسان بكل معنى الكلمة، ولديه النقاط العمياء الخاصة به».

خلعت لو سالومي قطعة الفراء الآن، ونهضت ببطء، ومشت لتضعها على الأريكة التي يجلس عليها بريوير. ألقت نظرة سريعة على الشهادات المؤطّرة المثبتة على الحائط، وعدّلت إحداها كانت مائلة قليلاً، ثم عادت وجلست، ولفّت ساقاً على ساق، قبل أن تتابع حديثها.

«إن نيتشه حساس للغاية إزاء المسائل المتعلقة بالقوّة. فهو يرفض

المشاركة في أيّ عملية يدرك أنه يسلّم فيها قوّته إلى شخص آخر. فهو منجذب في فلسفته إلى الإغريق ما قبل سقراط، وخاصة إلى مفهوم أغنيس ـ الاعتقاد بأن المرء يطوّر قدراته الطبيعية من خلال التنافس. إنه يرتاب كثيراً بدوافع أي شخص يتخلّى عن المنافسة ويدّعي أنه شخص يؤمن بالإيثار. كان أستاذه في هذه الأمور شوبنهاور. إنه يؤمن ألاّ أحد يريد مساعدة الآخر: بل لا يرغب الناس إلا في الهيمنة على الآخرين وزيادة قوّتهم. وفي المرات القليلة التي سلّم فيها قوّته إلى شخص آخر، انتهى به الأمر إلى الشعور بأنه أصبح مدمّراً وغاضباً. لقد حدث ذلك مع ريتشارد فاغنر، وأظن أن ذلك يحدث معي الآن».

«ماذا تقصدين أنه يحدث معك؟ هل صحيح أنك مسؤولة شخصياً، بطريقة ما، عن شعور البروفسور نيتشه باليأس الحاد؟»

«إنه يؤمن بأنني كذلك. لذلك فإن توصيتي الثانية هي: *لا تربط نفسك بي*. يبدو أنك مشوّش ـ ولكي تفهم يجب أن أخبرك كلّ شيء عن علاقتي بنيتشه. لن أحذف شيئاً، وسأجيب عن كلّ سؤال تطرحه عليّ بصدق. لن يكون هذا بالأمر السهل. إني أضع نفسي بين يديك، لكن كلماتي يجب أن تبقى سرّاً بيننا».

«طبعاً يمكنكِ أن تثقي بي يا آنسة»، أجاب، معجباً بصراحتها. «يا له من أمر ممتع أن يتحدّث مع شخص منفتح هكذا».

«حسناً... التقيت بنيتشه أول مرة منذ حوالي ثمانية أشهر، في شهر نيسان».

قرعت السيدة بيكر الباب ودخلت. مع أنها فوجئت برؤية بريوير جالساً بالقرب من لو سالومي بدلاً من أن يكون جالساً في مكانه المعتاد وراء طاولة المكتب، فإنها لم تبد أنها لاحظت ذلك. ودون أن تنبس بكلمة، وضعت صينية عليها إبريق خزفي وقِدر فضّي لامع مليء

بالقهوة، وغادرت بسرعة. صبّ بريوير القهوة بينما واصلت لو سالومي كلامها.

«غادرتُ روسيا السنة الماضية لأسباب صحية ـ كنت أعاني من مشاكل في التنفس لكني تحسّنتُ كثيراً الآن. في البداية، أقمتُ في زيوريخ ودرستُ علم اللاهوت على يد بيدرمان، وعملت أيضاً مع الشاعر غوتفريد كينكيل ـ لا أظن أنني ذكرت لك أنني شاعرة طموحة. وعندما انتقلتُ أنا وأمّي إلى روما في بداية هذه السنة، أعطانا كينكيل رسالة تعريف إلى مالويدا فون ميسينبيرغ. إنك تعرفها ـ التي كتبتْ *مذكرات شخص مثالي*».

هزّ بريوير رأسه. كان يعرف نشاطات مالويدا فون ميسينبيرغ، وخاصة حملاتها للدفاع عن حقوق النساء، وتحقيق إصلاحات سياسية جذرية، وإدخال تحسينات على التعليم. لم يكن يشعر بالارتياح لأطروحاتها المعادية للمادية في الآونة الأخيرة، التي كان يرى أنها تستند إلى ادّعاءات علمية زائفة.

تابعت لو سالومي قائلة: «وهكذا، توجهت إلى صالون مالويدا الأدبي حيث التقيت بفيلسوف رائع ذكي يدعى بول ري أقمت معه علاقة صداقة جيدة. كان السيد ري قد حضر دروس نيتشه في بازل قبل عدة سنوات وتوطدت بينهما أواصر صداقة قوية. يمكنني القول إن السيد ري كان معجباً بنيتشه أكثر من أي شخص آخر. وسرعان ما خطرت له فكرة، وهي أننا إذا أصبحنا أنا وهو صديقين، فلا بد أن نصبح أنا ونيتشه صديقين أيضاً. بول ـ السيد ري ـ لكن، دكتور» ـ احمّر وجهها قليلاً، لفترة تكفي لأن يلاحظها بريوير، وقد لاحظت أنه لاحظ ذلك الاحمرار ـ «اسمح لي أن أدعوه بول، لأني كنت أخاطبه هكذا، واليوم، لا يوجد لدينا وقت للمجاملات الاجتماعية. فأنا مقربة جداً من بول، لكني لن أضحّي بنفسي بالزواج منه أو من أي شخص آخر».

«لكني»، واصلت كلامها، «أمضيت وقتاً كافياً في تفسير احمرار وجهي تلقائياً لبرهة. ألسنا الحيوانات الوحيدة التي يحمّر وجهها خجلاً؟»

لم يجد بريوير الكلمات المناسبة ليقولها، ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يهز رأسه. محاطاً بأدواته الطبية، شعر لوهلة أنه أقوى مما كان عندما تكلما في المرة السابقة. لكنه أحسّ الآن، مكشوفاً أمام قوّة سحرها، بأن قوته بدأت تنسّل منه. كان تعليقها عن احمرار وجهها رائعاً: فلم يسمع قط امرأة، أو أي شخص آخر، تتحدث عن التواصل الاجتماعي بهذه الصراحة، وهي لم تتجاوز الحادية والعشرين من العمر.

«كان بول مقتنعاً بأنني أنا ونيتشه سنصبح صديقين مخلصين»، تابعت لو سالومي، «وأن أحدنا يناسب الآخر. أرادني أن أصبح تلميذة لنيتشه. كان يريد أن يكون نيتشه معلّمي، كاهني الدنيوي».

قاطعتهما طرقات خفيفة على الباب. نهض بريوير ليفتح الباب. همست السيدة بيكر بصوت مرتفع عن وصول مريض جديد. عاد بريوير وجلس وطمأن لو سالومي بأن لديهما وقتاً كافياً، لأن المرضى الذين يأتون من غير موعد مسبق يتوقّعون الانتظار لفترة طويلة، وحثّها على مواصلة كلامها.

فتابعت قائلة، «ثم رتّب بول لقاء في كنيسة القدّيس بطرس، أقل الأماكن توقعاً للقاء ثالوثنا غير المقدس ـ وهو الاسم الذي أطلقناه على أنفسنا لاحقاً، مع أن نيتشه كان يطلق عليه غالباً اسم *علاقة فيثاغورثية*».

وجد بريوير نفسه يحدّق في صدر زائرته بدلاً من وجهها. منذ متى، تساءل، أفعل ذلك؟ هل لاحظت؟ هل لاحظت نساء أخريات أنني أفعل ذلك؟ في مخيلته، أمسك مكنسة وكنس جميع الأفكار الجنسية، وركّز بقوة أكبر على عينيها وكلماتها.

«لقد جذبني نيتشه على الفور. إنه ليس رجلاً مهيباً من الناحية الجسدية ـ متوسط الطول، له صوت لطيف وعينان لا ترّفان، تنظران إلى الداخل لا إلى الخارج كما لو أنهما تحميان كنزاً داخلياً. لم أكن أعرف آنذاك أنه لا يرى جيداً. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان ثمة شيء مهيب فيه. وكانت أولى الكلمات التي قالها لي: من أي نجم سقط أحدنا على الآخر؟»

«ثمّ بدأنا نتكلم نحن الثلاثة. يا له من حديث رائع! لوهلة بدا أن آمال بول بإقامة صداقة بيني وبين نيتشه قد تحققت. من الناحية الثقافية، كنّا متكافئين. فقد كان عقل أحدنا يتطابق مع عقل الآخر ـ قال إن لدينا عقلين توأمين. آه، وقرأ بصوت عال بضع الجواهر من كتابه الأخير، ولحّن قصائدي بأنغام الموسيقى، وحدثني عما سيقدمه للعالم خلال السنوات العشر القادمة ـ وهو يعتقد أنّ صحته لن تدوم لأكثر من عشر سنوات».

«وسرعان ما قررنا، أنا وبول ونيتشه أن نعيش معاً، وبدأنا نضع خططاً لقضاء هذا الشتاء في فيينا أو ربما في باريس.

«*Un menagc de trois*». تنحنح بريوير وتحرك بشيء من الاضطراب في كرسيه. رآها تبتسم. لا ينقص هذه المرأة شيء؟ قد تكون هذه المرأة خبيرة في تشخيص الأمراض! هل فكرت بأن تعمل في الطبّ؟ كم أتمنى لو كانت تلميذتي؟ تعمل تحت رعايتي؟ زميلتي، نعمل جنباً إلى جنب في غرفة الفحص، في المختبر؟ لهذه المرأة مخيلة قوّية، قوّة حقيقية ـ لكن كلماتها هزّت بريوير فخرج من شروده.

«نعم، أعرف أن العالم لا يبتسم لرجلين وامرأة يعيشون معاً بعفة»، وشدّدت على كلمة «عفة» بقوّة ـ بقوّة تكفي لأن تضع الأمور في نصابها الصحيح، وبنعومة تكفي لتجنّب اللوم، وأضافت، «لكننا أشخاص

مثاليون لنا فكر متحرر نرفض القيود التي فرضها المجتمع. إننا نؤمن بقدرتنا على وضع منظومتنا الأخلاقية».

عندما لم تتلق رداً من بريوير، بدا أن الزائرة، لأول مرة، لم تعد تعرف كيف تواصل كلامها.

«هل أواصل؟ هل لدينا وقت؟ هل أزعجك؟؟»

«تابعي يا آنسة. أولاً، لقد خصصت الوقت لك»، ومدّ يده إلى طاولة مكتبه، ورفع مفكرته وأشار إلى الحرفين ل. س. المكتوبين بخربشة في صفحة يوم الأربعاء، ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٢، وأضاف، «كما ترين لا توجد مواعيد أخرى بعد ظهر اليوم، وثانياً، فإنك لا تزعجينني، بل على العكس تماماً فإني أحترم صدقك وصراحتك. فلو تكلّم جميع الأصدقاء بهذا الصدق، لأصبحت الحياة أغنى وأكثر صدقاً».

تقبّلت لو سالومي مديحه من دون أن تعلّق شيئاً، وصبّت لنفسها مزيداً من القهوة، وتابعت قصّتها: «أولاً، يجب أن أوضح بأنّ علاقتي بنيتشه، على الرغم من أنها كانت متوترة، كانت قصيرة. إذ لم نلتق إلا أربع مرات فقط، وكانت أمّي ترافقني أو أمّ بول أو أخت نيتشه دائماً. في الواقع، لم ننفرد أنا ونيتشه وحدنا في النزهات أو أثناء أحاديثنا إلا نادراً».

«وكان شهر العسل الثقافي لثالوثنا غير المقدس قصيراً، فقد نشأت خلافات، ثمّ ظهرت مشاعر رومانسية وشهوانية. لعلها كانت موجودة منذ البداية. ربما عليّ أن أتحمّل المسؤولية عن إخفاقي في إدراكها». انتفضت كما لو أنها تريد أن تتخلص من تلك المسؤولية، وواصلت رواية تعاقب الأحداث الهامة.

«عند نهاية لقائنا الأول، ازداد قلق نيتشه بشأن خطتي في العيش نحن

الثلاثة بعفة، لأنه كان يظن أن العالم غير مستعد لذلك، فطلب مني أن أبقي خطتنا قيد الكتمان. كان قلقاً على أسرته كثيراً، فمهما كانت الظروف، لم يكن يريد أن تعرف أمّه أو أخته شيئاً عنا. يا له من شيء تقليدي! فوجئت وخاب أملي به، وتساءلت هل لغته الشجاعة وتصريحاته التي تنم عن التفكير الحرّ هي التي ضلّلتني».

«بعد فترة قليلة، توصل نيتشه إلى موقف أقوى وهو أن هذا الترتيب في الحياة سيشكل خطراً اجتماعياً عليّ، بل ربما يكون مدمّراً، ولكي يحميني، قال إنه قرّر أن يعرض عليّ الزواج، وطلب من بول أن ينقل عرضه هذا إليّ. هل يمكنك أن تتخيّل الموقف الذي وضع فيه بول؟ لكن بول، بدافع الولاء لصديقه، أخبرني بإخلاص، وبقدر من الشجاعة - بعرض نيتشه».

«هل فوجئت بذلك؟» سأل بريوير.

«كثيراً، خاصة أن ذلك حصل بعد زيارتنا الأولى. لقد زعزعني ذلك أيضاً. إن نيتشه رجل عظيم، لطيف يتمتع بقوّة وبحضور استثنائي. ولا أنكر، دكتور بريوير، بأنني انجذبت إليه بقوة - لكن ليس عاطفياً. لعله أحسّ بانجذابي إليه ولم يصدق تأكيدي بأنّ الزواج بعيد عن تفكيري كما هي الرومانسية».

فجأة، هبّت ريح هزّت النوافذ فصرفت انتباه بريوير للحظة. أحسّ فجأة بتشنج في رقبته وكتفيه. كان ينصت إليها باهتمام شديد إلى حد أن عضلة واحدة لم تتحرّك في وجهه لعدة دقائق. في بعض الأحيان، كان المرضى يحدّثونه عن أمورهم الشخصية، لكن ليس بهذه الطريقة قط. ليس وجهاً لوجه، وبهذه الصراحة الشديدة. كانت بيرثا قد كشفت له عن أشياء كثيرة، لكن عندما تكون في حالة عقلية «غائبة». أما لو سالومي فهي «حاضرة»، بل حتّى أنها عندما تصف أحداثاً بعيدة، كانت تختلق لحظات حميمية إلى درجة أنه خيّل إلى بريوير أن عشاقاً يتحدثون،

عندها فهم السبب الذي جعل نيتشه يعرض عليها الزواج بعد أول لقاء له بها.

«ماذا حدث بعد ذلك يا آنسة؟»

«ثمّ قررت أن أكون أكثر صراحة عندما التقينا في المرة التالية. لكن تبين لي أن ذلك لم يكن ضرورياً. فقد أدرك نيتشه بسرعة أنه كان خائفاً من الزواج بقدر ما كنت أرفضه. عندما رأيته في المرة التالية في أورتا بعد أسبوعين، كان أول ما قاله لي أن أنسى عرضه لي، وطلب مني أن أشاركه في البحث عن علاقة مثالية ـ عاطفية، عفيفة، مثقّفة، غير زوجية».

«ثم تصالحنا نحن الثلاثة. كان نيتشه متحمساً لإقامتنا نحن الثلاثة، وأصرّ في عصر أحد الأيام في لوسيرن على أن نقف ثلاثتنا أمام الكاميرا ـ لتكون الصورة الوحيدة لثالوثنا غير المقدس».

كان في الصورة التي أعطتها لبريوير رجلان يقفان أمام عربة، وكانت هي تجلس داخل العربة تلوّح بسوط صغير، «الرجل ذو الشارب الواقف في المقدمة الذي ينظر إلى الأعلى هو نيتشه»، قالت بدفء، «والرجل الآخر هو بول».

تفحّص بريوير الصورة بدقة. انزعج لرؤية هذين الرجلين ـ العملاقين المقيّدين المثيرين للشفقة ـ اللذين قيدتهما هذه الشابّة الجميلة وسوطها الصغير في يدها.

«ما رأيك في هذه الزريبة، دكتور بريوير؟»

للمرة الأولى، أخطأ أحد تعليقاتها المرحة هدفه، وتذكّر بريوير فجأة أنها مجرد فتاة لم تتجاوز الحادية والعشرين من العمر. أحسّ بضيق شديد ـ لم يكن يرغب في رؤية عيوب في هذه المخلوقة المثقفة،

وأحسّ بشفقة تجاه الرجلين المقيدين ـ أخواه. من المؤكد أنه من الممكن أن يكون واحداً منهما.

لا بد أن زائرته أحسّت بالزلة التي انبعثت منها، قال بريوير لنفسه، لكنه لاحظ كيف أنها أسرعت لمتابعة قصتها.

«التقينا مرّتين بعد ذلك في توتينبيرغ، منذ حوالي ثلاثة أشهر مع أخت نيتشه، ثم في ليبزيغ مع والدة بول. لكن نيتشه لم يتوقف عن الكتابة إليّ. ها هي إحدى الرسائل التي يرد فيها عليّ عندما قلت له إني أعجبت كثيراً بكتابه «الفجر»».

وبسرعة أخذ بريوير يقرأ الرسالة القصيرة التي أعطتها له.

عزيزتي لو،

أنا لديّ أيضاً فجر، ليس ذلك الفجر الزاهي الألوان! شيء لم أعد أومن بأنه ممكن، وهو إيجاد صديق من أجل سعادتي ومعاناتي المطلقتين، لكن أصبح يبدو لي الآن ممكناً ـ الإمكانية الذهبية في أفق حياتي كلها في المستقبل. أشعر ببالغ السعادة كلما فكرت بروح عزيزتي الجريئة والغنية.

ف. ن

صمت بريوير. أحسّ الآن بتعاطف أكبر تجاه نيتشه. أن تعثر على الفجر وعلى الإمكانيات الذهبية، أن تحب روحاً غنية وجريئة: الكلّ بحاجة إلى ذلك، قال لنفسه، مرة في العمر على الأقل.

ثم تابعت لو قائلة: «خلال تلك الفترة بدأ بول يكتب رسائل لاهبة. وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها للوساطة، بدأت العلاقة داخل ثالوثنا تزداد توتراً على نحو مخيف. فقد بدأت أواصر الصداقة بين

بول ونيتشه تتفكك بسرعة. في نهاية الأمر، بدأ أحدهما يقلل من شأن الآخر في الرسائل التي يرسلانها لي».

فقاطعها بريوير، «لكن من المؤكد أن ذلك لم يفاجئكِ؟ رجلان غيوران انفعاليان على علاقة حميمة مع المرأة نفسها؟»

«لعلي كنت ساذجة. كنت أظن أننا نستطيع أن نتقاسم ثلاثتنا حياة عقلانية، وأن نحقق عملاً فلسفياً جدّياً معاً».

كان من الواضح أنها ارتبكت من سؤال بريوير. نهضت، تمطّت قليلاً. سارت نحو النافذة ببطء، وتوقفت في طريقها لتتفحص بعض الأشياء المركونة على طاولة مكتبه، هاون ومدقة برونزيان من عصر النهضة، وتمثال جنائزي مصري صغير، ونموذج خشبي لقنوات الأذن الداخلية نصف الدائرية.

«ربما كنتُ عنيدة»، قالت، وهي تنظر خارج النافذة، «لكني لا أزال غير مقتنعة بأن إقامتنا نحن الثلاث مستحيلة! كان من الممكن أن ينجح ذلك لولا أن تدخلت أخت نيتشه البغيضة. فقد دعاني نيتشه لقضاء الصيف معه ومع إليزابيث في توتينبيرغ، وهي قرية صغيرة في ثرينغين. التقينا أنا وهي في بايريوث حيث قابلنا فاغنر وحضرنا عرضاً لبارسيفال، ثمّ سافرنا معاً إلى توتينبيرغ».

«لماذا تقولين إنها بغيضة، يا آنسة؟»

«إن إليزابيث إوزة مثيرة للقلق، لها روح وضيعة، معادية لليهود. عندما أخطأت وأخبرتها بأن بول يهودي، سارعت إلى نشر ذلك في دائرة فاغنر كلها لكي ترحب بقدوم بول إلى بايريوث».

وضع بريوير فنجان قهوته. فبعد أن هدهدته لو سالومي في البداية إلى عالم من الحبّ الحلو والفن والفلسفة، أعادته كلماتها الآن إلى الواقع، إلى عالم معاداة اليهود القبيح. ففي ذلك الصباح، قرأ في صحيفة *Neue*

Freie Presse مقالة عن أخويات من الشباب الذين يجوبون الجامعة، يدخلون قاعات الدروس ويصيحون «*Juden hinaus*» (فليخرج اليهود) ويرغمون جميع اليهود على الخروج من قاعات المحاضرات ويسحلون جسد أي طالب يبدي مقاومة.

«يا آنسة، أنا يهودي أيضاً، ويجب أن أسأل هل يشارك البروفسور نيتشه آراء أخته في معاداة اليهود؟»

«أعرف أنك يهودي. فقد أخبرني جينيا بذلك، من المهم أن تعرف أن نيتشه لا يهتمّ إلا بالحقيقة. إنه يكره كذبة التعصب، كل أنواع التعصب والتحيز. إنه يكره معاداة أخته لليهود. ويعتريه الذعر ويثير قرفه بيرنارد فوريستر، أحد أكثر المعادين لليهود جهراً وضراوة في ألمانيا، ويزورها أحياناً. أخته، إليزابيث...».

بدأت كلماتها تزداد تدفقاً، وأخذ صوتها يزداد حدّة. كان بريوير يعرف أنّها تستطرد عن قصتها التي أعدتها جيداً، لكنها لم تتوقّف.

«دكتور بريوير، إن إليزابيث امرأة مرعبة. قالت إني مومس، وكذبت على نيتشه وقالت له إنني أري الجميع تلك الصورة، وتتبجح بالقول إنه يحبّ طعم سوطي. إنها تكذب دائماً! إنها امرأة خطيرة. ذات يوم، تذكّر كلماتي، ستلحق ضرراً شديداً بنيتشه».

كانت لا تزال واقفة، تمسك بإحكام ظهر الكرسي وهي تقول ذلك. ثمّ جلست، وتابعت كلامها بمزيد من الهدوء وقالت: «كما يمكن أن تتصوّر، فقد كانت الأسابيع الثلاثة التي أمضيتها في توتينبيرغ مع نيتشه وإليزابيث معقّدة، لكن الفترة التي أمضيتها معه وحدي كانت رائعة. نزهات رائعة ومناقشات عميقة عن كلّ شيء - في بعض الأحيان، كانت صحته تمكنه من أن يتكلم طوال عشر ساعات بدون توقف في اليوم! أتساءل إن كان قد حدث مثل هذا *الانفتاح الفلسفي* بين شخصين من

قبل. تحدّثنا عن النسبية بين الخير والشر، وعن ضرورة أن يحرر المرء نفسه من المبادئ الأخلاقية العامة حتى يعيش أخلاقياً، وعن دين مفكّر حرّ. إن كلمات نيتشه صحيحة: لدينا دماغان توأمان ـ كان بإمكاننا أن نتحدث معاً بنصف كلمات، نصف جمل، مجرّد إيماءات. لكن، على الرغم من ذلك، فقد أُفسدت علينا هذه الجنة لأننا كنا طوال الوقت تحت مراقبة أخته الحيّة ـ فقد كنت أراها تتنصت علينا، تسيء فهمنا دائماً وتحيك خططها الماكرة».

«أخبريني، لماذا تفتري عليك إليزابيث؟»

«لأنها تقاتل دفاعاً عن حياتها. إنها امرأة ضيّقة الأفق وفقيرة روحياً. إنها لا تتحمّل أن تخسر شقيقها لامرأة أخرى. إنها تدرك أن نيتشه، كان وسيكون إلى الأبد، مصدر اهتمامها الوحيد».

نظرت إلى ساعتها، ثم إلى الباب المغلق.

«أخشى أن الوقت يداهمنا، لذلك سأخبرك بسرعة. ففي الشهر الماضي، وعلى الرغم من اعتراضات إليزابيث، أمضيت أنا وبول ونيتشه ثلاثة أسابيع في لايبزيغ مع والدة بول، ودارت بيننا مرة أخرى مناقشات فلسفية جدّية، لا سيما حول تطور المعتقدات الدينية. انفصلنا قبل أسبوعين فقط. كان نيتشه لا يزال يعتقد بأننا سنمضي نحن الثلاثة الربيع معاً في باريس. لكن لن يحدث هذا مرة أخرى أبداً. لقد عرفت ذلك الآن. لقد نجحت أخته في تسميم أفكاره وتأليبه عليّ، وبدأ يبعث لي ولبول مؤخراً رسائل مليئة باليأس والكراهية».

«إلى أين وصلت الأمور الآن، اليوم، يا آنسة سالومي؟»

«لقد انهار كلّ شيء. فقد أصبح بول ونيتشه عدوين. كان بول يغضب بشدة كلما قرأ الرسائل التي يرسلها نيتشه لي، كلما سمع أنني أكنّ لنيتشه مشاعر ودّية».

«هل يقرأ بول رسائلك؟»

«نعم، لمَ لا؟ فقد توطدت صداقتنا كثيراً. إني أشكّ في أنّني سأكون قريبة منه دائماً. لا توجد أسرار بيننا: حتى أن أحدنا قرأ يومياته للآخر. رجاني أن أقطع علاقتي بنيتشه، فرضخت له أخيراً وكتبت لنيتشه وقلت له مع أنني أقدّر صداقتنا، فإن إقامتنا ثلاثتنا معاً لم يعد أمراً ممكناً، وقلت له إنه كان هناك الكثير من الألم، وأنه كان لأخته وأمّه تأثير مدمّر عليّ، وكذلك الخلافات بينه وبين بول وشجارهما الدائم».

«وماذا كان ردّه؟»

«وحشي! مخيف! إنه يكتب رسائل تتسم بالجنون. أحياناً يكتب رسائل مهينة أو مهددة، وأحياناً تكون في غاية اليأس. هنا، انظر إلى هذه الفقرات في الرسالة التي وصلتني في الأسبوع الماضي». أعطته رسالتين بدا الاضطراب فيهما: الخطّ غير المستوي، الكثير من الكلمات المختصرة أو التي وضع تحتها خط أو عدّة خطوط. أمعن بريوير النظر في الفقرات التي وضعت دوائر حولها، لكنه عندما لم يتمكن من فهم أكثر من بضع كلمات، أعادهما إليها.

قالت «نسيت أن أقول لك إن قراءتها صعبة. دعني أفكّ رموز هذه الرسالة التي أرسلها لي ولبول: «لا تدّعي أن نوبات جنون العظمة التي تعتريني أو غروري الجريح يزعجك كثيراً ـ وإذا أخذت حياتي بيدي في إحدى تلك النوبات العاطفية التي تعتريني، فلا تقلقي عليّ. ماذا تشكل تهويماتي بالنسبة لك!...لقد توصلت إلى هذا الرأي المنطقي بعد أن تناولت، بدافع اليأس، جرعة ضخمة من الأفيون...»

توقّفت وقالت: «هذا يكفي لإعطائك فكرة عن مدى شعوره باليأس. إني أقيم في منزل عائلة بول في بافاريا منذ عدّة أسابيع، لذلك فإن جميع رسائلي تذهب إلى هناك. يمزّق بول الرسائل الأكثر حدة التي

يتلقاها لكي لا يجرح مشاعري، لكني تمكنت من الحصول على هذه الرسالة التي بعثها إليّ وحدي: إذا ابتعدت عني الآن، فإنك الملامة... لقد سببت لي ضرراً كبيراً وسببت لي أذى شديداً ـ ليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبّوني: إن هذا السيف مسلط فوقك».

نظرت إلى بريوير، وقالت: «الآن يا دكتور، هل ترى السبب الذي جعلني أقول لك أن لا تخبره بأنني تعاونت معك؟»

أخذ بريوير نفساً عميقاً من سيجاره. على الرغم من افتنانه بلو سالومي، واهتمامه بالأحداث المثيرة التي أخذت تكشف عنها، أحسّ بالانزعاج. هل من الحكمة أن يوافق على متابعة الأمر؟ إنها غابة! علاقات بدائية وقويّة: الثالوث غير المقدس، الصداقة المتصدعة بين نيتشه وبول، الرابطة القوية بين نيتشه وأخته، والكراهية بينها وبين لو سالومي: يجب أن أكون حذراً، قال لنفسه، وابتعد عن كل هذه الصواعق التي كان أشدها انفجاراً، بالطبع، حبّ نيتشه اليائس الذي تحوّل إلى كراهية تجاه لو سالومي. لكن لم يعد بإمكانه أن يتراجع الآن، لأنه يجب أن يلتزم بوعده الذي قطعه لها في فينيسيا وقال لها بسرور: «لم أرفض قط أن أعالج مريضاً».

التفتَ إلى لو سالومي، وقال: «تساعدني هاتان الرسالتان على فهم سبب ذعرك يا آنسة سالومي. إني أشاطرك شعورك بالقلق على صديقك: يبدو أنه في حالة غير مستقرة، وثمة احتمال حقيقي لأن ينتحر. لكن بما أنك تقولين أنه لم يعد لديك تأثير كبير على البروفسور نيتشه، فكيف ستتمكين من إقناعه بأن يأتي لاستشارتي؟»

«نعم، إنها مشكلة ـ وإني أدرسها بدقة. حتى أن اسمي أصبح كالسمّ عندما يسمعه الآن، لذلك يجب أن أعمل في الخفاء. وهذا يعني طبعاً أنه يجب ألاّ يعرف أبداً، أبداً بأنني رتّبت أي لقاء معك. ويجب ألاّ تخبره بذلك! أما الآن، وبعد أن عرفتُ أنك ترغب في لقائه...»

وضعت فنجانها على الطاولة ونظرت إلى بريوير نظرة ترجوه بأن يردّ عليها بسرعة، فقال لها: «طبعاً يا آنسة. فكما قلت لك في فينيسيا، فإني لم أرفض قط معالجة أي مريض».

عندما سمعت لو سالومي كلماته، ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة. قال في نفسه إنها متوترة أكثر مما كان يتخيّله.

«بعد تأكيدك هذا، دكتور بريوير، سأبدأ الحملة لإقناع نيتشه بأن يأتي لاستشارتك دون أن يعرف أن لي يداً في هذا الأمر. فقد بدأ يعتري سلوكه قلق شديد وأصبحت واثقة من أن جميع أصدقائه قلقون عليه ويرحبون بأيّ خطة معقولة لمساعدته. في طريق عودتي إلى برلين غداً، سأتوقّف في بازل لأقترح على فرانز أوفيربيك، صديق نيتشه الدائم خطتنا هذه. إن سمعتك كطبيب ممتاز قادر على تشخيص الأمراض سيساعدنا كثيراً. أظن أن البروفسور أوفيربيك يمكنه إقناع نيتشه أن يأتي لزيارتك ويعرض عليك حالته الصحية. إذا نجحتُ في ذلك، فإني سأرسلُ لك رسالة أعلمك فيها بما حدث».

أعادت رسالة نيتشه إلى محفظتها بسرعة ونهضت. سوّت تنورتها الطويلة المجعّدة، وتناولت قطعة الفرو من على الأريكة، ومدّت يدها لمصافحة بريوير، وقالت: «والآن، يا دكتوري العزيز بريوير...»

عندما وضعت يدها الأخرى على يده، تسارع نبض بريوير. لا تكن عجوزاً أحمق، قال لنفسه، لكنه أسلم نفسه إلى دفء يدها. أراد أن يخبرها كم يحبّ أن تلمسه. لعلها كانت تعرف ذلك، لأنها أبقت يده في يدها وهي تكلمه.

«أرجو أن نظل على اتصال لمتابعة هذا الأمر. ليس ذلك بسبب مشاعري العميقة تجاه نيتشه وخوفي بأنني مسؤولة عن جزء من إصابته باليأس، وإن كنت لم أفعل ذلك عن قصد، بل هناك شيء آخر. أرجو

أيضاً، أن نصبح، أنا وأنت، صديقين. لديّ عيوب كثيرة، كما ترى: فأنا فتاة مندفعة، تلقائية، يمكنني أن أصدمك. إني فتاة غير تقليدية. لكني أمتلك نقاط قوة أيضاً. أمتلك عيناً دقيقة يمكنني أن أتعرف فيها بسهولة على الرجل الذي يمتلك روحاً نبيلة. وعندما أعثر على مثل هذا الرجل، فإني أفضّل ألاّ أفقده. إذن هل يمكنني أن أكتب إليك؟»

تركت يده، واتجهت نحو الباب، ثمّ توقّفت فجأة. مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت مجلدين صغيرين.

«أوه، دكتور بريوير، كدت أنسى شيئاً. أفضّل أن تطّلع على آخر كتابين كتبهما نيتشه، لتكوّن فكرة جيدة عن أسلوب تفكيره. لكن يجب ألاّ يعرف أنك اطلعت عليهما، لأن ذلك سيثير شكوكه لأنه لم يبع منهما سوى نسخ قليلة جداً».

لمست ذراع بريوير مرة أخرى، وقالت: «شيء آخر أريد أن أقوله لك. فعلى الرغم من وجود حفنة من القرّاء الذين يقرأون كتبه، فإنه على قناعة بأنه سيصبح مشهوراً في المستقبل. ففي أحد الأيام قال لي إن المستقبل له. لذلك أرجو ألاّ تخبر أحداً بأنك تساعده، وألاّ تذكر اسمه أمام أحد. لأنك إن فعلت وإذا اكتشف ذلك، فإنه يعتبر ذلك خيانة عظيمة. مريضتك آنا و. هذا ليس اسمها الحقيقي، صحيح؟ إنك تستخدم اسماً مستعاراً».

هزّ بريوير رأسه.

«إذاً أنصحك بأن تفعل الشيء نفسه مع نيتشه. إلى اللقاء، دكتور بريوير»، ومدّت يدها لمصافحته.

«إلى اللقاء يا آنسة»، قال بريوير، وانحنى وضغط بشفتيه على يدها.

عندما أغلق الباب وراءها، ألقى نظرة على الكتابين الرقيقين المغلفين بالورق. لاحظ غرابة عنوان الكتابين «العلم المرح» و«هو ذا الإنسان»

قبل أن يضعهما على طاولة مكتبه. توجّه إلى النافذة ليلقي آخر نظرة على لو سالومي. رفعت له مظلّتها، وهبطت الدرج الأمامي بسرعة. من دون أن تلتفت إلى الخلف، صعدت إلى عربة أجرة كانت بانتظارها.

الفصل ٣

ابتعد بريوير عن النافذة، وهزّ رأسه لينفض عنه التفكير بلو سالومي. شدّ الحبل المدلى فوق طاولة مكتبه وطلب من السيدة بيكر أن تُدخل المريض التالي في غرفة الانتظار. دخل هير بيرلروث، اليهودي الأرثوذوكسي، المحدودب الظهر، الملتحي، متردداً.

سرعان ما علم بريوير أن هير بيرلروث كان قد أجرى استئصالاً مؤلماً للوزتين قبل خمسين سنة. كانت ذاكرته عن هذه العملية مؤلمة وحارقة، إلى حد أنه كان يرفض، حتى الآن، استشارة أي طبيب. أما الآن، فقد أتى لزيارة الطبيب لأن «حالة طبية بائسة»، على حد قوله، لم تترك له خياراً. على الفور، توقف بريوير عن أسلوبه في التصرف كطبيب، وخرج من وراء طاولته، وجلس على الكرسي المجاور، كما فعل مع لو سالومي، ليدردش قليلاً مع مريضه الجديد. تحدّثا عن الطقس، وعن موجة المهاجرين اليهود الجديدة من غاليسيا، وعن الجمعية النمساوية للإصلاح المعادية لليهود، وعن أصولهما المشتركة. وشأن جميع أفراد الطائفة اليهودية، كان هير بيرلروث، يعرف ليوبولد، والد بريوير، ويجلّه. وبعد دقائق، تحوّلت هذه الثقة التي كان يكنّها للوالد إلى الابن.

قال بريوير: «هير بيرلروث. كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«لا أستطيع أن أتبول يا دكتور. فطوال النهار، والليل أيضاً، أشعر بالحاجة إلى إفراغ مثانتي فأهرع إلى الحمام، لكن لا شيء يخرج. أقف

وأقف، وأخيراً تتسرب بضع قطرات. ويحدث الشيء نفسه بعد عشرين دقيقة. فأذهب إلى الحمام مرة أخرى، لكن...»

بعد بضعة أسئلة أخرى، تأكد بريوير من سبب المشكلة التي يعاني منها هير بيرلروث. فقد كانت غدّة بروستات المريض تسدّ الإحليل. لكن بقي الآن سؤال واحد مهم وهو: هل يوجد تضخم حميد في بروستات هير بيرلروث، أم أنه مصاب حقاً بالسرطان؟ بعد أن فحص المستقيم، لم يلمس بريوير أي عقيدات سرطانية صلبة، إنما وجد تضخماً حميداً اسفنجياً.

عندما سمع هير بيرلروث أنه لا يوجد دليل على إصابته بالسرطان، ابتسم فرحاً وأخذ يد بريوير وقبّلها. لكن سرعان ما تجهم وجهه ثانية عندما وصف له بريوير، مطمئناً إياه بقدر ما يستطيع، طبيعة المعالجة المطلوبة المزعجة: فيتعين عليه توسيع المسالك البولية بإدخال سلسلة طويلة متدرّجة من القضبان المعدنية الطويلة في الإحليل. وبما أن بريوير لم يجر هذا النوع من العلاج بنفسه، فقد أحال هير بيرلروث إلى نسيبه، ماكس، إخصائي الأمراض البولية.

عندما غادر هير بيرلروث، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة ببضع دقائق. حان موعد الزيارات التي يجريها بريوير إلى بيوت المرضى بعد الظهر. أعدّ حقيبته الطبية الجلدية السوداء الكبيرة، وارتدى معطفه السميك المبطن بالفراء، واعتمر قبعته، وخرج. كان فيشمان سائق العربة التي يجرها حصانان بانتظاره. (عندما كان يفحص هير بيرلروث، لوّحت السيدة بيكر إلى ساع كان يقف عند تقاطع الشارع بالقرب من المكتب، فتى ذو عينين حمراوين، وأنف أحمر، يضع شارة رسمية كبيرة، ويعتمر قبعة مدبّبة، ويرتدي معطفاً عسكرياً ذا كتافيّات، وأعطته عشرة كريوزيرتو ليذهب بسرعة وينادي فيشمان. ولما كان بريوير أحد الأطباء

الأغنياء في فيينا، فقد استأجر عربة صغيرة طوال السنة، بدلاً من أن يطلب عربة كلما احتاج إليها.

وكعادته أعطى فيشمان قائمة بأسماء المرضى الذين سيزورهم. كان بريوير يعود إلى بيته مرّتين في اليوم: في الصباح عندما يتناول طعام الفطور ويحتسي القهوة، وعندما ينهي رؤية مرضاه في عيادته بعد الظهر، كما حدث اليوم. وشأن معظم الأطباء الباطنيين في فيينا، لم يكن بريوير يحيل مريضاً إلى المستشفى إلا بعد أن يستنفد جميع الوسائل ولا تبقى لديه وسيلة أخرى. فلم يكن المرضى يجدون رعاية أفضل في البيت فحسب، بل يكونون في مأمن أكثر من الإصابة بأمراض معدية تنتقل إليهم غالباً من المستشفيات العامة.

لذلك، كان بريوير يستخدم العربة ذات الحصانين كثيراً: بل كانت في واقع الحال بمثابة مكتب متنقل له، تتكدس فيها آخر أعداد المجلات الطبية والمراجع. وقبل بضعة أسابيع، كان قد دعا طبيباً شاباً صديقاً له، يدعى سيغموند فرويد، لمرافقته طوال النهار. ربما كان ذلك خطأ! فقد كان الطبيب الشابّ يحاول أن يختار الفرع الطبي الذي يريد أن يختص به، ولعل ذلك اليوم جعله يخاف من ممارسة الطبّ الباطني العام، لأن بريوير، وفقاً لحسابات فرويد، أمضى ستّ ساعات في عربته.

بعد زيارة سبعة مرضى، ثلاثة منهم في حالة مرض شديدة، أنهى بريوير عمله لهذا اليوم. ثم توجّه فيشمان إلى مقهى غرينستيدل حيث يحتسي بريوير القهوة عادة مع مجموعة من الأطباء والعلماء الذين يلتقون هناك منذ خمس عشرة سنة، كلّ مساء في نفس المقهى، ويتحلقون حول طاولة كبيرة في أفضل ركن في المقهى.

لكن بريوير غيّر رأيه هذه الليلة، فقال لفيشمان: «عد بي إلى البيت. فأنا مبلل ومتعب ولا أريد الذهاب إلى المقهى».

أسند بريوير رأسه إلى المقعد الجلدي الأسود وأغمض عينيه. لقد بدأ هذا اليوم المنهك على نحو سيء: فقد جافاه النوم بعد أن رأى كابوساً في الرابعة صباحاً. كان جدول زياراته هذا الصباح مليئاً: كان عليه زيارة عشرة مرضى في بيوتهم، ثم تسعة مرضى في العيادة؛ وبعد الظهر، سيرى المزيد من المرضى في العيادة، ثم اللقاء المثير والمرهق مع لو سالومي.

لم يعد عقله ملكاً له الآن. فقد تسربت إليه تهويمات بيرثا المغوية: يمسك بذراعها، يسيران معاً تحت أشعة الشمس الدافئة، بعيداً عن ثلوج فيينا الرمادية المتجمّدة. لكن سرعان ما تسربت إليه صور متناقضة: أن زواجه قد انهار، وترك أطفاله وسافر بحراً إلى مكان بعيد ولم يعد إليهم بل بدأ حياة جديدة مع بيرثا في أمريكا. هيمنت عليه هذه الأفكار. إنه يكره هذه الأفكار لأنها تحرمه من الهدوء. فضلاً عن أنها أفكار غريبة، لا يمكن تطبيقها وغير مرغوبة. لكنه على الرغم من ذلك، كان يبدو أنه يرحّب بها، وما عليه إلا أن يبعدها عن تفكيره، فهي أفكار لا تصدّق.

كانت العربة تهتز أثناء عبورها جسراً خشبياً على نهر فاين. نظر بريوير إلى الأشخاص الذين يهرعون عائدين إلى بيوتهم من أعمالهم، والذين معظمهم رجال، يحملون مظلات سود، ويرتدون ثياباً سميكة مثله. كان يرتدي معطفاً ذا بطانة من الفرو الداكن، ويضع قفازات بيض، ويعتمر قبعة رسمية سوداء. لمح شخصاً يعرفه. كان الرجل القصير القامة، الحاسر الرأس، ذو اللحية المشذبة، يمشي بسرعة مجتازاً الآخرين، فائزاً بالسباق! تلك الخطوة الواسعة القويّة، التي يعرفها من مكان ما! فقد حاول مرات عديدة في غابة فيينا، مجاراة هاتين الساقين المتماوجتين، بحثاً عن الفطر الضخم اللاذع الذي ينمو بين جذور نبات التنوب الأسود.

طلب بريوير من فيشمان أن يتوقف، وفتح النافذة وصاح، «سيغ، إلى أين أنت ذاهب؟»

كان صديقه الشاب الذي يرتدي معطفاً سميكاً أزرق اللون. أغلق مظلّته واتّجه نحو العربة؛ عندما أدرك أنه بريوير، ابتسم ابتسامة عريضة، وأجاب، «إني ذاهب إلى شارع باكرشتراسه رقم ٧. فقد دعتني امرأة فاتنة إلى العشاء هذه اللّيلة».

«آخ! عندي أخبار مخيّبة للآمال!» رد بريوير ضاحكاً، «وزوجها الرائع في طريقه إلى البيت في هذه اللحظة! هيا اصعد معي يا سيغ. فقد أنهيت عملي اليوم، وأشعر بأني مرهق فعدلت عن الذهاب إلى غرينستيدل. سيكون لدينا وقت لنتكلم قليلاً قبل أن نتناول الطعام».

نفض فرويد الماء عن مظلّته، وحك قدميه على الحجر المقبب، وصعد إلى العربة. كانت مظلمة، وكانت الشمعة التي تحترق في العربة تحدث ظلالاً أكثر من الضوء. بعد لحظة سادها الصمت، التفت ونظر متفحصاً وجه صديقه، ثم قال له: «إنك تبدو مرهقاً حقاً يا جوزيف. لا بد أنه كان يوماً طويلاً؟»

«كان يوماً شاقاً. لقد بدأ وانتهى بزيارة أدولف فيفر. أتعرفه؟»

«لا، لكنّي قرأت بعضاً من مقالاته في نيوي فريي بريس. إنه كاتب جيد».

«كنا نلعب معاً عندما كنا أطفالاً. كنا نذهب معاً إلى المدرسة، وأصبح مريضي منذ أول يوم فتحت فيه عيادتي. حسناً، منذ حوالي ثلاثة أشهر، تبين لي أنه مصاب بسرطان الكبد. لقد انتشر بسرعة كبيرة، والآن هو في حالة متقدمة من اليرقان الانسدادي. هل تعرف ما هي المرحلة التالية، يا سيغ؟»

«حسناً، إذا كانت القناة المشتركة لديه مسدودة، فإن الصفراء لديه

ستستمر في الانكماش إلى مجرى الدم حتى يموت بتسمم كبدي. وقبل ذلك، فإنه سيدخل في غيبوبة كبدية، أليس كذلك؟»

«تماماً. يمكن أن يحدث ذلك في أيّ يوم. لكني لا أستطيع أن أخبره ذلك. ولا أزال أحتفظ بابتسامتي غير الصادقة، المتفائلة، مع أنني أريد أن أودعه وداعاً صادقاً. لن أعتاد مطلقاً على موت مرضاي».

«لا أحد منا يتمنّى ذلك»، تنهّد فرويد وأضاف، «إن الأمل ضروري جداً، ومن غيرنا يمكنه أن يقدم الأمل؟ بالنسبة لي، فهذا أصعب شيء في حياة الطبيب. في بعض الأحيان تساورني شكوك في ما إذا كنت على قدر هذه المهمّة. إن الموت فظيع، وقدرتنا على العلاج محدودة، خاصة في ما يتعلق بالجهاز العصبي. أحمد الله أنني سأنهي دورتي. لا بد أنك سمعت أن ويستفال ومير اختلفا أثناء زيارتهما للمرضى اليوم حول تموضع السرطان بدقة في الدماغ الدقيقة، أمام المريض!

«لكن...» ـ ثم صمت ـ «من أنا حتى أقول ذلك؟ منذ ستّة أشهر فقط، عندما كنت أعمل في مختبر الباثولوجيا العصبية، فرحت كثيراً عندما وصل دماغ طفل رضيع لكي أتمكن من تحديد موضع المرض بدقة! بدأت أزداد قناعة بأن جدالنا حول تموضع الآفة يغرق الحقيقة الصحيحة: بأن مرضانا يموتون، ونحن الأطباء عاجزون».

«سيغ، للأسف أن طلاب الطب مثل ويستفال لا يتعلمون أبداً كيف يوفرون الراحة للمحتضرين».

مضى الرجلان صامتين بينما كانت العربة تهتز وتتأرجح في الريح الشديدة. بدأ المطر يزداد شدة وأصبحت قطراته تتناثر بقوة فوق سقف العربة. أراد بريوير أن يقدم لصديقه الشاب بعض النصائح، لكنه تردد، وراح يختار كلماته بدقة، لأنه يعرف مقدار حساسية فرويد.

«سيغ، دعني أقول لك شيئاً. أعرف كم أن الأمر محبط بالنسبة لك

لأن تبدأ مزاولة الطبّ. لا بد أنه شعور يشبه الهزيمة، كالقبول بمصير أدنى. البارحة، في المقهى، سمعت أنك تنتقد بروك لأنه رفض ترقيتك ونصحك بأن تتخلى عن طموحك بتسلم وظيفة في الجامعة. لكن لا تلمه! أعرف أنه يكنّ لك احتراماً شديداً. وقد سمعت منه شخصياً أنك أفضل طلابه».

«إذاً لماذا لم يرقّني؟»

«إلى ماذا يرقيك يا سيغ؟ إلى الوظيفة التي يشغلها إكسنير أو فليشل - هذا إذا تخليا عن وظيفتيهما؟ براتب مائة غلدر في السنة؟ إن بروك محق بشأن النقود! يجب أن تكون رجلاً غنياً لكي تجري أبحاثاً. لا يمكنك أن تعيش على ذلك المبلغ. وتعيل والديك؟ ولن تستطيع أن تتزوج لعشر سنوات. ربما لم يكن بروك لطيفاً جداً، لكنّه كان صادقاً عندما قال لك إن فرصتك الوحيدة للعمل في البحوث هي أن تتزوّج من فتاة غنية وتحصل منها على مهر كبير. عندما تقدمت لخطبة مارثا قبل ستة أشهر، كنت تعلم أنها لن تقدم لك أي مهر. لقد قررت أنت مستقبلك - لا برو».

أغمض فرويد عينيه للحظة قبل أن يجيب.

«إن كلماتك تجرحني يا جوزيف. كنت أشعر دائماً بأنك لا توافق على زواجي من مارثا».

كان بريوير يعرف صعوبة أن يكلّم فرويد بصراحة شديدة - رجل يكبره بستة عشر عاماً، ولم يكن صديقه فقط، بل كذلك معلّمه، والده، شقيقه الأكبر. مدّ يده ليلمس يد فرويد.

«هذا غير صحيح يا سيغ! على الإطلاق! إننا نختلف على مسألة التوقيت فقط. أشعر أن أمامك سنوات شاقة كثيرة من التدريب وسترهق نفسك أكثر إذا كانت لديك خطيبة. لكني أتفق معك بشأن مارثا، فعلى

الرغم من أنني لم ألتق بها إلا مرة واحدة في الحفلة التي أقامتها أسرتها قبل سفرها إلى هامبورغ، فقد أحببتها على الفور. لقد ذكّرتني بماتيلد عندما كانت في عمرها».

«لا يفاجئني ذلك»، انخفض صوت فرويد الآن، «فقد كانت زوجتك قدوة لي. فمنذ أن التقيت بماتيلد، رحت أبحث عن زوجة تشبهها. الحقيقة يا جوزيف، قل لي بصدق، لو كانت ماتيلد فقيرة، هل كنت ستتزوّجها؟»

«الحقيقة يا سيغ، ولا تكرهني على هذا الجواب، لقد مضى على ذلك أربعة عشر عاماً، وقد تغيّر الزمن. لقد نفذت ما طلبه مني والدي».

صمت فرويد، وأخرج سيجاراً من السجائر الرخيصة التي يدخنها، وقدمه إلى بريوير الذي رفض أن يأخذه كعادته.

عندما أشعل فرويد سيجاره، واصل بريوير كلامه، وقال: «سيغ، إني أشعر بما تشعر به. إننا متشابهان. فقد مررت بنفس الظروف منذ عشر سنوات، إحدى عشرة سنة. عندما مات أوبولزير، المشرف عليّ في كلية الطبّ فجأة بعد إصابته بالتيفوئيد، انتهى عملي الجامعي فجأة وبقسوة، تماماً كما حدث معك. فأنا أيضاً، كنت أعتبر نفسي فتى ذا مستقبل باهر، وكنت أتوقّع أن أحلّ محله. كان يجب أن أخلفه في منصبه. وكان الجميع يعرفون ذلك. لكنهم اختاروا شخصاً غير يهودي بدلاً مني. ومثلك، أجبرت على أن أقبل الأقل».

«وهكذا يا جوزيف، فإنك تعرف كيف شعرت بالهزيمة. لم يكن ذلك عدلاً! انظر إلى رئيس كلية الطبّ ـ نورثناجيل، ذلك الفظ! انظر إلى رئيس كلية الطبّ النفسي ـ مينيرت! هل أنا أقل مقدرة منه؟ كان بإمكاني أن أتوصّل إلى اكتشافات عظيمة».

«وكذلك أنت يا سيغ. فمنذ أحد عشر عاماً، نقلت مختبري

والحمامات التي أجري تجاربي عليها إلى بيتي وواصلت أبحاثي. يمكنك أن تعمل مثلي. ستجد طريقة ما. لكنها لن تكون كما يمكنك أن تفعلها في الجامعة. ونحن نعرف جيداً أن لا علاقة للأمر بالمال فقط. ففي كلّ يوم تزداد الكراهية تجاه اليهود. هل قرأت المقالة هذا الصباح في صحيفة نيوي فريي بريس عن قيام بعض أخويات المسيحيين بمداهمة المحاضرات وإخراج اليهود من قاعات الدرس؟ وهم يهدّدون الآن بأنهم سيوقفون جميع المحاضرات التي يحاضر فيها أساتذة يهود. وهل قرأت صحيفة البارحة؟ المقالة عن محاكمة يهودي في غاليسيا أتّهم بقتل طفل مسيحي بطريقة طقوسية؟ إنهم يدّعون حقاً أن اليهود يسحبون دم شخص مسيحي ليصنعوا منه عجينة خبز الفطير! هل تصدق ذلك؟ مع أننا أصبحنا في سنة ألف وثمانمائة واثنين وثمانين، فإن هذا الاعتقاد لا يزال سائداً! إنهم رجال كهوف ـ همج تكسوهم طبقة خفيفة صقيلة من المسيحية. لذلك لن يكون لك مستقبل أكاديمي! بالطبع فإن بروك ينأى بنفسه شخصياً عن هذا التحيّز، لكن من يعرف حقيقة شعوره؟ أذكر أنه قال لي في جلسة خاصة إن الكراهية تجاه اليهود ستدمر وظيفتك في الجامعة في نهاية الأمر».

«لكني أريد أن أكون باحثاً يا جوزيف. فأنا لا أشعر مثلك، بأنني أريد أن أفتح عيادة طبية. إن فيينا كلها تعرف قدرتك على التشخيص، وأنا لا أمتلك هذه الموهبة. سأبقى طوال حياتي طبيباً رحالاً ـ بيغاسوس تحت نير المحراث».

«سيغ، لا توجد مهارات لا أستطيع أن أعلمك إياها».

استرخى فرويد، بعيداً عن ضوء الشمعة، شاعراً بالامتنان للعتمة. فلم يعرّ نفسه هكذا لجوزيف، ولا لأي شخص إلا لمارثا التي كان يكتب لها كلّ يوم عن أكثر أفكاره ومشاعره حميمية.

«لكن يا سيغ، لا تلق باللائمة على الطبّ. انظر إلى المنجزات التي

حققها الطبّ في السنوات العشرين الأخيرة فقط ـ حتى في مجال طب الأعصاب. فكّر بالشلل المتسبب عن التسمّم بالرصاص، أو ذهان البروميد، أو الشعيرات الدماغية. كان كل ذلك مجرد ألغاز قبل عشرين سنة. إن العلم يتحرّك ببطء، لكننا نحقق كل عشر سنوات انتصاراً على مرض آخر».

ساد صمت طويل قبل أن يتابع بريوير كلامه.

«دعنا نغيّر الموضوع. أريد أن أسألك شيئاً. إنك تدرّس عدداً كبيراً من الطلاب. هل صادفت طالباً روسياً يدعى سالومي، جينيا سالومي؟»

«جينيا سالومي؟ لا أظن ذلك. لماذا؟»

«زارتني أخته اليوم. كان لقاء غريباً». اجتازت العربة مدخل شارع باكيرشتراسه ٧. عندما توقفت فجأة، تمايلت العربة فوق نوابضها الثقيلة للحظة. «لقد وصلنا. سأحدثك عن ذلك في البيت».

ترجّلا من العربة في الفناء المهيب المكسو بأحجار مقببة الذي يعود إلى القرن السادس عشر المحاط بجدران موشاة بنبات اللبلاب المتسلق. فوق أقواس ثبّتت عليها أعمدة فخمة، اصطفت على كلا الجانبين خمسة صفوف من النوافذ المقوّسة الكبيرة المؤطّرة بألواح خشبية عريضة. عندما اقترب الرجلان من بوابة المدخل، نظر البواب من اللوح الزجاجي الصغير في باب شقّته، ثمّ أسرع لفتح باب المبنى وانحنى لتحيتهما.

صعدا الدرج. اجتازا مكتب بريوير في الطابق الثاني واتجها نحو الشقّة الرحبة التي تعيش فيها الأسرة في الطابق الثالث. كانت ماتيلد في انتظارهما. كانت ماتيلد امرأة رائعة الجمال في السادسة والثلاثين من العمر، يّزين بشرتها الناعمة الحريرية البراقة أنف محفور بدقة، وعينان زرقاوان، وشعر كستنائي لفته في ضفيرة طويلة فوق رأسها. كانت ترتدي

بلوزة بيضاء وتنورة رمادية طويلة أحاطت خصرها بإحكام. كانت رشيقة القوام مع أنها أنجبت طفلها الخامس منذ بضعة شهور.

أخذت قبعة جوزيف ومشطت شعره بيدها. ثم ساعدته على خلع معطفه وأعطته إلى الخادمة ألويسيا التي يسمونها «لويس» منذ أن جاءت لخدمتهم منذ أربع عشرة سنة.

التفتت إلى فرويد وقالت: «سيغي، إنك مبلل تماماً ولا بد أنك تشعر بالبرد. الحمّام جاهز! لقد سخّنا الماء، ووضعت بعض غيارات جوزيف الجديدة لك على الرفّ. من الجيد أن مقاسكما واحد! لا أستطيع أن أفعل ذلك لماكس». كان ماكس، زوج أختها راشيل، بديناً يزيد وزنه على مائتين وستين رطلاً.

«لا تقلقي بشأن ماكس»، قال بريوير، «فأنا أعوّضه عن ذلك بأن أحيل إليه بعض المرضى»، ثم التفت إلى فرويد، وأضاف قائلاً: «لقد أحلت لماكس مريضاً آخر اليوم مصاباً بتضخم البروستات. لقد أحلت إليه أربع مرضى هذا الأسبوع. هناك مجال لك!»

«لا»، قاطعته ماتيلد، وأخذت ذراع فرويد وقادته نحو الحمّام، «إن طبّ الجهاز البولي لا يلائم سيغي. لن يمضي يومه كله في تنظيف المثانات وأنابيب المياه! إنه سيفقد عقله بعد أسبوع».

توقّفت عند الباب، وقالت: «جوزيف، الأطفال يتناولون الطعام. انظر إليهم ـ لكن لدقيقة فقط. أريدك أن تأخذ قيلولة قبل العشاء. سمعتك تتقلب طوال اللّيل. لم تكد تنام».

دون أن يقول شيئاً، توجّه بريوير إلى غرفة نومه، لكنه غيّر رأيه وقرّر أن يساعد فرويد في ملء الحمّام. عندما التفت، رأى بريوير ماتيلد تنحني نحو فرويد وسمعها تهمس له، «أرأيت ما أقصده يا سيغي، فنادراً ما يحدثني».

في الحمّام، أوصل بريوير خراطيم مضخة النفط بأحواض الماء الحار التي أحضرتها لويس وفرويد من المطبخ. امتلأ الحوض الأبيض الكبير الذي يستند بأعجوبة إلى قوائم نحاسية مصنوعة في شكل مخالب قطة، بالماء بسرعة. عندما عاد بريوير إلى الصالون، سمع فرويد يصدر صوت مواء بمتعة عندما غاص في الماء الساخن.

عندما استلقى بريوير في سريره، راح يفكر بماتيلد وهي تحكي لفرويد هذه الأمور الحميمة. فقد بدا أن فرويد قد أصبح فرداً من العائلة، فأصبح يتناول معهما طعام العشاء عدّة مرات في الأسبوع. في البداية، كانت العلاقة وطيدة بين بريوير وفرويد: ربما حل سيغ محل أدولف، أخوه الأصغر، الذي توفي منذ بضع سنوات. لكن في السنة الماضية، ازدادت ماتيلد وفرويد قرباً. فقد أتاح الفرق في عمرهما البالغ حوالي عشر سنوات الفرصة لماتيلد أن تبدي عاطفتها الأمومية، لأنها دأبت على القول إن فرويد يذكّرها بجوزيف عندما التقت به أول مرة.

تساءل بريوير ما الضير في أن تخبر ماتيلد فرويد عن فتور عاطفتي تجاهها؟ ماذا سيحدث حقاً؟ لا بد أن فرويد يعرف، لأنه يسجّل كلّ شيء يجري في الأسرة. فعلى الرغم من أنه لا يجيد تشخيص الأمراض، فمن النادر أن تفوته ملاحظة شيء يتعلق بالعلاقات الإنسانية. ولا بد أنه لاحظ كم أن الأطفال يتلهفون لحبّ والدهم. فقد كان روبرت وبيرثا ومارغريث ويوهانز يدورون حوله ويصرخون بسعادة «العمّ سيغي»، حتى دورا الصغيرة، كانت تبتسم عندما تراه. لا شك في أن وجود فرويد في الأسرة أمر جيد. وكان بريوير يعرف حق المعرفة أنه لا يستطيع أن يمنح ذلك الحضور الذي تحتاج إليه أسرته. نعم، لقد حلّ فرويد محله. لكنه بدلاً من أن يشعر بالخجل من نفسه، كان يشعر بالامتنان لصديقه الشاب.

وكان بريوير يعرف أنه لا يستطيع أن يعترض على تذمر ماتيلد من

زواجهما. ولها أسبابها في ذلك. فقد كان يعمل في مختبره كل يوم حتى منتصف الليل تقريباً، وكان يمضي فترات الصباح في أيام الأحد في مكتبه يعدّ المحاضرات التي سيلقيها بعد ظهر يوم الأحد على طلاب كلية الطبّ. وكان يمضي أمسيات عديدة في الأسبوع لفترات طويلة في المقهى حتى الساعة الثامنة أو التاسعة مساء، كما أصبح يلعب مرّتين في الأسبوع لعبة التاروك، بل حتى أصبح لا يأتي لتناول طعام الغداء في منتصف النهار الذي كان يعتبر على الدوام وقتاً عائلياً مقدساً. كان جوزيف يثقل نفسه بالمواعيد مرّة في الأسبوع على الأقل، ويعمل خلال استراحة العشاء. وعندما كان ماكس يأتي لزيارتهم، كانا ينسحبان إلى مكتبه ويلعبان الشطرنج لعدة ساعات.

لم يأخذ قيلولة هذا المساء، بل دخل بريوير إلى المطبخ وسأل ماذا حلّ بالعشاء. كان يعرف أن فرويد يحبّ أن يأخذ حماماً حاراً طويلاً، لكنه كان متلهّفاً لتناول الطعام ليتاح له مزيد من الوقت في المختبر. قرع باب الحمّام وقال: «سيغ، عندما تنهي حمامك، تعال إلى غرفة المكتب. لقد وافقت ماتيلد على أن نتناول العشاء هناك».

جفّف فرويد نفسه بسرعة، وارتدى غيارات جوزيف، وترك ملابسه الداخلية في سلة الغسيل، وراح يساعد بريوير وماتيلد في حمل أطباق الطعام. (ومثل معظم سكان فيينا، تتناول عائلة بريوير وجبة طعامها الرئيسية في منتصف النهار، وفي المساء، تتناول عشاء خفيفاً مما تبقى من الطعام بارداً). كان باب المطبخ الزجاجي مغبشاً بالضباب. عندما فتحه، دهمت أنف فرويد رائحة حساء الجزر والشعير والكرفس الساخن اللذيذة.

حيتّه ماتيلد التي كانت لا تزال تحمل مغرفة في يدها، وقالت: «سيغي، لأن الطقس شديد البرودة في الخارج، فقد أعددت حساء حاراً. إنكما بحاجة إليه».

تناول فرويد الصينية منها، وسألها، «صحنان فقط؟ ألن تشاركينا الطعام؟»

«عندما يقول جوزيف إنه يريد أن يتناول الطعام في مكتبه، فهذا يعني أنه يريد أن يحدّثك على انفراد».

«ماتيلد»، قال بريوير معترضاً، «إني لم أقل ذلك. لن يزورنا سيغ مرة أخرى إذا لم تشاركينا العشاء».

«لا، أنا متعبة، بالإضافة إلى أنكما لم تمضيا وقتاً معاً هذا الأسبوع».

عندما سارا في الممر الطويل، دخل فرويد إلى غرفة نوم الأطفال ليقبلهم ويتمنى لهم ليلة سعيدة. وقاوم توسلاتهم بأن يحكي لهم حكاية، ووعدهم بأن يحكي لهم قصّتين في زيارته القادمة، ثم انضمّ إلى بريوير في غرفة المكتب، وهي غرفة مظلمة فيها نافذة كبيرة في الوسط تغطيها ستارة سميكة حمراء داكنة. في الجزء الأوطأ من النافذة، بين الألواح الزجاجية الداخلية والخارجية، هناك عدّة وسادات تعمل بمثابة عازل، وقبالة النافذة تنتصب طاولة مكتب متينة مصنوعة من خشب الجوز تكدست فوقها كتب مفتوحة. ومدت على الأرض سجادة كاشان زرقاء سميكة موشاة بالزهور، وتغطي ثلاثة جدران من الأرض حتى السقف رفوف مكتبة مليئة بالكتب ذات أغلفة جلدية غامقة ثقيلة. وفي ركن بعيد في الغرفة، وضعت لويس على طاولة بيدرميير ذات أرجل ذهبية وسوداء رفيعة مستدقة، دجاجة مشوية باردة، وسلطة الملفوف، وبذور الكراويا، وقشطة حامضة، وبضع قطع من الخبز ومياه معدنية. تناولت ماتيلد الآن صحنا الشوربة من الصينية التي كان يحملها فرويد، ووضعتهما على الطاولة وهمّت بمغادرة الغرفة.

مدركاً وجود فرويد، مدّ بريوير يده ولمس ذراع ماتيلد وقال لها: «ابقِ قليلاً. لا توجد لدي أنا وسيغ أسرار نخفيها عنك».

«لقد تناولتُ الطعام مع الأطفال. يمكنكما أن تتدبّرا أموركما بدوني».

«ماتيلد»، حاول بريوير أن يمازحها، «تقولين إنك لا ترينني وقتاً كافياً. وبالرغم من ذلك، فأنا هنا وتريدين الابتعاد عني».

هزّت رأسها وقالت: «سأعود بعد قليل بشيء من الحلوى». نظر بريوير إلى فرويد كأنه يريد أن يقول له: «ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟» وبينما كانت ماتيلد على وشك أن تغلق الباب وراءها، لاحظ نظرتها الواضحة باتجاه فرويد كأنها تقول له: «أترى ماذا حلّ بحياتنا معاً؟» لأول مرة، أدرك بريوير الدور الصعب والحسّاس الذي وضع صديقه الشاب فيه ليكون صديقاً مقرباً لزوجين ساخطين وكاتم أسرارهما!

بينما راح الرجلان يأكلان بصمت، لاحظ بريوير عيني فرويد تمسحان رفوف الكتب.

«هل أخصص لك رفّاً خاصاً لكتبك في المستقبل يا سيغ؟»

«كم أتمنّى ذلك! لكن ليس خلال السنوات العشر هذه يا جوزيف. فلا يوجد لدي وقت حتى للتفكير. إن الشيء الوحيد الطموح المتاح عن العلاج السريري في مستشفى فيينا العام حتى الآن لا يشكل سوى بطاقة بريدية. إني لا أفكر بالكتابة، بل بقراءة هذه الكتب. إن الهدف اللانهائي للمثقّف هو أن يصبّ كلّ هذه المعرفة في الدماغ من خلال فتحة لا يزيد قطرها على ثلاثة ملليمترات في القزحيّة».

ابتسم بريوير وقال: «يا لها من صورة رائعة! شوبينهاير وسبينوزا مقطّران، مكثّفان ويصبّان في قمع من خلال بؤبؤ العين، العصب البصري، مباشرة إلى الفصوص القذالية. أصبحت أحبّ أن آكل بعيني، فقد تعبت كثيراً من القراءة الجدّية».

«وماذا عن قيلولتك؟» سأله فرويد، «ماذا حلّ بها؟ ظننت أنّك ستستلقي قليلاً قبل العشاء».

«لم يعد بإمكاني أن أفعل ذلك. أظن أنني مرهق ولم أعد أستطيع أن أنام. لقد أيقظني نفس الكابوس الذي رأيته للمرة الثانية في منتصف الليل، ذلك الكابوس عن السقوط...».

«إحكِ لي يا جوزيف، ماذا رأيت بدقة؟»

«إن أرى الحلم نفسه في كلّ مرّة»، قال بريوير، وجرع كأساً مليئاً بماء سيلتزر. وضع شوكته، وأسند ظهره إلى مسند الكرسي. «إنه شديد الوضوح، لا بد أنني رأيته عشر مرات خلال السنة الماضية. في البداية، أشعر بأن الأرض تهتز، فينتابني الذعر وأخرج بحثاً عن...».

فكّر للحظة، محاولاً أن يتذكّر كيف وصف الحلم في المرة السابقة. ففي الحلم كان يبحث دائماً عن بيرثا، لكنه لا يريد أن يكشف كل شيء لفرويد. فلم يكن محرجاً لإخباره بأنه مغرم ببيرثا فقط، بل لم يكن يرى كذلك سبباً يجعله يعقّد علاقة فرويد بماتيلد إذا حدّثه عن أشياء ترغمه على كتمان هذا السر عنها.

«... بحثاً عن شخص. تبدأ الأرض تميد تحت قدمي، كالرمال المتحركة، وأبدأ أغوص في الأرض شيئاً فشيئاً، وأسقط على عمق أربعين قدماً، ثمّ يستقر بي المقام فوق بلاطة كبيرة. هناك كتابة على البلاطة. أحاول أن أفهم الكلمات المكتوبة لكنّي لا أستطيع قراءتها».

«حلم غريب يا جوزيف. هناك شيء واحد متأكّد منه وهو أن مفتاح فهم معناه يكمن في تلك الكلمات المكتوبة على البلاطة التي لا تستطيع قراءتها».

«هذا إذا كان للحلم أيّ معنى».

«لا بد أن يكون الأمر كذلك يا جوزيف. الحلم نفسه يتكرر عشر

مرات؟ من المؤكد أنك لا تريد أن يزعج نومك أمر تافه! لكن الجزء الذي يثير اهتمامي هو الأربعون قدماً. كيف عرفت أنها أربعون تماماً؟»

«عرفت ذلك، لكني لا أعرف كيف عرفت ذلك».

كعادته، بعد أن أتى فرويد على صحنه وازدرد آخر لقمة بسرعة، وقال: «إني متأكّد من أن الرقم دقيق. فأنت من صمّم الحلم! كما تعرف يا جوزيف، فإني لا أزال أجمع الأحلام، وأصبحت أكثر يقيناً من أن الأرقام الدقيقة في الأحلام تنطوي على أهمية حقيقية. ولدي مثال جديد على ذلك لا أظن أنني أخبرتك به. فقد أقمنا في الأسبوع الماضي حفل عشاء على شرف إسحاق شونبيرغ، أحد أصدقاء أبي».

«أعرفه. ابنه إغناز، أليس كذلك، المعجب بأخت خطيبتك؟»

«نعم، إنه هو، وهو معجب بمينا أكثر. حسناً، كان عيد ميلاد إسحاق الستّين، وحكى لي عن حلم رآه في الليلة الماضية. فقد كان يسير في طريق مظلم طويل وتوجد في جيبه ستون قطعة ذهبية. ومثلك، قال إنه متأكّد من هذا الرقم بدقة. كان يحاول الاحتفاظ بها، لكنّها كانت تتساقط من جيبه المثقوب، وكان الظلام دامساً فلم يتمكن من رؤيتها. لا أظن أنه حلم بستّين قطعة معدنية في عيد ميلاده الستّين من قبيل الصدفة. إني متأكد، وكيف لا يكون ذلك؟ من أن القطع الذهبية الستين تشير إلى سنوات عمره الستين».

«وماذا عن الثقب في جيبه؟» سأله بريوير، والتقط قطعة أخرى من لحم الدجاج.

«أظن أنه يتمنى في الحلم أن يخسر سنوات عمره ويعود أصغر سناً»، أجاب فرويد، ومدّ يده وتناول قطعة أخرى من اللحم.

«أو ربما يعبّر الحلم عن الخوف، الخوف من العمر وأنّه لن يبقى

لديه أحد قريباً! تذكّر أنه كان يسير في طريق مظلم طويل ويحاول أن يستعيد شيئاً كان قد فقده».

«نعم، أظن ذلك. ربما كانت الأحلام تعبّر عن أماني أو مخاوف، أو ربما تعبّر عن كليهما. لكن قل لي يا جوزيف، متى رأيت هذا الحلم آخر مرة؟»

«دعني أتذكر». تذكّر بريوير أنه رأى الحلم أول مرة بعد أن بدأ الشك يساوره عما إذا كانت معالجته لبيرثا ستساعدها على الشفاء، وعندما ازدادت إمكانية إرسال بيرثا إلى منتجع بيلفيو بسويسرا بعد أن حدّثها بذلك. ربما كان ذلك في بداية عام ١٨٨٢، أي قبل سنة تقريباً، كما قال لفرويد.

«ألم يكن ذلك في كانون الثاني الماضي، عندما أتيتُ لحضور العشاء بمناسبة عيد ميلادك الأربعين»، سأله فرويد، «مع عائلة ألتمان؟ إن كنت قد بدأت ترى هذا الحلم منذ ذلك الحين، فألا يعني ذلك أن الأربعين قدماً تعني أربعين سنة؟»

«حسناً، بعد شهرين سأبلغ الحادية والأربعين من العمر. لو كان ما تقوله صحيحاً، فألم يكن من الأجدر أن أسقط واحداً وأربعين قدماً في الحلم، بدءاً من كانون الثاني القادم؟»

رفع فرويد ذراعيه وقال: «بدءاً من هنا، يجب أن نسأل اختصاصياً. فقد وصلت إلى أقصى حدود نظريتي في الأحلام. هل يتغيّر الحلم حتى يتكيف مع التغيرات التي تطرأ في حياة الحالم؟ يا له من سؤال رائع! لماذا تأتي السنوات في صورة أقدام مثلاً؟ لماذا يتجشم صانع الحلم الصغير القابع في عقولنا كلّ هذا العناء لتمويه الحقيقة؟ في ظني أن الحلم لن يتغيّر إلى واحد وأربعين قدماً. أظن أن صانع الحلم يخشى أنه

إذا زاد قدماً واحداً عندما تكبر سنة أخرى فإنه سيصبح في غاية الوضوح، ويقضي بذلك على رمزية الحلم».

«سيغ»، ضحك بريوير وهو يمسح فمه وشاربه بمنديله، «هنا نختلف دائماً. فعندما تتحدث عن عقل منفصل آخر، جني مرهف في داخلنا، يصمم أحلاماً معقدة ويموهها ويخفيها عن عقلنا الواعي ـ فإن ذلك يبدو أمراً مضحكاً».

«إني أتفق معك. يبدو الأمر مضحكاً ـ لكنني مع ذلك أبحث عن الدليل على ذلك. انظر إلى جميع العلماء وعلماء الرياضيات الذين قالوا إنهم يحلّون مسائل رياضية مهمة في الأحلام! لا يوجد، يا جوزيف، تفسير آخر. إن فهمها يبدو مضحكاً وسخيفاً. لابدّ أن يكون هناك ذكاء منفصل، غير واع. إني متأكّد من أن...»

دخلت ماتيلد حاملة إبريق قهوة وقطعتين من حلوى التفاح والزبيب مكسوة بكريمة شلاغن، وقالت: «من أي شيء أنت متأكّد يا سيغ؟»

«الشيء الوحيد الذي أنا متأكّد منه هو أننا نريدك أن تجلسي معنا قليلاً. كان جوزيف على وشك أن يتحدث عن مريض رآه اليوم».

«لا أستطيع أن أبقى معكما. إن يوهانز يبكي، وإذا لم أذهب إليه الآن فإنه سيوقظ الآخرين».

عندما غادرت الغرفة، التفت فرويد إلى بريوير، وقال: «الآن يا جوزيف، ماذا عن لقائك الغريب ذاك مع أخت طالب الطبّ؟»

تردّد بريوير، مستجمعاً أفكاره. كان يريد مناقشة اقتراح لو سالومي مع فرويد لكنه خشي أن يؤدي ذلك إلى مزيد من الحديث عن معالجته لبيرثا.

«حسناً، أخبرها شقيقها بأنني أعالج بيرثا بابينهيم، وطلبت مني أن أعالج صديقاً لها مصاب باضطراب عاطفي بنفس الطريقة».

«كيف عرف طالب الطبّ هذا، الذي يدعى جينيا سالومي، عن بيرثا بابينهيم؟ فلم تكن تريد أن تحدثني عن هذه الحالة يا جوزيف. لا أعرف عنها شيئاً سوى أنك اتبعت في علاجها أسلوب التنويم المغناطيسي».

تساءل بريوير هل أدرك في صوت فرويد مسحة من الغيرة، ثم قال: «نعم، لم أتحدث كثيراً عن بيرثا يا سيغ. إن عائلتها معروفة كثيراً في المنطقة. ولم أكلمك عنها عندما علمت أن بيرثا صديقة خطيبتك. لكن منذ بضعة أشهر، أعطيتها اسماً مستعاراً وهو آنا و. وشرحت طريقة معالجتي لها باختصار في محاضرة لطلاب كلية الطبّ».

انحنى فرويد نحوه وقال: «لا أستطيع أن أحدثك عن شدة رغبتي في معرفة تفاصيل علاجك الجديد يا جوزيف. ألا يمكنك أن تحدثني على الأقل ما الذي تقوله لطلاب كلية الطبّ؟ إنك تعرف أنني أكتم الأسرار المهنية ـ حتى عن مارثا».

تردّد بريوير. إلى أي مدى يمكنني أن أحدّثه عنها؟ بالطبع هناك أشياء كثيرة يعرفها فرويد. لا بد أن ماتيلد، منذ عدة أشهر، لم تحتفظ بسر انزعاجها بأن زوجها يمضي وقتاً طويلاً مع بيرثا. فقد كان فرويد في زيارتهما عندما انفجرت ماتيلد غضباً ومنعت بريوير من أن يذكر اسم المريضة الشابة التي يعالجها في حضورها.

من حسن الحظ أن فرويد لم ير ذلك المشهد الكارثي الأخير في معالجته بيرثا! فلن ينسى بريوير ذلك اليوم الفظيع عندما ذهب إلى بيتها ووجدها تتلوى بآلام مخاض حمل كاذب، وهي تردد بصوت مرتفع ليسمعه الجميع: «إنه طفل الدكتور بريوير». وعندما سمعت ماتيلد ذلك، لأن الأخبار تنتقل بسرعة بين ربّات البيوت اليهوديات، طلبت منه أن يقوم زوجها بريوير بتحويل بيرثا إلى طبيب آخر على الفور.

هل حكت ماتيلد لفرويد عن كلّ ذلك؟ لم يشأ بريوير أن يسأله. ليس

الآن. ربما في وقت آخر، عندما تستقر الأمور. لذلك اختار كلماته بعناية: «بالطبع يا سيغ، فكما تعرف تنتاب بيرثا جميع الأعراض النموذجية للهستيريا - الاضطرابات الحسّية والحركية، والتشنجات العضلية، والصمم، والهلوسة، والنسيان، وفقدان الصوت، والرهاب - بالإضافة إلى أعراض غير عادية. فقد كانت تعاني مثلاً من بعض الاضطرابات اللغوية الغريبة، فلا تستطيع أحياناً أن تتحدث باللغة الألمانية لعدة أسابيع، لاسيما في الصباح، لذلك كنا نتحدث بالإنكليزية. والأغرب من كل ذلك، أن حياتها العقلية أصبحت مزدوجة: إذ يعيش جزءاً منها في الحاضر، ويعيش الجزء الآخر كردة فعل عاطفية للأحداث التي وقعت قبل سنة واحدة تماماً - عرفت ذلك عندما دققت مفكرة أمّها للسنة الماضية. كما أنها تعاني من ألم حادّ في أعصاب الوجه الذي لا يمكن تسكينه إلا بالمورفين، وبالطبع، فقد أدمنت عليه».

«ألم تعالجها بالتنويم المغناطيسي؟» سأله فرويد.

«في البداية كنت أنوي القيام بذلك. أردت تطبيق طريقة ليبولت بالتخلص من الأعراض بالإيحاء بالتنويم المغناطيسي. لكن بفضل بيرثا - فهي امرأة مبدعة جداً - اكتشفت أسلوباً جديداً تماماً في العلاج. ففي الأسابيع القليلة الأولى، كنت أزورها يومياً، وكنت أجدها دائماً في هذه الحالة من الهياج فلم أتمكن من عمل الكثير، لكني اكتشفت فيما بعد أنها تهدأ ويزول كل هياجها عندما تصف لي بالتفصيل كلّ الأمور التي أزعجتها طوال اليوم».

صمت بريوير قليلاً، وأغمض عينيه مستجمعاً أفكاره. كان يعرف أن ما يقوله مهماً ويجب أن يجمع كلّ الحقائق الهامة.

«استغرقت هذه العملية بعض الوقت. في أحيان كثيرة، كانت بيرثا تطلب ساعة من الزمن صباح كل يوم، كانت تطلق عليها عبارة «كنس

المدخنة» لتفرغ من عقلها جميع الأحلام والتخيلات المزعجة. وعندما كنت أعود لرؤيتها بعد الظهر، كانت تعتريها إزعاجات جديدة فتصبح بحاجة إلى كنس المدخنة مرة أخرى. وبعد أن تزيل من عقلها كل تلك الأوساخ اليومية، يصبح بإمكاني التركيز على التخفيف من حدة أعراضها التي تنتابها باستمرار. هنا يا سيغ، توصلت إلى اكتشاف مدهش».

بنبرة بريوير الرزينة، تسمّر فرويد الذي كان يشعل سيجاره، فترك عود الثقاب يحرق إصبعه من شدة لهفته لسماع ما سيقوله بريوير. فصاح متألماً «آخ، يا إلهي»، وراح يهزّ عود الثقاب ليطفئه، ومصّ إصبعه، وقال: «تابع يا جوزيف، فقد كان الاكتشاف المدهش هو...؟»

«حسناً، اكتشفت أنها عندما تعود إلى مصدر أحد الأعراض بالتحديد وتصفه لي بالتفصيل، فإن ذلك العرض يختفي من تلقاء نفسه دون الحاجة إلى اللجوء إلى التنويم المغناطيسي».

«مصدر؟» سأل فرويد بعد أن سحره ذلك الاكتشاف فألقى سيجاره في منفضة السجائر وتركه يحترق، ونسيه، وأضاف، «ماذا تقصد يا جوزيف بمصدر العرض؟»

«العنصر المهيّج الأصلي، الشيء الذي سبّبه».

«أرجوك!» طلب فرويد، «اضرب لي مثالاً».

«سأحدّثك عن رُهاب الماء. فلم تكن بيرثا تستطيع أن تشرب الماء منذ عدة أسابيع. كانت تشعر بعطش شديد، لكنها عندما كانت ترفع كأس الماء، لا تستطيع أن تشربه وتضطر إلى إطفاء عطشها بتناول البطيخ وفواكه أخرى. وفي أحد الأيام عندما كانت في غيبوبة ـ فقد كانت تنوّم نفسها مغنطيسياً وتدخل تلقائياً في غيبوبة في كلّ جلسة ـ تذكّرت كيف أنها دخلت قبل عدة أسابيع غرفة ممرضتها ورأت كلبها يلعق الماء من الكأس التي كانت تشرب منها. ما إن روت لي هذه

الحادثة، وأفرغت شحنة غضبها واشمئزازها الشديدين، حتى طلبت كأساً من الماء وشربته من دون صعوبة، ولم تعد تنتابها هذه الأعراض مرة أخرى».

«رائع، رائع!» صاح فرويد، «ثم؟»

«بدأنا نعالج كل الأعراض بهذه الطريقة المنهجية. أعراض عديدة - مثل شلل ذراعها، وهلوستها البصرية برؤية جماجم بشرية وثعابين - المتجذّرة من الصدمة التي أصيبت بها عند وفاة أبيها. عندما وصفت ذلك المشهد بكلّ تفاصيله وأحاسيسه، طلبت منها، لتحفيز ذاكرتها، أن تعيد ترتيب أثاث الغرفة كما كان قبل وفاته، فزالت كلّ تلك الأعراض على الفور».

«رائع». نهض فرويد وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً من شدة حماسته، وأردف قائلاً: «النتائج النظرية رائعة وتتطابق كلية مع نظرية هيلمولزيان! فعندما تفرغ الشحنة الكهربائية المخّية الفائضة المسؤولة عن هذه الأعراض من خلال تطهير العواطف، فإن الأعراض تختفي في الحال. لكنك تبدو في غاية الهدوء يا جوزيف. إنه اكتشاف هائل. يجب أن تنشر هذه الحالة».

تنهّد بريوير بعمق وقال: «ربما، يوماً ما. لكن لم يحن الوقت بعد. لا تزال توجد تعقيدات شخصية كثيرة. فعليّ أن أراعي مشاعر ماتيلد. بعد أن وصفت لك أسلوب معالجتي لبيرثا، ما هي الفترة التي أحتاج إليها لمعالجتها في رأيك. لم تتمكن ماتيلد ولن تتمكن من تقدير الأهمية العلمية لهذه الحالة. فقد بدأت تستاء من الساعات الطويلة التي أمضيها مع مريضتي بيرثا، بل كانت شديدة الغضب، وترفض أن تتحدّث معي عنها».

ثم تابع بريوير، وقال: «كما أنني لا أستطيع أن أنشر حالة نهايتها

سيئة يا سيغ. لكن بسبب إصرار ماتيلد، توقفت عن معالجة بيرثا ونقلتها إلى مصحّة بنسوانجير في كريوزلنجين في تموز الماضي. إنها لا تزال تتلقى العلاج هناك. كان من الصعب التوقف عن إعطائها المورفين، ويبدو أن بعض أعراضها، مثل عدم قدرتها على التكلم بالألمانية، عادت إليها».

«بالرغم من كل شيء»، حرص فرويد على تفادي مسألة غضب ماتيلد، «فإن هذه الحالة تفتح آفاقاً جديدة يا جوزيف. فمن الممكن أن تفتح نهجاً جديداً كاملاً في طريقة المعالجة. هل يمكنك دراستها معي عندما يتاح لك الوقت؟ أريد أن أسمع كلّ التفاصيل».

«بكل سرور يا سيغ. توجد في العيادة نسخة عن الخلاصة التي أرسلتها إلى بنسوانجير، حوالي ثلاثين صفحة. يمكنك أن تقرأها».

أخرج فرويد ساعته من جيب سترته وقال: «آخ! لقد تأخر الوقت، ولم أسمع بعد قصّة شقيقة طالب الطبّ هذا. صديقتها التي تريد أن تعالجها بطريقتك الجديدة، هل هي مصابة بالهستيريا؟ وهل لديها أعراض تشبه أعراض بيرثا؟»

«لا، يا سيغ، هنا تبدأ القصة تصبح مثيرة للاهتمام. لا ليس هناك هستيريا، والمريض ليس «هي». فقد بدأت تنتاب صديقها الشاب الذي يحبها، أو كان يحبها، أعراض مرض حبّ الانتحار عندما تركته وذهبت إلى رجل آخر، أحد أصدقائه! يبدو أنها تشعر بالذنب، ولا تريد أن يعذبها ضميرها بسببه».

«لكن، جوزيف»، بدا فرويد مصدوماً، «مرض الحبّ. هذه ليست حالة طبية».

«كان هذا هو ردي الأول أيضاً. هذا تماماً ما قلته لها. لكن تمهل واسمع باقي القصة. لأنها ستزداد تشويقاً. فصديقها هذا، الذي هو

بالمصادفة فيلسوف متميز وصديق شخصي لريتشارد فاغنر، لا يريد الحصول على أي مساعدة، أو على الأقل، لا يسمح له كبرياؤه بأن يطلب مساعدة من أحد. إنها تطلب مني أن أكون ساحراً. فبحجة علاج حالته الصحية، تريدني أن أعالجه خلسة من ضيقه النفسي».

«مستحيل. بالتأكيد يا جوزيف، لا أظن أنك ستحاول ذلك؟»

«لكني وافقت».

«لماذا؟» التقط فرويد سيجاره ثانية وانحنى إلى الأمام، عابساً لقلقه على صديقه.

«لا أعرف يا سيغ. بعد أن انتهت حالة بابينهيم، اعتراني شعور بالضيق والركود. ربما أشعر بأني بحاجة إلى شيء آخر. لكن هناك سبباً آخر جعلني أقبل هذه الحالة! السبب الحقيقي هو أن شقيقة طالب الطبّ ذاك تمتلك قدرة كبيرة على الإقناع. لم أتمكن من رفض طلبها. كم ستكون ناجحة لو عملت في إرساليات التبشير! يخيّل لي أنها تستطيع أن تحوّل حصاناً إلى دجاجة. إنها فتاة استثنائية، لا أستطيع أن أصف لك كيف. إذا التقيت بها ذات يوم فإنك سترى بنفسك».

استوى فرويد واقفاً، تمطّى ثم اتجه نحو النافذة، وفتح الستائر المخملية. عندما لم يتمكن من الرؤية عبر النافذة بسبب البخار الذي تشكل على الزجاج، أخرج منديله ومسح بقعة صغيرة فيه.

«ألا يزال المطر يهطل يا سيغ؟» سأله بريوير، «هل نطلب أن يأتي فيشمان؟»

«لا، كاد يتوقّف. سأعود مشياً. لكن عندي المزيد من الأسئلة عن مريضك الجديد. متى ستراه؟»

«لم أسمع منه بعد. وهذه مشكلة أخرى. فهو والسيدة سالومي ليسا على علاقة جيدة الآن. في الواقع، أرتني بعض رسائله الحانقة. أكدت

لي أنّها سترتّب له أن يأتي لاستشارتي. لا يوجد لدي أدنى شكّ بأنها، في هذا الأمر كما في الأمور الأخرى، ستفعل ما قررت القيام به».

«وهل تحتاج طبيعة مشاكل هذا الرجل الطبية إلى استشارة طبية؟»

«بالتأكيد. فهو مريض جداً، وقد استشار حوالي عشرين طبيباً، يتمتع الكثير منهم بسمعة ممتازة. لقد وصفت لي قائمة طويلة من أعراض الصداع الحادّ التي تلمّ به، عمى جزئي، غثيان، أرق، قيء، عسر هضم حاد، مشاكل في التوازن، ضعف جسدي».

عندما رأى فرويد يهز رأسه محتاراً، أضاف بريوير قائلاً: «إن كنت تريد أن تصبح طبيباً، فعليك أن تتعوّد على مثل هذه الصور السريرية المحيّرة. فالمرضى الذين تنتابهم أعراض عديدة وينتقلون من طبيب إلى آخر، يشكلون جزءاً يومياً آخر في عيادتي. قد تكون هذه حالة تعليمية جيدة لك يا سيغ. سأطلعك عليها». ثم فكّر بريوير للحظة وأضاف، «لنجر الآن اختباراً سريعاً لدقيقة واحدة. بناء على هذه الأعراض، ما هو تشخيصك الآخر؟»

«لا أعرف يا جوزيف».

«لا تكن شديد الحذر. هيا خمّن. فكّر بصوت عال».

احمرّ وجه فرويد. فعلى الرغم من أنه كان متلهفاً للمعرفة، كان يكره أن يظهر جهله، وقال: «لعله تصلّب أنسجة متعدّد، أو ورم دماغي قفوي. ربما تسمّم بالرصاص؟ لا أعرف».

أضاف بريوير «لا تنس داء الشقيقة. وماذا عن الوسواس الوهمي؟»

فقال فرويد: «المشكلة هي أن عدم وجود أي من هذه التشخيصات يفسّر كلّ الأعراض».

نهض بريوير، وراح يتحدث بنبرة سرّية، «سيغ، سأفشي لك سرّاً من أسرار المهنة. ذات يوم ستكسب رزقك من العمل كطبيب. لقد تعلّمت

ذلك من أوبولزير الذي قال لي ذات مرة، إن الكلاب قد تصاب بالبراغيث والقمل أيضاً».

«هذا يعني أن المريض يمكنه أن....».

أرخى بريوير يده على كتف فرويد، وراح الرجلان يمشيان في الممر الطويل، وقال: «نعم. فقد يصاب المريض بمرضين في وقت واحد. وإذا كان ذلك حقيقياً، فإن هؤلاء المرضى الذين يأتون لاستشارة طبيب يكونون ذلك بصورة عامة».

«لكن لنعد إلى المشكلة النفسية يا جوزيف. تقول فتاتك إن هذا الرجل لن يعترف بأنه مصاب باليأس. بل إنه لن يعترف بأنه سيقدم على الانتحار، كيف ستفعل؟»

فقال بريوير بثقة: «هذه ليست مشكلة. فعندما أدرس تاريخ حالة طبية، أستطيع أن أجد دائماً فرصة للانسلال إلى العالم النفسي. فعندما أستفسر عن الأرق مثلاً، أسأل المريض غالباً ما هي الأفكار التي تؤرقه، أو بعد أن يقدم المريض قائمة كاملة بالأعراض التي تنتابه، أبدي تعاطفاً معه وأسأله هل يشعر بالإحباط بسبب مرضه، أو أنه يريد أن يستسلم، أو أنه لا يريد أن يعيش أكثر. بهذه الطريقة قلما أخفق في إقناع المريض بأن يخبرني كل شيء».

عندما وصلا إلى باب المنزل، ساعد بريوير فرويد في ارتداء معطفه، ثم قال له: «لا يا سيغ، ليست هذه هي المشكلة. إني أؤكد لك بأنني لن أجد صعوبة في كسب ثقة فيلسوفنا وأجعله يعترف بكلّ شيء، بل المشكلة تكمن في ماذا أفعل بما سأعرفه».

«نعم، ماذا ستفعل إذا كان يرغب في الانتحار؟»

«إذا اقتنعت بأنه ينوي الانتحار فإني سأحبسه فوراً، إما في مستشفى المجانين في برانلفيلد أو في مصحّة خاصّة مثل بريسلوير في

إنزيردورف. لكن لا تكمن المشكلة هنا يا سيغ. فكّر في الأمر، فإذا كان يرغب في الانتحار، فهل تظن أنه يريد أن يأتي لاستشارتي؟»

«نعم، طبعاً»، نقر فرويد الذي بدا مرتبكاً على جانب رأسه لأنه لم يفهم بسرعة.

واصل بريوير قائلاً: «لا، إن المشكلة الحقيقية ستكمن في ماذا يمكنني أن أفعل له إذا لم يكن يرغب في الانتحار، بل كان يعاني من آلام فقط».

فقال فرويد: «نعم. ماذا بعد ذلك؟»

«في هذه الحالة، سأقنعه بزيارة كاهن، أو ربما يحصل على علاج لفترة طويلة في مارينباد، أو أن أتمكن من استنباط طريقة خاصة بي لمعالجته».

«تستنبط طريقه لمعالجته؟ ماذا تقصد يا جوزيف، أي نوع من الطرق؟»

الفصل ٤

بعد أسبوعين، كان بريوير جالساً في مكتبه، مرتدياً معطفه الأبيض، يقرأ الرسالة التي أرسلتها له لو سالومي:

٢٣ تشرين الثاني ١٨٨٢

عزيزي الدكتور بريوير،

خطتنا تسير على ما يرام. البروفسور أوفيربيك يتفق مع وجهة نظرنا تماماً بأنّ الحالة شديدة الخطورة. قال إنه لم ير نيتشه في حالة أسوأ مما هو عليه الآن، وقال إنه سيبذل كلّ ما له من تأثير على نيتشه لإقناعه بزيارتك. لن أنسى أنا ونيتشه لطفك في هذا الأمر في الوقت الذي نحتاج فيه إليك كثيراً.

لو سالومي

«*خطتنا، وجهة نظرنا، حاجتنا.، نا، نا نا.*» وضع بريوير الرسالة التي قرأها ربما للمرّة العاشرة منذ أن تلقاها الأسبوع الماضي. رفع المرآة من على طاولة مكتبه ونظر إلى نفسه فيها وقال «نا». رأى شفتين ورديتين رقيقتين بينهما فتحة داكنة صغيرة في وسط شعر خشن كستنائي اللون. فتح الفتحة أكثر ورأى شفتين مطاطتين تحيطهما أسنان مصفرّة برزت من لثته كأنها شواهد قبور دفن نصفها في التراب. شعر وفتحة، قرن وأسنان، قنفذ، حصان البحر، قرد، جوزيف بريوير.

لم يعجبه شكل لحيته. فقد بدأت ترى في هذه الأيام وجوهاً حليقة كثيرة في الشارع. متى سيجد الشجاعة الكافية ليحلق هذه الكتلة الكثة الفوضوية من الشعر؟ كان يكره أيضاً بعض الشعرات الرمادية التي بدأت تنبت بمكر في شاربيه، على الجانب الأيسر من ذقنه، وعلى سالفيه، لأنه يعرف أن هذه الشعرات الخشنة الرمادية ما هي إلا بداية غزو شتوي متقدّم، ولن يتمكن شيء من أن يوقف زحف الساعات والأيام والسنوات.

لم يحب بريوير كلّ ما عكسته المرآة، لا الامتداد الرمادي والأسنان الحيوانية المصفرّة والشعر الكث فحسب، بل الأنف المعقوف المائل نحو ذقنه، والأذنان الكبيرتان البارزتان، والجبهة العارية الواسعة التي بدأ الصلع يزحف إليها وامتد إلى الخلف بلا رحمة، كاشفاً عن جمجمته العارية.

والعينان! هدأ بريوير قليلاً ونظر في عينيه. كان بإمكانه أن يجد الشباب فيهما دائماً. رمش. رمش عدة مرات وأشار إلى نفسه، نفسه الحقيقية، إلى جوزيف الذي لم يتجاوز الستة عشر عاماً القابع في هاتين العينين. لكنه لم يتلق تحية اليوم من جوزيف الشاب، بل رأى فيهما عيني والده تحدقان، عينان كليلتان متعبتان يعلوهما جفنان مجعدان محمّران. نظر بريوير بافتنان عندما شكّل فم أبيه فتحة ليقول: «نا، نا، نا». بدأ بريوير يفكّر بأبيه، ليوبولد بريوير، الذي توفي قبل عشر سنوات وهو في الثانية والثمانين من العمر، أي أكبر من جوزيف باثنتين وأربعين سنة الآن.

أعاد المرآة إلى مكانها. لا يزال أمامه اثنتان وأربعون سنة! كيف يمكنه أن يعيش اثنتين وأربعين سنة أخرى؟ عليه أن ينتظر اثنتان وأربعون سنة حتى تمر كل تلك السنوات. اثنتان وأربعون سنة من التحديق في عينيه اللتين بدأتا تشيخان. ألا يوجد مهرب من سجن الزمن؟ كم كان

يتمنى أن يبدأ من جديد! لكن كيف؟ أين؟ مع من؟ ليس مع لو سالومي. إنها فتاة حرّة، وتستطيع أن تصفق بجناحيها متى شاءت، ولن تدخل سجنه. لكن لن تكون حياة«نا» معاً ـ لا حياة«نا» الجديدة.

وتساءل أيضاً هل يمكن أن تكون حيات«نا» ثانية مع بيرثا. عندما يتمكن من الإفلات من تلك الذكريات الدائرية القديمة عن بيرثا ـ أريج بشرتها برائحة اللوز، وضخامة ثدييها تحت ثوبها، وحرارة جسمها وهي تميل إليه عندما تدخل في غيبوبة. عندما يتمكن من التراجع بضع خطوات بعد أن يتمالك نفسه، يدرك أن بيرثا ليس إلا مجرد وهم خادع.

بيرثا المسكينة، المجنونة، عديمة الشكل ـ يا له من حلم أحمق أنه خيّل إليّ أنني سأتمكن من جعلها امرأة كاملة، عاقلة، أن أشكّلها من جديد، حتى تتمكن، بدورها، أن تعطيني. ماذا؟ هذا هو السؤال. عمَّ أبحث فيها؟ ماذا ينقصني؟ ألا أعيش حياة رغدة؟ من هو الشخص الذي أستطيع أن أشكو إليه بأن حياتي آخذة في الانحدار باستمرار؟ من يمكنه أن يفهم عذابي، لياليي المؤرقة، مغازلتي للانتحار؟ لكن ألا أملك كل ما يتمنّى أي شخص أن يملكه: المال، الأصدقاء، أسرة جميلة، زوجة فاتنة، الشهرة، الاحترام؟ من سيريحني؟ من لن يسأل ذلك السؤال الواضح: «ماذا تريد أكثر من ذلك؟»

باغت بريوير صوت السيدة بيكر معلنة عن وصول فريدريك نيتشه مع أنه كان ينتظره.

كانت السيد بيكر، المكتنزة، القصيرة القامة، التي امتلأ شعرها شيباً، بنظارتها السميكة، الحيوية، تدير عيادة بريوير بدقّة مدهشة. فقد كرست كل وقتها لعملها فلم تعد ثمة بقايا مرئية من حياتها الخاصة. ومنذ أن بدأت العمل في عيادته منذ ستة أشهر، لم يتبادل بريوير معها كلمة واحدة عن حياتها الشخصية. ومهما بذل من جهد، لم يتمكن من تذكّر اسمها الأول أو يتخيّل أنها يمكن أن تزاول شيئاً غير مهنة

التمريض. هل تذهب السيدة بيكر في نزهة؟ هل تقرأ صحيفة الصباح *Neue Freie Presse*؟ هل تغطس في حوض الحمام؟ هل يمكن أن تكون السيدة بيكر المكتنزة عارية؟ هل يعتليها أحد؟ هل تلهث بشبق؟ أمر لا يصدّق!

مع أنه استبعد بريوير صورتها كامرأة، كانت السيدة بيكر امرأة شديدة الملاحظة، وكان يهتم بالاستماع إلى تقييمها وانطباعاتها الأولية.

«ما هو الانطباع الذي خلّفه البروفسور نيتشه عليك؟»

«للسيد الدكتور هيئة رجل محترم، لكنه ليس أنيقاً مثل رجل محترم: يبدو خجولاً. يكاد يكون متواضعاً. أسلوبه لطيف في التعامل، يختلف كثيراً عن الكثيرين من الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء الذين يأتون إلى العيادة ـ كتلك السيدة الروسية العجوز التي أتت قبل أسبوعين».

كان بريوير نفسه قد لاحظ رقة ولطفاً في الرسالة التي بعثها له البروفسور نيتشه التي يطلب فيها زيارة الدكتور بريوير في الوقت الذي يلائمه لاستشارته عن وضعه الصحي خلال الأسبوعين القادمين، إن كان ذلك ممكناً. وذكر نيتشه في رسالته بأنه سيسافر إلى فيينا لهذا الغرض، وحتى يتلقى جواباً منه سيبقى في بازل مع صديقه، البروفسور أوفيربيك. ابتسم بريوير عندما قارن رسالة نيتشه برسائل لو سالومي التي تطلب منه أن يراها في الوقت الذي تحدده هي.

بينما كان ينتظر السيدة بيكر إدخال نيتشه، ألقى بريوير نظرة فاحصة على طاولة المكتب، وذعر عندما رأى الكتابين اللذين أعطتهما له لو سالومي. فقد تصفحهما البارحة لمدة نصف ساعة تقريباً وتركهما في مكان ظاهر. كان يعرف أنه إذا رآهما نيتشه، فإن الجلسة ستنتهي قبل أن تبدأ، لأنه سيكون من المستحيل تفسير ذلك دون أن يذكر لو سالومي.

قال بريوير لنفسه هذا إهمال فظيع من جانبي. هل أسعى إلى تهديم هذا المشروع قبل أن يبدأ؟

بسرعة حشر الكتابين في درج طاولة المكتب، واستوى واقفاً لاستقبال نيتشه. لم يكن البروفسور يتوقّع أن يراه كما وصفته لو سالومي. فقد اتسم سلوكه باللطف الشديد، وعلى الرغم من بنيته المتينة: طوله حوالي مائة وسبعين سنتمتراً، ووزنه قرابة خمسة وسبعين كيلو غراماً، كانت هيئته توحي بشيء غريب، كأنك تستطيع أن تمرر يدك عبرها. كان يرتدي بدلة سميكة داكنة، تشبه البدلات العسكرية، وتحت سترته يرتدي كنزة بنية ثقيلة كالتي يرتديها الفلاحون تكاد تغطي قميصه وربطة عنقه البنفسجية.

عندما صافحه، لاحظ بريوير أن يد نيتشه باردة وقبضته ضعيفة.

«طاب يومك هير البروفسور، لكنه ليس يوماً جيداً بالنسبة لشخص مسافر، يمكنني أن أتصور».

«لا، دكتور بريوير، ليس يوماً جيداً للسفر، ولا للأمر الذي أحضرني إليك. إني أحرص على تحاشي الخروج في مثل هذا الطقس. إن سمعتك الممتازة فقط هي التي دفعتني لقطع كل هذه المسافة إلى الشمال في الشتاء».

قبل أن يجلس على الكرسي الذي أشار إليه بريوير، وضع نيتشه حقيبة منتفخة مهترئة أولاً على أحد جانبي الكرسي، ثم نقلها إلى الجانب الآخر، باحثاً عن مكان مناسب يضعها فيه.

جلس بريوير بهدوء وظل يراقب مريضه الذي بدأ يشعر بالارتياح. وبالرغم من هيئة نيتشه المتواضعة، كان يشي بحضور قوي. كان رأسه القوي هو الذي أثار انتباه بريوير، خاصة عيناه بلونهما البني الناعم، لكن الحادتين والعميقتين القابعتين تحت حافة مدارية بارزة. ماذا قالت

لو سالومي عن عينيه؟ يبدو أنهما تحدقان إلى الداخل، كأنهما تنظران إلى كنز خفي؟ نعم، كان باستطاعة بريوير رؤية ذلك. كان شعر مريضه البني اللامع ممشطاً بعناية، بالإضافة إلى شاربيه الطويلين المتهدلين مثل انهيار جليدي على طرفي فمه حتى ذقنه، كان حليق الوجه. أثار شارب نيتشه إحساساً بالقرابة المشعرة في بريوير: رغب في تحذير البروفسور بعدم تناول المعجنات في المحلات العامة في فيينا، خاصة تلك التي تتكدس فوقها كمية كبيرة من الشلاج، وإلا تعين عليه أن يزيلها من شاربيه الكثين لاحقاً. كان صوت نيتشه الناعم مفاجئاً، أما الصوت في كتابيه فهو قوي، جريء، حازم، عالي النبرة. كان على بريوير أن يلاحظ هذا التناقض الصارخ بين نيتشه المصنوع من لحم ودم وبين نيتشه القلم والورق.

بالإضافة إلى مناقشته المقتضبة مع فرويد، لم يفكر بريوير كثيراً بهذه الزيارة غير العادية. وللمرة الأولى، تساءل بجدية عن الحكمة من تورطه في هذا الأمر. لقد ذهبت لو سالومي الفاتنة، المتآمرة الرئيسية، منذ فترة طويلة، وها هو البروفسور المخدوع المطمئن، نيتشه يجلس في المكان الذي جلست فيه. هنا يلتقي رجلان نتيجة ذرائع وحجج امرأة لا بد أنها تحيك لهما مؤامرة جديدة. لا، إنه لا يمتلك الشجاعة لخوض هذه المغامرة.

لكن آن الأوان لأن يضع كلّ ذلك وراءه، قال بريوير لنفسه. رجل يقول إنه يريد أن يتخلص من حياته، أصبح مريضي الآن، ويجب أن أوليه كلّ اهتمامي.

«كيف كانت رحلتك، بروفسور نيتشه؟ فهمت أنك وصلت للتو من بازل؟»

«لم تكن تلك إلا محطتي الأخيرة»، قال نيتشه الجالس متشنجاً،

«لقد أصبحت حياتي كلها رحلة، وبدأت أشعر أن بيتي الوحيد، المكان المألوف الوحيد الذي أعود إليه دائماً، هو مرضي».

إنه ليس من الرجال الذين يمكن الهذر معهم، قال بريوير لنفسه، «إذن، بروفسور نيتشه، دعنا ندخل مباشرة في موضوع مرضك».

«هل من المفيد أن تطلع على هذه الوثائق أولاً؟» وأخرج نيتشه من حقيبته ملفاً ثقيلاً محشواً بالأوراق.

«ربما كنتُ مريضاً طوال حياتي، لكن المرض اشتد في السنوات العشر الماضية. ها هي كل التقارير الطبية السابقة. هل تريد أن تطلّع عليها؟»

أومأ بريوير. فتح نيتشه الملف ومدّ يده ووضع محتوياته على طاولة المكتب: رسائل ومخططات وتقارير من مستشفيات ومختبرات، أمام بريوير.

ألقى بريوير نظرة فاحصة على الصفحة الأولى التي تضم لائحة بأربعة وعشرين طبيباً وتاريخ كلّ استشارة طبية. قرأ اسماء عدّة أطباء سويسريين وألمان معروفين، وأسماء عدد من الأطباء الإيطاليين المشهورين.

«إني أعرف بعض هؤلاء. كلهم أطباء مشهود لهم بالخبرة! أرى ثلاثة منهم هنا ـ كيسلير وتورين وكوينيج ـ إني أعرفهم حق المعرفة. لقد درسوا في فيينا. كما ألمحت يا بروفسور نيتشه، فليس من الحكمة تجاهل ملاحظات هؤلاء الرجال الممتازين والنتائج التي توصلوا إليها ـ مع أنه من الخطأ أن أبدأ بها، لأن الآراء والاستنتاجات الحازمة تكبت قدرة المرء على التخيّل، ولهذا السبب، فإني أفضّل أن أقرأ المسرحية قبل مشاهدتها على المسرح، وبالطبع قبل قراءة المراجعات المكتوبة عنها. ألا تجد أن هذا الأمر ينطبق على عملك أيضاً؟»

دهش نيتشه. جيد، قال بريوير لنفسه، يجب أن يرى البروفسور نيتشه

أنني طبيب من طينة مختلفة. فهو غير معتاد على رؤية أطباء يناقشون الأمور النفسية أو يستفسرون بدراية عن مهنة المريض.

أجاب نيتشه، «نعم. إنه اعتبار هام في عملي. إن تخصصي الأصلي هو فقه اللغة. فقد كانت أول وظيفة عُيِّنت فيها، وهي الوظيفة الوحيدة، أستاذاً في علم فقه اللغة في بازل. لديّ اهتمام شديد بالفلاسفة الذين سبقوا سقراط، وأجد معهم دائماً أن العودة إلى النصّ الأصلي أمر بالغ الأهمية. إن مفسري النصوص هم مخادعون دائماً ـ لا عن قصد، بالطبع ـ لكنّهم لا يستطيعون الخروج من إطارهم التاريخي، ولهذا السبب، لا يستطيعون الخروج عن إطار سيرتهم الذاتية».

«لكن ألا تظن أن عدم الإشادة بالمفسرين يجعل المرء مكروهاً في الأوساط الأكاديمية؟» أحس بريوير بالثقة. إن الأمور تسير على ما يرام. فقد بدأ ينجح في إقناع نيتشه بأنه، هو طبيبه الجديد، شخص قريب منه، لديه اهتمامات قريبة من اهتماماته. لن يكون من الصعب إغواء بروفسور نيتشه هذا. لقد اعتبر بريوير ذلك إغواء حقاً، كما لو أنه يغوي مريضه إلى علاقة لم يسعَ هو إليها ليحصل على مساعدة لم يطلبها.

«مكروه؟ بلا شكّ! فقد اضطررت إلى التخلي عن أستاذيتي في الجامعة قبل ثلاث سنوات بسبب المرض ـ المرض الذي لم يتمكن أحد من تشخيصه والذي جلبني اليوم إليك. لكن حتى لو كنت أنعم بصحة ممتازة، فإنه يخيّل إليّ أن عدم ثقتي بالمفسرين ستجعلني ضيفاً مكروهاً في نهاية الأمر على المائدة الأكاديمية».

«لكن، بروفسور نيتشه، إذا كان جميع المفسرين مقيدين في إطار سيرتهم الذاتية، فكيف يمكنك الإفلات من القيود نفسها في عملك؟»

فأجاب نيتشه، «أولاً، يجب على المرء أن يحدد ما هي القيود، ثم

يجب أن يتعلّم كيف يرى نفسه من بعيد، مع أن شدّة مرضي هي التي تقيد آرائي أحياناً».

لم يفت بريوير أن يدرك أن نيتشه، لا هو، الذي جعل حديثهما يدور حول مرضه الذي كان سبب لقائهما. هل يستشف لوماً مبطناً في كلمات نيتشه؟ «لا تحاول كثيراً يا جوزيف»، قال مذكّراً نفسه، «يجب ألا يسعى الطبيب إلى اكتساب ثقة المريض به بشكل صريح، لأنها ستأتي بصورة طبيعية». وعلى الرغم من أن بريوير ينتقد نفسه بشدة في أمور كثيرة في الحياة، فإنه يتمتع بثقة عالية بنفسه كطبيب. «لا تعمل قواداً، لا تتآمر، ولا تضع خططاً سريّة»، تقول له غرائزه، «بل امض بكل بساطة في عملك بأسلوبك المهني المعتاد».

«لنعد إلى عملنا، بروفسور نيتشه. ما أقصد أن أقوله هو أنني أفضّل أن أدرس تاريخك الطبي وأفحصك قبل أن أدرس سجلاتك. وفي لقائنا الثاني، سأزودك بدراسة شاملة بقدر ما بوسعي».

وضع بريوير صفحة فارغة على الطاولة أمامه وقال: «أخبرتني في رسالتك بضعة أمور عن حالتك: تقول إنك تعاني من الصداع وتنتابك أعراض بصرية منذ ما لا يقل عن عشر سنوات، وأنك تعاني من مرضك في أحيان نادرة فقط، وكما قلت فإن مرضك يتربص بك على الدوام. وها أنت تقول لي اليوم بأن ما لا يقل عن أربع وعشرين طبيباً لم يتمكنوا من مساعدتك. هذا كلّ ما أعرفه عنك. إذاً، هل نبدأ؟ أولاً، أرجو أن تخبرني بكلماتك أنت كلّ شيء عن مرضك».

الفصل ٥

ظل الرجلان يتحدثان طوال تسعين دقيقة. كان بريوير الجالس في كرسيه الجلدي العالي الظهر، يدوّن ملاحظاته بسرعة. وجلس نيتشه الذي كان يتوقّف بين الحين والآخر ليفسح المجال لقلم بريوير اللحاق بالكلمات التي ينطقها بسرعة، على كرسي جلدي مريح أصغر من الكرسي الذي يجلس عليه بريوير. ومثل معظم الأطباء آنذاك، كان بريوير يفضّل أن ينظر إليه مرضاه من الأسفل.

كان تقييم بريوير السريري شاملاً ومنهجياً. فبعد أن يستمع بعناية إلى المريض يصف أعراض مرضه بحرية، يدرس كلّ عَرَضٍ من الأعراض على حدة بطريقة منهجية ـ بداية ظهوره، تحوله مع مرور الزمن، مدى استجابته للعلاجات المختلفة. وفي الخطوة الثالثة يفحص كلّ عضو من أعضاء الجسم من قمة الرأس، حتى القدمين. أولاً الدماغ والجهاز العصبي. يبدأ بالاستفسار عن عمل الأعصاب القحفية الاثني عشرة ـ حاسة الرائحة والرؤية وحركات العين والسمع وحركة اللسان والوجه والإحساس والابتلاع والتوازن والتكلم.

وفي الجزء الأسفل من الجسم، يفحص بريوير، وظيفة كل جهاز الواحد تلو الآخر: الجهاز التنفسي والقلب والجهاز الوعائي والمعوي والتناسلي ـ البولي. يحفّز هذا الفحص الدقيق للأعضاء ذاكرة المريض ويضمن عدم نسيان أي شيء: لم يكن بريوير يحذف أيّ جزء منه، حتى لو كان متأكّداً قبل إجراء الفحص.

ثم يأتي دور التاريخ الطبي بدقة: صحة المريض في فترة الطفولة، صحة والديه وأشقائه، ويبحث في كلّ جانب من جوانب حياته الأخرى ـ اختياره لمهنته، حياته الاجتماعية، الخدمة العسكرية، الأماكن التي انتقل إليها، أنواع الطعام المفضلة، وأوقات الفراغ. وتتمثل الخطوة النهائية في إطلاق العنان لحدسه وطرح جميع الأسئلة الأخرى التي تقترحها بياناته حتى الآن. بهذه الطريقة، تمكّن قبل أيام، من تشخيص حالة محيّرة من الضيق التنفسي، واكتشف أن المريضة مصابة بدودة الخنزير الحجابي بعد أن سألها هل طهت لحم الخنزير المملح المدخّن جيداً.

خلال كل ذلك ظل نيتشه شديد الانتباه، فقد كان يومئ بتقدير لكلّ سؤال يطرحه عليه بريوير الذي لم يفاجأ. فلم ير قط مريضاً لا يستمتع سراً بإجراء فحص دقيق لحياته. وكلما كانت قوة التجسيم أكبر، ازدادت متعة المريض بها. إن متعة أن يكون تحت الملاحظة تجري في أعماقه الأمر الذي جعل بريوير يصدّق أن الألم الحقيقي للشيخوخة والحرمان والعيش حياة أطول من أصدقائه، يكمن في غياب الاهتمام، الرعب من أن يعيش حياة لا يعيره فيها الآخرون الاهتمام.

لكن بريوير فوجئ من تعقيد أمراض نيتشه ومن دقة ملاحظات مريضه وشموليتها. فقد ملأ بريوير صفحة بعد صفحة بالملاحظات. بدأ يشعر بتعب في يده وهو يدوّن مجموعة مرعبة من الأعراض التي يصفها نيتشه: صداع شديد شنيع، دوار بحري على اليابسة ـ دوار واختلال في التوازن وغثيان وتقيؤ وفقدان شهية واشمئزاز من الطعام وحمّى وتعرّق ليلي كثيف يضطره إلى تغيير منامته وأغطية فراشه مرتين أو ثلاث مرات في الليلة الواحدة، بالإضافة إلى نوبات إعياء شديدة تكاد تقترب من الشلل العضلي المعمّم أحياناً، وألم معوي، وتقيؤ دم، وتشنجات معوية، وإمساك حادّ، وبواسير، ومشاكل بصرية إلى حد العجز ـ إعياء

العين، تدني متواصل في الرؤية، تدميع وألم متكرّر في عينيه، غباش في الرؤية، وحساسية شديدة إزاء الإضاءة، خاصة في الصباح.

سأل بريوير أسئلة أخرى عن أعراض أخرى أهمل نيتشه ذكرها أو أنه لم يرغب في ذكرها: وميض بصري وتعتيم، يسبقه غالباً صداع، وأرق معنّد، وتشنّجات عضلية ليلية حادّة، وتوتّر معمّم، ونوبات مزاجية سريعة لا يمكن تفسيرها.

تقلّب في المزاج! الكلمات التي كان بريوير ينتظرها. فكما وصف لفرويد، كان يعثر دائماً على نقطة مؤاتية يستطيع أن يتسلل من خلالها إلى حالة المريض النفسية. قد يكون «تقلب المزاج» هو المفتاح الذي قد يؤدّي إلى إصابة نيتشه باليأس ورغبته في الانتحار!

مضى بريوير بحذر، وطلب منه أن يستفيض في الحديث عن تقلّب مزاجه، فسأله، «هل لاحظت تغيرات طرأت على مشاعرك يبدو أنها تتعلق بمرضك؟»

لم يتغير سلوك نيتشه. بدا غير مبال بأن يفضي هذا السؤال إلى عالم أكثر حميمية. «تمر أوقات أشعر فيها، قبل يوم من إصابتي بالنوبة، بأنني في حالة ممتازة ـ وأبدأ أشعر بأنني في حالة ممتازة».

«وبعد حدوث النوبة؟»

«تستمر النوبة التي تنتابني عادة من اثنتي عشرة ساعة إلى يومين، ثم أشعر بالإرهاق والثقل، حتى أن تفكيري يزداد بطئاً لمدة يوم أو يومين. وفي بعض الأحيان، خاصة بعد نوبة تستمر أياماً عديدة، يختلف الأمر. فأشعر بالانتعاش، بالتطهر. أشعر بأني أتفجر بالطاقة. إني أحبّ تلك الأوقات لأن عقلي يعجّ بأندر الأفكار».

عندما عثر بريوير على هذا الأثر، لم يشأ أن يتخلّى عن متابعته بسهولة، فقال: «إلى متى يدوم شعورك بالإعياء والثقل؟»

«ليس لمدة طويلة. عندما تخفّ حدة النوبة ويعود جسمي إلى حالته السابقة، أستلم زمام المبادرة، عندها أرغم نفسي على التغلّب على شعوري بالثقل».

قال بريوير لنفسه قد يكون ذلك أصعب مما ظننت في البداية. يجب أن يكون مباشراً أكثر، فمن الواضح أن نيتشه لن يتطوّع ويقدم أيّ معلومات عن إصابته باليأس من تلقاء نفسه.

«وماذا عن المانخوليا السوداوية؟ إلى أيّ مدى ترافق نوباتك أو تليها؟»

«تنتابني فترات من السوداوية. ومن لا تعتريه هذه المشاعر؟ لكنها لا تستحوذ عليّ. لا علاقة لها بمرضي، بل بكياني. قد يقول أحدهم إنني أمتلك الشجاعة لذلك فهي تعتريني».

لاحظ بريوير ابتسامة نيتشه الطفيفة ونبرته الجريئة. للمرة الأولى، بدأ بريوير يتعرف على صوت الرجل الذي ألّف هذين الكتابين الجريئين الغامضين المخبئين في درج طاولة مكتبه. فكّر، لكن للحظة فقط، بتحد مباشر، عن قدرة نيتشه على التمييز بين عوالم مرضه وبين كيانه. وذلك التصريح بشجاعة بأنه تعتريه فترات من السوداوية، ماذا يقصد؟ لكن صبراً! من الأفضل إبقاء الأمور تحت السيطرة. ستظهر أمور أخرى أيضاً.

واصل بريوير بحرص شديد، «هل سبق لك أن دوّنت نوباتك بالتفصيل: مدى تكرارها، شدّتها، مدتها؟»

«ليس في هذه السنة. فقد كنت أيضاً مشغولاً بالأحداث الهامة والتغيّرات التي طرأت على حياتي. لكني أمضيت في العام الماضي مائة وسبعة عشر يوماً من العجز المطلق، وقرابة مئتي يوم أصبت فيها بعجز جزئي ـ صداع أخفّ، وألم في العين، وألم في المعدة، أو غثيان».

هاتان نقطتان واعدتان يستطيع الولوج منهما ـ لكن أيهما يجب أن

يستخدم؟ هل يجب أن يستفسر عن طبيعة تلك «الأحداث والتغييرات الهامة» ـ لا بد أن نيتشه يشير إلى لو سالومي ـ أو أنه يعزز حالة من الوئام بين الطبيب والمريض بأن يكون متعاطفاً؟ ولعلمه باستحالة حصول قدر كبير من الوئام، اختار بريوير تلك الأخيرة.

«النر، يبقى ثمانية وأربعون يوماً فقط بلا مرض. إنها مدة قصيرة جداً حتى يمضي المرء وقتاً جيداً، يا بروفسور نيتشه».

«منذ عدّة سنوات، لا أذكر أنني أمضيت فترة كنت فيها في حالة جيدة لأكثر من أسبوعين. أظن أنني أستطيع أن أتذكّر كل واحدة منها».

عندما سمع بريوير نبرة يائسة حزينة في صوت نيتشه، قرّر المقامرة. فها هنا فكرة قد تقوده مباشرة إلى حالة يأس مرضية. وضع قلمه على الطاولة، وبصوته الجدي القلق قال: «إن حالة كهذه تكون فيها معظم أيام المرء عذاباً، لا ينعم فيها إلا بحفنة من الأيام بالصحة في السنة، تستهلك حياة المرء بالألم ـ تبدو المكان الطبيعي لنشوء اليأس، والعيش حياة مليئة بالتشاؤم».

توقّف نيتشه. هذه المرة لم يكن لديه رد جاهز. هزّ رأسه من ناحية إلى أخرى كما لو كان يفكّر إن كان سيسمح لنفسه بمواساته. لكن كلماته كانت تقول شيئاً آخر.

«هذا صحيح دكتور بريوير بالنسبة لبعض الأشخاص، ربما لمعظمهم ـ هنا يجب أن أسلّم بخبرتك ـ لكن ذلك لا ينطبق عليّ. اليأس؟ لا، ربما كان ذلك صحيحاً في الماضي، لكن ليس الآن. إن مرضي يتعلق بجسدي، ليس أنا. أنا مرضي وجسمي، لكنّهما ليسا أنا. يجب أن أتغلّب عليهما، إن لم يكن جسدياً، فبطريقة غيبية».

«أما بالنسبة إلى تعليقك الآخر، فإن نظرتي في العيش شيء منعزل تماماً عن هذا» ـ وهنا أشار بإبهامه إلى أسفل بطنه ـ آسف بروتوبلازم.

عندي *سؤال* حول العيش وبوسعي أن أتعايش وأتحمّل بأي *طريقة*. لديّ هدف وهو أن أعيش عشر سنوات أخرى، رسالة. إني حامل هنا «ـ ونقر صدغه ـ بالكتب، كتب تكاد تكون قد نضجت تماماً. يمكنني أن أقدم الكتب فقط. أحياناً يخيّل إليّ أن صداعي أشبه بآلام مخاض عقلي».

كان يبدو أن نيتشه لم يكن راغباً في مناقشة موضوع اليأس أو حتى الاعتراف به؛ وأدرك بريوير أن لا جدوى من محاولة نصب فخ له. تذكّر فجأة الإحساس بالهزيمة عندما كان يلعب الشطرنج مع والده الذي كان أفضل لاعب في الجالية اليهودية في فيينا.

لكن ربما لا يوجد شيء جدير بالاعتراف به! ربما كانت الآنسة سالومي مخطئة. يبدو أن روح نيتشه قد تغلّبت على هذا المرض الشنيع. أما بالنسبة إلى الانتحار، فلدى بريوير اختبار دقيق لتحديد مخاطر الانتحار. هل يلقي المريض بنفسه إلى المستقبل؟ لقد نجح نيتشه في هذا الاختبار! فلا توجد لديه نوايا بالانتحار: إنه يتحدث عن رسالة يحملها للسنوات العشر القادمة، لكتابة كتب تدور أفكارها في عقله.

لكن بريوير رأى رسائل نيتشه التي تشي بالانتحار بأم عينيه. هل يدعّي ذلك؟ أم أنه لم يعد يشعر باليأس حالياً لأنه قرّر أن ينتحر؟ لقد شاهد بريوير مرضى من هذا النوع من قبل. إنهم خطرون. يبدو أنهم قد تحسّنوا، بمعنى أنهم يشعرون بالتحسن، فيخفّ شعورهم بالاكتئاب، ويبتسمون ويأكلون وينامون أكثر. لكن تحسّنهم هذا يعني أنهم اكتشفوا مهرباً من يأسهم، الهروب من الموت. هل هذه هي الخطة التي يرسمها نيتشه؟ هل كان حقاً عازماً على الانتحار؟ لا، تذكّر بريوير ما كان قد قاله لفرويد: إن كان نيتشه ينوي الانتحار، فلماذا أتى لاستشارتي؟ لماذا تجشم عناء المجيء إلى هنا لزيارة طبيب آخر، عناء السفر من رابالو إلى بازل، ومن هناك إلى فيينا؟

على الرغم من شعوره بالإحباط لعدم تمكنه من الحصول على

المعلومات التي يسعى إليها، لم يستطع بريوير أن يعيب على مريضه أنه لم يتعاون معه. فقد كان ردّ نيتشه عن كلّ سؤال طبي مسهباً، بل كان كاملاً أيضاً. فالعديد ممن يعانون من آلام الصداع يتحدثون عن حساسية تجاه الطعام والطقس، لذلك لم يفاجأ بريوير عندما عرف أن ذلك ينسحب على نيتشه أيضاً، لكنّه دهش من التفاصيل الرائعة التي وردت في تقرير مريضه. من دون توقّف، تكلّم نيتشه طوال عشرين دقيقة عن ردة فعله إزاء الأحوال الجوية. قال إن جسمه يشبه باروميتر غير سائلي ـ باروميتر يستجيب بشدة لأي تقلّب في الضغط الجوّي، درجة الحرارة، أو الارتفاع. إن لون السماء الرمادي يحفز شعوره بالاكتئاب، وتجعله الغيوم الداكنة والأمطار الغزيرة يشعر بالإرهاق، أما الجفاف فينعش آماله ويشعره بالنشاط، ويمثّل الشتاء شكلاً من أشكال «التشنج» العقلي، وتجعله الشمس مشرقاً منفتحاً مرة أخرى. لذلك أمضى سنوات كثيرة من حياته بحثاً عن المناخ المثالي. كان يحبّ فصل الصيف. إن هضبة إنغادين ذات السماء الصافية، المشمسة التي لا تهب فيها رياح، تلائمه كثيراً، لذلك فإنه يقيم أربعة أشهر كلّ سنة في نزل صغير في قرية سيلس ماريا الصغيرة السويسرية، بينما يشكل فصل الشتاء لعنة بالنسبة له. ولم يجد قط بقعة شتوية ودّية. وفي الشهور الباردة، كان يعيش في جنوب إيطاليا، ينتقل من مدينة إلى أخرى باحثاً عن مناخ صحي يلائمه. كانت الريح في فيينا والطقس الداكن الرطب يسمّمه، قال نيتشه. إن جهازه العصبي ينادي الشمس والجفاف والهواء الساكن.

عندما سأله بريوير عن أسلوب غذائه، تحدث نيتشه طويلاً عن العلاقة بين الطعام والألم المعوي ونوبات الصداع التي تنتابه. يا للدقّة الرائعة! فلم يصادف بريوير مريضاً قط يجيب عن كلّ سؤال بهذه الشمولية. ماذا تعني؟

هل كان نيتشه مصاباً بالهوس الوسواسي؟ لقد رأى بريوير عدداً كبيراً

من المصابين بالهوس الوسواسي المملّين الذين يرثون ذاتهم ويستمتعون بوصف دواخلهم. لكن لدى هؤلاء المرضى«تضيّق ويلتانشوانغ» (*Weltanschauung stenosis*) وجهة نظر ضيقة عن العالم. كم كان يشعر بالملل عندما يكون بصحبتهم! فلا توجد لديهم أفكار سوى تلك المتعلقة بجسدهم، لا توجد لديهم اهتمامات أو قيم إلا تلك المتعلقة بصحتهم.

لا، نيتشه ليس واحداً من هؤلاء. فلديه مجموعة من الاهتمامات الشاملة، وشخصيته مثيرة للاهتمام. لا بد أن الآنسة سالومي وجدته هكذا، بل إنها لا تزال تجده هكذا، حتى لو أنها وجدت بول ري أكثر تجانساً من الناحية العاطفية. كما أن نيتشه لم يصف أعراضه بغية انتزاع العطف أو حتى الدعم. لقد عرف بريوير ذلك في وقت مبكر من لقائهما.

إذن لماذا هذا التفصيل الرائع عن وظائفه الجسدية؟ ربما ذلك لأن نيتشه يمتلك عقلاً واعياً وذاكرة قوية، ويطلب تقييماً طبياً بطريقة عقلانية عميقة، ويقدم معلومات شاملة لطبيب خبير. أم أنه رجل متعمّق على نحو غير اعتيادي. قبل نهاية تقييمه، حصل بريوير على ردّ آخر: فقد كانت لدى نيتشه اتصالات قليلة جداً مع الكائنات البشرية الأخرى فأمضى قدراً كبيراً من الوقت في التحدث إلى جهازه العصبي.

بعد أن أنهى بريوير تدوين تاريخه الطبي، انتقل إلى الفحص الجسدي. قاد مريضه إلى غرفة الفحص، وهي غرفة صغيرة معقّمة فيها حاجز غربال وكرسي وطاولة فحص مكسوة بغطاء أبيض منشّى، وحوض مغسلة وميزان وخزانة فولاذية تحتوي على أدوات طبية. ترك نيتشه في الغرفة وحده ليخلع ثيابه، ثم عاد بعد بضع دقائق. ارتدى نيتشه رداء مفتوح الظهر، لكنه كان لا يزال يرتدي جواربه السوداء العالية وقد طوى ثيابه بعناية. اعتذر نيتشه لتأخره في خلع ثيابه وقال: «إن حياة

البداوة التي أعيشها تفرض عليّ أن أملك بدلة واحدة فقط. لذلك، فإني أحرص كثيراً على إراحتها».

كان فحص بريوير البدني منهجياً مثل تاريخه الطبي. بدءاً من الرأس، نزولاً إلى الأسفل ببطء، ينصت، ينقر، يلمس، يشمّ، يتحسس، ينظر. على الرغم من كثرة أعراض مريضه، لم يجد بريوير أي حالة جسدية غير طبيعية إلا ندبة كبيرة فوق عظم القصّ نتيجة حادث سقوط من على الحصان عندما كان يؤدي خدمته العسكرية، وندبة مائلة دقيقة على جسر الأنف من مبارزة، وبعض العلامات التي تدل على وجود فقر دم: الشفتان شاحبتان، وتجعدات.

سبب فقر الدم؟ ربما كان سوء التغذية. فقد ذكر نيتشه أنه في أحيان كثيرة يحجم عن تناول اللحوم لأسابيع طويلة. لكن بريوير تذكّر أن نيتشه قال إنه يتقيّأ دماً بين الحين والآخر، فمن الممكن أنه يفقد دماً بسبب النزف المعوي. سحب منه قليلاً من الدم لمعرفة عدد الخلايا الحمر، وبعد إجراء فحص المستقيم، أخذ عينة من البراز بقفازه لفحصها لاحقاً للتأكد من عدم وجود مواد غريبة في الدم.

وماذا عن شكاوى نيتشه المتعلقة بالرؤية؟ أولاً، لاحظ بريوير وجود التهاب أحادي في الملتحمة الذي يعالج بسهولة بمرهم للعين. ومع أن بريوير بذل جهداً كبيراً، فلم يتمكن من تركيز منظار العين على شبكيّة عين نيتشه: ثمة شيء يعيق الرؤية، ربما عتامة القرنية، وربما وذمة القرنية.

ركّز بريوير بصورة خاصة على الجهاز العصبي لنيتشه، لا لطبيعة الصداع فقط بل كذلك لأن والده مات عندما كان في الرابعة من العمر، «تليين الدماغ»، مصطلح عام قد يشير إلى أي حالة غير طبيعية، بما فيها الجلطة الدماغية، أو الورم، أو نوع من الضمور الدماغي الموروث. لكنه بعد أن فحص جميع جوانب الدماغ ووظائف الأعصاب ـ التوازن،

التنسيق، الإحساس، القوّة، الحركة اللاإرادية للأعضاء، السمع، الرائحة، القدرة على الابتلاع ـ لم يجد بريوير أي دليل يشير إلى وجود مرض في الجهاز العصبي الهيكلي.

بينما كان نيتشه يرتدي ثيابه، عاد بريوير إلى مكتبه وراح يسجل النتائج التي توصل إليها. بعد بضع دقائق، رافقت السيدة بيكر نيتشه إلى غرفة المكتب، أدرك بريوير أنه، مع أن الوقت المحدد لنيتشه شارف على الانتهاء، فقد فشل فشلاً ذريعاً في انتزاع أيّ عبارة تدل على الاكتئاب أو الانتحار. حاول أسلوباً آخر قلما أخفق في الخروج بنتائج جيدة.

«بروفسور نيتشه، أريدك أن تصف لي بالتفصيل يوماً نموذجياً في حياتك».

«إن هذا أصعب سؤال تسألني إياه يا دكتور بريوير. فأنا كثير التنقل، وبيئتي المحيطة متغيرة باستمرار. إن النوبات التي تداهمني هي التي تقرر أسلوب حياتي».

«اختر أيّ يوم عادي، يوماً داهمتك فيه نوبة في الأسابيع القليلة الماضية».

«حسناً، إني أصحو مبكراً ـ هذا إن كنت قد نمت ـ»

تشجع بريوير. فقد أصبحت لديه نقطة يستطيع الانطلاق منها، وقال: «اسمح لي أن أقاطعك يا بروفسور نيتشه. تقول إنك إذا نمت؟»

«إن نومي سيء للغاية. ففي بعض الأحيان أصاب بتشنّج عضلي، وأحياناً أشعر بألم في المعدة، وفي أحيان أخرى، يغزو التوتّر كلّ جزء في جسدي، وأحياناً أفكاري ـ تكون أفكاراً ليلية خبيثة عادة. أحياناً أظل مستيقظاً طوال الليل، وفي أحيان أخرى يجعلني الدواء أنام ساعتين أو ثلاث ساعات فقط».

«ما هو هذا الدواء؟ كم تتناول منه؟» سأله بريوير بسرعة. مع أنه كان يعرف كيف يعالج نيتشه نفسه، أدرك على الفور أنه لم يختر أفضل خيار، وأن من الأفضل أن يسأله عن تلك الأفكار الليلية المظلمة!

«كلورال الهيدرات، كلّ ليلة تقريباً، غرام واحد على الأقل. عندما أشعر بأن جسمي بحاجة ماسة إلى النوم فإني أضيف مورفين أو فيرونا، لكني أشعر بالخدر في اليوم التالي. بين آونة وأخرى أتناول الحشيش، لكنه يبلّد تفكيري في اليوم التالي أيضاً. إني أفضل الكلورال. هل أواصل بهذا اليوم الذي بدأ بداية سيئة؟»

«أرجوك».

«أتناول فطوراً خفيفاً في غرفتي ـ هل تريد هذا القدر من التفاصيل؟»

«نعم، تماماً. قل لي كلّ شيء».

«حسناً، بالنسبة لطعام الفطور فهو مسألة بسيطة. تجلب لي صاحبة النزل ماء حاراً. هذا كلّ ما في الأمر. وإذا كانت صحتي جيدة، فإني أطلب قليلاً من الشاي الخفيف والخبز المحمص. ثمّ أستحمّ بماء بارد ـ هذا ضروري إذا كان عليّ أن أعمل بحماسة ـ وأمضي طوال اليوم في العمل ـ في الكتابة، التفكير. وفي بعض الأحيان، إذا سمحت لي عيناي، فإني أقرأ قليلاً، وإذا سمحت لي صحتي فإني أمشي، أحياناً لعدة ساعات. أخربش وأنا أمشي، وفي معظم الأحيان، فإني أكتب أفضل أعمالي، وتخطر ببالي أجمل أفكاري، وأنا أمشي...»

«نعم، وأنا أيضاً» أضاف بريوير بسرعة، «وبعد أن أقطع أربعة أو خمسة أميال، أكتشف أنني فسّرت أكثر المسائل التي تحيرني».

صمت نيتشه الذي بدا أن توازنه قد اختل قليلاً من التعليق الذي أبداه بريوير. أقرّ به، متأتأً، وفي النهاية تجاهله وواصل قائلاً، «وأتناول طعام العشاء دائماً على الطاولة نفسها في الفندق الذي أنزل فيه. لقد وصفت

لك نوع الطعام الذي أتناوله ـ دائماً بدون توابل، يفضل أن يكون مسلوقاً، لا أحتسي الكحول أو القهوة. في أحيان كثيرة، أتناول خضروات مسلوقة غير مملّحة فقط لعدة أسابيع. لا أدخن أيضاً. أتبادل بضع كلمات مع النزلاء الآخرين الذين يشاركونني مائدتي، لكني نادراً ما أشاركهم في أحاديث مطوّلة. وإن كنت محظوظاً، فإني أصادف شخصاً رصيناً يعرض أن يقرأ لي أو يدوّن ما أمليه عليه. لا أملك الكثير من النقود ولا يمكنني أن أسدد ثمن مثل هذه الخدمات. وفي فترة بعد الظهر، مثل الصباح ـ أتمشى، أفكّر، أكتب. في المساء أتناول عشاء خفيفاً في غرفتي ـ مرة أخرى، ماء حار أو شاي خفيف وبسكويت ـ ثم أعمل حتى يقول الكلورال توقف، يمكنك أن تنال قسطاً من الراحة. هكذا هي حياتي الجسدية».

«إنك لا تتحدث إلا عن الفنادق؟ وماذا عن بيتك؟»

«إن بيتي هو سفينتي المتنقلة. أنا سلحفاة وأحمل بيتي على ظهري. أضعه في ركن الغرفة في الفندق الذي أقيم فيه، وعندما يصبح الطقس سيئاً، أرفعه وأنتقل إلى سماوات أعلى أكثر جفافاً».

قرر بريوير أن يعود إلى أفكار نيتشه «الليلية الخبيثة» لكنه رأى الآن خطأ واعداً أكثر من الأسئلة ـ أسئلة لا تخفق في أن تفضي مباشرة إلى الآنسة سالومي.

«بروفسور نيتشه، في وصفك ليوم نموذجي في حياتك ذكرت أن هناك عدداً قليلاً من الأشخاص الآخرين. سامحني على أسئلتي. أعرف أنها ليست أسئلة طبية نموذجية، لكنّي لا أزال أومن بالكلية العضوية. إني أومن بأن البنية الجسدية الجيدة لا تنفصل عن الوضع الاجتماعي والنفسي».

تدفّق الدم إلى وجه نيتشه. أخذ مشطاً صغيراً مصنوعاً من عظم ظهر

سلحفاة وراح يمشط شاربه الكثيف بصمت وبشيء من العصبية. ثمّ، بدا أنه توصل إلى قرار، فانتصب واقفاً، ثم تنحنح وقال بحزم: «إنك لست الطبيب الأول الذي يبدي مثل هذه الملاحظة. أظن أنك تشير إلى الجنس: فقد قال الدكتور لانزوني، وهو طبيب إيطالي زرته منذ بضع سنوات، إن حالتي تزداد سوءاً بسبب العزلة وعدم ممارسة الجنس، وأوصى بأن أجد منفذاً جنسياً منتظماً. عملت بنصيحته ورتبت لقاء مع فلاحة شابة في إحدى القرى القريبة من رابالو، لكن بعد ثلاثة أسابيع، ألمّ بي صداع شديد كاد يقتلني. وإذا استمر المريض في العلاج الذي وصفه له هذا الطبيب الإيطالي، لانتهى هذا المريض».

«لماذا كانت نصيحة ضارة؟»

«ومضة من المتعة البهيمية أعقبتها ساعات من كراهية الذات، من تطهير نفسي من النتانة البروتوبلازمية، ليست في رأيي، الطريق إلى - كيف صغتها؟ - الكائنات الكلية العضوية».

«ولا أنا كذلك»، وافق بريوير بسرعة، «لكن هل يمكنك أن تنكر أننا جميعاً منخرطون في سياق اجتماعي، سياق يسّر بقاء الإنسان من الناحية التاريخية، ويوفر المتعة المتأصّلة في تواصل البشر؟»

«لعل متع القطيع هذه لا تناسب جميع الناس»، قال نيتشه وهزّ رأسه، «حاولت إن أقيم جسراً مع الآخرين ثلاث مرات. وقد تعرضت للخيانة ثلاث مرات».

أخيراً، كاد بريوير ألا يتمكن من إخفاء حماسته. لا بد أن لو سالومي واحدة من خيانات نيتشه الثلاث، ولعل بول ري الخيانة الثانية، لكن من هي الثالثة؟ أخيراً، أخيراً، شقّ نيتشه الباب. لا شك أن السبيل أصبح ممهداً الآن لمناقشة موضوع الخيانة، والشعور باليأس الذي أحدثته هذه الخيانة.

استجمع بريوير أقوى نبرة في صوته وقال: «ثلاث محاولات، ثلاث خيانات فظيعة ـ ومنذ ذلك الحين، انكفئت إلى عالم من العزلة المؤلمة. لقد عانيت كثيراً، وربما كان لهذه المعاناة، بطريقة ما، تأثير على مرضك. هل تريد أن تثق بي وتحدثني عن تفاصيل هذه الخيانات؟»

مرة أخرى، هزّ نيتشه رأسه. بدا أنه بدأ ينكمش إلى نفسه، ثم قال: «دكتور بريوير، لقد ائتمنتك على جزء كبير من نفسي. فقد أفشيت لك اليوم تفاصيل حميمة عن حياتي أكثر مما فعلت مع أي شخص آخر منذ فترة طويلة. لكن ثق بي عندما أقول إن مرضي سبق هذه الإحباطات الشخصية كثيراً. تذكّر تاريخي العائلي: فقد مات أبي بعد إصابته بمرض في الدماغ ـ لعله مرض عائلي. تذكّر أنني بدأت أصاب بالصداع والمرض منذ أن كنت في المدرسة، أي قبل هذه الخيانات بفترة طويلة. وصحيح أيضاً أن حالتي لم تتحسن قط بعد تلك الصداقات الحميمية القصيرة التي استمتعت بها. لا، لم يكن السبب هو لأنني كنت قليل الثقة بالآخرين، بل كان خطئي يكمن في أنني وثقت بهم أكثر من اللازم. لست على استعداد لأن أثق بأحد مرة أخرى، ولم يعد بإمكاني أن أفعل ذلك».

دُهش بريوير. كيف يمكن أن يكون قد أخطأ الحساب؟ فمنذ لحظة واحدة، كان نيتشه يبدو راغباً، بل يكاد يكون متلهّفاً للإفضاء إليه. وها هو يصده الآن! ماذا حدث؟ حاول أن يتذكر سلسلة من الأحداث. فقد قال نيتشه إنه يحاول أن يقيم جسراً مع الآخرين ثم يتعرض لخيانتهم. في تلك اللحظة، مدّ بريوير له يده متعاطفاً ثم أثارت فيه عبارة «الجسر» شيئاً. كتب نيتشه! نعم، لا بد أن هناك فقرة هامة تتناول الجسر. لعل مفتاح اكتساب ثقة نيتشه يكمن في هذين الكتابين. تذكّر بريوير فقرة غامضة أخرى أيضاً تتحدث عن أهمية الاختبار النفسي الذاتي. قرر أن

يقرأ الكتابين بعناية أكبر قبل لقائهما التالي: لعله يستطيع أن يؤثر على نيتشه بالأحاديث التي سيجريها معه.

لكن ماذا بوسعه أن يفعل حقاً بأيّ حجّة يمكن أن يجدها في كتب نيتشه؟ بل أن يفسر كيف أنه أتى بها؟ لم تكن واحدة من المكتبات الثلاث في فيينا التي سأل فيها عن كتبه قد سمعت عن المؤلف. كان بريوير يكره الازدواجية، وللحظة، فكّر بأن يحدث نيتشه عن زيارة لو سالومي له، وعما يعرفه عن إصابة نيتشه باليأس، وعن الوعد الذي قطعه على الآنسة سالومي، والكتابين اللذين أعطتهما له.

لا، فقد يؤدي ذلك إلى فشل ذريع: لا شك أن نيتشه سيشعر بالتلاعب والخيانة. إن بريوير متيقن من أن نيتشه مصاب باليأس بسبب العلاقة ـ باستخدام عبارة نيتشه الجميلة ـ الفيثاغورية مع لو وبول ري. وإذا عرف نيتشه أن لو سالومي قد زارته، فلا بد أنه سيعتبرهما، هي وبريوير، طرفين في مثلث آخر. لا، فقد كان بريوير واثقاً من أن الصدق، الحلّ الطبيعي الذي يتبعه في مشاكل الحياة، سيزيد الأمور تعقيداً في هذه الحالة. لا بد أن يجد وسيلة ما ليحصل على الكتابين بطريقة قانونية.

كان الوقت متأخّراً. بدأ النهار الرمادي الرطب يتحوّل إلى ظلام. في هدأة الصمت، تحرّك نيتشه باضطراب. أحسّ بريوير بالتعب. فقد راوغته فريسته، واستنفد كل أفكاره، فقرّر المماطلة.

«أظن، بروفسور نيتشه، هذا يكفي اليوم، لأني أحتاج إلى وقت لكي أدرس سجلاتك الطبية السابقة ونجري الاختبارات المخبرية اللازمة».

أطلق نيتشه تنهيدة خفيفة. هل يشعر بالانزعاج؟ هل يريد الاستمرار؟ خيّل إلى بريوير أن الأمر كذلك، لكن بما أنه لم يعد يثق بحكمته إزاء

ردود أفعال نيتشه، اقترح عليه أن يزوره مرة أخرى في وقت لاحق هذا الأسبوع. «الجمعة بعد الظهر؟ الوقت نفسه؟»

«نعم، طبعاً. أنا تحت تصرّفك يا دكتور بريوير. فلا يوجد عندي هدف آخر لوجودي في فيينا».

انتهى وقت الزيارة، نهض بريوير واقفاً، لكن نيتشه تردّد فعاد وجلس فجأة على كرسيه.

«دكتور بريوير، لقد أخذتُ معظم وقتك. أرجو ألا تخطئ وتظن أنني لا أقدّر الجهود التي بذلتها حق تقدير، لكن تحملّني دقيقة أخرى. اسمح لي، من جانبي، أن أسألك ثلاثة أسئلة».

الفصل ٦

«هيا اطرح أسئلتك يا بروفسور نيتشه»، قال بريوير وهو يهمّ بالجلوس على كرسيه، «بعد وابل الأسئلة التي طرحتها عليك، فإن ثلاثة أسئلة ما هي إلا طلب متواضع. وإذا كانت أسئلتك ضمن معرفتي، فإني سأجيبك».

كان متعباً. كان يوماً طويلاً، ولا يزال أمامه إلقاء محاضرة في الساعة السادسة بالإضافة إلى زياراته المسائية. لكن على الرغم من ذلك، فقد استجاب لطلب نيتشه، وأحس ببهجة غامضة. لعل النقطة التي يبحث عنها أصبحت في متناوله.

«عندما ستسمع أسئلتي، ربما، شأن العديد من زملائك، ستأسف لأنك أعطيتني هذا الوعد. لديّ ثالوث من الأسئلة، ثلاثة أسئلة، لكن قبل ذلك، سأطرح عليك سؤالاً واحداً، والسؤال - سؤال وتوسل - وهو: هل ستكون صادقاً؟»

«وما هي الأسئلة الثلاثة؟» سأل بريوير.

«السؤال الأول هو: هل سأصاب بالعمى؟ والسؤال الثاني: هل ستنتابني هذه النوبات حتى مماتي؟ وأخيراً، وهو السؤال الأصعب: هل أنا مصاب بمرض دماغ متصاعد سيودي بحياتي وأنا شاب مثل أبي، أو سيجعلني أصاب بالشلل، أو الأسوأ من كل ذلك، هل سيقودني إلى الجنون أم إلى الخرف المبكر؟»

صمت بريوير. جلس ساكناً يقلّب ملف نيتشه الطبي أمامه عشوائياً. خلال السنوات الخمس عشر من الممارسة الطبية لم يسبق أن طرح عليه مريض مثل هذه الأسئلة مباشرة وبهذه الطريقة الفظة.

على الرغم من أن نيتشه لاحظ شعوره بالحرج، تابع كلامه، «أرجو أن تعذرني لمواجهتك بهذه الطريقة، لكني أمضيت عدة سنوات في مناقشات غير مباشرة مع الأطباء، خاصة الأطباء الألمان الذين يعتبرون أنفسهم «قندلفت الحقيقة»، ومع ذلك فهم يخفون عنك ما يعرفونه. ليس من حق الطبيب أن يحجب عن المريض ما هو حق له قانوناً».

لم يتمالك بريوير نفسه عن الابتسام لوصف نيتشه الأطباء الألمان، أو حديثه بحنق عن حقوق المريض. لقد حفّز هذا الفيلسوف الصغير بشاربيه الكبيرين عقله على التفكير.

«تنتابني رغبة شديدة في مناقشة مسائل تتعلق بالممارسة الطبية هذه يا بروفسور نيتشه. إنك تطرح أسئلة مباشرة، وسأحاول أن أجيبك بصراحة مماثلة. أنا أوافقك على رأيك حول حقوق المريض، لكنك أغفلت مفهوماً على درجة موازية من الأهمية وهو الالتزامات المترتبة على المريض. أنا أفضّل إقامة علاقة صادقة وصريحة مع مرضاي، لكنها يجب أن تكون علاقة متبادلة، فعلى المريض أيضاً أن يتعهّد بأن يكون صادقاً وصريحاً معي. الصدق ـ أسئلة صادقة، أجوبة صادقة ـ تؤدي إلى أفضل علاج. إذاً بهذا الشرط، فإني أعدك بأن أبادلك كل المعلومات والاستنتاجات التي أتوصل إليها».

«لكن بروفسور نيتشه»، تابع بريوير، «لا أوافقك على أنها يجب أن تكون دائماً هكذا. فهناك مرضى وهناك حالات يجب على الطبيب الجيد أن يحجب الحقيقة عن المريض لمصلحته».

«نعم يا دكتور بريوير، لقد سمعت عدة أطباء يقولون ذلك. لكن من

يمتلك الحقّ في أن يتخذ قراراً بشأن شخص آخر؟ فقد لا يؤدي هذا الموقف إلا إلى انتهاك استقلالية المريض».

فأجاب بريوير، «من واجبي أن أوفر الراحة للمرضى، وهو واجب يجب ألاّ يؤخذ بخفة. في بعض الأحيان يكون واجباً لا يحظى بالشكر: أحياناً تكون هناك أخبار سيئة لا أستطيع أن أنقلها إلى المريض، وفي أحيان أخرى، يكون من واجبي أن ألوذ بالصمت وأتحمل ألم المريض وأسرته».

«لكن دكتور بريوير، إن هذا الواجب يلغي واجباً أساسياً أكثر وهو واجب كل شخص أن يكتشف الحقيقة».

في حمأة الحوار، نسي بريوير للحظة أن نيتشه مريضه. فهذه الأسئلة مثيرة للاهتمام، واستغرق في التفكير. نهض وراح يتمشى وراء كرسيه وهو يتحدث.

«هل من واجبي أن أفرض حقيقة على الآخرين لا يتمنون معرفتها؟»

«من يمكنه أن يقرر ما هي الأشياء التي لا يريد المرء أن يعرفها؟» سأله نيتشه.

فقال بريوير بحزم: «إن هذا ما يمكن أن يطلق عليه فنّ الطبّ. فالطبيب لا يتعلّم هذه الأمور من الكتب بل يتعلمها بجانب سرير المريض. دعني أضرب مثالاً على ذلك: مريض سأراه في المستشفى مساء اليوم. أخبرك بذلك بثقة تامة، وبالطبع فإني لن أكشف عن هويته. هذا الرجل مصاب بمرض عضال، مرحلة متقدمة جداً من سرطان الكبد. أصيب باليرقان لفشل الكبد، وبدأت الصفراء تجري في مجرى دمه. إن تشخيصه لا يبشر بالخير. لا أظن أنه سيعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. عندما رأيته صباح اليوم، أنصت بهدوء إلى شرحي عن السبب الذي جعل بشرته صفراء، ثم وضع يده على يدي كما لو كان

يريد التخفيف من العبء الذي أحمله، كما لو أنه يريدني أن أسكت، ثمّ غيّر الموضوع وبدأ يسألني عن أحوال أسرتي ـ فأنا أعرفه منذ ثلاثين سنة ـ وراح يتحدث عن العمل الذي ينتظره بعد أن يعود إلى بيته.

«لكني»، أخذ بريوير نفساً عميقاً، «أعرف بأنه لن يعود إلى البيت. هل أقول له ذلك؟ كما ترى يا بروفسور نيتشه، هذا الأمر ليس سهلاً على الإطلاق. إن ما لا يُسأل يكون عادة هو السؤال المهم! فلو أراد أن يعرف، لسألني عن سبب فشل كبده أو متي أزمع أن أخرجه من المستشفى، لكنه لم يتحدث عن ذلك. هل أكون قاسياً وأخبره ما لا يتمنى أن يعرفه؟»

فردّ نيتشه، «في بعض الأحيان، يجب أن يكون المعلمون قساة. يجب إعطاء الناس رسالة قاسية لأن الحياة قاسية، والاحتضار صعب».

«هل يجب عليّ أن أحرم الناس من اختيارهم الطريقة التي يريدون أن يواجهوا فيها موتهم؟ لكن بأي حقّ، ومن يعطيهم ذلك الحق، هل أقوم بأداء ذلك الدور؟ إنك تقول إنه يجب أن يكون المعلمون قساة أحياناً. ربما. لكن مهمّة الطبيب تكمن في تخفيف حدة التوتر لتحسين قدرة الجسم على الشفاء».

قطرات صلبة من المطر بدأت تتساقط على النافذة. بدأ زجاج النافذة يهتزّ. تقدم بريوير وألقى نظرة على الخارج، ثم قال: «في الواقع، عندما أفكر بالأمر، فإني لست متأكّداً حتى أنني أوافقك على مسألة قسوة المعلّم. ربما كان معلماً من نوع خاص ـ ربما نبي».

«نعم، نعم»، ارتفعت نبرة صوت نيتشه، «معلّم حقائق مرّة، نبي غير محبوب. أظن أن هذا هو أنا». أكد نيتشه على كلّ كلمة مشيراً بإصبعه إلى صدره، وأضاف، «دكتور بريوير، إنك تكرّس نفسك لجعل الحياة

سهلة، أما أنا، فقد كرّست نفسي لأن أصعّب الأمور على مجموعة طلابي غير المرئيين».

«لكن ما الفائدة من حقيقة غير مرغوب فيها، بجعل الأمور أصعب؟ عندما تركت مريضي هذا الصباح، قال لي إنه يضع نفسه في يدي الله. من يجرؤ على القول إن هذا أيضاً ليس شكلاً من أشكال الحقيقة».

«من؟» نهض نيتشه وراح يمشي جيئة وذهابا من ناحية طاولة المكتب بينما كان بريوير يذرع من الجانب الآخر، «من يجرؤ على القول؟» توقّف، ثم اتكأ على مسند كرسيه، وأشار إلى نفسه وقال: «أنا أجرؤ على قول ذلك».

قال بريوير لنفسه، لعله يتحدث من فوق منبر، يحضّ جمهرة من الناس. فقد كان والده كاهناً.

تابع نيتشه، «يمكن التوصل إلى الحقيقة من خلال عدم الإيمان والشك، لا بواسطة تمنّي شيء مثل الأطفال! إن أمنية مريضك بأن يكون في يدي الله ليست حقيقة. إنها ببساطة أمنية طفل لا أكثر ولا أقل. إنها أمنية بأن لا يموت، أمنية تجاه الحلمة المنتفخة بشكل أبدي التي نعتبرها «الله»! إن نظرية النشوء تثبت علمياً أن لا حاجة إلى الله، مع أن داروين نفسه لم يمتلك الشجاعة ليتابع دليله حتى نهايته الصحيحة. من المؤكد، يجب أن تدرك بأننا خلقنا الله، وأننا جميعاً قتلناه معاً الآن».

تجاهل بريوير سير المناقشة هذا. فلا يمكنه الدفاع عن الإيمان بالإله الواحد. فهو مفكّر حرّ منذ أن كان مراهقاً، وفي معظم الأحيان، كان يتخذ موقفاً مماثلاً لموقف نيتشه أثناء المناقشات التي كانت تدور مع والده ومع أساتذة الدين. جلس على كرسيه، وبدأ يتكلّم بنبرة تصالحية أكثر وبرقة أكبر، ثم عاد نيتشه إلى كرسيه أيضاً.

«كل هذه الحماسة للوصول إلى الحقيقة! سامحني بروفسور نيتشه إن

عارضتك. فقد اتفقنا على أن نتكلم بصدق. إنك تتكلّم عن الحقيقة بنبرة مقدّسة، كما لو كان على المرء أن يستبدل ديناً بآخر. اسمح لي أن اتخذ دور المدافع عن الشيطان. اسمح لي أن أسألك: لماذا كل هذه الحماسة، هذا التبجيل للحقيقة؟ كيف يمكنك أن تفيد مريضي الذي رأيته هذا الصباح؟»

«ليست الحقيقة هي المقدّسة، بل البحث عن الحقيقة الخاصة بالمرء! هل يمكن أن يكون هناك عمل مقدس أكثر من النفس؟ يقول بعضهم إن عملي الفلسفي مبني فوق الرمال لأن آرائي تتغير باستمرار. لكن إحدى العبارات الأساسية التي قلتها: *أصبح من أنت*. وكيف يمكن أن يكتشف المرء من هو وماذا هو دون معرفة الحقيقة؟»

«لكن الحقيقة هي أن لدى مريضي فترة قصيرة سيعيشها. هل يتعين عليّ أن أقدم له هذه المعرفة الذاتية؟»

فرد نيتشه: «لا يمكن للاختيار الصحيح، الاختيار الكامل لا يزهر إلا تحت أشعة الحقيقة. وكيف يمكنها أن تكون غير ذلك؟»

عندما أدرك بريوير أن باستطاعة نيتشه مناقشة الأمر بشكل مقنع، وإلى ما لا نهاية، في هذا العالم المجرّد من الحقيقة والاختيار، رأى أنه يجب أن يجعله يتحدث بشكل أكثر تماسكاً، قال: «ومريضي هذا الصباح؟ ما هي الاختيارات المتاحة؟ ربما كانت ثقته بالله هي خياره».

«هذا ليس خياراً للإنسان. إنه ليس خياراً إنسانياً، بل قبضة وهم خارج نفس المرء. إن مثل هذا الخيار، خيار للآخر، لعالم ما وراء الطبيعة، يضعف الإنسان دائماً. يجعل الإنسان دائماً أقل مما هو في الحقيقة. إني أحبّ الأشياء التي تجعلنا أكثر مما نحن».

فقال بريوير بإصرار: «دعنا لا نتحدّث عن الإنسان بالمجرد، بل

لنتحدث عن مريضي. انظر إلى حالته. أمامه أيام أو أسابيع فقط يمكن أن يعيشها! ما فائدة أن تتحدث معه عن الاختيار؟»

بشجاعة ردّ نيتشه على الفور، «إذا كان مريضك لا يعرف أنه على وشك أن يموت، فكيف يمكنه أن يقرر كيف يموت؟»

«كيف يموت، بروفسور نيتشه؟»

«نعم، يجب أن يقرّر كيف سيواجه الموت: أن يتحدث إلى الآخرين، أن يسدي نصيحة، أن يقول الأمور التي كان يدخرها ليقولها قبل أن يموت، أن يستأذن الآخرين، أو أن يبقى وحده، يبكي، يتحدّى الموت، يلعنه، أو أن يكون شاكراً له».

«إنك لا تزال تناقش أمراً مثالياً، مجرداً، لكني أتحدث هنا عن مسألة شخص بعينه، رجل من لحم ودم. أعرف أنه سيموت، وأنه سيموت وهو في حالة ألم شديد خلال فترة وجيزة. لماذا نصدمه بذلك؟ قبل كل شيء، يجب أن نحتفظ بالأمل. ومن يمكن أن يكون لديه هذا الأمل سوى الطبيب؟»

«الأمل؟ إن الأمل هو آخر الشرور!» كاد نيتشه يصرخ «في كتابي هو *ذا الإنسان*، قلت إنه عندما يُفتح صندوق بندورا فتنطلق الشرور التي حشرها فيه زيوس وتهرب إلى البشر، يبقى هناك شرّ نهائي واحد وهو الأمل. ومنذ ذلك الحين، اعتبر الإنسان مخطئاً الأمل بأنه صندوق من الحظّ السعيد. لكننا نسينا أمنية زيوس بأن يترك الإنسان نفسه يتعذّب. إن الأمل هو أسوأ الشرور لأنه يطيل العذاب.

«إذاً تريد أن تقول إنه يجب على المرء أن يقصّر فترة موته إذا أراد».

«هذا خيار محتمل، لكن في ضوء المعرفة التامة فقط».

شعر بريوير بأنه انتصر. كان صبوراً. فقد ترك الأمور تأخذ مسارها الطبيعي، والآن سيرى مكافأة طريقته. فقد سارت المناقشة في الاتّجاه الذي أراده.

«إنك تشير إلى الانتحار، يا بروفسور نيتشه. هل يجب أن يكون الانتحار اختياراً؟»

مرة أخرى، كان نيتشه صارماً وواضحاً، وقال: «كلّ شخص يمتلك موته، ويجب على كلّ فرد أن ينفذه بطريقته الخاصة. ربما، ربما فقط، كان هناك حقّ يمكننا بموجبه أن ننهي حياة إنسان. لكن لا يوجد هناك حقّ يمكننا بموجبه أن ننهي موت رجل. هذه ليست راحة. إنها وحشيّة».

فتابع بريوير بإصرار، «هل سيكون الانتحار خياراً لك؟»

«إن الموت قاس. إني أشعر دائماً أن الجائزة النهائية للموتى هي أنهم لن يموتوا ثانية».

«الجائزة النهائية للموتى هي أنهم لن يموتوا ثانية»، هز بريوير رأسه بتقدير، وعاد إلى طاولة مكتبه. جلس، والتقط قلمه وقال: «هل لي أن أدّون ذلك؟»

«نعم، بالطبع. لكن لا تدعني أنتحل نفسي. فلم أختلق هذه العبارة الآن. إنها ترد في أحد كتبي بعنوان العلم *المرح*».

لم يكد بريوير يصدق حظّه السعيد. ففي الدقائق الماضية ذكر نيتشه الكتابين اللذين أعطتهما له لو سالومي. وعلى الرغم من بهجة بريوير بهذه المناقشة، لم يشأ أن يقاطع مسارها، ولم يستطع أن يفوّت الفرصة لحلّ مشكلة الكتابين.

«بروفسور نيتشه، إن ما تقوله عن هذين الكتابين يثير اهتمامي كثيراً. كيف يمكنني أن أشتريهما؟ ربما من بائع كتب في فيينا؟»

بصعوبة تمكن نيتشه من إخفاء سروره لهذا الطلب، وقال: «إن ناشري شميزنير في تشيمنيز، لا يجيد هذه المهنة. كان عليه أن يعمل في مجال الدبلوماسية الدولية، أو ربما، في التجسس. إنه عبقري في حبك الدسائس، وكتبي هي أعظم أسراره. فعلى مدى ثماني سنوات لم ينفق

شيئاً ـ ولا فنيكاً واحداً ـ على الدعاية، ولم يبعث نسخة واحدة للمراجعة، ولم يضع كتاباً واحداً في أي مكتبة من مكتبات فيينا، لذلك لن تجد كتبي في أيّ مكتبة فيها، ولا حتى في أي بيت في فيينا. لذلك لم يبع سوى بضعة كتب وأعرف أسماء معظم المشترين، ولا يمكنني أن أذكر شخصاً واحداً في فيينا من بين قرّائي، لذلك يجب أن تتّصل بناشري مباشرة. عنوانه هو». فتح نيتشه حقيبته، ودوّن بضعة أسطر على قصاصة ورق، وقدمها لبريوير، وقال: «مع أنّني أستطيع أن أكتبه لك، فإني أفضّل، إن لم يكن عندك مانع، أن يتلقى رسالة منك مباشرة. لعل طلباً من عالم طبيب بارز يحفزه على إظهار كتبي للآخرين».

دسّ بريوير الورقة في جيب سترته وأجاب، «سأرسل طلباً لشراء كتبك هذا المساء، لكن من المحزن أنني لا أستطيع أن أشتري نسخاً منه، بسرعة أكبر، أو حتى أن أستعيرها. بما أنني أهتم بكامل حياة مرضاي، بما في ذلك عملهم ومعتقداتهم، يمكن أن ترشدني كتبك في فحصي لحالتك ـ هذا ما عدا المتعة التي سأستمدها من قراءة أعمالك وأناقشها معك».

«آه» أجاب نيتشه، «بهذا الطلب يمكنني أن أساعدك. فلدي نسخي الخاصة لهذين الكتابين في حقيبتي. سأعيرهما لك. سأحضرهما إلى مكتبك اليوم».

ممتناً لنجاح حيلته، أراد بريوير أن يعيد شيئاً إلى نيتشه فقال: «أن يكرّس المرء حياته للكتابة، أن يصبّ كلّ حياته في كتبه، ولا يكون لديه إلا بضعة قرّاء وهذا شيء فظيع! لأن ذلك يعتبر بالنسبة للعديد من الكتّاب ممن أعرفهم في فيينا، مصير أسوأ من الموت. كيف تحملت ذلك؟ كيف تتحمل ذلك الآن؟»

لم يقرّ نيتشه بما قاله بريوير، سواء بابتسامته أو بنبرة صوته، بل نظر إلى الأمام، وقال: «إذا لم يكن هناك شخص من فيينا يتذكّر أنه يوجد

هناك زمان ومكان خارج شارع رينغ؟ إني رجل صبور. ربما سيجد الناس في عام ألفين الجرأة على قراءة كتبي». ثم نهض فجأة، وقال: «يوم الجمعة إذاً؟»

أحسّ بريوير بالصدّ. لماذا أصبح نيتشه بارداً تجاهه؟ هذه هي المرة الثانية التي يحدث فيها ذلك اليوم، الأولى مسألة جسر المشاة. لكن بريوير أدرك أن كلّ صد من جانب نيتشه، كان يتبعه مدّ يد متعاطفة. ماذا يعني ذلك؟ قال لنفسه. يعني أن البروفسور نيتشه لا يتحمّل أن يقترب الآخرون منه أو يقدموا له يد المساعدة؟

ثمّ تذكّر تحذير لو سالومي بألاّ يحاول أن يمارس التنويم المغنطيسي على نيتشه لأن ذلك يخالف مشاعره القوية المتعلقة بالقوّة.

للحظة سمح بريوير لنفسه أن يتخيّل استجابتها إزاء ردّة فعل نيتشه. فلن تتركها تمر بل ستواجهها فوراً وبشكل مباشر. لعلها ستقول: «لماذا يا فريدريك، كلما قال لك أحدهم شيئاً لطيفاً، فإنك تعضّ يده؟»

يا للسخرية، قال بريوير لنفسه متفكراً، فعلى الرغم من استيائه من صلافة لو سالومي، فهو يستحضر صورتها الآن لتعلّمه ماذا يجب أن يفعل! لكنه سرعان ما تخلى عن هذه الأفكار. لعلها تستطيع أن تقول أموراً كهذه، أما هو فلا يستطيع. في تلك اللحظة، كان البروفسور نتيشه في طريقه باتجاه الباب.

«نعم، الساعة الثانية من يوم الجمعة، بروفسور نيتشه».

أطرق نيتشه برأسه قليلاً وخطا بسرعة خارج المكتب. راقبه بريوير من النافذة وهو يهبط الدرج، ثم رآه يرفض بحدة الركوب في عربة أجرة صغيرة توقفت له. رفع رأسه إلى السماء المعتمة، أحكم وشاحه حول أذنيه، ومشى مترنحاً في الشارع.

الفصل ٧

في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، أحسّ بريوير مرة أخرى أن الأرض تميد من تحته. مرة أخرى، وهو يبحث عن بيرثا، سقط أربعين قدماً على البلاطة الرخامية المزيّنة والمحفور عليها رموزاً غامضة. أفاق مرعوباً. قلبه يخفق بشدة، وقميص نومه ووسادته مبللان من العرق. حرص على عدم إيقاظ ماتيلد. غادر السرير وتوجه إلى الحمّام ليتبول. غيّر قميص نومه وارتدى قميصاً آخر، وقلب وسادته إلى الجانب غير المبلل، وحاول أن ينام ثانية.

لكن النوم جافاه تلك الليلة. لم يغمض له جفن وراح ينصت إلى صوت أنفاس ماتيلد العميقة. كان جميع من في البيت يغط في النوم: الأطفال الخمسة، ولويس خادمة المنزل، ومارتا الطاهية، وغريتشن مربية الأطفال ـ إلاّ هو. أصبح حارس البيت، هو الذي يتعب في عمله ويحتاج إلى الراحة أكثر منهم جميعاً ـ لقد وقع عليه الاختيار ليظل مستيقظاً ويحرس الجميع.

بدأت مشاعر القلق والخوف تنقض عليه. تمكّن من إبعاد بعضها، وظلت أخرى تراوده. فقد كتب له الدكتور بنسوانغر من مصحّة بلفيو، يعلمه أن حالة بيرثا انتكست وازدادت سوءاً أكثر من أي وقت مضى. بل ما زاد قلقه الخبر بأن الدكتور إكسنير، الطبيب النفساني الشاب، قد أغرم بها وأحالها إلى طبيب آخر بعد أن طلب الزواج منها! هل بادلته الحبّ؟ لا بد أنها أوحت له بإشارة ما! على الأقل فالدكتور إكسنير

عازب ويمكنه أن يتخلى عن رعايتها بسهولة. إن مجرد الفكرة بأن بيرثا تبتسم لإكسنير الشاب كما ابتسمت له ذات يوم أحرقت أفكار بريوير.

لقد تدهورت حالة بيرثا وأصبحت أسوأ من أي وقت مضى! ألم يكن غبياً عندما أخبر أمّها مزهواً عن طريقته الجديدة في التنويم المغناطيسي؟ ماذا ستقول عنه الآن؟ ماذا ستقول الأوساط الطبية كلها من وراء ظهره؟ كم كان يتمنى لو أنه لم يتحدث عن معالجتها في تلك المحاضرة التي حضرها شقيق لو سالومي! لماذا لا يتعلّم أن يصمت؟ ارتعش جسده من الشعور بالإهانة والندم.

هل ظنّ أحد بأنه أحبّ بيرثا؟ لا بد أن الجميع كانوا يتساءلون لماذا يمضي طبيب ساعة أو ساعتين كل يوم، شهراً بعد شهر، مع مريضته. كان يعرف أن بيرثا متعلقة بأبيها على نحو غير طبيعي. لكن ألم يستغل، هو طبيبها، هذه العلاقة الوثيقة لمآربه الخاصة؟ وإلا فلماذا تحبّ رجلاً في عمره وفي وضعه؟

انقبض بريوير عندما تذكر الانتصاب الذي كان يشعر به كلما دخلت بيرثا في حالة غيبوبة. شكر الله لأنه لم ينجرف قط مع مشاعره، ولم يعرب عن حبّه قط، ولم يلمس صدرها. لكنه في تلك المرة التي تخيّل فيها أنه يدلكها تدليكاً طبياً، ثبّت فجأة رسغيها بقوة، ومدّد ذراعيها فوق رأسها، ورفع ثوب نومها، وباعد بين ساقيها بركبتيه، ووضع يديه تحت ردفيها ورفعها نحوه. أرخى حزامه وفك أزرار فتحة سرواله، عندما اندفع فجأة جمع من الناس، ممرضات، زملاء، السيدة بابينهيم، إلى داخل الغرفة!

غاص بريوير في السرير أكثر، مُدمّراً ومهزوماً. لماذا يعذّب نفسه هكذا؟ مرة إثر مرة، يستسلم ويترك القلق ينهشه. هناك قدر كبير من القلق اليهودي، تفاقم المشاعر بمعاداة اليهود التي لم تمكنه من حصوله على منصبه في الجامعة، وظهور حزب شونيرير الجديد، الجمعية

الوطنية الألمانية، والعبارات المعادية لليهود الخبيثة التي ترددت في اجتماع جمعية الإصلاح النمساوية التي تحرّض نقابات الحرفيين على شن هجمات على اليهود: أموال اليهود، الصحافة اليهودية، القطارات اليهودية، المسرح اليهودي. وفي هذا الأسبوع بالذات، طلب شونيرير إعادة فرض القيود القانونية القديمة على الحياة اليهودية وحرّض على إشعال اضطرابات في أرجاء المدينة. يعرف بريوير أن الأمور ستزداد سوءاً. فقد غزت الجامعة أيضاً. وأصدرت هيئات الطلاب مؤخراً قانوناً يقضي بأنه بما أن اليهود ولدو «بدون شرف»، لذلك يجب عدم السماح لهم طلب مبارزة نتيجة إهانة لحقت بهم. حتى الآن لم يتعرض الأطباء اليهود إلى إهانات، لكنّها مسألة وقت.

أنصت إلى شخير ماتيلد الخفيف. هنا يكمن قلقه الحقيقي! لقد دفنت حياتها في حياته. إنها امرأة محبة ربّت أطفاله، وجعله المهر الذي حصل عليه من عائلتها «ألتمان» رجلاً غنياً. لكنها تشعر بالمرارة تجاه بيرثا، من يستطيع أن يلومها؟ إنها محقة في شعورها بالمرارة.

نظر بريوير إليها. عندما تزوّجها، كانت أجمل امرأة رآها في حياته. أجمل من الإمبراطورة أو من بيرثا بل حتى أجمل من لو سالومي. هل هناك رجل في فيينا لم يحسده؟ لكن لماذا إذن لا يستطيع أن يلمسها، أن يقبّلها؟ لماذا يثير فمها الفاغر خوفه؟ لماذا تنتابه هذه الفكرة المخيفة التي جعلته يهرب من قبضتها؟ إنّها مصدر ألمه؟

راح يراقبها في الظلام. شفتاها الحلوتان، تقبب عظام خدها بلطف، بشرتها الناعمة الحريرية. تخيّل وجهها يشيخ، يتغضن بالتجاعيد، بشرتها تتصلّب لتصبح مثل قشور جلدية، تتساقط، كاشفة عن الجمجمة العاجية تحتها. نظر إلى انتفاخ ثدييها المتربعين فوق أضلاع قفصها الصدري. تذكّر أنه كان يسير ذات مرة على شاطئ تهبّ عليه الرياح، ووجد بقايا

سمكة عملاقة، جزء من طرفها متفسّخ، أضلاعها العارية المبيّضة تبتسم له ابتسامة عريضة.

حاول بريوير أن ينفض فكرة الموت من رأسه. ردد تعويذته المفضّلة، العبارة التي قالها لوكريتيوس: «حيث يوجد الموت، لا أوجد أنا. وحيث أوجد أنا، لا يوجد الموت. لمَ القلق؟» لكن ذلك لم يساعده في شيء.

هزّ رأسه، محاولاً أن ينفض عنه هذه الأفكار السقيمة. من أين أتت؟ من مناقشة نيتشه عن الموت؟ لا، لم يدخل نيتشه هذه الأفكار في رأسه بل حررها. كانت موجودة دائماً. فقد خطرت له كلها من قبل. لكن أين تقبع في عقله عندما لا يفكّر بها؟ إن فرويد محقّ، فلا بد أنه يوجد خزان من الأفكار المركبة في الدماغ تقبع خلف الوعي، لكنها تكون جاهزة باستمرار لأن تتجمع في أي وقت وتنتقل إلى مرحلة التفكير الواعي.

ليست الأفكار وحدها هي التي تقبع في هذا الخزان الواعي، بل المشاعر أيضاً! فقبل بضعة أيام، عندما كان يركب عربة أجرة، لمح بريوير عربة أخرى تسير بجانبه. كان حصانا العربة يخبان ويجران العربة التي يقبع فيها شخصان، زوج وزوجة، متجهما الوجه. *لكن لم يكن فيها سائق*. طيف عربة! تملكه الخوف وعلى الفور أخذ العرق ينضح منه بغزارة: بلل ثيابه في ثوان، ثم ظهر سائق العربة الذي كان محنياً يعدّل حذاءه الطويل.

في البداية، سخر بريوير من ردّة فعله الحمقاء. لكنه كلما فكر بذلك أكثر، أدرك أنه مهما كان رجلاً عقلانياً ومفكّراً حراً، فإن عقله يأوي مجموعات من الرعب فوق الطبيعية، ولا تكمن في مكان عميق أيضاً، بل إنها «تحت الطلب»، تقبع على مسافة ثوان فقط من السطح. كم أتمنى أن يتمكن مبضع لوزة الحلق استئصال هذه المخاوف من جذورها.

لا يبدو أن النوم سيراوده. نهض بريوير وعدّل قميص نومه ونفش الوسادات. فكّر بنيتشه مرة أخرى. يا له من رجل غريب! كم كانت الأحاديث التي تبادلاها جيدة! أحبّ الأحاديث التي دارت بينهما، وجعلته يشعر بالارتياح. ماهي عبارة نتيشة «الصلبة كالصوان»؟ لكن من أنت؟» لكن من أنا؟ سأل بريوير نفسه. ماذا أنوي أن أكون؟ كان والده متخصصاً في التلمود. لعل المناقشات الفلسفية تجري في دمه. كان يستمتع بدروس الفلسفة القليلة في الجامعة، أكثر من معظم الأطباء، لأنه أمضى، بإصرار من والده، سنته الأولى في كليّة الفلسفة قبل أن يبدأ دراسة الطب. وكان سعيداً لأنه حافظ على علاقته مع برينتانو وجودل، أستاذا الفلسفة اللذان درسّاه. يجب أن يراهما أكثر. ثمة شيء تطهيري في الأحاديث في دنيا الأفكار المحضة. إنها هناك، ربما هناك فقط، بأنه لم يتأثر ببيرثا وبجاذبيتها. كيف سيكون الحال إذا مكث، مثل نيتشه، في هذه الدنيا؟

والطريقة التي يمتلك فيها نيتشه الشجاعة على قول الأشياء! تصوّر أن تتمكن من القول إن الأمل هو أعظم الشرور! وأن الله ميت! وأن الحقيقة خطأ لا يمكننا أن نعيش بدونه! وأن أعداء الحقيقة ليست الأكاذيب، بل القناعات! وأن الجائزة النهائية للموتى هي أنهم لن يموتوا ثانية! وأنه لا يحق للأطباء حرمان رجل من أن يموت بملء إرادته! الأفكار الشريّرة! ناقش نيتشه كلّ موضوع منها، لكنه كان نقاشاً زائفاً: ففي أعماق قلبه، كان يعرف أن نيتشه محقّ.

وماذا عن حرية نيتشه! كيف تبدو الحياة التي يعيشها؟ لا بيت، لا التزامات، لا رواتب يدفعها، لا أطفال يربيهم، لا نظام في الحياة، لا دور، لا موقع في المجتمع. ثمة شيء جذاب في حرية كهذه. لماذا يمتلك فريدريك نيتشه الكثير منها ولا يمتلك جوزيف بريوير إلا النزر اليسير؟ ببساطة لقد تمكن نيتشه من الحصول على حريته. لماذا لا

يمكنني أن أفعل ذلك؟ دمدم بريوير. استلقى على السرير مشوشاً بهذه الأفكار حتى دقّت الساعة معلنة السادسة صباحاً.

*

«صباح الخير، دكتور بريوير»، حيّته السيدة بيكر عندما وصل إلى العيادة في العاشرة والنصف بعد أن أنهى زياراته الصباحية إلى بيوت المرضى، وأضافت، «كان البروفسور نيتشه ينتظر في الردهة عندما وصلتُ لأفتح العيادة، وأحضر لك هذه الكتب وطلب مني أن أقول لك إنها نسخه الشخصية وقد دوّن في الهوامش ملاحظات بخط يده تضم أفكاراً عن أعمال سيكتبها في المستقبل. قال إنها شديدة الخصوصية ويجب ألا تريها لأحد. بالمناسبة، كان الاضطراب بادياً عليه وتصرّفه غريباً جدا».

«كيف يا سيدة بيكر؟»

«كان يرمش عينيه كأنه لا يستطيع أن يرى أو أنه لا يريد أن يرى ما يراه. وكان شاحب الوجه كما لو أنه على وشك أن يغمى عليه. سألته هل يحتاج إلى مساعدة، أو يريد احتساء الشاي، أم أنه يرغب في أن يرتاح قليلاً في مكتبك. حسبت أنني كنت لطيفة معه، لكنه بدا مستاء، بل كاد أن يغضب، ثمّ استدار دون أن ينبس بكلمة وهبط الدرج متعثّراً».

أخذ بريوير رزمة الكتب التي أحضرها نيتشه من السيدة بيكر. كتابان مغلفان في صفحة من عدد البارحة من صحيفة *نيوي فريي بريس* ومربوطان بحبل قصير. فكّ الحزمة ووضع الكتابين على منضدته إلى جانب النسختين اللتين كانت لو سالومي قد أعطتهما له. ربما بالغ نيتشه بالقول إن نسخ هذه الكتب ليست متوفرة إلا في فيينا، لكن مما لا شك فيه أنه الآن الشخص الوحيد الذي يمتلك نسختين منهما.

«دكتور بريوير، أليست هذه الكتب هي نفسها التي جلبتها السيدة

الروسية المحترمة؟» كانت السيدة بيكر قد جلبت بريد الصباح، ولاحظت عناوين الكتب عندما أزالت الصحيفة وفكت قطعة الحبل المربوطة بها.

كيف توّلد الأكاذيب أكاذيب، قال بريوير لنفسه، وكيف يتعين على الكذّاب أن يكون حذراً ويقظاً على الدوام. وعلى الرغم من أن السيدة بيكر تتصرف بشكل رسمي وتتمتع بالكفاءة في عملها، فإنها تحبّ كذلك أن «تقترب» من المرضى. هل يمكن أن تخبر نيتشه عن «السيدة الروسية» والكتابان اللذان أهدتهما له؟ يجب أن يحذّرها من ذلك.

«سيدة بيكر، أريد أن أقول لك شيئاً. تلك المرأة الروسية، الآنسة سالومي، الفتاة التي لم ترق لك كثيراً، هي صديقة البروفسور نتيشه، أو كانت صديقته. كانت قلقة على البروفسور وقد أوصاها بعض الأصدقاء بأن يستشيرني. وهو لا يعرف ذلك، وعلاقته مع الآنسة سالومي حالياً سيئة. لو أتيحت لي الفرصة لمساعدته، فيجب ألاّ يعرف أبداً أنني التقيت بها».

هزت السيدة بيكر رأسها بأسلوبها الحذر المعتاد، ثمّ نظرت من النافذة ورأت مريضين قادمين، وقالت: «السيد هوبتمان والسيدة كلاين. من تريد أن تراه أولاً؟»

لم يكن تحديد وقت محدد لنيتشه أمراً معتاداً. فقد جرت العادة على أن يحدد بريوير، شأن الأطباء الآخرين في فيينا، يوماً فقط، ويرى المرضى بحسب ترتيب وصولهم.

«دعي السيد هوبتمان يدخل، لأنه يجب أن يعود إلى عمله».

*

بعد أن رأى بريوير آخر مريض صباح البارحة، قرّر أن يقرأ كتب نيتشه قبل عودته في اليوم التالي، وطلب من السيدة بيكر أن تخبر

زوجته بأنه قد لا يستطيع الصعود إلى الطابق العلوي حتى العشاء، ثمّ التقط الكتابين المجلدين بطريقة رديئة ورخيصة، لا يزيد كلّ منهما على ثلاثمائة صفحة. فضّل قراءة النسختين اللتين أحضرتهما لو سالومي ليتمكن من وضع خطوط تحت بعض الفقرات ويدوّن على الهوامش خلال قراءته. لكنّه أحسّ أنه مضطر لقراءة النسختين اللتين أحضرهما نيتشه، كما لو أنه يريد أن يقلل من ازدواجيته. فقد كانت الإشارات الشخصية التي وضعها نيتشه مشتتة للأفكار: فهناك خطوط كثيرة تحت السطور، وملاحظات في الهوامش، وعلامات تعجّب عديدة وصيحات «نعم! نعم!» وفي بعض الأحيان «**لا!**» أو «**أحمق!**» والكثير من الملاحظات التي لم يستطع أن يفك بريوير حروفها.

كانا كتابين غريبين، بخلاف الكتب الأخرى التي رآها في حياته. كان كلّ كتاب يحتوي على مئات الأقسام المرقمة، لا علاقة للعديد منها بأحدها الآخر. كانت الأقسام قصيرة، فقرتان أو ثلاث فقرات كحد أقصى، في الغالب بضع جمل فقط، وأحياناً مجرد حكمة أو قول مأثور: «إن الأفكار هي ظلّ مشاعرنا، دائماً أكثر قتامة وفراغاً وبساطة»؛ «لا أحد يموت من حقائق قاتلة في زمننا الراهن ـ يوجد الكثير من الترياق». «ما فائدة كتاب إذا لم يحملنا أبعد من جميع الكتب؟»

من الواضح أن البروفسور نيتشه يشعر بأنه يستطيع مناقشة أي موضوع: الموسيقى، الفنّ، الطبيعة، السياسة، التفسير، التاريخ، علم النفس. وصفته لو سالومي بأنه فيلسوف عظيم. لعل بريوير ليس مستعدّاً لإطلاق أحكام على محتويات كتبه، لكن من الواضح أن نيتشه كاتب شاعري، شاعر حقيقي.

تبدو بعض الأقوال التي يطلقها نيتشه سخيفة، إذ تقول إحدى الأقوال المضحكة مثلاً أنه توجد لدى الآباء والأبناء أمور مشتركة أكثر مما توجد لدى الأمهات والبنات. إلا أن أقوالاً عديدة تعكس نفسه: «ما هو دليل

التحرر؟ ـ ألاّ يعود المرء يشعر بالخجل أمام نفسه». وقد لفتت انتباهه فقرة على نحو خاص:

مثل العظام تماماً، فإن الجلد يضم اللحم والأمعاء والأوعية الدموية لكي تصبح هيئة الإنسان مقبولة، لذلك تكون مشاعر الإثارة والعواطف في الروح مغلّفة في خيلائه؛ إنها جلد الروح.

كيف يمكن تصنيف هذه الكتابات؟ لا يمكن توصيفها في فئة محددة، إلا اعتبارها جسماً متكاملاً، تبدو استفزازية بشكل متعمد. إنها تطعن جميع القناعات، تشكك فيها، بل تشوّه سمعة الفضائل التقليدية، وتمجّد الفوضوية.

نظر بريوير إلى ساعته. الواحدة والربع. لم يعد لديه وقت كاف لتصفّح الكتب بتأن. فهو يعرف أنه سيدعى إلى العشاء في أيّ لحظة. راح يبحث عن فقرات قد تتيح له مساعدة عملية في لقائه غداً مع نيتشه.

إن برنامج عمل فرويد في المستشفى لا يتيح له عادة إمكانية أن يأتي لتناول العشاء في يوم الخميس. لكن بريوير دعاه اليوم خاصة لكي يشاوره في موضوع نيتشه. بعد تناول عشاء فييني دسم من الملفوف اللذيذ وشوربة الزبيب، وشرائح فينير، والكرنب الصغير، والخبز المخبوز بالبندورة، والخبز الذي أعدته مارتا من الجاودر، والتفاح المخبوز بالقرفة والشياغ، وماء سلتزر، انسحب بريوير وفرويد إلى غرفة المكتب.

بينما أخذ بريوير يصف التاريخ الطبي للمريض الذي يدعوه هير إكارت موللر والأعراض التي تنتابه، لاحظ جفني فرويد ينغلقان ببطء. كان يعرف كيف يتعامل مع النعاس الذي يلازم فرويد بعد أن يتناول الطعام.

فقال بسرعة: «إذاً يا سيغ، دعنا نعدّك للامتحان الطبي لقبولك في

الجامعة. سأتظاهر بأنني البروفسور نورثناجل. لم أنم ليلة البارحة. كنت مصاباً بشيء من سوء الهضم، وقد أنبتني ماتيلد مرة أخرى لأنني تأخرت على العشاء، لذلك فإني أشعر بالغضب اليوم لكي أقلد هذا الرجل الفظ».

اتخذ بريوير لهجة شمال ألمانيا الثقيلة وموقفاً مستبداً بروسياً صارماً: «حسنا، دكتور فرويد، لقد عرضت عليك التاريخ الطبي للسيد إكارت موللر. الآن أنت جاهز للقيام بالفحص الجسدي. أخبرني، عمّا ستبحث؟»

فُتحت عينا فرويد على وسعيهما، ومرر إصبعه حول ياقة قميصه ليفكّها. لم يشارك بريوير ولعه بهذه الامتحانات الوهمية، مع أنها جيدة من الناحية التعليمية وتثير اهتمامه على الدوام.

بدأ بريوير كلامه، «لا شك أن المريض مصاب في جهازه العصبي المركزي: صداع، بصره في تدهور، تاريخ والده العصبي، اضطرابات في التوازن ـ جميعها تشير إلى ذلك. إني أشكّ في أنه مصاب بورم في الدماغ. ربما تصلّب في الأنسجة. سأجري فحصاً شاملاً للأعصاب، سأفحص الأعصاب القحفية فحصاً دقيقاً، خاصة الأعصاب الأولى والثانية والخامسة والحادية عشرة. سأعيد فحص مجال الرؤية بدقة أيضاً ـ قد يكون الورم ضاغطاً على العصب البصري».

«وماذا عن الظواهر البصرية الأخرى، دكتور فرويد؟ الوميض، عدم وضوح الرؤية في الصباح التي بدأت تتحسّن منذ اليوم؟ هل تعرف أن السرطان قد يفعل كل ذلك؟»

«سألقي نظرة فاحصة على شبكية العين. ربما كان لديه قليل من الضمور البقعي».

«الضمور البقعي الذي يتحسّن بعد الظهر؟ رائع! هذه حالة يجب أن

نكتبها لنشرها! وإعيائه المتكرر وأعراض الروماتيزم وتقيّؤه الدم؟ كل ذلك ينجم عن السرطان أيضاً؟»

«هير بروفسور نورثناجيل، ربما يكون المريض مصاباً بمرضين. البراغيث والقمل أيضاً، كما يقول أوبولزير. قد يكون مصاباً بفقر الدم».

«كيف تجري فحصاً للكشف عن فقر الدم؟»

«أفحص الهيموغلوبين والبراز».

«لا! لا! ليس هذا ليس جيداً! ماذا يعلّمونك في كليّات الطب في فيينا؟ أن تفحص بحواسك الخمس؟ إنسَ فحوصات المختبر، طبّك اليهودي! إن المختبر لا يؤكّد إلا ما يقوله له الفحص الطبي. افترض أنك في ساحة المعركة يا دكتور... هل ستطلب إجراء فحص للبراز؟»

«أدقق في لون المريض، خاصة ثنايا راحتيه والأغشية المخاطية ـ اللثة، اللسان، الملتحمة».

«صحيح. لكنّك نسيت الأهم، الأظافر».

تنحنح بريوير الذي واصل تأدية دور نورثناجيل، وقال: «الآن، يا طبيبي الشاب الطموح، سأعطيك نتائج الفحص الطبي الشامل. أولاً، فحص الجهاز العصبي طبيعي تماماً ـ لا توجد أي نقطة سلبية واحدة. أما بالنسبة للورم في الدماغ أو تصلّب الأنسجة المنتشر، وهما يا دكتور فرويد إمكانيتان غير محتملتين في المقام الأول، إلا إذا كنت تعرف حالات استمرت لسنوات وظهرت بصورة متكررة في شكل أعراض حادة تستمر من أربع وعشرين ساعة إلى ثمانية وأربعين ساعة، ثم تتلاشى تماماً دون حدوث أي اضطراب عصبي. لا، لا، لا! هذا ليس مرضاً هيكلياً بل اضطراب فيزيولوجي عرضي». أخذ بريوير نفساً عميقاً، وبالغ في إبراز لهجته البروسية، وقال: «هناك تشخيص محتمل واحد، يا دكتور فرويد».

احمّر وجه فرويد وقال: «لا أعرف». بدا يأساً ما جعل بريوير يوقف اللعبة، وطرد نورثناجيل، وخفف من حدة نبرته.

«نعم، إنك تعرف يا سيغ. كنا قد ناقشنا الأمر المرة الماضية، داء الشقيقة. لا تخجل من عدم التفكير بها: فداء الشقيقة مرض يعالجه الأطباء في البيوت، ونادراً ما يراه الطامحون السريريون لأن الذين يصابون بداء الشقيقة لا يذهبون إلى المستشفى عادة. لا شك أن لدى هير موللر حالة حادّة لداء الشقيقة. عنده جميع الأعراض الكلاسيكية. دعنا نستعرضها: نوبات متقطعة، خفقان صداع أحادي الجانب ـ غالباً ما يكون في حدود العائلة، بالمناسبة يرافقها فقدان الشّهية وغثيان وتقيّؤ وانحرافات بصرية تبدأ بوميض ضوء حتى الإصابة بعمى نصفي».

أخرج فرويد دفتر ملاحظات صغير من جيب معطفه وأخذ يدوّن ملاحظات. «بدأت أتذكّر بعض قراءاتي عن الصداع النصفي يا جوزيف. تقول نظرية دو بوا ريموند بأنه أحد أمراض الأوعية الدموية، ويسبب الألم تشنّجاً في شرايين الدماغ الصغيرة».

«إن دو بوا ريموند محقّ في ما يتعلق بالأوعية الدموية، لكن لا يصاب جميع المرضى بتشنّج في الشرايين الصغيرة للدماغ. لقد رأيت حالات كثيرة مغايرة ـ تمدد الأوعية. يقول موليندورف إن سبب الألم ليس التشنّج بل تمدد الأوعية الدموية المرخية».

«وماذا عن فقدانه الرؤية؟»

«هذه براغيثك وقملك! إنها ناجمة عن شيء آخر، وليست بسبب داء الشقيقة. لم أستطع أن أركّز ناظور العين على شبكيّة عينه. شيء ما أعاق الرؤية. لم تكمن المشكلة في العدسة، ولا في إعتام عدسة العين، بل في القرنية. لا أعرف سبب عتامة القرنية لكنّي رأيتها من قبل. ربما كانت وذمة القرنية ـ وهذا يفسّر ازدياد رؤيته سوءاً في الصباح. تصبح وذمة

القرنية الأسوأ بعد أن تكون العينان مغمضتين طوال الليل وتتحسن تدريجياً عندما يتبخر السائل من العينين المفتوحتين خلال النهار».

«وضعفه؟»

«إنه مصاب بشيء من فقر الدم. ربما كان يعاني من نزيف معوي، لكن لعله فقر الدم الغذائي. إنه مصاب بسوء هضم شديد حتى أنه لا يتحمّل تناول اللحم لأسابيع طويلة».

واصل فرويد تسجيل ملاحظاته، ثم سأل، «وماذا عن التشخيص؟ هل أودى هذا المرض نفسه بحياة والده؟»

«سألني نفس السؤال يا سيغ. في الحقيقة، لم أر مريضاً قط يصرّ على معرفة كلّ الحقائق المؤلمة. جعلني أعده بأن أكون صادقاً معه ثم طرح عليّ ثلاثة أسئلة: هل سيتقدم مرضه تدريجياً، هل سيصاب بالعمى، هل سيموت بسببه؟ هل سمعت قط مريضاً يتحدث بهذه الطريقة؟ وعدته بأنني سأجيبه على أسئلته في جلستنا غداً».

«ماذا ستقول له؟»

«يمكنني أن أطمئنه بالاستناداً إلى دراسة ممتازة أجراها ليفيلنغ، الطبيب البريطاني. إنها أفضل بحث طبي قرأته يصدر في إنكلترا. يجب أن تقرأ دراسته». تناول بريوير مجلداً سميكاً وأعطاه إلى فرويد الذي أخذ يتصفحه ببطء.

«إنه لم يُترجم بعد»، تابع بريوير، «لكنك تجيد اللغة الإنكليزية. يتحدث ليفيلنج عن عيّنة كبيرة من المصابين بداء الشقيقة ويخلص إلى أن حدّة داء الشقيقة تقل عندما يتقدم المريض في السن، وهو لا يرتبط أيضاً بأيّ مرض آخر في الدماغ. فعلى الرغم من أن المرض يمكن أن يأتي بالوراثة، فليس من المرجح أن والده مات بسبب هذا المرض.

وواصل بريوير كلامه، «طبعاً. إن أسلوب ليفيلنج في البحث غير

واضح. فالدراسة لا توضح إن كانت النتائج التي توصل إليها تستند إلى بيانات مستعرضة. إنك تفهم ماذا أقصد يا سيغ؟»

فردّ فرويد الذي بدا أنه يفضّل القيام بأبحاث على الطبّ السريري، «إن الطريقة الطولية تعني متابعة المرضى الأفراد لسنوات والكشف عن أن النوبات التي تصيبهم تقلّ عند تقدمهم في السن، أليس كذلك؟»

«تماماً»، قال بريوير، «والطريقة المستعرضة....»

قاطع فرويد مثل تلميذ مدرسة متلهّف يجلس في الصف الأمامي في قاعة الدروس، «إن الطريقة المستعرضة هي ملاحظة واحدة في فترة محددة من الزمن ـ في هذه الحالة، يظهر أن عدد المرضى المصابين بداء الشقيقة الأكبر سنّاً أقل من عدد المرضى الأصغر سناً في العيّنة».

منحه بريوير فرصة أخرى ليواصل فسأله: «هل يمكنك أن تفكر بطريقة أخرى أكثر دقّة؟»

«لا يمكن أن تكون الطريقة المستعرضة دقيقة جداً: فقد تحتوي العيّنة على عدد قليل جداً من المصابين بداء الشقيقة الحادّ المتقدمين في السن، لا لأن داء الشقيقة يتحسّن، بل لأن هؤلاء المرضى في حالة مرض شديد أو أنهم ثبطوا عزيمة الأطباء كثيراً لعدم موافقتهم على أن يصبحوا موضع دراسة».

«تماماً، إنه عيب لا أظن أن ليفيلنج أدركه. ردّ ممتاز يا سيغ. هل ندخن سيجاراً للاحتفال بذلك؟» قبل فرويد السيجار التركي الفاخر الذي قدمه له بريوير، وأشعل الرجلان السيجار واستمتعا برائحته.

«الآن»، علّق فرويد، «هل يمكننا أن نتحدّث عن باقي الحالة؟» ثمّ أضاف بهمس، «الجزء المثير منها».

ابتسم بريوير.

«ربما ينبغي ألاّ أقول هذا»، تابع فرويد، «لكن بما أن نورثناجيل

غادر الغرفة، سأعترف لك شخصياً بأن الجوانب النفسية لهذه الحالة تفتنني أكثر مما تفتنني الصورة الطبية».

لاحظ بريوير أن صديقه الشاب بدأ يزداد حيوية. كانت عينا فرويد تتألّقان بفضول عندما سأل، «كم هو انتحاري هذا المريض؟ هل تمكنت من نصحه للحصول على استشارة طبية؟»

شعر بريوير بالخجل الآن. احمّر وجهه عندما تذكّر كيف أنه أبدى، في حديثهما الأخير، ثقة في مهاراته أثناء مقابلة المرضى، وقال: «إنه رجل غريب يا سيغ. لم ألق مقاومة من مريض كهذه من قبل. كان مثل حائط من الآجر. *حائط آجر ذكي*. منحني ثغرات جيدة كثيرة. قال إنه ينتابه منذ خمسين يوماً مزاج سوداوي، لأن أصدقاءه خدعوه، وأنه يعيش في عزلة تامة، وأنه كاتب من دون قرّاء، وأنه مصاب بأرق حادّ وتأتيه أفكار ليلية خبيثة».

«لكن، جوزيف، هذه هي الثغرات التي قلت إنك تبحث عنها!»

«تماماً. مع أنني كلّما بحثت في إحداها، خرجتُ خالي الوفاض. نعم، اعترف في أحيان كثيرة بأنه مريض، لكنه أصرّ على أن جسده هو المريض لا هو، لا جوهره. أما بالنسبة إلى المزاج السوداوي فهو يقول إنه فخور بأنه يمتلك الشجاعة لتحمل المعاناة من المزاج السوداوي! «فخور لأني أمتلك الشجاعة لأن يعتريني مزاج سوداوي» ـ هل تصدق ذلك؟ كلام مجنون! خيانة؟ نعم، أظن أنه يشير إلى ما حدث له مع الآنسة سالومي، لكنه يدّعي أنه تغلّب على ذلك ولا يريد مناقشته. أما بالنسبة إلى الانتحار، فهو ينفي أن لديه ميلاً إلى الانتحار، لكنه يدافع عن حق المريض في اختيار أسلوب موته. ومع أنه يرحب بالموت، فإنه يقول إن جائزة الميت هي أنه لن يموت مرة أخرى، ولا تزال أمامه أشياء كثيرة عليه أن ينجزها. كتب كثيرة يريد أن يكتبها. في الواقع،

يقول إن رأسه حبلى بالكتب، ويعتقد أن صداعه ناجم عن إرهاق في عمل دماغه».

هزّ فرويد رأسه متعاطفاً مع قلق بريوير، وقال: «إرهاق في عمل دماغه، يا لها من استعارة! مثل أن مينيرفا ولدت من حاجب زيوس! أفكار غريبة. إرهاق في عمل الدماغ، أن يختار المرء موته، الشجاعة في أن ينتابه مزاج سوداوي. إنه رجل لا يخلو من الذكاء يا جوزيف. إني أتساءل، هل هو ذكاء مجنون أو جنون رجل حكيم؟»

هزّ بريوير رأسه. استرخى فرويد في جلسته، نفث خيطاً طويلاً من الدخان الأزرق. راقبه وهو يتصاعد ثم تلاشى قبل أن يتابع كلامه، «إن هذه الحالة تزداد سحراً يوماً بعد يوم. وماذا عن تقرير السيدة عن اليأس الانتحاري؟ هل يكذب عليها؟ أم عليك؟ أم على نفسه؟»

«يكذب على نفسه يا سيغ؟ كيف تكذب على نفسك. من هو الكذاب؟ على من يكذب؟»

«ربما كان جزء منه يميل إلى الانتحار، لكن الجزء الواعي منه لا يعرف ذلك».

التفت بريوير وأمعن النظر في صديقه الشاب. توقّع أن يرى ابتسامة عريضة على وجهه، لكن فرويد كان جدّياً للغاية.

«سيغ، إنك تتحدث أكثر وأكثر عن هذا العقل الباطن الصغير الذي يعيش حياة منفصلة عن مضيفه. أرجوك يا سيغ، اعمل بنصيحتي: لا تحدّث أحداً آخر عن هذه النظرية غيري. لا، لا، حتى أنني لا أستطيع أن أطلق عليها اسم نظرية ـ فلا يوجد أي دليل على ذلك. لنسمّها فكرة خيالية. لا تحدّث بروك عن هذه الفكرة الخيالية، لأنها ستخفّف من شعوره بالذنب بعدم امتلاك الشجاعة للترويج ليهودي».

فردّ فرويد بحزم غير معهود، «سيبقى ذلك بيننا حتى إثباتها بالدليل الكافي. عندها لن أتوانى عن نشرها».

للمرة الأولى أدرك بريوير أنه لم يبق الكثير من الصبيانية في صديقه الشاب، بل بدأت تنمو فيه جرأة ورغبة قويتين للدفاع عن قناعاته ـ صفات كان يتمنّى أنّه يتحلّى بها هو نفسه.

«سيغ، إنك تتحدث عن دليل كما لو أن هذا قد يكون موضوعاً للبحث العلمي. لكن لا توجد لدى هذا القزم أي حقيقة ملموسة. إنه ببساطة تركيب عقلي، أشبه بفكرة أفلاطونية مثالية. ماذا يمكن أن يشكّل دليلاً؟ هل يمكنك أن تضرب لي مثالاً واحداً؟ ولا تستخدم الأحلام، فأنا لا أقبلها كدليل، فهي أيضاً تركيبات لا قيمة لها».

«لقد قدمت أنت نفسك الدليل يا جوزيف. فقد أخبرتني أن حياة بيرثا بابينهيم العاطفية تفرضها أحداث حدثت قبل اثني عشر شهراً ـ أحداث ماضية لا توجد لديها معرفة واعية بها، ومع ذلك، فإنها موصوفة بدقّة في مفكرة أمّها قبل سنة. في رأيي أن ذلك بمثابة برهان في المختبر».

«لكن هذا يقوم على فرضية بأن بيرثا شاهد موثوق، بأنّها لا تتذكّر حقاً الأحداث الماضية هذه».

لكن، لكن، لكن، لكن ـ مرة أخرى، قال بريوير لنفسه، «ذلك الشيطان لكن». رغب في أن يضرب نفسه. كان يتخذ طوال حياته مواقف مترددة «لكن»، وها هو يفعلها الآن مرة أخرى مع فرويد ومع نيتشه ـ عندما يشك، في سريرته، بأنهما محقان.

دوّن فرويد بضعة جمل أخرى في دفتر ملاحظاته، ثم قال: «جوزيف، هل يمكنني الاطلاع على مفكرة السيدة بابينهيم في وقت ما؟»

«لقد أرجعتها لها، لكني أستطيع استعادتها».

أخرج فرويد ساعته، وقال: «يجب أن أعود إلى المستشفى للقيام بجولات نورثناجيل، لكن قبل أن أذهب، قل لي ماذا ستفعل مع مريضك المقاوم».

«تقصد ماذا أريد أن أفعل؟ ثلاث خطوات: أريد أن أقيم معه علاقة وئام جيدة بين الطبيب والمريض؛ ثمّ أريد أن أدخله إلى العيادة لبضعة أسابيع لمراقبة داء الشقيقة وتنظيم علاجه؛ خلال هذه الأسابيع، أريد أن ألتقي به من فترة لأخرى وأجري مناقشات معمّقة عن حالة اليأس التي تعتريه». تنهّد بريوير، وأضاف، «لكن بما أنني أعرفه، ثمة احتمال قليل بأنه سيتعاون في أيّ من هذه الأمور. هل لديك أي أفكار أخرى يا سيغ؟»

رفع فرويد الذي كان لا يزال يقرأ دراسة ليفيلنج، *صفحة* حتى يراها بريوير، «هنا، اسمع هذا. بعنوان *علم أسباب الأمراض*، يقول ليفيلنج «إن نوبات داء الشقيقة ناجمة عن سوء الهضم وإجهاد العين والإجهاد. قد يكون نيل استراحة طويلة في السرير أمراً مستحسناً. إذ يجب إبعاد الذين يعانون من داء الشقيقة الصغار السن عن إجهاد المدرسة وتعليمهم بهدوء في البيت. وينصح بعض الأطباء بأن يغير المرء مهنته إلى مهنة أقل إجهاداً»».

بدا بريوير في حيرة، ثم قال: «إذاً؟»

«أعتقد أن هذا هو ردنا! الإجهاد! لم لا تجعل الإجهاد المفتاح الرئيسي لخطة معالجتك؟ اتخذ الموقف بأنه لكي يتغلّب السيد موللر على داء الشقيقة، يجب عليه أن يخفف من الإجهاد، بما في ذلك الإجهاد العقلي. اقترح عليه أن الإجهاد عاطفة مكبوتة، وأنه يمكن، كما في حالة معالجة بيرثا، التقليل منه بإيجاد منفذ له. استخدم طريقة تنظيف المدخنة. يمكنك حتى أن تريه دراسة ليفيلنج والاستشهاد بقوّة السلطة الطبية».

لاحظ فرويد بريوير يبتسم عندما قال ذلك، فسأله، «هل تظن أن هذه خطة حمقاء؟»

«لا أبداً يا سيغ. في الحقيقة، أظن إنها نصيحة ممتازة، وسأنفذها بدقة. إن ما جعلني ابتسم هو ما قلته في النهاية ـ الاستشهاد بقوّة السلطة الطبية ـ يجب أن تعرف هذا المريض جيداً لكي تقدّر الدعابة، لكن الفكرة بأن تتوقّعه ينحني أمام السلطة الطبية، أو أمام أي نوع آخر من السلطة، تبدو لي مضحكة».

فتح بريوير كتاب نيتشه *العلم المرح*، وقرأ بصوت مسموع عدّة فقرات كان قد علّمها. وقال: «إن السيد موللر يعارض كلّ السلطات والعادات. فهو مثلاً يجعل الفضائل تقف على رؤوسها ويحول اسمها إلى رذائل ـ كما في هذا الرأي عن الإخلاص: إنه يتمسك بعناد بشيء بدأ يراه جيداً، لكنّه يدعوه الإخلاص.

«وعن التهذيب والكياسة: «فهو مؤدّب للغاية. نعم، إنه يحمل دائماً معه قطعة بسكويت من أجل سيربيروس، وهو شديد الخجل إلى حد أنه يفكّر بأن كلّ شخص هو سيربيروس، حتى أنا وأنت. تلك هي كياسته.

«واسمع هذه الاستعارة الرائعة عن ضعف البصر واليأس: «لإيجاد كلّ شيء عميقاً، فهذه ميزة غير ملائمة. إنها تجعل المرء يجهد عينيه دائماً، وفي النهاية، يجد المرء أكثر مما يتمناه المرء».

كان فرويد ينصت باهتمام. «أن يرى أكثر مما يتمناه المرء»، دمدم، «أتساءل ماذا رأى. هل لي أن ألقي نظرة على الكتاب؟»

لكن رد بريوير كان جاهزاً، «سيغ، لقد جعلني أقسم بأن لا أري هذا الكتاب لأحد، لأن فيه حواشي شخصية. إن توافقي معه واه جداً لذلك من الأفضل أن أحترم طلبه. لاحقاً، ربما.

«أحد الأشياء الغريبة في مقابلتي مع السيد مولر»، تابع لكنه توقف

في آخر الجملة، «هي أنني كلما حاولت أن أبدي تعاطفاً معه، يشعر بأنه أهين ويكسر الوئام الذي تشكل بيننا. آه! «جسر مشاة»! نعم، ها هو الممر الذي أبحث عنه».

بينما كان بريوير يقرأ، أغمض فرويد عينيه ليركز بشكل أفضل.

««مرت فترة في حياتنا اقترب فيها أحدنا كثيراً من الآخر ولم يعد هناك شيء يعيق صداقتنا وإخوّتنا، ولم يكن يفصلنا إلا جسر مشاة صغير. عندما كنت على وشك تطأ بقدمك على الجسر، سألتك: «هل تريد أن تعبر جسر المشاة نحوي؟» - فجأة لم تعد ترغب في ذلك، وعندما سألتك ثانية لذت بالصمت. منذ ذلك الحين، أُلقيت بيننا جبال وأنهار غزيرة وأي شيء يمكنه أن يفصل بيننا ويبعد أحدنا عن الآخر، وحتى إذا رغبنا في أن نلتقي، لم نستطع ذلك. لكن عندما تفكّر الآن بجسر المشاة الصغير ذاك، لا يمكن التعبير عن ذلك بكلمات، وأنت تنشج وتدهش»».

وضع بريوير الكتاب على الطاولة. «ماذا تفهم من هذا يا سيغ؟»

«لست متأكّداً»، نهض فرويد وراح يتمشى وهو يتكلّم، «إنها قصّة صغيرة غريبة. لنفكّر في الأمر جيداً. شخص على وشك أن يعبر جسر مشاة - أي يقترب أكثر من الشخص الآخر. عندما يدعوه الشخص للقيام بالشيء الذي خطّط له، لا يستطيع الشخص الأول أن يتخذ الخطوة، لأنه سيبدو كما لو أنه يستسلم لقوّة الشخص الآخر».

«نعم، نعم، إنك محق يا سيغ. رائع! بدأت أفهم ذلك الآن. هذا يعني أن هير موللر سيفسر أيّ تعبير عن مشاعر إيجابية بأنها عرض للقوّة. فكرة غريبة: فهذا يجعل الاقتراب منه أمراً يكاد يكون مستحيلاً. وفي فصل آخر في الكتاب، يقول إننا نكره الذين يرون أسرارنا عندما

نبدي مشاعر ودّية. إن ما نحتاج إليه في تلك اللحظة لا مشاعر العطف بل أن نسترد قوّتنا على عواطفنا».

«جوزيف»، قال فرويد الذي جلس وراح ينفض رماد سيجاره في المنفضة، «لاحظت في الأسبوع الماضي أن بيلروث يستخدم تقنيته الجراحية الجديدة المبدعة لاستئصال معدة مصابة بالسرطان. الآن، وأنا أستمع إليك، يخيّل إليّ أنك يجب أن تجري عملية جراحية نفسية معقّدة وحسّاسة كذلك. تعرف أن لديه ميولاً انتحارية مما قالته السيدة، وبالرغم من ذلك لا يمكنك أن تخبره بأنك تعرف. يجب أن تقنعه بأن يكشف عن مشاعر اليأس لديه. وحتى لو نجحت في ذلك، فإنه سيكرهك لأنك كشفت عنها وجعلته يشعر بالخجل. يجب أن تكسب ثقته، لكن حتى لو تصرّفت معه وأبديت له أنك متعاطف معه، فإنه سيتّهمك بأنك تحاول أن تكون لديك اليد العليا عليه».

«جراحة نفسية. من المثير للاهتمام سماعك تقول هذا»، قال بريوير، «ربما يتعين علينا أن نستحدث اختصاصاً طبياً فرعياً كاملاً. انتظر، هناك شيء آخر أريد أن أقرأه لك يبدو أن له صلة بالأمر».

قلّب صفحات كتاب «هو ذا الإنسان» قرابة دقيقتين، ثم قال: «لا أستطيع العثور على الفقرة الآن، لكن النقطة الرئيسية تكمن في أن الباحث عن الحقيقة يجب أن يجري تحليلاً نفسياً شخصياً. إنه يطلق عليها عبارة «تشريح أخلاقي». في الحقيقة أنه مضى شأواً بعيداً وقال إن الأخطاء التي يرتكبها حتى أعظم الفلاسفة ناجمة عن جهل دوافعهم. ويدّعي إنه بغية اكتشاف الحقيقة، يجب على المرء أن يعرف نفسه تماماً أولاً. وللقيام بذلك، يجب على المرء أن يبتعد عن آرائه المألوفة، حتى عن القرن الذي يعيش فيه والبلد الذي يقيم فيه، ثم يدرس نفسه من بعيد».

«إن قيام المرء بتحليل نفسيته ليست مهمّة سهلة»، قال فرويد ونهض

ليغادر، «لكنها مهمّة يمكن أن تصبح سهلة إذا كان هناك مرشد موضوعي على اطلاع جيد».

«هذه فكرتي تماماً»، ردّ بريوير وهو يرافق فرويد إلى المدخل، «الآن، إن الجزء الصعب يكمن في إقناعه بذلك».

«لا أظن أن ذلك سيكون أمراً صعباً»، قال فرويد، «فلديك الحجج التي يسوقها عن التشريح النفسي ونظريته الطبية حول التوتر وداء الشقيقة، توردها بطريقة لائقة، طبعاً. لا أرى كيف يمكنك أن تخفق في إقناع فيلسوفك المتردّد بالحكمة لإجراء فحص ذاتي بتوجيهك. طابت ليلتك يا جوزيف».

«شكراً يا سيغ»، قال بريوير ووضع يده على كتفه بسرعة، ثم أضاف، «كان حديثاً مفيداً. لقد علّم الطالب الأستاذ».

***

رسالة من إليزابيث نيتشه إلى فريدريك نيتشه

٢٦ تشرين الثاني ١٨٨٢

عزيزي فريتز،

لم نسمع منك أنا وأمّك منذ عدة أسابيع. الآن ليس الوقت المناسب لتختفي! لا تزال قردتك الروسية تنشر أكاذيبها عنك. إنها تعرض تلك الصورة المشينة التي تظهر فيها أنت وذلك اليهودي، ري الذي تضع رسناً حول عنقه، وتقول للجميع ساخرة إنك تحبّ طعم سوطها. لقد طلبت منك أن تسترد تلك الصورة منها. فهي ستبتزّنا بها طوال حياتنا! إنها تسخر منك في كل مكان، ويشاركها في ذلك عشيقها ري. إنها تردد أن نيتشه، الفيلسوف الأخروي، لا يهتم إلا بشيء واحد وهو: هي...جزء من جسمها ـ لا يمكنني تكرار كلماتها ـ قذارتها. أطلق العنان لمخيلتك. إنها تعيش حالياً مع صديقك ري، في رذيلة مفضوحة أمام

عيني أمّه. يا لهم من ثلة جميلة. لا شيء في سلوكهم هذا غير متوقّع. إنه أمر ليس غير متوقّع بالنسبة لي في جميع الأحوال (لا أزال أستغرب كيف أنك لم تنصت لتحذيراتي في توتينبيرغ)، لكنها بدأت تتحول الآن إلى لعبة مميتة. إنها تنسّل إلى بازل بأكاذيبها. علمتُ أنها كتبت رسائل إلى كيمب وويلهيلم. فريتز، اسمعني: إنها لن تتوقّف حتى تستنفذ راتبك التقاعدي. قد تختار أنت الصمت لكني لن أصمت: سأطلب أن تجري الشرطة تحقيقاً رسمياً عن سلوكها مع ري. إذا نجحت في ذلك، ويجب أن أحصل على دعمك، فإنهم سيبعدونها عن البلد خلال شهر لفجورها وفسقها. فريتز، أرسل لي عنوانك.

أختك الوحيدة،

إليزابيث

الفصل ٨

لم يحدث أي تغيير في منزل بريوير في ساعات الصباح الأولى. ففي الساعة السادسة، يحضر الخباز الذي يقع مخبزه عند ناصية الشارع، وهو أحد مرضى بريوير، خبز كيسيرسيم الطازج. بينما يرتدي زوجها ثيابه، تعدّ ماتيلد المائدة، وتصنع له قهوة بالقرفة، وتدهن ثلاث لفافات من الخبز الهشّ بالزبدة الحلوة ومربى الكرز الأسود. وبالرغم من التوتّر الذي يعتري زواجهما، تقوم ماتيلد بإعداد طعام فطوره بينما ترعى لويس وغريتشين الأطفال.

انهمك بريوير الذي كان مشغول البال هذا الصباح بلقائه مع نيتشه، في تصفح كتاب «هذا هو الإنسان». لم يكد يرفع عينيه عن الكتاب بينما راحت ماتيلد تصبّ قهوته. تناول طعام فطوره بصمت ثم تمتم قائلاً إن لقاءه مع مريضه الجديد ظهر اليوم قد يمتدّ حتى وقت العشاء ـ لم يعجب ماتيلد ما سمعته.

«سمعت الكثير عن هذا الفيلسوف! بدأت أشعر بالقلق. أنت وسيغي تمضيان ساعات طويلة تتحدّثان عنه! لقد عملت يوم الأربعاء حتى موعد العشاء، وأمضيت البارحة في مكتبك تقرأ كتابه حتى وصلك الطعام، وقرأته اليوم مرة أخرى أثناء الفطور. وتقول الآن إنك لن تأتي إلى العشاء! الأولاد بحاجة إلى رؤية وجه أبيهم. أرجوك يا جوزيف، لا تُضِع وقتك كثيراً معه. كالآخرين».

عرف بريوير أن ماتيلد تشير إلى بيرثا، لكن لا، لم تكن تشير إلى بيرثا فقط: فقد كانت تعترض غالباً لأنه لا يحدد فترة معقولة من الوقت مع المرضى. أما بالنسبة له، فإن الالتزام بمريض أمر لا يمكن انتهاكه. فعندما يقبل علاج مريض، فإنه لا يتوانى عن تخصيص كل الوقت والطاقة التي يرى أنها ضرورية لعلاجه. لم يكن يتقاضى أجراً مرتفعاً، ولم يكن يتقاضى أي مبلغ من المرضى الذين يعانون ضائقة مالية. في بعض الأحيان، تشعر ماتيلد بأنها يجب أن تحمي بريوير من نفسه ـ إذا تمكنت من الحصول على أيّ من وقته واهتمامه.

«الآخرون، ماتيلد؟»

«إنك تعرف ما أقصد يا جوزيف». كانت لا تزال تتحاشى ذكر اسم بيرثا. وأضافت، «بعض الأشياء، بالطبع، تستطيع الزوجة أن تفهمها. الطاولة الخاصة بك في المقهى ـ أعرف أنه يجب أن يكون لديك مكان للقاء أصدقائك ـ أوراق التاروك، طيور الحمام في مختبرك، الشطرنج. لكن في الأوقات الأخرى ـ لماذا تمنح جزءاً كبيراً من نفسك بشكل لا داع له؟»

«متى؟ عمَّ تتحدّثين؟» كان بريوير يعرف أنها عنيدة، وأنها تقوده إلى مجابهة غير سارة.

«فكّر بالوقت الذي منحته للسيدة بيرغر».

ما عدا بيرثا، كان هذا المثال، من بين جميع الأمثلة التي يمكن أن تضربها ماتيلد، يثير غضبه. كانت إيفا بيرغر، ممرضته السابقة، فقد عملت في عيادته مدة عشر سنوات تقريباً، منذ اليوم الذي افتتح فيه عيادته. لكن علاقته الوثيقة غير المعتادة معها أفزعت ماتيلد كما أفزعتها علاقته مع بيرثا. وخلال تلك السنوات، أقام بريوير وممرضته علاقة صداقة تجاوزت حدود المهنة. فقد كان يفضي أحدهما للآخر أموراً

شخصية جداً، وعندما يصبحان وحدهما، يخاطب أحدهما الآخر باسمه الأول. لعلهما الطبيب والممرضة الوحيدين في فيينا كلها اللذين يفعلان ذلك، لكن كان ذلك أسلوب بريوير.

«إنك تسيئين فهم علاقتي مع السيدة بيرغر»، أجاب بريوير ببرود شديد، «وحتى يومنا هذا، أشعر بالندم لأني استمعت إليك. إن طردها من عيادتي هو أكثر الأشياء المخزية في حياتي».

قبل ستّة أشهر، في ذلك اليوم المشؤوم الذي أعلنت فيه بيرثا المريضة أنها حامل من بريوير، لم تطلب ماتيلد أن يتوقف عن معالجة بيرثا فقط بل أن يطرد كذلك إيفا بيرغر من العمل عنده. كانت ماتيلد غاضبة تشعر بالإهانة، وترغب في إزالة كلّ لطخة تركتها بيرثا في حياتها. وأما بالنسبة لإيفا التي كانت ماتيلد تعرف أن زوجها يناقش كلّ شيء مع ممرضته، فقد كانت تعتبر أنها متواطئة في مسألة بيرثا السيئة.

في تلك الأزمة، تملّك بريوير إحساس بالندم والمهانة وإدانة الذات لأنّه أذعن ونفذ كلّ ما طلبته ماتيلد. فعلى الرغم من أنه يعرف أن إيفا كبش فداء، لم يتمالك الشجاعة للدفاع عنها. وفي اليوم التالي، لم يحوّل بيرثا إلى طبيب آخر لمعالجتها فحسب، بل طرد كذلك إيفا بيرغر البريئة من العمل.

«أنا آسفة لأنني أثرت الموضوع يا جوزيف. لكن ماذا بوسعي أن أفعل وأنا أراك تبتعد عني وعن أطفالنا أكثر فأكثر؟ عندما أطلب منك شيئاً، فأنا لا أفعل ذلك لكي أزعجك، إنما لأنني أريد ـ نريد ـ أن تكون معنا. اعتبر ذلك إطراء، دعوة». قالت ماتيلد وابتسمت له.

«إني أحبّ الدعوات، لكنّي أكره الأوامر!» ندم بريوير على الكلمات التي قالها، لكنه لم يعرف كيف يتراجع عنها. أنهى طعام فطوره في صمت.

وصل نيتشه قبل ربع ساعة من موعده المحدد عند الساعة الثانية عشرة. رآه بريوير جالساً بهدوء في ركن في غرفة الانتظار، يعتمر قبعة خضراء ذات حواف عريضة، وقد زرر معطفه حتى عنقه، مغمض العينين. عندما دخلا غرفة المكتب وجلس كل منهما في كرسيه، حاول بريوير أن يجعله يشعر بالراحة.

«شكراً لثقتك بي ومنحي نسخاً من كتبك الشخصية. وإن كانت تحتوي على أيّ من ملاحظاتك الهامشية على أمور سرّية، فلا تخف لأنني لم أتمكن من فك رموز كلماتك المكتوبة بخط يدك. إنك تكتب كما يكتب الأطباء ـ لا يكاد يقرأ مثل خطي! هل فكّرت يوماً بالعمل في مهنة الطبّ؟»

عندما رفع نيتشه رأسه لهذه الدعابة الخفيفة، تابع بريوير كلامه غير متهيّب، «لكن اسمح لي أن أعلّق على كتبك الممتازة. لم يتح لي الوقت لإكمالها البارحة، لكني فتنت وأعجبت بفقرات كثيرة فيها. إن كتابتك رائعة. إن ناشرك ليس كسولاً فقط، إنما أحمق أيضاً: إنها كتب يجب على الناشر أن يدافع عنها بدمه».

لم يحر نيتشه جواباً، بل أطرق برأسه قليلاً ليعرب عن شكره لهذا الإطراء. يجب أن يكون حذراً، قال بريوير لنفسه، فلعله يشعر بالمهانة من الإطراء أيضاً!

«لكن، لنعد إلى عملنا يا بروفسور نيتشه. اعذرني لأني أتكلم كثيراً. لنبدأ بمناقشة حالتك الصحية. حسب تقارير الأطباء الذين رأيتهم واستناداً إلى الفحص الذي أجريته والدراسات المخبرية، فإني متأكّد من أن مشكلتك الرئيسية هي داء الشقيقة. أظن أنك سمعت ذلك من قبل. فقد ذكر طبيبان من أطبائك السابقين ذلك في تقاريرهما بعد استشارتك لهما».

«نعم، قال لي أطباء آخرون أنني أصاب بصداع له سمات داء الشقيقة: ألم شديد، غالباً في أحد جانبي الرأس فقط، تسبقه هالة من الأضواء اللامعة، يرافقها تقيؤ. من المؤكد أنها تنتابني أيضاً. هل يتجاوز استخدامك لهذا المصطلح ما قالوه، يا دكتور بريوير؟»

«ربما. فقد حدثت عدة تطورات جديدة في فهمنا لداء شقيقة ـ أظن أننا سنتمكن من السيطرة عليه تماماً في الجيل التالي. إن بعض الأحداث الأخيرة تتناول الأسئلة الثلاث التي طرحتها، أولاً، هل قُدِّر لك أن تعاني دائماً من هذه النوبات المروعة، فإن البيانات تشير بقوة إلى أن داء الشقيقة يخفّ مع تقدم المريض في العمر. يجب أن تفهم أن هذه مجرد إحصاءات، تشير فقط إلى احتمالات ـ وهي لا تقدم أي حقيقة أكيدة عن أيّ حالة فردية.

«لنعد الآن إلى «سؤالك الصعب» حسب تعبيرك، أي إن كنت تعاني من حالة صحية مثل أبيك الذي سيؤدي إلى الموت أو الجنون أو الخرف، أعتقد أنك ذكرتها بهذا الترتيب؟»

توسّعت عينا نيتشه، وبدا متفاجئاً لسماعه أنه يرد على أسئلته بشكل مباشر. جيد، جيد، قال بريوير لنفسه، أبقه متفاجئاً. ربما لم ير طبيباً بهذا القدر من الجرأة مثله.

«*لا يوجد دليل على الإطلاق*»، واصل تأكيده، «من أيّ دراسة منشورة أو من خبرتي السريرية الواسعة، فإن داء الشقيقة مستفحل، أو مرتبط بأيّ مرض آخر يصيب الدماغ. لا أعرف ما هو المرض الذي أصيب به والدك ـ أخمّن أنه كان مصاباً بالسرطان، ربما كان نزيفاً في الدماغ. لكن لا يوجد ما يثبت أن داء الشقيقة يتطور ويتحول إلى هذه الأمراض أو إلى أي مرض آخر». صمت ثم أضاف، «لذلك، قبل المضي أكثر من ذلك، هل أجبت عن سؤالك بأمانة؟»

«سؤلان من ثلاثة يا دكتور بريوير. هناك سؤال آخر: هل سأصاب بالعمى؟»

«أخشى أنه لا توجد إجابة عن هذا السؤال. لكني سأقول لك ماذا بوسعي أن أفعل. أولاً، لا يوجد إثبات بأن هناك علاقة بتدهور قدرتك على الرؤية بداء الشقيقة الذي يصيبك. أعرف أنه من المغري اعتبار أن جميع الأعراض دليل على وجود حالة كامنة، لكن ليست هي الحالة هنا. قد يتفاقم الإجهاد البصري، بل إنه يعجّل في الإصابة بنوبة داء الشقيقة ـ هذه مسألة أخرى سنعود إليها لاحقاً ـ لكن مشكلتك البصرية أمر مختلف تماماً. لا أعرف إن كانت قرنية عينك، ذلك الغطاء الرقيق فوق القزحيّة ـ دعني أرسم هذه الصورة...».

رسم بريوير على دفتر الوصفات تشريح العين، وأرى نيتشه أن قرنيته معتمة أكثر مما يجب أن تكون، غالباً بسبب الوذمة، سائل متراكم.

«لا نعرف سبب هذه الحالة، لكننا نعرف أن التقدم يكون تدريجياً وأنه ليس من المحتمل أن تصاب بالعمى، على الرغم من أن قدرتك على الرؤية قد تصبح ضبابية أكثر. لا يمكنني أن أكون متأكّداً تماماً، لأن حالة القتامة في قرنيتك لا تمكنني من رؤية وفحص شبكيّة عينك بمنظار العين. لذلك، أظن أنك تفهم مشكلتي في عدم الإجابة عن سؤالك بشمولية أكبر؟»

نهض نيتشه ليعلّق معطفه الذي كان قد خلعه ووضعه على حضنه مع قبعته قبل بضع دقائق، في خزانة المعاطف عند باب مكتب العيادة. عندما عاد وجلس، أطلق زفرة عالية وبدا أكثر استرخاء.

«شكراً يا دكتور بريوير. إنك حقاً رجل تحترم كلمتك. لكنك ألم تخفِ عني شيئاً؟»

إنها فرصة جيدة، قال بريوير لنفسه، لتشجيع نيتشه على كشف المزيد عن نفسه. لكن يجب أن أكون حذراً.

«أخفيت؟ الكثير! الكثير من أفكاري ومشاعري وردود أفعالي تجاهك! في بعض الأحيان أتساءل كيف يمكن أن يدور حديث بعرف اجتماعي مختلف ـ لا يخفي شيئاً! لكنّي أصدقك القول بأنني لم أخفِ شيئاً عن حالتك الصحية. وأنت؟ تذكّر أننا أبرمنا عقد ثقة متبادل. هيا أخبرني، ماذا تخفي عنّي؟»

فأجاب نيتشه، «بالتأكيد لم أخف شيئاً عن حالتي الصحية، لكني أخفي قدر الإمكان الأفكار التي يجب ألا أشاركها مع أحد. إنك تتساءل عن حديث لا يتم إخفاء شيء فيه ـ اسمه الحقيقي الجحيم، كما أظن. أن يكشف المرء عن نفسه لشخص آخر هي مقدمة للخيانة، والخيانة تجعل المرء مريضاً، أليس كذلك؟»

«إنه موقف استفزازي يا بروفسور نيتشه. في حين نناقش موضوع المكاشفة، دعني أكشف لك عن فكرة خاصة. كانت مناقشتنا يوم الأربعاء في غاية الأهمية بالنسبة لي، وإني أرحب بفرصة الحديث معك في المستقبل. إني شغوف بالفلسفة، مع أني لم أدرسها كثيراً في الجامعة. إن ممارستي الطبية اليومية قلما تشبع شغفي ـ إنها تختنق وتصبو إلى الاحتراق».

ابتسم نيتشه لكنه لم يعلق بشيء. شعر بريوير بالثقة. لقد أعدّ نفسه جيداً. بدأ الوئام يتحسن بينهما، والمقابلة تسير في مسارها الصحيح. سيناقش الآن المعالجة بالأدوية أولاً، بالإضافة إلى شكل من «المعالجة بالكلام».

«لكن دعنا ننتقل إلى معالجة إصابتك بالشقيقة. توجد عدة أدوية جديدة ثبت أنها فعّالة لبعض المرضى. إني أتحدث عن أدوية مثل

البروميد والكافايين ونبتة الناردين وحشيشة ست الحسن ونترات أميل، والنتروجليسرين والكولوشيسين والأرغوت، وهذا غيض من فيض. أرى من سجلاتك أنك جربت بعض هذه الأدوية. بعضها أثبت فعّاليته لأسباب لا يفهمها أحد، وبعضها لمفعولها المسكّن العام أو لخواصها المهدئة، وبعضها لأنها تهاجم الآلية الأساسية لداء الشقيقة».

«أيّ منها؟» سأل نيتشه.

«الوعائي. يتفق جميع المراقبين بأن الأوعية الدموية، خاصة الشرايين الصدغية، تشارك في نوبات داء الشقيقة. إنها تتقلّص بشدّة ثم يبدو أنها تحتقن. قد ينطلق الألم من جدران الأوعية المتمدّدة أو المنقبضة نفسها، أو من الأعضاء التي تحتاج إلى تزويدها بالدم، خاصة الأغشية التي تغطّي الدماغ، الأمّ الجافية والأمّ الحنون».

«وما سبب هذه الفوضى التي تحدث في الأوعية الدموية؟»

«لا يزال السبب غير معروف»، ردّ بريوير، «لكني أعتقد أننا سنعثر على حلّ بعد فترة غير طويلة. حتى ذلك الحين، لا نستطيع إلاّ أن نخمّن. إن إيقاعية نوبات داء الشقيقة تثير اهتمام الكثير من الأطباء، وأنا من بينهم. في الحقيقة، يذهب البعض إلى القول إن اضطراب الإيقاع أساسي أكثر من الصداع».

«لا أفهم، يا دكتور بريوير».

«أقصد أن اضطراب الإيقاع قد يظهر من خلال أحد الأعضاء. لذلك، ليس من الضروري أن يكون الصداع نفسه موجوداً عند بدء نوبة الشقيقة. قد يكون هناك شيء من قبيل داء الشقيقة البطني الذي يتصف بنوبات ألم حادّة في البطن، بدون حدوث ألم في الرأس. فقد تحدّث مرضى آخرون عن إصابتهم بنوبات مفاجئة يشعرون فيها فجأة بالقنوط أو بالبهجة. ينتاب بعض المرضى أحياناً إحساس بأنهم عاشوا تجاربهم

الحالية. ويطلق الفرنسيون على ذلك عبارة deja vu، ربما كان ذلك أيضاً نوعاً مختلفاً من داء الشقيقة».

«والاضطراب في الإيقاع الكامن؟ أمّ الأسباب؟ هل سنصل في نهاية الأمر إلى الله ـ الخطأ النهائي في البحث الخاطئ للحقيقة المطلقة؟»

«لا، يمكن إن نصل إلى روحانية طبية، لكن ليس الله! ليس في هذا المكتب».

«هذا جيد»، قال نيتشه بشيء من الارتياح، «فقد خطر لي فجأة أن التحدث بحرية قد يجرح مشاعرك الدينية».

«لا يوجد خطر في ذلك، يا بروفسور نيتشه. أظن أنني مفكّر حرّ يهودي مخلص كما أنت لوثري».

ابتسم نيتشه ابتسامة عريضة أكثر من أي وقت مضى، واستقر بارتياح أكثر في كرسيه، وقال: «لو كنت لا أزال أدخّن، دكتور بريوير، لكان الوقت مناسباً الآن لأقدم لك سيجاراً».

من المؤكد أن ذلك شجّع بريوير. وقال لنفسه إن اقتراح فرويد بأن أؤكّد أن اعتبار الإجهاد هو سبب ضمني لنوبات داء الشقيقة رائع، سينجح بالتأكيد. لقد مهدت السبيل الآن بشكل صحيح. آن الأوان للعمل الجدي.

مال إلى الأمام في كرسيه وبدأ يتكلّم بثقة وإصرار، «إني مهتم كثيراً بسؤالك عن سبب اضطراب الإيقاع البيولوجي. إني أعتقد، كما يعتقد معظم العلماء المختصين بداء الشقيقة، بأن أحد الأسباب الأساسية لهذا المرض يكمن في مستوى الإجهاد العام الذي يتعرض له الفرد. وقد ينجم هذا الإجهاد عن عدد من العوامل النفسية، مثل أمور مزعجة تحدث في عمل المرء، علاقات شخصية عائلية، أو الحياة الجنسية. مع

أن البعض يعتبرون أن هذا الرأي غير تقليدي، فإني أعتقد أنه سيكون الموجة المستقبلية في الطب».

صمت. لم يكن بريوير متأكداً من ردّة فعل نيتشه. فمن ناحية، كان يهز رأسه كما لو كان موافقاً - لكنه كان أيضاً يثني قدمه، دلالة على توتّره. وأضاف، «كيف يبدو لك جوابي يا بروفسور نيتشه؟»

«هل كلامك يوحي بأن المريض يختار مرضه؟» كن حذراً يا جوزيف من هذا السؤال، قال بريوير لنفسه.

«لا، ليس هذا ما أقصده على الإطلاق يا بروفسور نيتشه، مع أنني عرفت مرضى استفادوا بطريقة غريبة من المرض الطبي».

«أتقصد الشباب الذين يؤذون أنفسهم للهرب من الخدمة العسكرية مثلاً؟»

سؤال خادع. ازداد بريوير حذراً. كان نيتشه قد ذكر إنه خدم في سلاح المدفعية البروسية لفترة قصيرة من الزمن لكنه سُرّح من الخدمة نتيجة إصابة شديدة تعرض لها في فترة السلم.

«لا، شيء أكثر دقة» آخ، خطأ أخرق، أدرك بريوير على الفور. سيشعر نيتشه بالإهانة لهذه العبارة. لكنه عندما رأى أنه لا توجد طريقة لتصحيحها، تابع قائلاً، «إني أشير إلى شابّ في سن الجندية تهرب من العسكرية خوفاً من الإصابة بمرض فعلي. مثل» - حاول بريوير الابتعاد تماماً عن تجربة نيتشه، «السلّ أو الإصابة بعدوى مرض جلدي خطير».

«هل رأيت شيئاً كهذا؟»

«جميع الأطباء شاهدوا حالة غريبة كهذه. لكن لنعد إلى سؤالك، لا أقصد أنك تختار مرضك إلا إذا كنت، طبعاً، تستفيد بطريقة ما من داء الشقيقة لديك. أليس كذلك؟»

لبث نيتشه صامتاً. بدا أنه مستغرق في التفكير. استرخى بريوير

وتمالك نفسه. جواب جيد! بهذه الطريقة يستطيع التعامل معه. كن صريحاً ومباشراً. إنه يحبّ ذلك. واطرح أسئلة تثير تفكيره.

«هل أستفيد من هذه التعاسة بأي شكل من الأشكال؟» أجاب نيتشه أخيراً، ثم أضاف، «إني أفكر بهذه المسألة منذ سنوات. لعلي أستفيد بطريقتين. إنك توحي بأن النوبات ناجمة عن الإجهاد، لكن العكس يكون صحيحاً في بعض الأحيان ـ فالنوبات تبدد الإجهاد. إن عملي مرهق، ويتطلب أن أواجه الجانب المظلم من الوجود. وبقدر ما هي سيئة فقد تؤدي نوبات الشقيقة التي أصاب بها إلى تطهير التشنّج الذي يمكّنني من الاستمرار».

ردّ قوي! ردّ لم يتوقعه بريوير، وبذل جهداً لاستعادة توازنه.

«تقول إنك تستفيد من المرض بطريقيتين. ما هي الثانية؟»

«أظن أنني أستفيد من ضعف بصري. فمنذ سنوات لم أعد أستطيع قراءة أفكار المفكّرين الآخرين، لذلك، بمنأى عن الآخرين، فإني أفكّر بأفكاري الخاصة بي. من الناحية الفكرية، يجب أن أعتمد على أفكاري. ربما كان ذلك أمراً جيداً. ربما لهذا السبب أصبحت فيلسوفاً صادقاً. إني أكتب من تجربتي الخاصة. إني أكتب في الدم، وأفضل حقيقة هي الحقيقة الدامية».

«لهذا السبب انقطعت عن جميع زملائك في مهنتك؟»

خطأ آخر! مرة أخرى، أدرك بريوير على الفور. كان سؤاله خارج الموضوع ولم يعكس إلا انشغاله بالاعتراف من الزملاء.

«لا يهمني ذلك كثيراً، يا دكتور بريوير، خاصة عندما أعتبر الوضع المخزي للفلسفة الألمانية اليوم. منذ عهد بعيد خرجت من القاعات الأكاديمية، ولم أتوان عن صفق الباب خلفي. لكني أظن أن هذه ربما كانت ميزة أخرى لداء الشقيقة الذي يعتريني».

«كيف ذلك يا بروفسور نيتشه؟»

«لقد حررني مرضي. فبسببه تعيّن عليّ أن أستقيل من عملي في بازل. لو بقيت هناك، لانشغلت بالدفاع عن نفسي من زملائي. حتى إن كتابي الأول «مولد التراجيديا»، وهو عمل تقليدي بعض الشيء، أثار زوبعة من الاستهجان والجدال المهني إلى حد أن الهيئة التدريسية في بازل ثبطت الطلاب من التسجيل في المنهاج الذي أدرّسه. خلال السنتين الأخيرتين لي في الجامعة ـ ربما كنت أفضل محاضر في تاريخ بازل ـ كان عندي طالبان أو ثلاثة فقط. يقال إن هيغيل قال وهو على فراش الموت إن طالباً واحداً فقط كان يفهمه، وحتى ذلك الطالب أساء فهمه! حتى أنني لم أتمكن من الحصول على طالب واحد يسيء فهمي».

كان ميل بريوير الطبيعي هو أن يعرض عليه المساعدة، لكنه لكي لا يزعج نيتشه مرة أخرى، اكتفى بإيماءة تشي بالفهم، حريصاً على ألاّ يظهر تعاطفه.

«خطرت لي ميزة أخرى لمرضي يا دكتور بريوير: فقد أدى وضعي الصحي إلى تسريحي من الجيش. عندما كنت أحمق كفاية لأن أسعى إلى إحداث ندبة مبارزة»، وأشار نيتشه إلى الندبة الصغيرة فوق جسر أنفه، «أو لإظهار مقدار الجعة التي يمكنني تناولها. بل كنت أحمق عندما فكّرت بأن أتخذ الجندية مهنة لي. تذكّر أنه لم يكن لدي أب يوجهني في تلك الأيام، لكن مرضي أنقذني من كلّ ذلك. حتى الآن، خلال حديثي معك، بدأت أفكّر كيف أن مرضي ساعدني...»

بالرغم من اهتمامه بكلمات نيتشه، بدأ صبر بريوير ينفد. كان يهدف إلى إقناع مريضه بأن يشاركه في المعالجة بالتكلم، وكان التعليق المرتجل الذي أبداه عن الاستفادة من مرضه بمثابة مقدمة لاقتراحه. لم يعوّل على خصوبة عقل نيتشه، فأيّ سؤال يطرحه عليه، أو أصغر حبة من أي سؤال، أو أي أوراق خضر نضرة من فكرة ما ستنبت.

بدأت كلمات نيتشه تتدفق الآن. يبدو أنه مستعد الآن للتحدث عن الموضوع لساعات طويلة. «إن مرضي جعلني أواجه أيضاً حقيقة الموت. لفترة من الوقت، ظننت أنني مصاب بمرض عضال سيودي بحياتي في عمر مبكّر. كان شبح الموت الداهم نعمة كبيرة عليّ، فرحت أعمل بلا كلل لأني أخشى أن أموت قبل أن تتاح لي الفرصة لأنهي ما أريد أن أكتبه، وألاّ تكون التحفة الفنية أعظم إن لم تكن النهاية كارثية؟ لقد منحني طعم موتي في فمي بعد نظر وشجاعة. الشيء المهم هو الشجاعة لأن أكون أنا نفسي. هل أنا بروفسور؟ عالم لغوي؟ فيلسوف؟ من يعبأ بذلك؟»

ازدادت سرعة إيقاع نيتشه. يبدو أن ذلك يعود إلى تدفق أفكاره، فقال: «شكراً دكتور بريوير. لقد ساعدني الحديث معك على ترسيخ هذه الأفكار: نعم، يجب أن أبارك مرضي، أباركه. بالنسبة لعالم نفساني، فإن المعاناة الشخصية هي مباركة، ساحة للتدرب على مواجهة معاناة الوجود».

يبدو أن لدى نيتشه قناعة راسخة بوجود رؤية داخلية، ولم يعد بريوير يشعر أنهما يتحادثان. توقّع أن يتناول مريضه، في أي دقيقة، قلماً وورقة ويبدأ يكتب.

ثم رفع نيتشه عينيه وراح يكلّمه بصورة مباشرة أكثر، وقال: «هل تتذكّر، يوم الأربعاء، جملتي التي قدت من الصوان: «*كن من أنت*»؟ وأقول لك اليوم عبارة ثانية قدت من الصوان أيضاً: «*الشيء الذي لا يقتلني، يزيدني قوة*»، لهذا السبب فإني أكرر: «*إن مرضي نعمة*».

زال الآن شعور بريوير بالسيطرة وقناعته الراسخة. وشأن نيتشه، اعتراه دوار ثقافي مرة أخرى، قلب كلّ شيء رأساً على عقب. الأبيض أسود، الجيد سيء، داء الشقيقة الفظيع، نعمة وليس نقمة. شعر بريوير بأن الأمور تنسل منه. حاول جاهداً استعادة التحكم في الحديث.

«وجهة نظر رائعة يا بروفسور نيتشه، وجهة نظر لم أسمع بها من قبل. لكن من المؤكد أننا نتفق على أنّك جنيت فائدة كبيرة من مرضك؟ الآن، اليوم، وأنت في منتصف العمر، مدعماً بالحكمة والرأي بأن المرض قد أعطى نتائج جيدة، فإني متأكّد من أنه أصبح بوسعك أن تعمل بفعالية أكبر بدونه. لقد أدى مهمته، أليس كذلك؟»

بينما كان يتحدث ويستجمع أفكاره، أعاد بريوير ترتيب الأغراض على طاولة مكتبه: النموذج الخشبي للأذن الداخلية، وثقّالة الورق الزجاجية ذات اللون الذهبي والأزرق التي أحضرها من فينيسيا، والهاون والمدقة البرونزية، ودفتر الوصفات الطبية، وكتاب الأدوية الضخم.

«بالإضافة إلى ذلك، كما فهمت منك يا بروفسور نيتشه، فإنك لا تصف اختيار مرض بقدر ما تصف التغلب عليه والاستفادة منه. هل هذا صحيح؟»

«إني أتكلّم عن *التغلّب* على مرض»، أجاب نيتشه، «أما بالنسبة إلى *الاختيار*، فإني لست متأكّداً، ربما أختار مرضاً. إن الأمر يتوقف على المرء نفسه. فالنفس لا تعمل ككيان واحد. إن أجزاء من عقلنا قد تعمل بشكل مستقل عن الأجزاء الأخرى. ربما حاكت «أنا» وجسدي مؤامرة وراء مؤخرة عقلي، فكما تعرف فإن العقل مولع بالأزقّة الخلفية والأبواب التي تخفي وراءها شيئاً ما».

فوجئ بريوير بتشابه كلمات نيتشه بموقف فرويد البارحة، فسأله، «هل تريد القول إنه توجد عوالم عقلية محاطة بأسوار مستقلة داخل عقولنا؟»

«لا يمكن التهرب من هذه النتيجة. في الحقيقة، فإننا نعيش معظم حياتنا بغرائزنا. لعل الصور العقلية الواعية هي أفكار مستدركة، أفكار يعاد التفكير بها بعد وقوع العمل لتزويدنا بوهم القوّة والسيطرة. دكتور

بريوير، للمرة الثانية أشكرك، فقد زودني حديثنا بالتفكير بمشروع هام في هذا الشتاء. أرجو أن تعذرني للحظة».

فتح نيتشه حقيبته وأخرج عقب قلم رصاص ودفتر ملاحظات ودوّن بضعة أسطر. مدّ بريوير رأسه، وحاول، دون جدوى، قراءة ما يكتب.

لقد تجاوز خط أفكار نيتشه المعقّد النقطة الصغيرة التي أراد بريوير أن يقولها. وبالرغم من أنه شعر بأنه ساذج مسكين، لم ير بداً من مواصلة ضغطه، «بما أنني طبيبك، فإني سآخذ بوجهة النظر بأنه على الرغم من أنك استفدت من مرضك، كما ذكرت بوضوح، فقد آن الأوان لنعلن الحرب عليه، لمعرفة أسراره، لاكتشاف نقاط ضعفه واستئصالها. هل يمكنك مسايرتي والتحدث باستفاضة حول وجهة النظر هذه؟»

رفع نيتشه عينيه عن دفتر ملاحظاته، وأومأ مستسلماً.

وتابع بريوير قائلاً: «أظن أنه يمكن أن يختار المرء مرضاً بدون قصد كأسلوب حياة يمكن أن يؤدي إلى الإجهاد. وعندما يصبح هذا الإجهاد شديداً أو مزمناً فإنه يستثير بدوره عضواً ضعيفاً آخر ـ في حالة داء الشقيقة، يكون ذلك العضو هو نظام الأوعية الدموية. لذلك، كما ترى، فإني أتحدث عن الاختيار غير المباشر. وبشكل محدد، فإن المرء لا يختار مرضاً، لكنه يختار الإجهاد، والإجهاد هو الذي يختار المرض».

إيماءة نيتشه التي تشي بالفهم شجعت بريوير على أن يواصل، «لذلك فإن الإجهاد هو عدونا، ومهمّتي بصفتي طبيبك، تكمن في مساعدتك على الحد من الإجهاد في حياتك».

شعر بريوير بالارتياح لأنه عاد إلى المسار الصحيح. فقال لنفسه، لقد هيّأت الآن التربة للخطوة التالية الأخيرة القصيرة، وهي أن أقترح على

نيتشه مساعدته للتخفيف من المصادر النفسية التي تسبب الإجهاد في حياته.

أعاد نيتشه قلم الرصاص ودفتر ملاحظاته إلى حقيبته، وقال: «دكتور بريوير، لقد عالجتُ مسألة الإجهاد في حياتي لسنوات عديدة. تقول الحد من الإجهاد! لهذا السبب بالذات تركت جامعة بازل عام ألف وثمانمائة وتسعة وسبعين. لقد عشت حياة خالية من الإجهاد. لقد تخلّيت عن التعليم. لا يوجد لدي أي دواء. لا يوجد عندي بيت أرعاه، ولا خدم أشرف عليهم، ولا زوجة أتشاجر معها، ولا أطفال أعاقبهم. أعيش ببساطة على راتب تقاعدي صغير. لا يوجد لدي أي التزام تجاه أحد. لقد قلصت الإجهاد في حياتي إلى أدنى حدّ، إلى مستوى لا يمكن الحد منه أكثر. كيف يمكن الحد منه أكثر؟»

«إني لا أتفق معك بأنه لا يمكن الحد منه يا بروفسور نيتشه. هذا هو السؤال الذي أريد أن أسبر أغواره معك. ترى».

قاطعه نيتشه وقال: «تذكّر أنني ورثت جهازاً عصبياً في غاية الحساسية. إني أعرف ذلك من شدة استجابتي العميقة للموسيقى والفنّ. فعندما سمعت كارمن لأول مرة، اشتعلت كلّ خلية عصبية في دماغي على الفور. لقد اشتعل جهازي العصبي كله. للسبب نفسه، فإني أتأثر بحدة لأي تغيير، مهما كان صغيراً، يطرأ على الطقس وعلى الضغط الجوي».

فقال بريوير محتجاً: «لكن، قد لا يكون لفرط اليقظة والحذر علاقة بالناحية الصحية، بل قد يكون وظيفة من وظائف الإجهاد الآتي من مصادر أخرى».

«لا، لا!» اعترض نيتشه، وهزّ رأسه متململاً، كأن بريوير لم يفهم ما يقصده، «إن فكرتي المتعلقة بفرط اليقظة، حسب تعبيرك، ليس أمراً

غير مستحسن: إنه ضروري لعملي. أريد أن أكون يقظاً على الدوام. لا أريد أن أُستبعد عن أيّ جزء من تجربتي الداخلية! وإذا كان التوتّر هو ثمن فطنتي، فليكن! فأنا من الغنى ما يكفي لأدفع ذلك الثمن».

لم يجب بريوير. لم يتوقّع مثل هذه المقاومة الهائلة والفورية، حتى أنه لم يقترح طريقة علاجه. ومع ذلك، كانت الحجج التي ساقها متوقّعة ونُسفت من أساسها. بصمت راح يبحث عن وسيلة لإعادة تجميع وتنظيم قوّاته.

تابع نيتشه قائلاً: «لقد ألقيتَ نظرة على كتبي. إنك تظن أن كتاباتي لم تحقق نجاحاً لأنني في غاية الذكاء أو لأنني عالم. لا، إن سبب ذلك هو لأنني أملك الجرأة والإرادة لفصل نفسي عن راحة القطيع ومواجهة الانحرافات والميول القوية والشريّرة. إن التساؤل والعلم يبدآن من عدم الإيمان. مع أن عدم الإيمان يسبب الإجهاد أصلاً! الأقوياء فقط هم الذين يمكنهم تحمّل ذلك. هل تعرف ما هو السؤال الحقيقي الذي يراود المفكّر؟» لم يتوقّف لسماع الجواب، وواصل قائلاً: «إن السؤال الحقيقي هو: ما مقدار الحقيقة التي يمكنني تحمّلها؟ وهي ليست لمرضاك الذين يرغبون في القضاء على الإجهاد، ليعيشوا حياة هادئة مطمئنة».

لم يجد بريوير ردّاً مناسباً. لقد أصبحت استراتيجية فرويد أشلاء. فقد نصحه بأن يؤسس منهجه على التخلص من الإجهاد. لكن ها هنا مريض يصرّ على أنّ حياته على ما يرام، وأن الشيء الوحيد الذي يبقيه على قيد الحياة، يقتضي الإجهاد.

مستجمعاً نفسه، عاد بريوير إلى الحجج الطبية، وقال: «إني أفهم معضلتك جيداً يا بروفسور نيتشه، لكن اسمعني حتى النهاية. ربما ترى أنه يمكن أن تمتلك وسائل للحد من معاناتك في الوقت الذي تجري فيه أبحاثك الفلسفية. لقد فكّرت ملياً بحالتك. خلال السنوات العديدة من

خبرتي السريرية بداء الشقيقة، فقد ساعدت العديد من المرضى. إني أعتقد بأنني أستطيع مساعدتك. أرجوك دعني أطرح عليك خطتي في المعالجة».

هزّ نيتشه رأسه ومال إلى الوراء واستند إلى كرسيه ـ شاعراً بالأمان، تخيّل بريوير متمترساً وراء المتراس الذي أقامه.

«أقترح أن تذهب إلى عيادة لوزون في فيينا لمدّة شهر للإشراف والمعالجة. توجد بعض الفوائد لهذا الترتيب. سنتمكن من إجراء تجارب منهجية بإعطائك أدوية جديدة لعلاج داء الشقيقة. من سجلك أرى أنك لم تجر أي تجربة طبيّة بالأرغوتيمين. إنه علاج جديد واعد لداء الشقيقة، لكنه يتطلّب اتخاذ إجراءات وقائية. يجب أن يؤخذ على الفور في بداية النوبة؛ وإذا استخدم بطريقة خاطئة فقد تنجم عنه آثار جانبية خطيرة. إني أفضّل تنظيم الجرعة الصحيحة عندما يكون المريض في العيادة تحت المراقبة الشديدة، وقد تمنحنا هذه المراقبة أيضاً معلومات ثمينة عن السبب الذي يؤدي إلى الشقيقة. أرى أنك مراقب دقيق لحالتك، لكن لا تزال توجد فائدة حقيقية للملاحظات التي يقدمها محترفون مدربون جيداً.

«إني أستخدم لوزون في أحيان كثيرة لمرضاي»، قال بريوير مسرعاً كي لا يتيح له مقاطعته، «فهو مشفى مريح وجيد الإدارة. لقد أدخل المدير الجديد أساليب مبتكرة عديدة تشمل خدمة تقديم الماء بادن ـ بادن. بالإضافة إلى ذلك، بما أنه قريب من عيادتي، فبإمكاني أن أزورك يومياً، ما عدا يوم الأحد. وبهذه الطريقة يمكننا أن نستكشف مصادر الإجهاد في حياتك معاً».

كان نيتشه يهزّ رأسه، قليلاً، لكن بتصميم.

تابع بريوير كلامه، «اسمح لي. إني أتوقّع اعتراضك. الاعتراض الذي

قدّمته بأن الإجهاد جوهري لعملك ولرسالتك، ولكي لا يتم استئصاله، فإنك لن توافق على إجراء كهذا. هل هذا صحيح؟»

أومأ نيتشه. انبسطت أسارير بريوير عندما رأى وميض فضول في عينيه. جيد، جيد! قال لنفسه. يعتقد البروفسور أنه نطق الكلمة الأخيرة عن الإجهاد.

«لكن تجربتي السريرية علّمتني أنه توجد عدة مصادر للتوتّر قد تكمن وراء معرفة الفرد المصاب بالإجهاد، وهذا يتطلّب توجيهاً موضوعياً لتوضيح الأمر».

«وما هي مصادر التوتّر يا دكتور بريوير؟»

«في نقطة ما من مناقشتنا، عندما سألتك هل تحتفظ بمفكرة عن الأحداث التي تقع عندما تنتابك الشقيقة، ألمحتَ إلى أحداث بالغة الأهمية ومقلقة في حياتك صرفت انتباهك من مواصلة تدوين يومياتك. أظن أن هذه الأحداث، يجب أن تكون واضحاً بشأنها، هي مصادر الإجهاد التي قد تخفّ خلال المناقشة».

«لقد تمكنتَ من معالجة حالات الشرود تلك، يا دكتور بريوير»، قال نيتشه بحزم.

لكن بريوير واصل قائلاً: «بالتأكيد هناك إجهادات أخرى. فقد ألمحت يوم الأربعاء مثلاً إلى خيانة تعرضت لها مؤخراً. لا بد أن الخيانة سببت لك إجهاداً. وبما أنه لا يوجد إنسان يخلو من القلق، فلا يمكن لأحد أن يتفادى ألم الصداقة الفاشلة، أو ألم العزلة. لكي أكون صادقاً، يا بروفسور نيتشه، بما أني طبيبك فإني أشعر بالقلق إزاء البرنامج اليومي الذي وصفته. من يمكنه أن يتحمّل مثل هذه العزلة؟ في وقت سابق، ذكرت أن عدم وجود زوجة وأطفال وزملاء دليل على أنك تخلصت من الإجهاد من حياتك. لكنّي أرى الأمر بصورة مختلفة: فالعزلة الشديدة لا

تزيل الإجهاد إنما هي بحد ذاتها إجهاد. إن *الوحدة* هي أرض خصبة للمرض».

هزّ نيتشه رأسه بقوة وقال: «اسمح لي أن أختلف معك يا دكتور بريوير. فالمفكّرون العظماء يختارون رفاقهم الذين يفكّرون مثلهم. لا يزعجهم القطيع. خذ مثلاً ثورو وسبينوزا، أو الزاهدون الدينيون مثل القديس جيروم والقديس فرانسيز أو بوذا».

«لا أعرف ثورو، أما بالنسبة إلى الآخرين ـ فهل هم أمثلة نموذجية عن الصحة العقلية؟ بالإضافة إلى ذلك»، هنا ابتسم بريوير ابتسامة عريضة، راجياً أن يخفف من حدة المناقشة وأضاف، «ستواجه فكرتك هذه خطراً شديداً إذا توجهت إلى رجال الدين للحصول على دعمهم».

لم يكن نيتشه مسروراً، فقال: «دكتور بريوير، أنا ممتن لك للجهود التي بذلتها من أجلي، وقد استفدت كثيراً من هذه الاستشارة: إن المعلومات التي قدمتها لي عن داء الشقيقة ثمينة جداً. لكني لا أجد أنني أرغب في دخول مصحة. فلم تجدِ إقاماتي الطويلة في الحمّامات التي استمرت عدة أسابيع في سانت موريتز وهاكس وشتايناباد».

كان بريوير عنيداً، فقال: «يجب أن تفهم يا بروفسور نيتشه أن العلاج الذي نقدمه في عيادة لوزون لا تشبه أي علاج في الحمّامات الأوروبية. إني آسف لأنني ذكرت مياه بادن ـ بادن. إنها تمثّل أصغر جزء مما يمكن أن تقدمه لوزون تحت إشرافي».

«دكتور بريوير، لو كنت أنت وعيادتك في مكان آخر، لفكّرت بخطتك بجدّية. ربما في تونس، أو سيسيليا، أو حتى رابالو. لكن شتاء فيينا سيكون تأثيره بغيضاً على جهازي العصبي. لا أظن أنني سأظل حياً».

مع أن بريوير يعرف من لو سالومي أن نيتشه لم يبد أي اعتراض

كهذا عندما اقترحت عليه قضاء الشتاء في فيينا معها ومع بول ري، لكنها معلومات لا يمكنه استخدامها الآن. لكن كان لديه ردّ أفضل بكثير.

«لكن، بروفسور نيتشه، إنك تثير النقطة التي أثرتها! إذا أدخلناك إلى مصحة في ساردينيا أو في تونس ولم تكن تشكو من الشقيقة طوال شهر، فلن نحقق شيئاً. إن البحث الطبي لا يختلف عن البحث الفلسفي: يجب المجازفة! تحت إشرافنا في لوزون، فإن حدوث داء الشقيقة لن يكون سبباً للقلق بل نعمة ـ كنز دفين من المعلومات عن سبب حدوثه ومعالجة حالتك. دعني أطمئنك بأنني سأكون هناك على الفور ويمكنني أن أجهض بسرعة النوبة بإعطائك دواء الإرغوتامين أو النتروجليسرين».

هنا توقّف بريوير. كان يعرف أن ردّه قوي. حاول ألاّ يبتسم.

ابتلع نيتشه ريقه قبل أن يجيب. ثم قال: «إنها وجهة نظر جيدة يا دكتور بريوير. لكن يستحيل أن أقبل توصيتك. إن اعتراضي على خطتك وصياغة المعالجة تنبعان من أكثر المستويات الأساسية عمقاً. لكنها بالإضافة إلى النقطة المتعلقة بعقبة دنيوية لكنها أساسية ـ المال! حتى في أفضل الظروف، فإن مواردي ستنفد بعد شهر من الرعاية الطبية المركّزة. في هذه اللحظة، إنه أمر مستحيل».

«آخ، بروفسور نيتشه، أليس من الغريب أنني أطرح أسئلة عديدة عن الجوانب الحميمة من جسمك وحياتك، لكني أحجم، كما يفعل معظم الأطباء، من التطفّل على خصوصياتك المالية؟»

«كنت متحفظاً بشكل غير ضروري، يا دكتور بريوير. إني لا أمانع في مناقشة الأمور المالية. فهي لا تهمني كثيراً ـ ما دمت أمتلك ما يكفي لأواصل عملي. فأنا أعيش حياة بسيطة، وماعدا الإنفاق على بضعة

كتب، فإني لا أنفق شيئاً إلا ما أحتاج إليه من الأشياء الأساسية في الحياة. منذ استقالتي من جامعة بازل قبل ثلاثة سنوات، فإن الجامعة تمنحني راتباً تقاعدياً صغيراً. هذا هو كل ما أملكه! لا أملك أموالاً أخرى أو مصدر دخل ـ لم يترك لي أبي أي عقار، ولا أتقاضى راتباً من كفلاء ـ يقوم بذلك أعداء أقوياء ـ وكما أشرت إليك، فإن كتاباتي لم تدّر عليّ قرشاً واحداً. قبل سنتين، ارتأت جامعة بازل أن تمنحني زيادة صغيرة على راتبي التقاعدي. أظن أن الجائزة الأولى هي لكي أذهب والثانية لكي أبقى بعيداً».

مدّ نيتشه يده إلى سترته وأخرج منها رسالة، ثم قال: «ظننت دائماً أنّ راتبي التقاعدي سيستمر مدى الحياة، لكن أوفيربيك بعث رسالة من أختي يقول فيها إن راتبي التقاعدي قد يتوقف».

«لماذا حدث ذلك يا بروفسور نيتشه؟»

«شخص أختي تكرهه يفتري عليّ ويشوّه سمعتي. لا أعرف هل هذه الاتهامات صحيحة، أم أن أختي تبالغ كعادتها. لكن في جميع الأحوال، فإن الأمر الهام هو أنني قد لا أستطيع الالتزام الآن بأي مبلغ مالي».

ابتهج بريوير وشعر بالارتياح لاعتراض نيتشه. إذ يمكن التغلب على هذه العقبة بسهولة، ثم قال: «بروفسور نيتشه، أظن أن لدينا مواقف متشابهة إزاء النقود. فأنا، مثلك، لا أعلق أهمية عاطفية عليها. لكن بمحض الصدفة، اختلفت ظروفي عن ظروفك. فلو عاش والدك ليترك لك عقاراً، لأصبح لديك مال. أما أنا فلم يترك لي أبي الذي كان معلّماً مرموقاً للغة العبرية، سوى عقار بسيط، لكنه رتّب لي الزواج من ابنة إحدى أغنى العائلات اليهودية في فيينا. اتفقت كلتا العائلتين: مهر جيد لقاء عالم طبي يتمتع بإمكانات هائلة.

«كل ذلك يا بروفسور نيتشه، لأقول لك إن مشكلتك المالية ليست

عقبة على الإطلاق. فقد وهبت عائلة زوجتي، آل ألتمان، مصحة ياوزون سريرين مجّانيين يمكنني استخدامهما كما أشاء. لذلك، لن تضطر إلى تسديد تكاليف المصحة، ولا أجوراً لقاء خدماتي. إني أزداد غنى مع كلّ مناقشة أجريها معك. لذلك، حسناً! اتفقنا! هل يمكنني أن أبلغ مصحة لوزون لقبولك اليوم؟»

الفصل ٩

إلا أنهما لم يتوصلا إلى حلّ. جلس نيتشه مغمض العينين لفترة طويلة. ثمّ فتحهما فجأة، وقال بصوت حازم: «دكتور بريوير، لقد أخذت الكثير من وقتك الثمين. إن عرضك سخي. سأتذكّر ذلك لمدة طويلة، لكني لا أستطيع ـ لن أقبله. توجد أسباب وأسباب». كلمات نُطقت بحزم، كما لو أنه لا يرغب في شرح تلك الأسباب. متهيأً للمغادرة، أغلق مشابك حقيبته.

دهش بريوير. كان هذا اللقاء أشبه بمبارزة في لعبة شطرنج أكثر من كونها استشارة طبية. تقدم خطوة أخرى، عرض عليه خطة، لكن نيتشه عارضها على الفور. واجه الاعتراض ليواجه اعتراضاً آخر من نيتشه. أليست هناك نهاية لاعتراضاته؟ لكن بريوير، الخبير في معالجة الطرق المسدودة السريرية، لجأ إلى حيلة قلما تفشل.

«بروفسور نيتشه، أرجو أن تكون مستشاري لبرهة! أرجو أن تتخيّل حالة مثيرة للاهتمام. لعلك تستطيع مساعدتي على فهمها. جاءني شخص مريض جداً منذ فترة. كان ينعم بصحة لا بأس بها يوماً واحداً كل ثلاثة أيام، ثمّ قام برحلة طويلة شاقة للحصول على استشارة طبية من طبيب خبير. أدى الطبيب مهمّته بطريقة مهنية. فحص المريض وشخصّه جيداً، ونشأت علاقة احترام متبادلة بين المريض والطبيب. بعد ذلك اقترح الطبيب خطة معالجة شاملة متأكد منها تماماً. لكن المريض لم يبد أي اهتمام، ولا حتى الرغبة في طريقة العلاج، بل على العكس، رفضها

على الفور، وأخذ يضع عقبة إثر عقبة. هل يمكنك مساعدتي على فهم هذا اللغز؟»

اتسعت عينا نيتشه. وعلى الرغم من أنه بدا معجباً بمناورة بريوير الطريفة، لم يحر جواباً.

تابع بريوير قائلاً: «ربما يتعين علينا أن نبدأ من بداية هذا اللغز. لماذا جاء هذا المريض الذي لا يريد المعالجة ليطلب استشارة الطبيب أساساً؟»

«دفعني إلى المجيء ضغط قوي من أصدقائي».

شعر بريوير بالإحباط لأن مريضه رفض المشاركة في روح حيلته الصغيرة. مع أن نيتشه يكتب بذكاء حاد ويمجّد الضحك في الكلمة المكتوبة، بدا من الواضح أن السيد البرفسور لم يرغب في متابعة هذه اللعبة.

«أصدقاؤك في بازل؟»

«نعم توجد لدى البرفسور أوفيربيك وزوجته صداقة وثيقة معي. وهناك صديق جيد في جنوة أيضاً. لا يوجد لديّ أصدقاء كثيرون، بسبب حياتي البدوية، والحقيقة أن تشجيعهم لي على طلب الاستشارة كان شيئاً جيداً. في الحقيقة تردد اسم الدكتور بريوير على لسان كلّ منهم».

أدرك بريوير دهاء لو سالومي، وقال: «بالتأكيد، لا بد أن قلقهم عليك نجم عن خطورة وضعك الصحي».

«أو ربما بسبب حديثي عن الأمر في رسائلي في أحيان كثيرة».

«لكن لا بد أن حديثك عنها عكس قلقك. ما هو السبب الآخر الذي جعلك تكتب لهم هذه الرسائل؟ بالتأكيد كي لا تثير القلق؟ أو تستجلب العطف؟»

خطوة جيدة. سرّ بريوير من نفسه. لقد أُرغم نيتشه على التراجع.

«لديّ عدد قليل من الأصدقاء لا أريد أن أجازف وأخسرهم. خطر لي ذلك، كدليل على الصداقة، يجب أن أفعل ما بوسعي لأخفف من حدة قلقهم. لهذا السبب تراني في عيادتك».

قرّر بريوير أن يزيد ضغطه عليه. تقدم بخطوة أكثر جرأة».

«ألا تقلق على نفسك؟ مستحيل! أكثر من مئتي يوم في السنة من معاقبة العجز! لقد عالجت عدداً كبيراً من المرضى في خضم إصابتهم بنوبة الشقيقة للتخفيف من أدنى حد للألم الذي ينتابك».

ممتاز! ملف آخر على رقعة الشطرنج أُغلق. إلى أين سيتحرّك منافسه الآن؟ تساءل بريوير.

أعاد نيتشه الذي بدا أنه أدرك أن عليه تحريك قطعه الأخرى، انتباهه إلى وسط لوحة الشطرنج، وقال: «لقد أطلقوا عليّ ألقاباً كثيرة، فيلسوف، عالم نفساني، وثني، داعية، مسيح دجال. حتّى أنهم أطلقوا عليّ ألقاباً مستهجنة. لكنّي أفضّل أن أطلق على نفسي لقب عالم، لأن أساس طريقتي الفلسفية، بوصفها طريقة علمية، تكمن في عدم التصديق. إني أتبع نهجاً صارماً يتسم بالشك، وأنا شكوك الآن. لا أستطيع قبول توصيتك للكشف عن النفس استناداً إلى سلطة طبية».

«لكن، بروفسور نيتشه، إننا متفقان تماماً. السلطة الوحيدة التي يجب اتباعها هي سلطة العقل، ويدعم توصيتي العقل. إني أدّعي شيئين اثنين فقط. الأول هو أن الإجهاد قد يجعل المرء مريضاً، وتدعم هذا الادعاء ملاحظات علمية كثيرة. والثاني هو أن الإجهاد الشديد موجود في حياتك، وأنا أتحدث عن إجهاد مختلف عن ذلك المتأصّل في بحثك الفلسفي.

تابع بريوير، «لنتفحص البيانات معاً. انظر إلى الرسالة التي ذكرتها من

أختك. لا بد من وجود إجهاد عندما تشوّه سمعة المرء. وبالصدفة انتهكت اتفاق الصدق المتبادل الذي أبرمناه بعدم ذكر اسم الشخص الذي شوّه السمعة هذا سابقاً»، تحرّك بريوير بجرأة أكبر الآن. لم تكن هناك وسيلة أخرى، لم يكن ثمة شيء يمكن أن يخسره.

«من المؤكد أنه يوجد إجهاد في التفكير بأنك ستفقد راتبك التقاعدي، مصدر دعمك الوحيد. ولو كان كلّ ذلك مجرّد مبالغة مخيفة من جانب أختك، هناك إجهاد بوجود أخت تريد إثارة الرعب في نفسك».

هل ذهب شأواً بعيداً؟ لاحظ بريوير أن يد نيتشه تدلت إلى جانب كرسيه نحو مقبض حقيبته. لكن لا تراجع الآن. حرّك بريوير «كش ملك».

«لديّ شيء أقوى يدعم موقفي ـ كتاب رائع جديد»، قال نتيتشه وراح ينقر على نسخة كتابه هو *ذا الإنسان*»، «سيظهر قريباً، إن كانت هناك أيّ عدالة في هذا العالم، فيلسوف مشهور. استمع».

فتح الكتاب على الفقرات التي كان قد وصفها لفرويد، وراح يقرأ: ***إن الملاحظة النفسية هي من بين السبل التي يمكن للمرء بواسطتها التخفيف من عبء المعيشة*** .بعدصفحة أو صفحتين، يؤكد المؤلف أنّ الملاحظة النفسية أساسية وأن ـ هنا، بكلماته ـ ***لم يعد بوسع البشرية تجنب الرؤية القاسية لطاولة التشريح الأخلاقي***» وبعد صفحتين، يشير إلى أن أخطاء أعظم الفلاسفة تنجم عادة عن التفسير الخاطئ لتصرفات **وأحاسيس البشر التي تؤدي في نهاية الأمر إلى «ظهور أخلاق خاطئة ووحوش دينية وأسطورية»**.

«يمكنني أن أتابع»، وأخذ بريوير يقلّب الصفحات، «لكن المسألة التي أبرزها هذا الكتاب الرائع هي أنه بغية فهم إيمان وسلوك البشر،

يجب على المرء أولاً أن يتخلص من التقاليد والأساطير والدين. عندها فقط، **من دون تصورات مسبقة مهما كانت**، يجب أن يجرؤ على دراسة الموضوع الإنساني».

«إني أعرف هذا الكتاب جيداً»، قال نيتشه بصرامة.

«لكن ألن تتبع الوصفة التي يقدمها؟»

«إني أكرّس حياتي للوصفة التي يقدمها الكتاب. لكنّك لم تكمل. لسنوات عديدة، قمت بهذا التشريح النفسي وحدي: كنت أنا نفسي موضوع دراستي، لكنني لا أرغب في أن أكون موضوعك! هل أنت نفسك مستعد لأن تكون موضوع دراسة شخص آخر؟ اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً مباشراً، دكتور بريوير، ما الحافز الذي تهدف إليه في مشروع هذه المعالجة؟»

«لقد أتيت إليّ طالباً المساعدة. وها أنا أعرضها عليك. فأنا طبيب. هذا ما أفعله».

«إنه أمر بسيط للغاية! فكلانا نعرف أن الحافز الإنساني أكثر تعقيداً، وفي الوقت نفسه، أكثر بدائية. أسألك مرة أخرى، ما هو الحافز الذي تهدف إليه؟»

«إنها مسألة بسيطة، يا بروفسور نيتشه. فكلّ شخص يزاول المهنة المخصصة له: الإسكافي يرقّع الأحذية، والخباز يخبز، والطبيب يعالج. إن المرء يكسب قوته، المرء يزاول ما دعي إليه، وما دعيت إليه هو أن أقدم خدماتي لتخفيف الألم».

حاول بريوير أن ينقل الثقة لكنه بدأ يشعر بالانزعاج. لم تعجبه خطوة نيتشه الأخيرة.

«هذه ليست إجابات مقنعة عن سؤالي، دكتور بريوير. عندما تقول إن الطبيب يعالج، والخباز يخبز، أو أن المرء يزاول المهنة التي دعي

إليها، فهذا ليس حافزاً: إنها عادة. فقد حذفت من جوابك الوعي والاختيار والمصلحة الشخصيّة. إني أفضّل لو أنك قلت إن المرء يكسب رزقه، بحيث، على الأقل، يستطيع المرء أن يفهم. المرء يسعى جاهداً لوضع الطعام في معدته. لكنّك لا تطلب مني نقوداً».

«يمكنني أن أطرح عليك السؤال نفسه يا بروفسور نيتشه. لقد قلت إنك لا تكسب شيئاً من عملك: لماذا، لذلك، تتفلسف؟» حاول بريوير البقاء في موقع الهجوم لكنه أحسّ بأن زخمه بدأ ينحسر.

«آه، لكن يوجد خلاف هام بيننا. فأنا لا أدّعي أنّني أتفلسف من أجلك، بينما أنت، يا دكتور، تواصل الادّعاء بأنّ حافزك هو خدمتي، لتخفيف ألمي. ليس لهذه الادّعاءات علاقة بالحافز الإنساني. إنها جزء من عقلية العبد التي صممتها بدهاء الدعاية الكهنوتية. شرّح دوافعك بشكل أعمق! ستجد أن لا أحد يعمل شيئاً من أجل الآخرين. إن جميع التصرفات ذاتية التوجيه، وجميع الخدمات هي لخدمة المصالح الذاتية، وكلّ الحبّ هو حب للذات».

جاءت كلمات نيتشه أسرع، واندفع.

«يبدو أنك فوجئت بهذا التعليق؟ ربما تفكّر بالذين تحبّهم. أسبر في أعماقك وستعرف أنك لا تحبّهم: إن ما تحبّه هي الأحاسيس اللطيفة التي تنبعث في داخلك! إنك تحبّ الشهوة، لا المشتهى. لذلك، هل لي أن أسألك مرة أخرى، لماذا ترغب في أن تخدمني؟ مرة أخرى أسأل، يا دكتور بريوير»، هنا بدأ صوت نيتشه يصبح صارماً، «ما هي دوافعك؟»

اعترى بريوير شعور بالدوار. كبح رغبته الأولى: التعليق على قبح وفجاجة صياغة نيتشه، وبذلك يضع حدّاً لتفاقم حالة البروفسور نيتشه. تخيّل للحظة أنه يرى ظهر نيتشه وهو خارج من مكتبه. الله، يا إلهي! يا

للفرج! لقد تحرّر أخيراً من كلّ هذه القصة المحبطة، مع أنه شعر بالحزن لمجرد التفكير بأنه لن يرى نيتشه مرة أخرى. لقد انجذب إلى هذا الرجل. لكن لماذا؟ بالفعل ما هي دوافعه؟

وجد بريوير نفسه يتذكر نفسه يلعب الشطرنج مع والده. كان يرتكب دائماً، بالتركيز على الهجوم، خطأ الضغط من خلف خطوط إمداده، متجاهلاً دفاعه حتى يكون والده قد نقل الملكة بسرعة البرق إلى خلف خطوطه وهدّد بأن يهزمه. أبعد تخيله هذا من رأسه، لكن لم يفته أن يسجل ملاحظة وهي أنه يجب ألاّ يستهين بالبروفسور نيتشه هذا.

«مرة أخرى، أسألك دكتور بريوير ما هي دوافعك؟»

بذل بريوير جهداً ليجيب. ما هي؟ أُعجب بالطريقة التي قاوم فيها عقله نيتشه. أرغم نفسه على أن يركّز. رغبته في مساعدة نيتشه ـ متى بدأت؟ في فينيسيا، بالطبع، عندما افتتن بجمال لو سالومي. فتن بها إلى حد أنه وافق على مساعدة صديقها على الفور. لم يتح قبوله معالجة البروفسور نيتشه فرصة استمرار التواصل معها فحسب، بل أتاح له كذلك فرصة أن رفع قدره في نظرها أيضاً. وهناك الاتصال مع فاغنر. بالطبع، هنا يوجد تناقض: فقد كان بريوير يحب موسيقى فاغنر لكنه يكره معاداته لليهود.

ماذا هناك أيضاً؟ بعد عدة أسابيع، بدأت سالومي تتلاشى في ذاكرته. فلم تعد السبب في علاقته مع نيتشه. لا، فقد كان يعرف أن ما جذبه إلى معالجته هو التحدي الفكري الذي مثل أمامه. حتى أن السيدة بيكر قالت قبل أيام إنه لا يوجد طبيب آخر في فيينا يمكنه أن يقبل معالجة مريض كهذا.

وهناك فرويد أيضاً. فبعد أن اقترح نيتشه على فرويد كحالة دراسية، سيبدو أحمق إذا رفض البروفسور مساعدته، أم أنه كان يرغب في أن

يكون قريباً من شخص عظيم؟ ربما كانت لو سالومي محقّة عندما قالت إن نيتشه يمثّل مستقبل الفلسفة الألمانية: إذ تنبعث رائحة عبقري من تلك الكتب التي ألفّها نيتشه.

يعرف بريوير تماماً أنه لا توجد لأي من هذه الدوافع علاقة بهذا الرجل، نيتشه، بهذا الشخص المصنوع من لحم ودم أمامه. لذلك، تعين عليه أن يظل صامتاً إزاء رؤيته لو سالومي، غبطته في ارتياد مناطق يخشى أطباء آخرون ارتيادها، ورغبته العارمة في ملامسة العظمة. ربما تردد بريوير بالاعتراف بنظريات نيتشه القبيحة بوجود دافع. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن ينوي إثارة تحدي مريضه بالادعاء بأنه يقدم له خدمة. لكن كيف، إذاً يمكنه أن يرد على سؤال نيتشه المزعج وغير المناسب؟

«دوافعي؟ من يستطيع الإجابة عن سؤال كهذا؟ إذ توجد الدوافع في طبقات عديدة. من يمكنه أن يجزم أن الطبقة الأولى فقط، الدوافع الحيوانية، هي الدافع الأساسي؟ لا، لا. أرى أنك مستعدّ لتكرار السؤال. دعني أحاول الإجابة عنه بروح بحثك. فقد أمضيت عشر سنوات في التدريب الطبي. هل أهدر كل تلك السنوات من التدريب لأنني لم أعد بحاجة إلى المال؟ إن المعالجة هي وسيلتي لتبرير جهد تلك السنوات المبكّرة ـ وسيلة لإعطاء قيمة واتساق لحياتي. ولإعطائها معنى! هل عليّ أن أجلس طوال اليوم وأحصي نقودي؟ هل ستفعل ذلك؟ إني واثق من أنك لن تفعل ذلك. وهناك أيضاً دافع آخر، فأنا أجد متعة في الحافز الفكري الذي أتلقاه من تواصلي معك».

«في هذه الدوافع على الأقل رائحة صدق»، اعترف نيتشه.

«كما أنني تذكرت للتو شيئاً آخر. فقد أحببت تلك الجملة التي قدَّت من الصوان: «كن من أنتَ». ماذا لو كنت أنا، أو ما هو مقدر لي، أن أصبح في خدمة الآخرين، لمساعدتهم، للمساهمة في تطوير العلم الطبي والتفريج عن الألم والمعاناة؟»

شعر بريوير بأنه أصبح أفضل بكثير. بدأ يستعيد رباطة جأشه. ربما كنت كثير الجدل، قال لنفسه. هناك حاجة إلى شيء تصالحي أكثر. «ها هنا دافع آخر. لنقل، وأعتقد أن هذا هو الأمر، أن قدرك هو أنك ستصبح فيلسوفاً عظيماً. لذلك، فإن معالجتي قد لا تساعد كيانك الجسدي فقط، بل ستساعدك أيضاً في مشروعك في أن تصبح من أنت».

«وإذا أصبحتُ، كما تقول، عظيماً، عندها تصبح أنت، باعتبارك منقذي، أعظم مني»، قال نيتشه كما لو أنه يعرف أنه أطلق الرصاصة الحاسمة.

«لا! لم أقل ذلك!» بدأ صبر بريوير الذي لا ينضب عادة في عمله كطبيب ينفد، وأضاف، «إني أعالج الكثير من الأشخاص المرموقين في مجالاتهم ـ علماء وفنانون وموسيقيون بارزون في فيينا. هل هذا يجعلني أعظم منهم؟ لا أحد منهم يعرف أنني أعالجهم».

«لكنك قلت لي إنك تستخدم الآن شهرتهم وتميزهم لتعزيز سلطتك معي».

«بروفسور نيتشه، إني لا أصدّق ما أسمعه. هل تعتقد حقاً أنني، إذا تحقق قدرك، سأذهب وأعلن بأنني أنا جوزيف بريوير هو الذي خلقك؟»

«أتظن حقاً أن أموراً كهذه لا تحدث؟»

حاول بريوير أن يتماسك. احذر يا جوزيف، تمالك نفسك. انظر إلى الأمور من وجهة نظره. حاول أن تفهم مصدر عدم ثقته.

«بروفسور نيتشه، أعرف أنّك تعرضت للخيانة في الماضي، وأبرّر أسباب أن تتوقّع الخيانة في المستقبل. لكني أعدك بأن هذا لن يحدث

هنا. أعدك بأني لن أذكر اسمك أبداً، ولن يظهر حتى في سجلات العيادة. دعنا نستنبط اسماً مستعاراً لك».

«لا يهم أنك قد تخبر الآخرين. إني أقبل وعدك بذلك. ما يهم هو ماذا ستقول لنفسك وماذا سأقول لنفسي. وفي كلّ ما قلته لي عن دوافعك، لا يوجد شيء، على الرغم من ادعاءاتك المستمرة بتقديم الخدمة والتخفيف من حدة الحزن والكرب، فيّ حقاً، وهذا ما ينبغي أن يكون. سوف تستخدمني في مشروعك الذاتي: هذا أيضاً متوقّع ـ هذه هي الطريقة التي تعمل فيها الطبيعة. لكن ألا ترى، أنك ستستخدمني! شفقتك عليّ، صدقتك، تعاطفك، أساليبك في مساعدتي، في معالجتي. إن تأثيرات كلّ هذه الأمور تجعلك أقوى على حساب قوتي. وأنا لا أملك أموالاً كافية لتسديد تكاليف هذه المساعدة».

هذا الرجل مستحيل، قال بريوير لنفسه. إنه يخبئ أسوأ الدوافع، وأحطّها عن كلّ شيء. تلاشت موضوعية بريوير السريرية المتبقية. لم يعد بإمكانه احتواء مشاعره.

«بروفسور نيتشه، اسمح لي أن أتحدث بصراحة. لقد وجدت نقاطاً مفيدة كثيرة في حديثك اليوم، لكن هذا الزعم الأخير، هذه التهويمة حول رغبتي في إضعافك، حول قوّتي التي تتغذى على قوتك، محض هراء».

رأى بريوير يد نيتشه تنزلق إلى الأسفل نحو مقبض حقيبته، لكنه لم يستطع أن يتوقّف، وقال: «ألا ترى أنه يوجد مثال رائع عن سبب عدم تمكنك من تشريح نفسيتك؟ عدم الوضوح في رؤيتك».

رأى نيتشه قد أمسك حقيبته وبدأ ينهض. بالرغم من ذلك، تابع كلامه، «بسبب مشاكلك المؤسفة المتعلقة بالصداقات، فإنك ترتكب أخطاء غريبة».

بدأ نيتشه يزرر معطفه، لكن بريوير لم يتمكن من مسك لسانه: «إنك تفترض أن مواقفك عالمية، عندها تحاول إفهام البشرية كلها ما لا تستطيع أن تفهمه أنت عن نفسك».

كانت يد نيتشه قد أصبحت على مقبض الباب.

«أعتذر لمقاطعتك يا دكتور بريوير، لكني يجب أن أذهب لأحجز في قطار بعد ظهر اليوم المتوجه إلى بازل. هل يمكنني أن أعود بعد ساعتين لأسدد فاتورتي وآخذ كتابيّ؟ سأترك عنواناً لإرسال تقرير استشارتك». انحنى بطريقة رسمية واستدار. أجفل بريوير لرؤية ظهره وهو يخرج من المكتب.

الفصل ١٠

عندما أُغلق الباب، لم يتحرك بريوير. كان لا يزال جالساً، متسمّراً وراء طاولة مكتبه عندما دخلت السيدة بيكر إلى المكتب بسرعة.

«ماذا حدث يا دكتور بريوير؟ لقد خرج البروفسور نيتشه من مكتبك بسرعة وتمتم بأنه سيعود بعد قليل ليأخذ الفاتورة وكتبه».

«بطريقة ما أفسدت كلّ شيء اليوم»، قال بريوير، وحكى لها بإيجاز ما حدث خلال الساعة الماضية مع نيتشه. وأضاف، «في النهاية، عندما نهض وغادر، كدت أصيح به».

«لا بد أنه استفزك. رجل مريض يأتي للمعالجة، تبذل كل ما بوسعك لمعالجته، ثمّ يحاربك في كلّ ما تقوله. لو كان الدكتور أولريك الذي عملت عنده قبل أن أعمل في عيادتك لألقى به خارج العيادة. أقسم بذلك».

«إن الرجل بحاجة ماسة إلى المساعدة». نهض بريوير، واتجه نحو النافذة، وقال بصوت منخفض، يكاد يكلم نفسه، «ومع ذلك فإن كبرياءه يجعله لا يتقبل ذلك. لكن كبرياءه هذا جزء من مرضه، مثل أي عضو مريض في الجسم. كنت غبياً عندما رفعت صوتي عليه. يجب أن أتوصل إلى طريقة أتمكن فيها من التقرب منه. يجب أن أتمكن من إدخاله هو وكبرياؤه في برنامج معالجتي له».

«إن كان كبرياؤه يجعله لا يقبل المساعدة، فكيف ستتمكن من معالجته؟ في الليل عندما يكون نائماً؟»

لم يردّ بريوير الذي وقف يحدّق من النافذة، جسمه يهتزّ قليلاً إلى الأمام والوراء، يلوم نفسه.

حاولت السيدة بيكر مرة أخرى، وقالت: «تذكّر قبل شهرين عندما حاولت مساعدة تلك المرأة العجوز، السيدة كول، التي تخاف أن تغادر غرفتها؟»

هزّ بريوير رأسه، لا يزال مولياً ظهره للسيدة بيكر، وقال: «أتذكّر».

«ثم قطعت العلاج فجأة عندما وافقت على دخول غرفة أخرى إذا أمسكت بيدها. عندما حكيت لي ذلك، قلت كم كنت محبطاً لأنها غادرت بعد أن اقتربت كثيراً من شفائها».

أومأ بريوير. لم تكن المسألة واضحة، هذا إذا كانت هناك مسألة. «ثم؟»

«ثمّ قلت شيئاً جيداً. قلت إن الحياة طويلة ولدى المرضى غالباً فترات طويلة من العلاج. قلت إن بوسعهم أن يتعلّموا شيئاً من طبيب، ويحملونه داخل رؤوسهم، وفي وقت ما في المستقبل، يكونون على استعداد لعمل المزيد. في هذه الأثناء، تكون قد أديت الدور الذي كانت مهيأة له».

«إذاً؟» سأل بريوير ثانية.

«إذاً، لعل ذلك ينسحب على البروفسور نيتشه. ربما يسمع كلماتك عندما يكون مستعداً لذلك في وقت ما في المستقبل».

التفت بريوير ونظر إلى السيدة بيكر. أعجبه ما قالته. كلماتها تنطوي على أنه يشكّ في جدوى كل ما فعله لنيتشه. بخلاف نيتشه، فإن بريوير يرحّب بالمساعدة عندما يكون متألّماً.

«أرجو أن تكوني على حق يا سيدة بيكر، وشكراً لمحاولتك إدخال البهجة إلى نفسي. هذه وظيفة جديدة لك. إن المرضى من أمثال نيتشه قليلون جداً. أي مريض سنرى بعد ظهر اليوم؟ يمكنني أن أعالج حالة أسهل، ربما حالة سلّ أو قصور قلب احتقاني».

بعد عدّة ساعات، كان بريوير على رأس مائدة عشاء مساء الجمعة العائلي. بالإضافة إلى أطفاله الثلاثة الأكبر سنّاً، روبرت وبيرثا ومارغريت (كانت لويس قد أطعمت يوهانز ودوم)، كان في الحفلة التي تضم خمسة عشر شخصاً ثلاث أخوات لماتيلد، هانا ومينا اللتان لا تزالان عازبتين، وراشيل وزوجها ماكس وأطفالهما الثلاثة، ووالدي ماتيلد، وعمّة عجوز أرملة. لم يأتِ فرويد الذي كان ينتظر مجيئه. فقد أرسل كلمة يقول فيها إنه سيتناول العشاء وحيداً من الخبز والماء وهو يدرس حالة ستة مرضى دخلوا المستشفى مؤخراً. كان بريوير منزعجاً لمغادرة نيتشه، وكان يأمل مناقشة الأمر مع صديقه الشاب.

بالرغم من أن بريوير وماتيلد وأخواتها كانوا يحتفلون جزئياً «بعيد اليهود»، فقد جلسوا صامتين، بينما أخذ هارون، والد ماتيلد، وماكس، اليهوديان الملتزمان في العائلة، يرددان الصلاة على الخبز والنبيذ. لم يبد أي من أفراد أسرة بريوير أي التزام أو قيود على الطعام، لكن من أجل هارون، لم تقدم ماتيلد لحم خنزير على مائدة العشاء ذلك المساء. كان بريوير يجد عادة متعة في تناول لحم الخنزير، وكان طبقه المفضّل، لحم خنزير مشوي، عليه إجاص مجفّف، الذي يقدم كثيراً على مائدته. وكان بريوير وفرويد يحبان تناول نقانق الخنزير اللذيذة التي تباع في براتر. فعندما يتمشيان هناك، لا يتورعان عن الوقوف لتناول وجبة نقانق خفيفة.

مثل كلّ الوجبات التي تعدّها ماتيلد، بدأت هذه الوجبة بالحساء الساخن الذي كان هذه الليلة حساء شعير وفاصولياء ليما، أعقبتها سمكة

شبوط ضخمة مطهية مع الجزر والبصل، ثم الطبق الرئيسي، أوزه ريّانة محشوة بالكرنب.

عندما أحضرت ماتيلد فطيرة الكرز بالقرفة الساخنة والهشّة من الفرن، أخذ بريوير وماكس طبقيهما وراحا يتمشيان في البهو متجهين نحو غرفة مكتب بريوير. فخلال خمس عشرة سنة، اعتادا على أن يأخذا طبقهما من الحلوى بعد تناولهما العشاء في ليلة الجمعة، ويلعبا الشطرنج في المكتب.

عرف جوزيف ماكس قبل أن يتزوجا الأختين من عائلة ألتمان بفترة طويلة. ولو لم يصبحا نسيبين لما بقيا صديقين. وعلى الرغم من أن بريوير يحترم ذكاء ماكس ومهارته في الجراحة وبراعته في لعب الشطرنج، لم يكن يحب عقلية الغيتو التي تتملك نسيبه المحدودة وماديته السوقية. حتى أن بريوير لم يكن يحب أن يديم النظر في وجه ماكس: فلم يكن بشعاً فحسب، أصلع، تنتشر البقع في بشرته، ومفرط البدانة، بل يبدو عجوزاً أيضاً. حاول بريوير نسيان أنه وماكس يبلغان العمر نفسه.

حسناً، لن يلعبا الشطرنج هذه الليلة. قال بريوير لماكس إنه يرغب في التحدث بدلاً من اللعب. وقلما دار حديث حميمي بينه وبين ماكس، لكن باستثناء فرويد، لا يوجد لدى بريوير رجل آخر يثق به يفضي له بأسراره. لم يعد لديه أحد يمكن أن يحدثه منذ أن تركت إيفا بيرغر، ممرضته السابقة، العمل. أما الآن، وعلى الرغم من أن لديه هواجس كثيرة بمدى حساسية ماكس، فقد انهمك في حديث عن نيتشه طوال عشرين دقيقة بلا توقف، مشيراً إليه بالطبع باسم السيد مولر وحكى له كلّ شيء، حتى لقائه مع لو سالومي في فينيسيا.

«لكن، جوزيف»، بدأ ماكس بنبرة رافضة قاسية، «لماذا تلوم نفسك؟

من يستطيع أن يعالج مثل هذا الرجل؟ إنه مجنون، هذا كلّ شيء! عندما يزداد وجع رأسه، سيأتي إليك مستجدياً».

«إنك لا تفهم، يا ماكس. إن جزءاً من مرضه هو عدم قبول المساعدة. يكاد يكون مصاباً بالذهان: إنه يشكّ في الأسوأ من كلّ شخص».

«جوزيف، إن فيينا مليئة بالمرضى. يمكننا أنا وأنت أن نعمل مائة وخمسين ساعة في الأسبوع، ومع ذلك يمكننا أن نحيل مرضى إلى أطباء آخرين كلّ يوم. أليس هذا صحيحاً؟»

لم يحر بريوير جواباً.

«أليس هذا صحيحاً؟» سأل ماكس مرة أخرى.

«ليست هذه هي المسألة يا ماكس».

«إنها المسألة يا جوزيف. إن المرضى يدقون بابك لتسمح لهم بالدخول، وها أنت تتوسل إلى أحدهم ليدعك تساعده. هذا غير معقول. لماذا يتعين عليك أن تتوسل لتقوم بذلك؟» مدّ ماكس يده إلى قنينة وكأسين صغيرين، وسأله، «هل ترغب في القليل من براندي الخوخ»؟

أومأ بريوير، وصبّ ماكس في الكأسين. مع أن ثروة عائلة ألتمان تكونت من بيع النبيذ، كان براندي الخوخ هو المشروب الكحولي الوحيد الذي يسمح لهما بشربه.

«ماكس، أنصت إليّ، افترض أن لديك مريض مصاب ـ ماكس، إنك لا تستمع إليّ. إنك تدير رأسك».

«إني أستمع، أستمع»، أصرّ ماكس.

«افترض أنّ لديك مريضاً مصاباً بتضخم البروستات وانسداد مجرى البول تماماً»، تابع بريوير، «ولدى مريضك احتباس في البول، والضغط

الكلوي التراجعي آخذ في الارتفاع، وبدأ يدخل في مرحلة تسمّم يوريمي، وعلى الرغم من ذلك فإنه يرفض المساعدة تماماً. لماذا؟ ربما أنه مصاب بخرف الشيخوخة. ربما كان خائفاً من الأدوات المتوفرة لديك: أنبوبة القسطرة، وصوت الأدوات الفولاذية على صينيتك. ربما كان شخصاً ذهانياً ويظن أنك ستخصيه. ماذا بعد ذلك؟ ماذا ستفعل؟»

فأجاب ماكس، «بعد عشرين سنة من الممارسة، لم يحدث ذلك أبداً».

«لكن يمكن أن يحدث ذلك. إني أقول ذلك لأوضح شيئاً. لو حدث ذلك، ماذا ستفعل؟»

«لا يعود القرار لي بل لعائلته».

«ماكس، هيا. إنك تتهرب من الإجابة عن السؤال! افترض أنه لا توجد لديه عائلة؟»

«كيف يمكنني أن أعرف؟ مهما فعلوا في المصحات ـ تقييده، تخديره، ممارسة القسطرة عليه، حاول أن توسع مجرى بوله بالأصوات».

«كلّ يوم؟ تمارس القسطرة عليه وهو مقيد؟ هيا، ماكس، ستقتله خلال أسبوع! لا، ما يجب أن تفعله هو أن تحاول أن تغيّر موقفه تجاهك وتجاه المعالجة. الشيء نفسه عندما تعالج الأطفال. هل يريد الطفل أن يُعالج؟»

تجاهل ماكس النقطة التي أثارها بريوير، وقال: «وتقول إنك تريد أن تدخله إلى المستشفى وتتحدث إليه كلّ يوم ـ جوزيف فكّر في الوقت الذي تمضيه معه! هل يمكنه تحمّل تكاليف وقتك هذا؟»

عندما تحدّث بريوير عن فقر مريضه وعن خطته لاستخدام السريرين

اللذين وهبتهما العائلة ومعالجته مجاناً، ازدادت أمارات القلق على وجه ماكس.

«إنك تثير قلقي يا جوزيف! سأكون صريحاً معك. إني حقاً قلق عليك. لأن فتاة روسية جميلة، حتى أنك لا تعرفها، كانت قد كلمتك، تريد أن تعالج رجلاً مجنوناً لا يريد أن يُعالج من حالة ينكر أنه مصاب بها. والآن تقول إنك تريد أن تفعل ذلك مجاناً. هيا قل لي»، قال ماكس، وهو يهزّ إصبعه أمام بريوير، «من هو أكثر جنوناً، أنت أم هو؟»

«سأخبرك ما هو الجنون يا ماكس! الجنون هو أنك دائماً تثير مسألة النقود. إن الفائدة من مهر ماتيلد تزداد وتتراكم باستمرار في المصرف. وعندما يحصل كلّ منا على حصته من ميراث ألتمان، سنسبح كلانا في المال. لا أستطيع أن أبدأ بإنفاق كلّ النقود التي تأتي الآن، وأعرف أنك تملك أكثر مما أملك بكثير. إذن لماذا تثير مسألة النقود؟ ما الشيء المقلق في الأمر إذا كان فلان من الناس لا يستطيع أن يدفع لي؟ ماكس، أظن أنك أحياناً لا ترى أبعد من النقود».

«حسناً، إنس أمر النقود. ربما كنت محقّاً. أحياناً لا أعرف لماذا أعمل، أو ما السبب الذي يدعوني إلى طلب نقود. لكن، الحمد لله أن أحداً لا يسمعنا: سيظنون أننا مخبولين. ألن تتناول ما تبقى من الفطيرة؟»

هزّ بريوير رأسه، ورفع ماكس صحنه وأخذ الفطيرة ووضعها في صحنه.

«لكن جوزيف، هذا ليس دواء! المرضى الذين تعالجهم، هذا البروفسور، ماذا يوجد لديه؟ التشخيص؟ سرطان كبريائه؟ تلك الفتاة التي تدعى بابينهيم التي تخاف من شرب الماء. ألم تكن هي الفتاة التي لم تعد تستطيع أن تتكلّم اللغة الألمانية فجأة، بل الإنكليزية فقط؟ وفي كلّ يوم كانت تصاب بشلل جديد؟ وذلك الصبي الصغير الذي كان

يعتقد أنه ابن الإمبراطور، وتلك السيدة التي كانت تخاف من مغادرة غرفتها. جنون! إنك لم تتلق أفضل تدريب في فيينا لمعالجة الجنون».

بعد أن تناول ماكس فطيرة بريوير بلقمة كبيرة واحدة، وغسلها بقدح آخر من براندي الخوخ، واصل كلامه، «إنك أفضل مشخّص للأمراض في فيينا. لا يوجد أحد في هذه المدينة يعرف أكثر منك عن الأمراض التنفسية أو عن التوازن. الجميع يعرفون عن أبحاثك! تذكّر كلماتي. ذات يوم يجب أن يدعوك إلى الأكاديمية الوطنية. لو لم تكن يهودياً، لكنت قد أصبحت بروفسوراً. الجميع يعرفون ذلك. لكنك إذا ظللت تعالج هذه الحالات المصابة بالجنون، ماذا سيحلّ بسمعتك؟ سيقول المعادون لليهود: «انظروا، انظروا، انظروا!» قال ماكس وطعن الهواء بإصبعه،» لهذا السبب. لهذا السبب لم يصبح أستاذاً في الطبّ. إنه غير ملائم، إنه ليس سليماً».

«ماكس، دعنا نلعب الشطرنج». فتح بريوير علبة الشطرنج ودلق القطع بغضب فوق اللوحة، وقال: «الليلة قلت إنني أريد أن أكلمك لأنني منزعج، وانظر كيف تساعدني! أنا مجنون، مرضاي مجانين، ويجب أن يلقى بي إلى الخارج. إني أشوّه سمعتي، يجب أن أعصر فلورينات لا أحتاج إليها...».

«لا، لا! لقد سحبت الجزء المتعلق بالنقود».

«هل هذه هي طريقتك لمساعدتي؟ حتى إنك لم تسمع سؤالي».

«ما هو؟ أعده عليّ. سأنصت بإمعان أكثر». أصبح وجه ماكس الضخم المتقلب فجأة جدياً.

«جاء إلى عيادتي اليوم رجل بحاجة إلى مساعدة، مريض يتألم، ولم أعامله بطريقة جيدة. لا يمكنني إعادة هذا المريض يا ماكس. لقد انتهى الأمر معه. لكني أرى عدداً أكبر من المرضى العصابيين، وعليّ أن أفهم

كيف يجب أن أتعامل معهم. إنه ميدان جديد كامل. لا توجد كتب دراسية. هناك آلاف من المرضى المحتاجين إلى مساعدة، لكن لا أحد يعرف كيف يساعدهم».

فقال ماكس: «لا أعرف شيئاً عن ذلك يا جوزيف. إنك تعمل أكثر فأكثر في مجال التفكير والدماغ. أما أنا فأقف على الطرف المعاكس، أنا...». تمالك بريوير نفسه. ثم أضاف ماكس، «إن الفجوات التي أتكلّم عنها لا تنطبق عليّ. لكنّي أستطيع أن أقول شيئاً واحداً ـ أشعر أنك تنافس هذا البروفسور، تماماً كما كنت تفعل مع برينتانو في دروس الفلسفة. هل تتذكّر اليوم الذي هاجمك فيه؟ قبل عشرين سنة. أذكر ذلك كأنه حدث البارحة، الذي قال لك: «هير بريوير، لماذا لا تحاول أن تتعلّم ما أعلّمه لك بدلاً من محاولة إثبات مقدار ما لا أعرفه؟»

أومأ بريوير. تابع ماكس قائلاً: «حسناً، كيف تبدو استشارتك بالنسبة لي. حتى حيلتك في محاولة إيقاع موللر هذا بالاستشهاد بفقرات من كتابه. لم يكن ذلك ذكاء منك ـ كيف يمكنك أن تفوز؟ إذا فشل الفخ، فإنه سيفوز. وإذا نجح الفخ، فإنه سيغضب ولن يتعاون بأي شكل».

جلس بريوير صامتاً، يداعب بأصابعه قطع أحجار الشطرنج وهو يفكّر بكلمات ماكس، ثم قال: «ربما كنت محقاً. كما تعرف، حتى في ذلك الوقت، شعرت أنني قد لا أستطيع الاستشهاد بفقرات من كتابه. كان ينبغي ألا أنصت إلى سيغموند. انتابني هاجس بأن الاستشهاد بكلماته لم يكن ذكياً، لكنّه استمرّ يلحّ عليّ، وحضني على إقامة علاقة تنافسية. من المضحك، كما تعرف، أنني طوال فترة استشارتي، كنت أفكر بلعب الشطرنج. أنصب له هذا الفخ، فينصب لي فخاً مقابله. ربما كنت تقول إنني كنت هكذا في المدرسة. لكنّي لم أتعامل مع مريض آخر بهذه الطريقة منذ سنوات عديدة يا ماكس. أظن أن ثمة شيئاً فيه يسحبه

مني، لربما من كلّ شخص، ثم يدعوها طبيعة بشرية. وهو يؤمن بأنها كذلك! هنا يكمن خطأ فلسفته كلها».

«انظر يا جوزيف، إنك لا تزال تفعل ذلك. إنك تحاول أن تجد ثقوباً في فلسفته. إنك تقول إنه عبقري. لو كان عبقرياً كما تقول، فيجب أن تتعلّم منه بدلاً من أن تهاجمه».

«جيد، يا ماكس، هذا جيد! إن ما تقوله لا يعجبني، لكنه يبدو صحيحاً». أخذ بريوير نفساً عميقاً وأطلق زفرة بصوت مسموع، ثم أضاف، «لنلعب الآن. إني أفكّر بحركة جديدة على تحريكك الملكة».

ناور ماكس بالملكة، فردّ بريوير بمناورة معاكسة جريئة، ليجد نفسه في ورطة عميقة بعد ثماني حركات لاحقة. التفّ ماكس حول بيدق حصان وفارس بريوير بقسوة، ودون أن يرفع نظره من اللوحة، قال، «جوزيف، بما أننا نتبادل هذا الحديث هذه الليلة، دعني أتكلّم أيضاً. ربما هذا ليس من شأني، لكنّي لا أستطيع أن أغلق أذني. فقد قالت ماتيلد لراشيل أنك لم تلمسها منذ أشهر».

أمعن بريوير في اللوحة بضع دقائق أخرى، وعندما أدرك أنه لن يتمكن من تفادي المداراة، أخذ بيدق ماكس قبل أن يجيبه. «نعم، إنه أمر سيء. سيء جداً. لكن، ماكس، كيف يمكنني أن أحدّثك عن هذا الأمر؟ قد يكون من الأفضل أن أتكلم مباشرة في أذن ماتيلد، لأني أعرف أنك تتكلّم مع زوجتك، وهي تتكلّم مع أختها».

«لا، صدّقني، يمكنني أن أكتم الأسرار المتعلقة براشيل. سأفضي إليك بسرّ: لو عرفت راشيل ما يحدث بيني وبين ممرضتي الجديدة، فراولين ويتمير، ستصبح مؤخرتي مكشوفة، الأسبوع الماضي! مثلك أنت وإيفا بيرغر - لا بد أن مضاجعة الممرضات تسري في العائلة».

درس بريوير لوحة الشطرنج جيداً. أزعجه تعليق ماكس. هكذا إذاً

تنظر الجالية إلى علاقته بإيفا! مع أن التهمة ليست صحيحة، فقد شعر بالذنب بسبب لحظة واحدة من إغراء جنسي شديد. في حديث هام، قالت له إيفا قبل عدّة شهور إنه سيدخل في علاقة مدمّرة مع بيرثا، وقالت له إنها مستعدة «لأن تفعل كل ما بوسعها» لتساعده على التخلص من هوسه بمريضته الشابة. ألم تعرض إيفا نفسها عليه جنسياً؟ كان بريوير متأكّداً من ذلك. لكن الشيطان «لكن» تدخل، لذلك لم يقدم على ذلك. وبالرغم من ذلك، راودته فكرة عرض إيفا في أحيان كثيرة، وشعر بأسف شديد لأنه أضاع فرصته معها.

لقد ذهبت إيفا الآن، ولم يتمكن قط من إصلاح الأمور معها. فبعد أن طردها من العمل، لم تكلّمه وتجاهلت عروضه بأن يقدم لها نقوداً أو يساعدها للحصول على عمل آخر. وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من التغلب على فشله في الدفاع عنها أمام ماتيلد، فقد وجد الآن أنه يستطيع، على الأقل، أن يدافع عنها من اتهامات ماكس.

«لا، يا ماكس، لقد فهمت الأمر خطأً. أنا لست ملاكاً، لكنّي أقسم بأنّني لم ألمس إيفا. كانت مجرد صديقة، صديقة جيدة».

«آسف يا جوزيف، أظن أنني وضعت نفسي في مكانك ثم افترضت أنك أنت وإيفا...»

«أستطيع أن أرى كيف يمكنك أن تفكّر في ذلك. نشأت بيننا صداقة غير عادية. كانت كاتمة أسراري، كنا نتحدث عن كلّ شيء معاً. لقد نالت جائزة شنيعة بعد كل تلك السنوات من عملها معي. كان يجب ألاّ أستسلم لغضب ماتيلد. كان عليّ أن أواجهها».

«ألهذا السبب أنت وماتيلد، كما تعرف، على جفاء؟»

«من الممكن أن أقول ذلك ضدّ ماتيلد، لكن ليست هذه هي المشكلة الحقيقية في زواجنا. إنها أكثر من ذلك يا ماكس. لكني لا

أعرف ما هي بالتحديد. إن ماتيلد زوجة جيدة. لكني كرهت الطريقة التي تصرّفت فيها إزاء بيرثا وإيفا. نعم كنت أوليهما اهتماماً أكبر مما أوليتها. لكن ما يحدث الآن، غريب. فعندما أنظر إليها، لا أزال أرى أنها جميلة».

«و؟»

«فقط لا أستطيع أن ألمسها. أبتعد عنها. لا أريد أن تقترب مني أكثر».

«ربما هذا الأمر غير نادر. فمع أن راشيل ليست ماتيلد، لكنها امرأة جميلة، فإني أبدي اهتماما أكبر بفراولين ويتنير التي تشبه، يجب أن أعترف، ضفدعة. في بعض الأيام، عندما أمشي في شارع كيرستينستراس وأرى عشرين أو ثلاثين عاهرة يصطففن، أشعر بإغراء شديد. وعلى الرغم من أنني لا أرى أياً منهن أجمل من راشيل، والكثير منهن مصابات بالسيلان أو بالزهري، فإني أشعر بالرغبة تجاههن. لو كنت متأكداً من أن أحداً لن يتعرف عليّ، فمن يعرف؟ قد أقدم على عمل ذلك! جميع الناس يشعرون بالملل من تناول وجبة الطعام نفسها. كما تعرف يا جوزيف، لدى كلّ امرأة جميلة، هناك رجل مسكين ملّ من مضاجعتها».

لم يشأ بريوير أن يشجع ماكس على المضي في أسلوبه الفظّ، لكنه لم يتمالك نفسه عن الابتسام للمثل الذي ضربه ـ صحيح بطريقته الفظة، وقال: «لا يا ماكس، إنه ليس الملل. هذه ليست مشكلتي».

«ربما تعين عليك أن تجري فحصاً شاملاً. لقد كتب عدد من الإخصائيين في الأمراض البولية عن وظيفة الجنس. هل قرأت بحث كيرش بأن السكّري يسبّب عجزاً جنسياً؟ الآن بعد أن أزال تحريم التحدّث عن هذا الأمر، اتضح أن العجز الجنسي شائع أكثر مما كنا نظن بكثير».

فأجاب بريوير، «أنا لستُ مصاباً بالعجز. فمع أني ابتعدت عن الجنس، لا يزال هناك عصير متدفق كثير. تلك الفتاة الروسية مثلاً. لقد راودتني نفس الأفكار التي راودتك عن المومسات في شارع كيرستينستراس. في الواقع، فإن جزءاً من المشكلة يكمن في أنه تراودني أفكار جنسية كثيرة عن امرأة أخرى، الأمر الذي يجعلني أشعر بالذنب إزاء ملامسة ماتيلد». لاحظ بريوير كيف أن مكاشفة ماكس له سهل عليه كثيراً التكلم في هذه المسألة. لعل ماكس، بطريقته الفجة، تناول موضوع نيتشه أفضل منه.

«لكن ليس هذا هو الأمر الرئيسي»، وجد بريوير نفسه يواصل كلامه، «إنه أمر آخر. هناك شيء شيطاني أكثر في داخلي. تعرف، أفكر بأن أغادر. لن أفعل ذلك قط، لكني أفكر كثيراً بأن أحزم أغراضي وأغادر: ماتيلد، الأطفال، فيينا، كلّ شيء. هذه الفكرة المجنونة لا تزال تراودني، وأنا أعرف أنها مجنونة، ليس من الضروري أن تخبرني يا ماكس، بأنّ جميع مشاكلي ستحلّ إذا تمكنت من إيجاد طريقة تبعدني عن ماتيلد».

هزّ ماكس رأسه، وأطلق تنهيدة، ثمّ أسر حصان بريوير، وشنّ هجوماً كاسحاً بملكته من الجانب. استرخى بريوير على كرسيه. كيف سيعيش عشر، أو عشرين، أو ثلاثين سنة أخرى من الخسارة أمام دفاع ماكس ومناورة الملكة الجهنمية؟

الفصل ١١

في تلك الليلة، استلقى بريوير في السرير وهو لا يزال يفكر مناورة الملكة وتعليق ماكس عن النساء الجميلات والرجال المتعبين. خفّت مشاعره المضطربة حول نيتشه. بطريقة ما، كان حديثه مع ماكس مفيداً. لعله لم يقدّر ماكس حق قدره طوال هذه السنوات. عادت ماتيلد من غرفة الأطفال الآن، وصعدت إلى السرير. اقتربت منه وهمست، «تصبح على خير يا جوزيف». تظاهر بأنه نائم.

بم! بم! بم! طرقات قوية على باب المنزل. نظر بريوير إلى الساعة. إنها الخامسة إلا ربع. نهض بسرعة. لم ينم بعمق قط. تناول رداءه، وسار في البهو. خرجت لويس من غرفتها، لكنّه لوّح لها بيده بأن تعود إلى غرفتها. فبما أنه استيقظ، فإنه سيفتح الباب بنفسه.

قال البواب الذي اعتذر لأنه أيقظه، أن رجلاً في الخارج يريد أن يراه لأمر طارئ. في الطابق السفلي، وجد بريوير رجلاً مسناً واقفاً في الممر. لم يعتمر قبعة وبدا أنه قطع مسافة طويلة. كان يلهث، يكسو شعره الثلج، وقد تجمّد المخاط الذي سال من أنفه على شاربه الكثيف.

«دكتور بريوير؟» سأله، صوته يرتعش بانفعال.

بإيماءة من بريوير، عرّف على نفسه بأنه كوريث شليغيل، وخفض رأسه ولمس بأصابع يده اليمنى جبهته محيياً بالطريقة القديمة المتبقية من الزمن الأفضل، وقال: «إن شخصاً تقوم برعايته أنتَ، يقيم في الفندق

الذي أملكه مريض، مريض جداً»، ومضى يقول: «إنه لا يقوى على الكلام، لكني وجدت هذه البطاقة في جيبه».

تفحص بريوير البطاقة الرسمية التي أعطاها له هير شليغيل، ووجد اسمه وعنوانه مدونين على جانب البطاقة وعلى الجانب الآخر قرأ:

بروفسور فريدريك نيتشه

أستاذ علم فقه اللغة

جامعة بازل

حسم أمره على الفور. طلب من هير شليغيل أن يذهب ويجلب فيشمان والعربة، وقال: «عندما تعود، أكون قد ارتديت ثيابي. يمكنك أن تحدثني عن مريضي ونحن في طريقنا إلى الفندق».

بعد عشرين دقيقة، كان هير شليغيل وبريوير متلفعين ببطانيات في العربة التي راحت تجتاز الشوارع الباردة المغطاة بالثلج. أوضح صاحب الفندق أن البروفسور نيتشه ينزل عنده منذ بداية الأسبوع. «إنه نزيل ممتاز. لم يثر أي مشاكل».

«حدّثني عن مرضه».

«يمضي معظم أيام الأسبوع في غرفته. لا أعرف ماذا يفعل هناك. كلما جلبت له الشاي في الصباح، أراه جالساً إلى طاولته يخربش. حيّرني ذلك لأنني اكتشفت أنه لا يرى جيداً ليقرأ. منذ يومين أو ثلاثة أيام، وصلته رسالة عليها ختم بريد بازل. صعدتُ وسلمته الرسالة، وبعد بضع دقائق نزل إلى الطابق السفلي. كان يرمش ويفتح عينيه ويغمضهما. قال إن يعاني من مشكلة في عينيه، وسألني هل أستطيع أن أقرأها له. قال إنها من أخته. بدأت أقرأ، لكن بعد سطرين، شيء عن فضيحة روسية، بدا منزعجاً وطلب مني أن أعيد له الرسالة. حاولت أن

ألقي نظرة على باقي الرسالة قبل أن أعيدها له، لكني لم أتمكن إلا من رؤية الكلمتين: «ترحيل» و«شرطة».

«يتناول طعامه خارج الفندق، مع أن زوجتي عرضتْ أن تعد له الطعام. لا أعرف أين يتناول طعامه. لم يطلب نصيحتي. نادراً ما يتكلّم، مع أنه قال ذات ليلة إنه سيذهب لحضور حفلة موسيقية مجانية. لكنّه لم يكن خجولاً، ليس هذا سبب هدوئه. لقد لاحظت عدّة أشياء تتعلق بهدوئه».

كان صاحب الفندق الذي عمل في الاستخبارات العسكرية لمدة عشر سنوات، يحنّ إلى مهنته القديمة، وكان يتسلّى بأن يعتبر جميع نزلائه ألغازاً ويحاول تكوين فكرة عن شخصياتهم من أدنى تفاصيل يحصل عليها. خلال رحلتهما الطويلة إلى بيت بريوير، استجمع كلّ أفكاره عن البروفسور نيتشه وتدرّب على طريقة قولها للطبيب. كانت فرصة نادرة: في الأحوال العادية لا يتوفر لديه مستمعون، لأن زوجته وأصحاب النزل الآخرون لا يقدّرون المهارات الاستقرائية الحقيقية لديه.

لكن الطبيب قاطعه وقال: «مرضه، يا هير شليغيل؟»

«نعم، نعم، يا دكتور». مبتلعاً إحباطه، أخبره هير شليغيل كيف أن نيتشه سدد فاتورته عند حوالي الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة وخرج، وقال إنه سيغادر بعد ظهر ذلك اليوم وأنه سيعود قبل الظهر ليأخذ حقيبته. لا بدّ أنني غبت عن مكتبي لفترة قصيرة لأني لم أره يعود. إنه يمشي بهدوء شديد، كما تعرف، كأنه لا يريد أن يتبعه أحد. وهو لا يستعمل مظلّة، فلم أعرف إن كان قد عاد إلى الفندق أم لا من مشجب المظلات في الطابق السفلي. لا أظن أنه يريد أن يعرف أحد أين هو، متى يدخل ومتى يخرج. إنه رجل طيب، إنه طيب على نحو مريب، في الدخول والخروج دون أن يلفت النظر».

«وماذا عن مرضه؟»

«نعم، نعم، يا دكتور. ظننت أن بعض هذه الأمور قد تكون مهمة للتشخيص. حسناً، في وقت متأخر من بعد الظهر، حوالي الساعة الثالثة، ذهبت زوجتي، كعادتها، لتنظيف غرفته، رأته هناك. لم يغادر بالقطار مطلقاً! كان ممدّداً على سريره يئن، واضعاً يده على رأسه. نادتني، وطلبت أن تأخذ مكاني في مكتب الاستقبال لأني لا أبارحه أبداً من دون أن يحلّ مكاني شخص آخر. كما ترى فقد فوجئت بأنه قد عاد إلى الغرفة من دون أن أراه».

«ثم؟» نفد صبر بريوير الذي أدرك أن هير شليغيل قرأ قصصاً بوليسية شعبية كثيرة. مع ذلك كان هناك وقت ليترك رفيقه يستمتع بإخباره كلّ ما يعرف. كان لا يزال أمامهما ميل ليصلا إلى الفندق في المنطقة الثالثة، أو لاندستراس، وكانت الرؤية في هذا الثلج الذي كان يزداد سماكة سيئة جداً فترّجل فيشمان من العربة وراح يمشي يقود حصانه ببطء عبر الشوارع المتجمّدة.

«دخلت غرفته وسألته عما إذا كان مريضاً، فقال إنه ليس على ما يرام، قليل من الصداع، وقال إنه سيدفع أجر يوم آخر وسيغادر غداً. وقال لي إن صداعاً شديداً كهذا يصيبه في كثير من الأحيان، وأن من الأفضل له في هذه الحالات ألاّ يتكلم أو يتحرّك. وقال إنه لا يوجد شيء يمكن عمله، ولا يوجد أمامه شيء سوى أن ينتظر حتى يتلاشى. كان الرجل متجمداً، كما تعرف، لكنه اليوم يشعر ببرودة أشد. لا شكّ في ذلك، لكنه أراد أن يبقى وحيداً».

«ماذا أيضاً؟» قال بريوير وهو يرتجف. تسرّب البرد إلى نخاع عظامه. مهما كان هير شليغيل مزعجاً، كان بريوير يسمع بأن الآخرين يجدون نيتشه صعب المراس.

«عرضت عليه أن أجلب له طبيباً، لكنه غضب عندما قلت له ذلك! ينبغي أن تراه. «لا! لا! لا أطباء! إنهم يزيدون الأمور سوءاً! لا أطباء! لم يكن وقحاً، لم يكن كذلك مطلقاً، كما تعرف، بل إنه رجل شديد البرودة تجاه الآخرين! إنه مهذب دائماً. يمكنك أن تعرف أنه ينتمي إل عائلة جيدة. أراهن أنه درس في مدرسة خاصة محترمة. إنه يسافر في دوائر جيدة. في البداية لم أفهم لماذا لم ينزل في فندق أغلى ثمناً. لكني تفحصت ثيابه. يمكنك أن تعرف أشياء كثيرة من ثيابه: أصناف جيدة، قماش جيد مفصل جيداً، حذاء جلدي إيطالي جيد. لكن كلّ شيء أنيق، حتى ثيابه الداخلية، المرتوقة معظمها، والسترات التي يرتديها ليست طويلة كما كانت منذ عشر سنوات. قلت لزوجتي البارحة إنه رجل أرستقراطي مسكين لا يعرف كيف يتأقلم مع عالم اليوم. في بداية الأسبوع، تجرأت وسألته ما هو أصل اسم نيتشه، فدمدم شيئاً عن عائلة بولندية قديمة من طبقة النبلاء».

«ماذا حدث بعد ذلك، بعد أن رفض إحضار طبيب؟»

«أصرّ على أنه سيكون على ما يرام إذا بقي وحده. وبأسلوبه المهذب، أوصل لي الفكرة بأنني يجب أن أهتم بشأني. إنه من النوع المعاني الصامت، أو أن لديه شيئاً يريد أن يخفيه. إنه رجل عنيد! لو لم يكن عنيداً، لاستدعيتك البارحة قبل أن يهطل الثلج، ولما تعين عليّ أن أوقظك في هذه الساعة المبكرة».

«ماذا لاحظت أيضاً؟»

ابتهج هير شليغيل لهذا السؤال، فقال: «حسناً، أولاً، رفض أن يترك عنواناً له، وكان العنوان السابق مريباً: *تسليم عام، رابالو، إيطاليا*. لم أسمع قط عن رابالو، وعندما سألته أين تقع، لم يقل سوى إنها «على الساحل». من الطبيعي كان يجب إبلاغ الشرطة: تكتمه، تسلله من الفندق بدون مظلّة، عدم وجود عنوان، وتلك الرسالة ـ المشكلة

الروسية، الإبعاد، الشرطة. من الطبيعي بحثت عن الرسالة عندما نظّفنا غرفته، لكني لم أجدها. أظن أنه أحرقها أو أخفاها».

«ألم تستدعِ الشرطة؟ «سأله بريوير بقلق.

«ليس بعد. من الأفضل الانتظار حتى الفجر. إنه أمر سيء من أجل عملي. لا أريد أن تزعج الشرطة زبائني الآخرين في منتصف الليل. وثمّ، وفوق كلّ شيء آخر، فقد أصيب بهذا المرض المفاجئ! هل تريد أن تعرف ماذا ظننت؟ أنه تسمّم».

«يا إلهي، لا»، كاد يصيح بريوير، «لا، أنا متأكّد من أنه ليس كذلك. أرجوك يا شليغيل، إنسَ أمر الشرطة. أؤكد لك أنه لا يوجد ثمة شيء مقلق. إني أعرف هذا الرجل جيداً. سأتحدث باسمه. إنه ليس جاسوساً. هذا ما يرد في البطاقة، إنه أستاذ جامعي. ويعتريه هذا الصداع غالباً، لذلك جاء لاستشارتي. أرجو أن تخفّف من حدة شكوكك».

في ضوء شمعة عربة الأجرة، أدرك بريوير أن هير شليغيل لم يكن مرتاحاً، وأضاف، «في جميع الأحوال، يمكنني أن أفهم كيف يمكن لمراقب دقيق أن يتوصل إلى هذه النتيجة. لكن ثق بي في هذا الأمر. إني أتحمل المسؤولية». حاول أن يعيد صاحب الفندق إلى موضوع مرض نيتشه، فقال له: «أخبرني، بعد أن رأيته بعد الظهر، ماذا حدث غير ذلك؟»

«زرته مرّتين أخريين لأرى إذا كان يحتاج إلى أيّ شيء. شاي أو أي شيء يريد أن يتناوله. في كلّ مرة كان يشكرني ويرفض، حتى دون أن يدير رأسه. كان يبدو ضعيفاً، ووجهه شاحباً».

توقّف هير شليغيل دقيقة، ثم، غير قادر على منع نفسه من التعليق، أضاف، «لا يوجد أي فضل مني أو من زوجتي لتقديم الرعاية له، فهو ليس شخصاً دافئاً، كما تعرف. في الواقع بدا أنه منزعج من رعايتنا له.

إننا نساعده، وهو ينزعج! هذا الأمر لم يناسب زوجتي. انزعجت ولم تعد توليه أي عناية، بل أرادت أن يغادر غداً».

متجاهلاً شكواه، سأله بريوير، «وماذا حدث بعد ذلك؟»

«كانت المرة الثانية التي رأيته فيها في حوالي الثالثة صباحاً. استيقظ هير سبيتز، النزيل في الغرفة المجاورة لغرفته، قال إنه سمع صوت ضجيج قطع أثاث تتحرك، ثم صوت أنين، بل صوت صراخ. عندما قرع الباب ولم يتلق رداً اكتشف أنه موصد، جاء وأيقظني. إن هير سبيز شخص خجول وظل يعتذر لأنه أيقظني. لكنه حسناً فعل. قلت له ذلك على الفور.

«أوصد البروفسور الباب من الداخل. اضطررت لكسر القفل. سأصرّ على تسديد أجر يوم جديد. عندما دخلت، وجدته فاقد الوعي، يئن مستلقياً في ثيابه الداخلية على مرتبة عارية. كانت جميع ثيابه، وكلّ أغطية السرير مبعثرة في أرجاء الغرفة ـ أظن أنه لم يتحرك من السرير، لكنه خلع ثيابه ورمى كلّ شيء على الأرض. كان كل شيء على مسافة قدمين أو ثلاثة أقدام من السرير. لم يكن ذلك يتطابق مع شخصيته يا دكتور. فهو عادة رجل مرتّب ونظيف. صُدمت زوجتي عندما رأت الفوضى والقيء في كل مكان. سيستغرق الأمر أسبوعاً قبل أن تصبح الغرفة مهيأة للتأجير، قبل أن تزيل كل هذا النتن. يجب عليه بحقّ أن يدفع أجر ذلك الأسبوع. وبقع الدم على الملاءة أيضاً. قلبته ونظرت، لكني لم أر أي جرح. لا بد أن الدم في القيء».

هزّ هير شليغيل رأسه، وأضاف، «عندما فتّشتُ في جيوبه وجدتُ عنوانك وهرعت لكي أستدعيك. قالت زوجتي أن أنتظر حتى طلوع الفجر، لكنّي قلت إنه قد يموت إذا انتظرتُ حتى ذلك الوقت. لا ينبغي لي أن أخبرك ماذا يعني ذلك: متعهّد دفن الموتى، تحقيق رسمي، الشرطة طوال اليوم. لقد رأيت ذلك مرات عديدة، عندها سيغادر النزلاء

الآخرون في أربع وعشرين ساعة. في الفندق الذي يملكه نسيبي في شوارزوالد، مات نزيلان في أسبوع واحد. هل تعرف أنه بعد عشر سنين لا يزال الناس يرفضون النزول في الغرفتين اللتين مات فيهما هذان الشخصان؟ جددهما وأعاد وتأثيثهما بالكامل: الستائر والطلاء وورق الجدران. لكن مع ذلك ظل الناس يتحاشونهما. إذا انتشرت كلمة واحدة فقط، سيتكلم القرويّون. إنهم لا ينسون أبداً».

مدّ هير شليغيل رأسه من النافذة، وتطلع إلى الخارج، وصاح في فيشمان: «المنعطف إلى اليمين ـ البناية التالية»، ثم التفت إلى بريوير، وقال: «لقد وصلنا. البناية التالية يا دكتور».

بعد أن طلب بريوير من فيشمان أن ينتظره، تبع هير شليغيل إلى الفندق وصعد خلفه الدرج الضيق. إن الدرج العاري يشهد على ادّعاء نيتشه بالقلق على الحياة المجردة: نظافة شديدة. سجادة رثّة ذات طراز باهت مختلف عند كل طابق. لا يوجد درابزين. لا توجد قطعة أثاث عند بئر الدرج، وقد طليت الجدران باللون الأبيض مؤخراً، لا تزينها أي صورة أو زينة، ولا حتى شهادة تفتيش رسمية.

تنفّس بريوير بصعوبة من صعود الدرج، وتبع هير شليغيل إلى غرفة نيتشه. استغرق لحظة كي يتأقلم مع رائحة القيء اللاذعة، وجال بعينيه المشهد بسرعة. كان كما وصفه هير شليغيل. في الواقع، لم يكن صاحب الفندق مراقباً دقيقاً فحسب، بل ترك أيضاً كلّ شيء دون أن يلمسه لكي لا يتأثر أي أثر قد يكون هاماً.

على سرير صغير في إحدى زوايا الغرفة كان نيتشه يغط في النوم في ثيابه الداخلية. لعله كان في غيبوبة. من المؤكد أنه لم يتحرّك عندما سمعهما يدخلان الغرفة. سمح بريوير لهير شليغيل أن يجمع ثياب نيتشه المتناثرة وشراشف السرير المبقعة بالقيء والملطّخة بالدم.

ما إن أخرج تلك الأشياء، حتى تكشف عري الغرفة الفظيع. كانت أشبه بزنزانة في سجن، قال بريوير لنفسه. على امتداد أحد الجدران تنتصب طاولة خشبية مهلهلة عليها فانوس وإبريق ماء امتلأ نصفه فقط. ويوجد أمام الطاولة كرسي خشبي مستقيم، وتوجد تحت الطاولة حقيبة ومحفظة نيتشه الجلدية مربوطتين بسلسلة خفيفة عليهما قفل. وفوق السرير توجد نافذة صغيرة وسخة عليها ستائر صفر مخطّطة بهت لونها إلى حد يثير الشفقة، الشيء الوحيد في الغرفة الذي يمت إلى شيء جمالي.

طلب بريوير أن يبقى وحده مع مريضه. كان فضوله أقوى من التعب الذي اعتراه. احتجّ هير شليغيل، ثمّ رضخ عندما ذكّره بريوير بالتزاماته تجاه نزلائه الآخرين: لكي يكون مضيفاً جيداً، يجب أن ينال قسطاً من النوم.

عندما أصبح وحده، رفع بريوير ضوء فانوس الكيروسين ومسح المكان بعناية أكبر. كان الوعاء المطلي بالمينا القابع على الأرض بجانب السرير ممتلئاً نصفه بقيء مائل إلى اللون الأخضر المخلوط بالدم. كان الفراش ووجه نيتشه وصدره يلمع بقيء جاف. لا شكّ أنه كان في حالة شديدة من المرض، أو أنه في غيبوبة، فلم يتمكن من الوصول إلى الوعاء. بجانب الوعاء يوجد كأس ممتلئ نصفه بالماء، وإلى جانبه توجد قنينة صغيرة ممتلئة ثلاثة أرباعها بأقراص بيضوية كبيرة. تفحّص بريوير أحد الأقراص وتذوقها. يرجح أنها كلورال هيدرات. هذا يفسّر سبب غيبوبته؛ لكنّه لم يكن متأكداً من ذلك لأنه لا يعرف متى تناول نيتشه هذه الأقراص. هل توفر لديه وقت كاف لامتصاصها في مجرى دمه قبل أن يتقيّأ ويفرغ كل ما تحتويه معدته؟ عندما أحصى الأقراص الناقصة من القنينة، استنتج بريوير بسرعة أنه حتى لو كان نيتشه قد تناول الأقراص كلها في ذلك المساء، وامتصّت معدته الكلورال كله، فإنه تناول جرعة

خطيرة، لكنها ليست مميتة. لو كانت الكمية أكبر، فلن يكون بوسع بريوير عمل الكثير: لذلك فإن غسيل المعدة عديم الجدوى، لأن معدة نيتشه فارغة الآن، وهو في حالة ذهول شديد، وربما سيكون مشمئزاً من تناول أي محفز قد يعطيه له بريوير.

كان يبدو أن نيتشه يحتضر: وجهه رمادي شاحب، عيناه غائرتان، جسمه بارد، مصفرّ. كان تنفّسه ثقيلاً، ونبضه ضعيفاً لا يتجاوز مائة وست وخمسين نبضة بالدقيقة. ارتعش نيتشه الآن، لكن عندما حاول بريوير أن يغطيه بإحدى البطانيات التي تركتها السيدة شليغيل، أنّ وركلها بعيداً. ربما كان ذلك من فرط الحساسية، قال بريوير لنفسه: فكلّ شيء يسبب الألم، حتى مجرد ملمس البطانية.

«بروفسور نيتشه، بروفسور نيتشه»، راح يناديه. لم يلق رداً. لم يتحرك نيتشه. عندما نادى بصوت أعلى «فريدريك، فريدريك»، ثمّ، «فريتز، فريتز»، أجفل نيتشه من الصوت، وأجفل ثانية عندما حاول بريوير أن يرفع جفنيه. فرط الإحساس من الصوت والضوء، لاحظ بريوير، واستدار ليخفت الضوء.

أكد الفحص الدقيق تشخيص بريوير بداء الشقيقة التشنجي ثنائي الجانب: فقد كان وجه نيتشه، لاسيما جبهته وأذناه، بارداً وشاحباً، وحدقتاه متوسعتين؛ وشرايين الصدغيين منقبضة تبدو مثل أوتار مجمّدة في صدغه.

لم يكن داء الشقيقة هو ما أثار قلق بريوير الرئيسي، بل عدم انتظام دقات القلب الذي يهدد حياته. وعلى الرغم من مقاومة نيتشه، ضغط بإبهامه بقوة على الشريان السباتي الأيسر. وفي أقل من دقيقة، انخفض نبض مريضه إلى ثمانين. وبعد مراقبة حالة قلبه لمدة خمس عشرة دقيقة، بدا بريوير راضياً وحوّل تركيزه إلى داء الشقيقة.

مدّ يده إلى حقيبته الطبية وتناول منها أقراص النتروغليسرين. طلب من نيتشه أن يفتح فمه، لكنه لم يجد أي استجابة. عندما حاول أن يفتح فمه، أطبق نيتشه أسنانه بقوة فتوقف بريوير عن عمل ذلك. قال بريوير لنفسه، ربما تفيده نترات الأميل. وضع أربع قطرات على قطعة قماش ودسها تحت أنف نيتشه. تنفس نيتشه، ارتعش ثم استدار. إنه يقاوم حتى النهاية، حتى وهو غائب عن الوعي، قال بريوير لنفسه.

وضع كلتا يديه على صدغي نيتشه وبدأ يضغط، برفق في البداية، ثم بقوة أكثر، وراح يدلك رأسه ورقبته، وركّز خاصة على المناطق التي بدت، من ردود أفعال مريضه، أكثر المناطق ضعفاً. عندما واصل ذلك، صاح نيتشه وهزّ رأسه بقوة. لكن بريوير لم يتوقف وحافظ على هدوئه، وراح يهمس في أذنه بصوت خفيض، «إنه سيزيل الألم يا فريتز، سيزيل الألم. سيساعدك». خفّت مقاومة نيتشه، لكنه ظل يئن ويردد كلمة لا بصوت عميق، معذّب، أجشّ.

مرت عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة. واصل بريوير التدليك. بعد عشرين دقيقة، خف الأنين حتى تلاشى تماماً، لكن بدأت شفتا نيتشه تتحركان، تهمسان شيئاً غير مسموع. قرّب بريوير أذنه من فم نيتشه، لكنه لم يفهم الكلمات التي يدمدمها. هل يقول «اتركني، اتركني، اتركني»؟ أو ربما «دعني، دعني»؟ لم يتأكد من ذلك.

مرت ثلاثون، خمس وثلاثون دقيقة. واصل بريوير تدليكه. أصبح وجه نيتشه أكثر دفئاً، وبدأ لونه يعود. ربما بدأ التشنّج يتوقف. مع أنه لا يزال في حالة سبات. بدا أن نيتشه بدأ يرتاح. استمرّت الهمهمة، بصوت أعلى قليلاً. أوضح قليلاً. مرة أخرى قرّب بريوير أذنه من شفتي نيتشه. أصبح بإمكانه تمييز الكلمات، مع أنه شكّ في أذنيه في البداية. كان نيتشه يقول: «ساعدني، ساعدني، ساعدني، ساعدني».

سرت موجة من الشفقة في جسد بريوير. «ساعدني». إذاً، قال

لنفسه، هذا ما يطلبه مني. إن لو سالومي مخطئة: فصديقها قادر على طلب المساعدة، لكن هذا نيتشه آخر، ألتقيه لأول مرة.

أراح بريوير يديه وراح يذرع غرفة نيتشه الصغيرة لبضع دقائق. ثمّ بلل منشفة بماء بارد من الإبريق، ووضع الكمادة على حاجب مريضه النائم، وهمس، «نعم، سأساعدك، يا فريتز. اعتمد عليّ».

أجفل نيتشه. لعل اللمس لا يزال مؤلماً، قال بريوير لنفسه، وثبّت الكمادة في مكانها. فتح نيتشه عينيه قليلاً، نظر إلى بريوير، ورفع يده إلى حاجبه. لعله يريد إزالة الكمادة، لكن يده اقتربت من يد بريوير وللحظة، للحظة فقط، تلامست يداهما.

مرت ساعة أخرى. بدأ ضوء النهار يطلع. الساعة السابعة والنصف تقريباً. بدا وضع نيتشه مستقرّاً. يمكن عمل المزيد الآن، قال بريوير لنفسه. لعل من الأفضل أن يذهب الآن لزيارة مرضاه الآخرين ثم يعود بعد أن يكون نيتشه قد تخلّص من الكلورال. غطى بريوير مريضه ببطانية خفيفة، ودوّن ملاحظة بأنه سيعود قبل الظهر. قرّب كرسياً إلى جانب السرير، ووضع الملاحظة على الكرسي في مكان يمكن رؤيته بوضوح. هبط الدرج وطلب من هير شليغيل الجالس في مكتب الاستقبال، أن يلقي نظرة على نيتشه كلّ ثلاثين دقيقة. أيقظ بريوير فيشمان الذي كان غافياً على مقعد في البهو، وخرجا معاً إلى الصباح المثلج ليبدأ زياراته إلى بيوت مرضاه.

عندما عاد بريوير بعد أربع ساعات، حيّاه هير شليغيل في مكتب الاستقبال. لا، لم تحدث تطورات جديدة: فقد بقي نيتشه نائماً. نعم، كان يبدو أنه مرتاح أكثر، وكان سلوكه أفضل - يئن من حين لآخر، لكنه لم يصرخ أو يضرب أو يتقيّأ.

عندما دخل بريوير إلى غرفته رمشت عينا نيتشه، لكنه واصل نومه

بعمق حتّى عندما خاطبه بريوير. «بروفسور نيتشه، هل تسمعني؟» لم تصدر أي استجابة. «فريتز»، ناداه بريوير. يعرف أنه يحق له مخاطبة مريضه بدون تكلف، لأن المرضى الذين هم في حالة سبات يستجيبون دائماً عندما يسمعون أسماء كانت تطلق عليهم عندما كانوا صغاراً، لكنّه أحسّ بالذنب، لأنه يعرف أنه يفعل ذلك أيضاً لنفسه لأنه يستمتع بمناداة نيتشه باسمه «فريتز». «فريتز! أنا بريوير. هل تسمعني؟ هل تستطيع أن تفتح عينيك؟»

على الفور تقريباً، فُتحت عينا نيتشه. هل فيهما نظرة لوم؟ عاد بريوير في الحال إلى التكلم بطريقة رسمية.

«بروفسور نيتشه». لقد عدت إلى عالم الأحياء، يسرّني أن أرى ذلك. «كيف تشعر الآن؟»

«لست مسروراً». كان صوت نيتشه ناعماً، كلماته مدغمة. «... أن أعود إلى عالم الأحياء. لست مسروراً. لا أخاف من الظلام. شنيع، أشعر بشيء شنيع». وضع بريوير يده على جبين نيتشه، ليتحسس حرارته، وليمنحه إحساساً بالراحة أيضاً. ارتدّ نيتشه، وأرجع رأسه إلى الوراء قليلاً. ربما لا يزال يعاني من فرط الحساسية، قال بريوير لنفسه. لكنه عندما جهّز كمادة باردة ووضعها على جبين نيتشه، همس نيتشه بصوت مرهق ضعيف، «يمكنني أن أفعل ذلك بنفسي»، وأخذ الكمادة من يد بريوير.

كان فحص بريوير مشجّعاً: فقد أصبح نبض مريضه الآن ستة وسبعين، وتورّدت بشرته، وتوقف تشنج الشرايين الصدغية.

«أشعر كأن جمجمتي مهشمة»، قال نيتشه، «لقد تغيّر ألمي. لم يعد حادّاً الآن بل أصبح مثل ألم كدمة مؤلمة في الدماغ».

بالرغم من شعوره بالغثيان، أصبح بمقدوره الآن تقبل حبات النتروجليسرين التي وضعها بريوير تحت لسانه.

خلال الساعة التالية، جلس بريوير وراح يحدّث مريضه الذي بدأ يستجيب شيئاً فشيئاً.

«لقد قلقت عليك. كان من الممكن أن تموت. إن تناول كمية كبيرة من ذلك الكلورال هو سمّ أكثر منه علاج. إنك تحتاج إلى دواء يهاجم الصداع من مصدره أو يخفّف الألم. إن الكلورال لا يفعل أياً من ذلك. إنه مجرد مسكّن، ولكي تغيب عن الوعي لمواجهة ذلك الألم الشديد، فإنك تحتاج إلى جرعة قد تكون مميتة. كنت على وشك ذلك. كان نبضك غير منتظم على نحو خطير».

هزّ نيتشه رأسه، وقال: «لا أشاطرك قلقك».

«ماذا تقصد؟»

«عن النتيجة»، همس نيتشه.

«عن أنه مميت، تقصد؟»

«لا، عن أيّ شيء، عن أيّ شيء».

بدت مسحة حزن في صوت نيتشه. خفف بريوير صوته وقال: «هل كنت تتمنّى أن تموت؟»

«هل أنا حيّ؟ أم أنني أحتضر؟ من يكترث؟ لا يوجد شق لي».

«ماذا تقصد؟» سأله بريوير، «بأنه لا يوجد شقّ، أو مكان لك؟ بأن أحداً لن يفتقدك؟ بأن أحداً لا يبالي؟»

ساد صمت طويل. لاذ الرجلان بالصمت. سرعان ما بدأ نيتشه يتنفّس بعمق عندما غطّ في النوم مرة أخرى. راقبه بريوير بضع دقائق أخرى، ثمّ ترك ملاحظة على الكرسي بأنه سيعود بعد الظهر أو في وقت مبكر

من المساء. مرة أخرى، طلب من هير شليغيل أن يلقي نظرة على مريضه بين الحين والآخر، وطلب منه ألاّ يقدم له طعاماً. ربما ماء دافئاً، لكن البروفسور لن يتمكن من تناول أيّ شيء صلب يوماً آخر.

عندما عاد في الساعة السابعة، ارتجف بريوير عندما دخل غرفة نيتشه. ألقى ضوء الشمعة الوحيدة الحزين المرتعش بظلال على الجدران وكشف مريضه المستلقي في العتمة. عيناه مغمضتان، يداه مشبوكتان فوق صدره، يرتدي بدلته السوداء وحذاءه الأسود الثقيل. تساءل بريوير، هل هذا تبصر بمعرفة الشيء قبل وقوعه عن نيتشه مستلقياً في أبهة، وحده، من دون حداد؟

لكنه لم يكن ميتاً ولا نائماً. عندما سمع صوت بريوير أسرع، وبجهد وبألم واضح، رفع نفسه وانتصب في جلسته، رأسه بين يديه وساقاه تتدليان على طرف السرير. أشار إلى بريوير لأن يجلس.

«كيف تشعر الآن؟»

«لا يزال رأسي مضغوطاً بملزمة فولاذية. تأمل معدتي ألاّ يدخل إليها طعام مرة أخرى. رقبتي وظهري. هنا»، وأشار نيتشه إلى بقعة خلف رقبته والحواف العليا لألواح كتيفه، «إنها طرية على نحو لا يطاق. لكن بالإضافة إلى ذلك، أشعر أنني في حالة فظيعة».

لم يبتسم بريوير بسرعة. فلم يفهم سخرية نيتشه غير المتوقّعة إلا بعد دقيقة، عندما لاحظ ابتسامة مريضه العريضة.

«لكني على الأقل أشعر بأنني في المياه المألوفة. لقد اعتراني هذا الألم مرات كثيرة من قبل».

«إذاً كانت تلك نوبة ألم نموذجية؟»

«نموذجية؟ نموذجية؟ دعني أفكّر. من حيث شدة الألم، يمكنني أن أقول إنها كانت نوبة قوية. من بين النوبات المائة الأخيرة التي انتابتني،

ربما كانت المرة الخامسة عشرة أو العشرين الأشد حدّة. كانت هناك نوبات عديدة أسوأ».

«كيف ذلك؟»

«كانت تدوم مدة أطول. كان الألم يستمرّ أحياناً مدة يومين. أعرف أن هذا شيء نادر الحدوث، كما قال أطباء آخرون».

«كيف تفسّر قصر فترة الألم هذه المرة؟» كان بريوير يصطاد، يحاول أن يكتشف مقدار ما يتذكره نيتشه عن الساعات الستّ عشرة الأخيرة.

«يعرف كلانا الجواب عن هذا السؤال يا دكتور بريوير. أنا ممتن لك. أعرف أنني لولاك لبقيت أتلوّى على هذا السرير من شدة الألم. أرجو أن تتيسر لي طريقة أستطيع أن أكافئك فيها على ما فعلته لي. وإذا لم أتمكن، فيجب أن نعتمد على عملة هذه الدنيا. لم تتغير مشاعري إزاء الديون وكيف أسدد لك، وأتوقّع منك فاتورة تتناسب مع الوقت الذي خصصته لي. ووفقاً لحسابات هير شليغيل الذي لا تفوته أدنى درجة من الدقّة، لا بد أن تكون الفاتورة كبيرة».

على الرغم من انزعاجه لسماع عودة نيتشه إلى صوته الرسمي، قال بريوير إنه سيطلب من السيدة بيكر أن تعدّ الفاتورة يوم الإثنين.

لكن نيتشه هزّ رأسه وقال: «آخ، نسيت أن عيادتك لا تفتح يوم الأحد، لكنني قررت أن أستقل القطار إلى بازل غداً. ألا توجد طريقة يمكننا تسوية حسابي الآن؟»

«إلى بازل؟ غداً! بالتأكيد لا، يا بروفسور نيتشه، لا يمكنك أن تفعل ذلك حتى تنتهي الأزمة التي تمر بها. بالرغم من اختلافنا في الرأي الأسبوع الماضي، دعني أعمل الآن كما يجب أن أعمل بصفتي طبيبك. قبل ساعات قليلة فقط، كنتَ فاقد الوعي وقلبك في حالة اضطراب خطيرة. ليس من الحكمة أن تسافر غداً. إنك تعرّض نفسك للخطر.

وهناك عامل آخر: فإن أنواعاً عديدة من الشقيقة قد تعود فوراً إذا لم تأخذ قسطاً كافياً من الراحة. لا بد أنك لاحظت ذلك.

لبث نيتشه صامتاً للحظة، من الواضح أنه كان يفكر بكلمات بريوير، ثمّ هز رأسه، وقال: «أحترم نصيحتك. أوافق على البقاء يوماً آخر وأغادر يوم الإثنين. هل يمكنني أن أراك صباح يوم الإثنين؟»

هز بريوير رأسه، وقال: «أتقصد من أجل الفاتورة؟»

«نعم، وأكون ممتناً أيضاً إذا أعطيتني تقريراً طبياً ووصفاً للإجراءات السريرية التي استخدمتها لوقف نوبة الألم هذه. فلا بد أن تكون الوسائل التي اتبعتها مفيدة للأطباء الآخرين، لاسيما الأطباء الإيطاليين، لأنني سأمضي عدة أشهر في الجنوب. من المؤكد أن قوة هذه النوبة ستحول دون حدوث نوبة أخرى في الشتاء في أوروبا الوسطى».

«هذا وقت للاستراحة والهدوء، يا بروفسور نيتشه. يجب ألاّ نناقش هذا الأمر أكثر. لكن أرجوك اسمح لي أن أبدي ملاحظتين أو ثلاث ملاحظات أرجو أن تفكّر بها ملياً حتى يحين موعد لقائنا يوم الإثنين. فبعد ما فعلته لي اليوم، فإني ملزم بالاستماع إليك بعناية».

وزن بريوير كلماته. كان يعرف أن هذه ستكون فرصته الأخيرة. فإذا فشل الآن، فإن نيتشه سيستقل القطار إلى بازل بعد ظهر الإثنين. ذكّر نفسه بسرعة بأن لا يكرّر أياً من أخطائه التي ارتكبها سابقاً مع نيتشه. الزم الصمت، قال لنفسه. لا تحاول أن تتذاكى عليه، فهو في غاية الذكاء. لا تجادله: ستخسر، وحتى لو ربحت، فإنك ستخسر. إن نيتشه الآخر، نيتشه الذي يريد أن يموت لكنه يطلب المساعدة، نيتشه الذي وعدت بمساعدته، نيتشه غير الموجود هنا الآن. لا تحاول أن تكلمه.

«بروفسور نيتشه، دعني أبدأ بأن أؤكد لك كم كانت حالتك خطيرة ليلة البارحة. كانت دقات قلبك غير منتظمة إلى درجة خطيرة، وكان من

الممكن أن يتوقف في أي لحظة. لا أعرف السبب، أحتاج إلى وقت لأقيّم الوضع. لكن السبب ليس داء الشقيقة، ولا أظن أنها نجمت عن تناول الجرعة الزائدة من الكلورال. لم أر قط أن الكلورال يحدث هذا التأثير.

«هذه أول نقطة أريد مناقشتها. والنقطة الثانية هي الكلورال. الكمية التي تناولتها قد تكون مميتة. لعل التقيؤ بسبب الشقيقة هو الذي أنقذ حياتك. لكوني طبيبك، يجب أن أكون قلقاً على سلوكك لتدمير ذاتك».

«دكتور بريوير، سامحني»، قال نيتشه، رأسه بين يديه وعيناه مغمضتان، «نويت أن أسمعك بالكامل من دون أي مقاطعة، لكني أخشى أن يكون عقلي متبلداً ولا يستطيع استيعاب الأفكار. من الأفضل أن أتحدث عندما تكون الأفكار لا تزال طازجة. لم أكن متعقّلاً عندما تناولت الكلورال، وكان عليّ أن أعرف أفضل من التجارب السابقة المماثلة. كنت أنوي أن أتناول حبة كلورال واحدة ـ لأنها تبلّد الألم الشديد، ثم أعيد القنينة إلى حقيبتي. لكن لا شك أن ما حدث ليلة البارحة هو أنني تناولت حبة ونسيت أن أعيد القنينة. وعندما بدأ الكلورال يأخذ مفعوله، اضطربت ونسيت أنني تناولت حبة من قبل فتناولت حبة أخرى. لا بد أنني فعلت ذلك عدّة مرات. لقد حدث ذلك من قبل. كان سلوكاً غبياً، لكنه ليس انتحارياً، إذا كان هذا ما تقصده».

فرضية معقولة، قال بريوير لنفسه. فقد حدث الشيء نفسه لعدد من مرضاه المسنين الذين ينسون كثيراً، وكان يطلب من أبنائهم أن يقدموا لهم الدواء. لكنه لم يصدّق كثيراً التفسير المتعلق بسلوك نيتشه. أولاً، *لماذا*، نسي، حتى في حالة ألمه، أن يعيد قنينة الكلورال إلى حقيبته؟ ألاّ يتحمل المرء المسؤولية حتى عن نسيانه؟ لا، قال بريوير لنفسه، إن سلوك هذا المريض يتسم بتدمير الذات أكثر مما يدّعي هو. في الحقيقة، كان البرهان: ذلك الصوت الناعم الذي قال: «سواء أعشت أم مت،

من يبالي؟» لكنه لا يستطيع استخدام هذا البرهان. عليه ألا يناقش تعليق نيتشه.

«بالرغم من ذلك، يا بروفسور نيتشه، حتى لو كان هذا هو تفسير السبب، فإنه لا يخفف من حدة الخطر. يجب أن يكون لديك تقييم كامل لنظام الأدوية التي تتناولها. لكن اسمح لي أن أبدي ملاحظة أخرى، تتعلق ببداية نوبتك. إنك تنسبها إلى الطقس. لا شك أن له دوراً: كنت مراقباً دقيقاً لتأثير الطقس على الشقيقة التي تنتابك. لكن من المرجح أن عوامل عديدة أخرى تضافرت وأطلقت العنان لتلك النوبة، لذلك فإني أعتقد أنني أتحمّل مسؤولية عن ذلك؛ فقد بدأ صداعك بعد أن واجهتك بطريقة فظة وعدوانية بقليل».

«مرة أخرى عليّ أن أتدخّل يا دكتور بريوير. إنك لم تقل شيئاً لا ينبغي لطبيب جيد أن يقوله، شيء قاله أطباء آخرون من قبل وبقدر أقل من الكياسة. إنك لا تستحقّ هذا اللوم على نوبة الصداع. كنت أحسّ أنها ستأتي قبل حديثنا الأخير بفترة طويلة. في الحقيقة، كان لديّ إحساس مسبق بحدوثها وأنا في طريقي إلى فيينا».

لم يشأ بريوير أن ينسحب في هذه النقطة. لكن لم يكن هذا وقت للجدال.

«لا أريد أن أتعبك أكثر يا بروفسور نيتشه. إذاً دعني أقول إنه استناداً إلى حالتك الصحية العامة، فإني أشعر بقوة أكثر من قبل بأنك تحتاج إلى فترة طويلة من الملاحظة والمعالجة الشاملة. وعلى الرغم من أنني استدعيت بعد ساعات من بداية النوبة، فقد نجحت في تقليل فترة هذه النوبة بالتحديد. لو كنتَ تحت المراقبة في عيادة، فإني واثق بأنني كنت سأتمكن من وضع نظام علاج لإجهاض نوباتك بالكامل. أني أحثّك على قبول توصيتي بدخول عيادة لوزون».

توقّف بريوير. قال كلّ ما يمكن أن يقوله. كان رائق المزاج، واضحاً. لم يعد بوسعه عمل شيء. ساد صمت طويل. انتظر بفارغ الصبر، يستمع إلى الأصوات في الغرفة الصغيرة: صوت تنفّس نيتشه، صوت تنفّسه، أنين الريح، صوت خطوة، وصوت صرير على الأرضية الخشبية في الغرفة الأعلى.

ثمّ ردّ نيتشه بصوت لطيف، جذاب، وقال: «لم ألتق بطبيب مثلك قط، طبيب متمكن مثلك، طبيب مهتم مثلك. غير أناني. يمكنك أن تعلّمني الكثير. عندما يتعلق الأمر بتعلّم كيف يمكنني أن أعيش مع الناس، فإني أظن أنّني يجب أن أبدأ من الصفر. إني مدين لك، وصدّقني، أعرف كم أنا مدين لك».

صمت نيتشه برهة، ثم قال: «إني متعب ويجب أن أضطجع». تمدد على ظهره، يداه مثنيتان فوق صدره، عيناه مثبّتتان في السقف. ثم أضاف، «بما أنني مدين لك كثيراً، فإني أشعر بالأسى إذا لم أنفذ توصيتك. لكن الأسباب التي شرحتها لك البارحة. هل كان ذلك البارحة؟ يبدو أننا تكلّمنا منذ أشهر. لم تكن تلك الأسباب تافهة. لم تظهر هكذا من لا شيء حتى أعارضك. لو قرأت في كتبي أكثر لرأيت أن هذه الأسباب متجذّرة في أعماق تفكيري، وكذلك في كياني.

«أشعر أن هذه الأسباب أضحت أقوى الآن. اليوم أقوى من البارحة. لا أعرف لماذا يجب أن يحدث ذلك. لا أستطيع أن أفهم الكثير عن نفسي اليوم. لا شكّ أنك محقّ، فالكلورال ليس جيداً لي. بالتأكيد إنه لا يقوي القدرة على التفكير العقلي، حتى إنني لا أستطيع أن أفكّر بصفاء. لكن يبدو أن تلك الأسباب التي قدمتها لك، أصبحت أقوى عشرة أضعاف الآن، مائة ضعف».

التفت ونظر إلى بريوير، وقال: «أحثّك يا دكتور على أن توقف

جهودك تجاهي. إن رفض نصيحتك وعرضك الآن، والاستمرار في رفضك مرة وأخرى، لا تزيد إلا مهانة كوني مدين لك.

«أرجوك»، وأشاح بوجهه ثانية، «من الأفضل أن أرتاح الآن ـ وربما من الأفضل لك أن تعود إلى بيتك. لقد ذكرت مرة أن لديك أسرة، أخشى أن يغضبوا مني، لسبب وجيه. أعرف أنك أمضيت وقتاً معي اليوم أكثر مما أمضيته معهم. إلى اللقاء إلى يوم الإثنين يا دكتور بريوير»، وأغمض نيتشه عينيه.

قبل أن يغادر، قال بريوير إنه إذا احتاج إليه نيتشه، فإن رسولاً من هير شليغيل سيأتي به خلال ساعة، حتى في يوم الأحد. شكره نيتشه، لكنه لم يفتح عينيه.

عندما بدأ بريوير يهبط درج الفندق، أُعجب بقدرة نيتشه على التحكم بنفسه ومرونته. حتى على فراش المرض، في غرفة صغيرة حقيرة لا تزال تفوح منها روائح القيء منذ ساعات قليلة، حينما يشعر أكثر الذين يعانون من داء الشقيقة بالامتنان ويجلسون في زاوية الغرفة ويتنفّسون، كان نيتشه يفكر ووظائفه تعمل: يخفي يأسه، يخطّط للمغادرة، يدافع عن مبادئه، يحثّ طبيبه على العودة إلى أسرته، يطلب تقريراً طبياً وفاتورة عادلة من طبيبه.

عندما وصل بريوير إلى العربة التي كانت بانتظاره، قال إن العودة إلى بيته الذي يبعد ساعة سيراً على القدمين ستجلي أفكاره، فأرسل فيشمان وأعطاه فلورين ذهبي ليتناول عشاء حاراً، لأن الانتظار في الجو البارد عمل شاق، وانطلق يسير في الشوارع المكسوة بالثلج.

كان يعرف أن نيتشه سيغادر إلى بازل يوم الإثنين. لماذا يهتم بهذا الأمر كثيراً؟ مهما تمعن في هذا الأمر، سيبدو أنه خارج قدرته على فهم ذلك. كان يعرف فقط أن نيتشه يهمّه، وأنه أصبح مشدوداً إليه بصورة

غير طبيعية. تساءل، لعلي أرى شيئاً من نفسي في نيتشه. لكن ما هو؟ إننا نختلف في كلّ شيء: الخلفية الاجتماعية، الثقافة، أسلوب الحياة. هل أحسده على الحياة التي يعيشها؟ ماذا يمكن أن يحسده في ذلك الكائن المنعزل البارد؟

بالتأكيد، قال بريوير لنفسه، لا علاقة لمشاعري المتعلقة بنيتشه بالشعور بالذنب. فقد أنهيت جميع الزيارات التي يتعين عليّ القيام بها؛ لا يمكنني أن ألوم نفسي على ذلك. كانت السيدة بيكر وماكس محقين: هل يوجد طبيب آخر يمكنه أن يتحمل دقيقة واحدة هذا المريض المتكّبر، الوقح، الساخط؟

ومغرور! كم كان طبيعياً عندما قال *عرضاً*، وليس بتبجح فارغ بل بقناعة تامة، بأنه أفضل محاضر في تاريخ بازل، أو ربما يتحلى الناس بالشجاعة، بالجرأة، لقراءة أعماله في عام ألفين! وعلى الرغم من ذلك لم يشعر بريوير بأي إهانة. ربما كان نيتشه محقّاً! من المؤكد أن خطابه ونثره مؤثران، وأفكاره مستنيرة بقوة، حتى أفكاره الخاطئة.

مهما كانت الأسباب، لم يعترض بريوير على اعتبار نيتشه نفسه مهماً. بالمقارنة مع تخيلات بيرثا الكاسحة العنيفة، بدا انشغاله التام بنيتشه أمراً مستحباً، بل حتى أنه يميل إلى العمل الخيري. في الواقع، كان لدى بريوير هاجس بأن لقاءه بهذا الرجل الغريب الأطوار قد يؤدّي إلى شيء تعويضي بالنسبة له.

تابع بريوير سيره. ذلك الرجل الآخر القابع والمتواري في نيتشه، ذلك الرجل الذي توسل للحصول على المساعدة: أين هو الآن؟» ذاك الرجل الذي لمس يدي»، ظل بريوير يقول لنفسه، «كيف يمكنني أن أصل إليه؟ لابدّ أن هناك طريقة ما! لكنّه مصمّم على مغادرة فيينا يوم الاثنين. ألا يوجد شيء يمكن أن يوقفه؟ لابدّ أن هناك طريقة ما».

استسلم. لم يعد يفكّر. قادته ساقاه إلى بيت دافئ، مضاء جيداً، إلى أطفاله وماتيلد الرقيقة، التي لم يعد يحبها. ركّز فقط على التنفس بعمق في الجو البارد. الهواء البارد الذي يدفئه في مهد رئتيه، ثم يزفره في سحب مشبّعة بالبخار. أنصت للريح، لخطواته، لتكسر قشرة الثلج المتجمّدة الهشّة تحت قدميه. وفجأة، طرأت بباله طريقة. الطريقة الوحيدة!

أخذ يغذّ الخطى. وراح يسحق الثلج تحته في طريقه إلى البيت، وكان في كلّ خطوة يهتف لنفسه، «لقد وجدت طريقة! لقد وجدت طريقة».

الفصل ١٢

في صباح يوم الاثنين، جاء نيتشه إلى عيادة بريوير لتحديد المراحل النهائية في عملهما معاً. بعد أن دقق في فاتورة بريوير المفصّلة للتأكد من عدم نسيان شيء، دون نيتشه حوالة مصرفية وقدمها لبريوير. ثمّ، قدم بريوير لنيتشه التقرير الطبي الذي طلبه واقترح عليه أن يقرأه قبل أن يغادر العيادة، لعل لديه أسئلة. بعد تدقيقه، فتح نيتشه حقيبته ووضع التقرير في الملف المخصص لتقاريره الطبية.

«تقرير ممتاز، يا دكتور بريوير. إنه تقرير شامل وواضح. وبخلاف الكثير من تقاريري الطبية الأخرى، فهو لا يحتوي على مصطلحات تخصصية طبية التي مع أنها توحي بالمعرفة، فإنها في واقع الحال لغة الجهل. والآن، آن أوان العودة إلى بازل. لقد أخذت الكثير من وقتك».

أغلق نيتشه حقيبته وأقفلها، وقال: «أتركك يا دكتور وأنا أشعر بأني مدين لك أكثر من أيّ شخص في حياتي. عادة يصاحب الاستئذان بالمغادرة إنكار دوام الحدث: يقول الناس، «أوف ويدرسيهين». إلى اللقاء. ويسارعون إلى تبادل الوعود باللقاء ثانية، ثم، وبسرعة أكبر، ينسون الوعود التي قطعوها على أنفسهم. أنا لست واحداً من هؤلاء. إني أفضّل الحقيقة بأننا من شبه المؤكد أننا لن نلتقي ثانية. ربما لن أعود إلى فيينا أبداً، وأشكّ في أن تكون راغباً في أن يكون لديك مريض مثلي لكي تتعقّبني في إيطاليا».

أحكم نيتشه قبضته على حقيبته وهمّ بالنهوض. كانت تلك هي اللحظة التي أعدّ بريوير نفسه لها بعناية. فقال: «بروفسور نيتشه، أرجو أن تنتظر لحظة! هناك مسألة أخرى أريد أن أناقشها معك».

أحسّ نيتشه بالتوتر. قال بريوير في نفسه، لا شكّ أنه يتوقّع أن أرجوه مرة أخرى لكي يقبل الدخول إلى عيادة لوزون، وهو يخشى ذلك.

«لا، بروفسور نيتشه، ليس الأمر كما تظن، على الإطلاق. أرجو أن تهدأ. إنها مسألة أخرى تماماً. كنت أؤجّل إثارة هذا الموضوع لأسباب سأوضحها قريباً».

توقّف بريوير قليلاً وأخذ نفَسا عميقاً.

«الذيّ اقتراح أريد ان أعرضه عليك. اقتراح نادر، ربما لم يسبق لطبيب أن عرضه على مريض. إني أرى نفسي أؤجل الموضوع. يصعب عليّ قول ذلك. في العادة لا أجد صعوبة في إيجاد الكلمات المناسبة. لكن من الأفضل الاعتراف بذلك.

«أقترح تبادلاً مهنياً، أي أقترح أن أعمل خلال الشهر القادم طبيباً لجسمك. سأركّز على أعراضك الجسدية وأدويتك. أما أنت، في المقابل، فستعمل طبيباً لعقلي، لروحي».

بدا نيتشه الذي كان لا يزال يمسك حقيبته، مرتبكاً، ثمّ حذراً. وقال: «ماذا تقصد عقلك وروحك؟ كيف يمكنني أن أعمل طبيباً لك؟ أليس هذا تنويع آخر للحديث الذي دار بيننا في الأسبوع الماضي، بأن تعالجني أنت وأعلّمك أنا الفلسفة؟»

«لا، هذا الطلب مختلف تماماً. فأنا لا أطلب منك أن تعلّمني، بل أن تشفيني».

«من ماذا، هل لي أن أسأل؟»

«سؤال صعب. ومع ذلك فإني أطرحه على مرضاي دائماً. سألتك

إياه، وجاء دوري الآن للإجابة عنه. إني أطلب منك أن تشفيني من اليأس».

«اليأس؟» خفف نيتشه قبضته على حقيبته، ومال إلى الأمام، ثم أردف، «أيّ نوع من اليأس؟ لا أرى أنك تعاني من اليأس».

«ليس على السطح. فأنا أبدو أنني أعيش حياة طبيعية جيدة. أما تحت السطح، فإن اليأس هو الذي يسود. إنك تسأل أيّ نوع من اليأس؟ لنقل إن عقلي ليس عقلي، وإن أفكاراً غريبة وحقيرة تهاجمني وتغزوني، ونتيجة لذلك، يتملكني شعور باحتقار الذات، ويساورني الشكّ في نزاهتي. فمع أنني أحيط زوجتي وأطفالي بالرعاية، فأنا لا أحبّهم. في الحقيقة، أشعر بالامتعاض لأنني سجين لهم. إني أفتقر إلى الشجاعة: الشجاعة لتغيير حياتي أو لمواصلة العيش فيها. لم أعد أرى السبب الذي يجعلني أعيش. هذا كلّ ما في الأمر. إني مهموم من أجل الشيخوخة. وعلى الرغم من أنني أقترب من الموت كلّ يوم، فإني أشعر بالخوف منه. وفي بعض الأحيان، تتسلل فكرة الانتحار إلى عقلي».

تدرّب بريوير يوم الأحد على هذا الجواب. أما اليوم، فقد فكّر، على نحو غريب، بالازدواجية الضمنية لخطته، بأنها *مخلصة*. كان بريوير يعرف أنه كاذب سيء. مع أنه كان عليه أن يخفي الأكذوبة الكبيرة، بأن اقتراحه هذا ذريعة ليشغل نيتشه في معالجته. كان قد عزم على قول الحقيقة عن أي شيء. لذلك قدّم في حديثه الحقيقة عن نفسه بشكل مبالغ فيه قليلاً. حاول كذلك أن يختار أنواع القلق التي قد تتشابك بطريقة ما مع بعض هموم نيتشه ومخاوفه وهمومه غير المعلنة.

للمرة الأولى، بدا نيتشه مشدوهاً حقاً. هزّ رأسه قليلاً، من الواضح أنه لا يريد المشاركة في هذا الاقتراح، لكنه كان يجد صعوبة في صياغة اعتراض عقلاني.

«لا، لا، دكتور بريوير، هذا مستحيل. لا أستطيع أن أفعل ذلك، فلم أتدرب على ذلك. فكّر في الأخطار. قد يزداد كل شيء سوأً».

«لكن بروفسور نيتشه، لا يوجد شيء يدعى تدريب. من تدّرب؟ لمن يمكنني أن أتوجّه؟ إلى طبيب؟ فهذا النوع من الشفاء ليس جزءاً من التدريب الطبي. إلى رجل دين؟ هل ألجأ إلى القصص الخرافية الدينية؟ فأنا مثلك فقدت الرغبة في ذلك. أنت، كفيلسوف، أمضيت حياتك في تأمل هذه الأمور التي تربك حياتي. لمن أتوجّه إذا لم أتوجّه إليك؟»

«شكوك عنك، عن زوجتك، عن أطفالك؟ ماذا أعرف عنها؟»

فردّ بريوير على الفور، «والشيخوخة والموت والحرية والانتحار والبحث عن هدف. إنك تعرف كما يعرف أي شخص حيّ. أليست هذه هي الشواغل والهموم التي تعالجها فلسفتك؟ أليست كتبك كلها أطروحات عن اليأس؟»

«لا أستطيع أن أعالج اليأس يا دكتور بريوير. إني أدرسه فقط. اليأس هو الثمن الذي يسدده المرء لقاء الوعي الذاتي. تمعّن في الحياة، وستجد اليأس على الدوام».

«أعرف ذلك يا بروفسور نيتشه، وأنا لا أتوقّع علاجاً، إنما أسعى إلى الراحة والفرج فقط. أريدك أن تنصحني. أريدك أن تريني كيف أحتمل حياة اليأس».

«لكني لا أعرف كيف يمكنني أن أبدي هذه الأمور، ولا توجد لدي نصيحة أقدمها لشخص واحد. إني أكتب للجنس كله، لجميع البشر».

«لكن بروفسور نيتشه، إنك تؤمن بالأساليب العلمية. فإذا أصيب جنس أو قرية أو قطيع بمرض، يقوم العالم بعزل عينة نموذجية واحدة ودراستها، ثم يعمّمها على الكلّ. لقد أمضيت عشر سنوات في تشريح بنية شديدة الصغر في أذن داخلية لحمامة لكي أكتشف كيف يحافظ

الحمام على توازنه. لا يمكنني أن أعمل في نوع الحمام كله. تعين عليّ أن أعمل على حمامة واحدة. بعدها تمكنت من تعميم نتائجي على نوع الحمام، ثم على الطيور والثدييات والبشر كذلك. بهذا الأسلوب يجب أن يكون العمل. لا يمكنك أن تجري تجارب على الجنس البشري كله».

توقّف بريوير برهة، منتظراً سماع دحض نيتشه. إلا أنه لم يصدر عنه شيء. كان مستغرقاً في التفكير.

تابع بريوير قائلاً: «في ذلك اليوم قلت إنك تؤمن بأن شبح العدمية يلاحق أوروبا، وجادلت بأن داروين اعتبر الله شيئاً عتيقاً مهجوراً، وأنه كما خلقنا الله ذات يوم، فإننا قتلناه الآن، ولم نعد نعرف كيف نعيش بدون الأساطير الدينية. أعرف أنك لم تقل ذلك صراحة، صححني إن كنت مخطئاً، لكنّي أعتقد أنك تعتبر أن رسالتك تتمثل في أن تؤكد أنه بعدم الإيمان يمكن للمرء أن يضع مدونة سلوك للبشر، مبادئ أخلاقية جديدة، تنويراً جديداً، لإبدال شخص ولد من رحم الخرافة والتوق لعالم غيبي». ثم صمت.

أومأ له نيتشه لكي يواصل كلامه.

«على الرغم من أنك قد لا توافق على اختياري للعبارات، فأنا أعتقد أن رسالتك تكمن في إنقاذ البشر من العدمية والوهم؟»

إيماءة طفيفة أخرى من نيتشه.

«حسناً، أنقذني. أجر التجربة معي. فأنا أشكل الموضوع المثالي. لقد قتلت الله. لا توجد لديّ اعتقادات غيبية، وأنا غارق في العدمية. لا أعرف السبب الذي يدعوني إلى العيش. لا أعرف كيف أعيش».

لم يأت ردّ من نيتشه.

«إن كنت تأمل في وضع خطة للبشرية جمعاء، أو لقلة منتخبة،

فجرّبها عليّ. مارس عليّ، ابحث فيما يجدي وما لا يجدي. يجب أن يشحذ ذلك تفكيرك».

«إنك تعرض نفسك كفأر للتجارب؟» أجاب نيتشه، «أهكذا أسدد ديني لك؟»

«لا تهمني المخاطر. إني أومن بالقيمة الشافية للكلام. ببساطة لمراجعة حياتي مع عقل واسع الاطلاع مثلك، هذا ما أريده. لا بد أن ذلك سيساعدني كثيراً».

هزّ نيتشه رأسه مرتبكاً، وسأل: «هل في عقلك إجراء معيّن؟»

«كما اقترحت عليك، تدخل العيادة باسم مستعار، وأقوم بمراقبة نوبات الشقيقة التي تداهمك وأعالجها. وخلال زياراتي اليومية، سأعالجك أولاً. سأراقب وضعك الصحي وأصف لك الدواء المطلوب. وخلال ما تبقى من زيارتنا تصبح أنت الطبيب، وتساعدني على التحدّث عن هموم حياتي. كلّ ما أطلبه هو أن تنصت إليّ وتبدي تعليقاتك كما تشاء. هذا كلّ ما في الأمر. وما بعد ذلك، لا أعرف. يجب أن نستنبط الطريقة المناسبة أثناء ذلك».

هزّ نيتشه رأسه بحزم، وقال: «لا، هذا مستحيل يا دكتور بريوير. أعترف أن خطتك مثيرة للاهتمام، لكنها محكومة بالفشل منذ البداية. فأنا كاتب، ولست محاوراً، وأنا أكتب لقلة قليلة من الناس، وليس للكثيرين».

«لكن كتبك ليست موجهة للقلة»، ردّ بريوير بسرعة، «في الواقع إنك تحتقر الفلاسفة الذين لا يكتبون إلا لبعضهم بعضاً، الذين ينفصل عملهم عن الحياة، الذين لا يعيشون فلسفتهم».

«أنا لا أكتب للفلاسفة الآخرين، لكنّي أكتب للقلة الذين يمثّلون المستقبل. لا أقصد أن أختلط، أن أعيش بينهم. إن مهاراتي للتواصل

الاجتماعي وثقتي واهتمامي بالآخرين ضعيفة، لذلك قلّ عدد هؤلاء منذ فترة طويلة. هذا إن كانت هذه المهارات موجودة أصلاً. كنت دائماً وحيداً. وسأظل وحيداً دائماً. إني أقبل هذا القدر».

«لكن بروفسور نيتشه، إنك تريد أكثر من ذلك. لقد رأيت حزناً في عينيك عندما قلت إن الآخرين قد لا يقرأون كتبك حتى عام ألفين. إنك تريد أن تُقرأ كتبك. أعتقد أن شيئاً في نفسك لا يزال يريد أن يكون مع آخرين».

جلس نيتشه صامتاً، متشنجاً في كرسيه.

«هل تذكر القصّة التي حكيتها لي عن هيغل وهو على فراش الموت؟» تابع بريوير، «عن الطالب الوحيد الذي كان يفهمه، وانتهى بالقول بأنه وهو على فراش الموت لا يستطيع أن يجد تلميذاً واحداً. حسناً، لماذا تنتظر حتى سنة ألفين؟ ها هنا أنا. لديك تلميذ هنا، الآن. وأنا تلميذ سيستمع إليك لأن حياتي تعتمد على فهمك».

صمت بريوير ليأخذ نفساً. كان في غاية السرور. أثناء تحضيره البارحة، توقّع كلّ الاعتراضات التي أبداها نيتشه وعارض كلاً منها. كان الفخّ متقناً. لم يكد يصبر على إبلاغ سيغ.

عرف أنه يجب أن يتوقّف الآن، فقد كان هدفه الأول يتمثل في التأكد من أن لا يستقل نيتشه القطار إلى بازل اليوم، لكنه لم يتمالك نفسه من أن يضيف نقطة أخرى، فقال: «أذكر يا بروفسور نيتشه، أنك قلت منذ أيام بأن لا شيء يزعجك أكثر من أن تكون مديناً لشخص آخر دون أن تتمكن من مكافئته بطريقة موازية».

كان ردّ نيتشه سريعاً وحادّاً، «أتقصد أنك تفعل ذلك من أجلي؟»

«لا، هذه هي النقطة. مع أن خطتي قد تخدمك على نحو ما، فهذه

ليست نيتي! إن دافعي أناني بحت. إني بحاجة إلى مساعدة. هل لديك القوة الكافية لمساعدتي؟»

نهض نيتشه من كرسيه.

حبس بريوير أنفاسه.

خطا نيتشه خطوة نحو بريوير ومدّ يده، وقال: «أوافق على خطتك».

عقد فريدريك نيتشه وجوزيف بريوير اتفاقاً.

***

رسالة من فريدريك نيتشه إلى بيتر غاست

٤ كانون الأول ١٨٨٢

عزيزي بيتر،

لقد طرأ تغيير على خطتي. مرة أخرى سأبقى في فيينا لمدة شهر كامل، لذلك، بكل أسف، يجب أن أؤجّل زيارة رابالونا. سأكتب لك عندما أعرف خطتي بدقة. لقد حدثت أمور كثيرة، معظمها مثيرة للاهتمام. لقد هاجمتني نوبة طفيفة (كان من الممكن أن تكون وحشاً طوال أسبوعين لولا تدخّل الدكتور بريوير) وأنا ضعيف جداً الآن، ولا يمكنني إلا أن أقدم لك ملخصاً عما حدث. سأعلمك بالمزيد لاحقاً.

أشكرك لأنك وجدت لي اسم الدكتور بريوير هذا. إنه طبيب عالم مفكّر يحب المعرفة كثيراً. أليس هذا رائعاً؟ إنه يريد أن يخبرني ماذا يعرف عن مرضي ـ والأعظم من ذلك، ما لا يعرفه.

إنه رجل يتطلع إلى التحدي وأظن أنه منجذب لجرأتي على التحدي كثيراً. فقد تجرأ وعرض عليّ اقتراحاً غريباً جداً، وقد قبلته. فقد اقترح إدخالي إلى عيادة لوزون خلال الشهر القادم لدراسة مرضي ومعالجته.

(وسيكون كلّ ذلك على نفقته. هذا يعني، يا صديقي العزيز، ألاّ تشغل نفسك بإرسال مبلغ الإعاشة هذا الشتاء).

وأنا؟ ماذا سأقدم له لقاء ذلك؟ أنا الذي لم أكن أصدّق بأنني سأجد عملاً مربحاً، فقد طلب مني أن أكون الفيلسوف الشخصي للدكتور بريوير لشهر واحد وأقدم له استشارة فلسفية شخصية. إنه يعيش حياة معذبة ويفكر بالانتحار. طلب مني أن أرشده وأوجهه حتى يخرج من ربقة اليأس.

يا لسخرية القدر، يجب أن تقول، بأن صديقك قد دُعي ليخمد نداء شبح الموت، نفس الصديق الذي جذبته تلك النشوة، الشيطان نفسه الذي كتب لك بأن سبطانة البندقية ليست بشعة.

صديقي العزيز، أخبرك عن ترتيبي مع الدكتور بريوير بسرية تامة. يجب ألا يسمع أحد آخر عن ذلك، حتى أوفيربيك. أنت الوحيد الذي أئتمنك على ذلك. إني أدين للطبيب الطيب كلّ السرية.

لقد وصل هذا الترتيب الغريب بيننا إلى شكله الحالي بطريقة معقّدة. ففي البداية، عرض أن يقدم لي المشورة كجزء من علاجي الطبي! يا لها من ذريعة خرقاء! فقد ادعى بأنه مهتم بصحتي فقط، وأن أمنيته الوحيدة، جائزته الوحيدة، أن يجعلني أنعم بصحة جيدة، لكننّا نعرف عن أولئك المعالجين الكهنوتيين الذين يُسقِطون ضعفهم على الآخرين ثم يعالجون آخرين كوسيلة لزيادة قوّتهم فقط. إننا نعرف عن «الجمعيات الخيرية المسيحية».

من الطبيعي أنني بحثت في الأمر ودعوته باسمه الصحيح. غصّ بالحقيقة قليلاً. فقد وصفني بأنني أعمى وحقير. أقسمَ بأنه يتطلع إلى دوافع سامية، وعبّر عن عواطف زائفة، وغيرية هزلية، لكنه أخيراً، لمصلحته، وجد القوّة ليبحث عن القوّة علناً وبصدق مني.

إن صديقك نيتشه، في السوق! ألا تفزعك الفكرة؟ تصوّر أن كتابي «هو ذا الإنسان» و«العلم المرح»، حبيسين في قفص، مروّضين، أليفين! تخيّل أن تكون الحكم الأقوال المأثورة التي كتبتها مرتّبة حسب الحروف الأبجدية في كتيب للمواعظ من أجل الحياة والعمل اليومي! في البداية، فزعت أنا أيضاً! لكني لم أعد كذلك. إن المشروع يفتنني، منبر لأفكاري، وعاء يجب ملؤه عندما أنضج وأفيض، فرصة، بالفعل، مختبر، لاختبار الأفكار على نموذج فردي قبل عرضها على النوع البشري (كانت هذه فكرة الدكتور بريوير).

يبدو أن الدكتور بريوير، صديقك، بالصدفة، نموذجاً راقياً، يتمتع بالفطنة والرغبة في الامتداد صعوداً. نعم، لديه الرغبة، ولديه الرأس. لكن هل لديه العينان والقلب حتى يرى؟ سنرى.

أما اليوم فإني أتماثل للشفاء وأفكّر بهدوء عن التطبيق. مغامرة جديدة. ربما كنت مخطئاً عندما فكرت بأن رسالتي الوحيدة تكمن في السعي لإيجاد الحقيقة. خلال الشهر القادم، سأرى إن كانت حكمتي ستمكّن شخصاً آخر من تجاوز اليأس. لماذا أتى إليّ؟ يقول إنه بعد أنه تذوق طعم حديثي، وقضم قليلاً من كتابي «هو ذا الإنسان»، انفتحت شهيته على فلسفتي. ربما، بسبب تحملي عبء مرضي الجسدي، خيّل إليه أني لا بد أن أكون خبيراً في مسألة الحياة.

بالطبع إنه لا يعرف نصف العبء الذي أحمله. صديقتي، تلك الكلبة، الشيطانة الروسية، تلك القردة ذات النهدين الزائفين، تواصل مسيرتها في الخيانة. إن إليزابيث التي تقول إن لو تعيش مع ري تشن حملة لترحيلها من البلد بدعوى التهتك والخلاعة.

وتكتب إليزابيث أيضاً بأن الصديقة لو نقلت حملتها المليئة بالحقد والكذب إلى بازل لأنها تنوى أن تعرض راتبي التقاعدي للخطر. ملعون ذلك اليوم الذي رأيتها فيه في روما لأول مرة. لقد قلت لك غالباً أن كلّ

محنة، حتى مجابهتي للشرّ المطلق، تزيدني قوة. لكن إذا كان بإمكاني أن أحوّل هذا الغائط إلى ذهب، فإنني... فإنني... سنرى.

ليست لدي القدرة على نسخ هذه الرسالة، لذلك يا صديقي العزيز أرجو أن تعيدها إليّ.

المخلص،

ف. ن.

الفصل ١٣

في طريقهما إلى العيادة في العربة في وقت متأخر من ذلك اليوم، أثار بريوير مسألة السريّة، وقال إن نيتشه قد يجد راحة أكبر إذا دخل العيادة باسم مستعار، وبالتحديد اسم إكارت موللر، الاسم الذي استخدمه عندما ناقش مسألة مريضه مع فرويد.

«إكارت موللر، إكككككارت موللر، إكارت موللر»، راح نيتشه، الذي بدا أنه في روح معنوية عالية، يردد الاسم لنفسه ببطء في همس ناعم كما لو كان يعرف لحنه. «أظن أنه اسم جيد كأيّ اسم آخر. هل له أي أهمية خاصة؟ ربما»، فكّر بخبث، «هل هو اسم مريض عنيد آخر؟»

قال بريوير: «لكي أتذكر، فأنا استنبط اسماً مستعاراً للمريض باستبدال أول حرف من اسمه، بحرف يسبقه مباشرة في الأحرف الأبجدية. من هنا أتيت بالحرفين إ.م. وكان إكارت موللر أول إ. م. خطر لي».

ابتسم نيتشه. «ربما كتب مؤرخ طبي ذات يوم كتاباً عن أشهر الأطباء في فيينا، وتساءل لماذا كان يزور الدكتور المعروف جوزيف بريوير كثيراً شخص معين يدعى إكارت موللر، وهو رجل غامض لا ماضي له ولا مستقبل».

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها بريوير نيتشه مرحاً. هذا يبشّر بالخير للمستقبل، فردّ بريوير، «وأشفق على كتّاب سيرة الفلاسفة

في المستقبل عندما يحاولون تتبّع مكان وجود البروفسور فريدريك نيتشه خلال شهر كانون الأول من عام ألف وثمانمائة واثنين وثمانين».

بعد بضع دقائق، عندما تمعن في الأمر، بدأ بريوير يشعر بالأسف لأنه اقترح اسماً مستعاراً. لأن مخاطبة نيتشه باسم مستعار بوجود العاملين في العيادة فرض ذريعة غير ضرورية لحالة مزدوجة. لماذا أضاف على نفسه عبئاً إضافياً؟ إن نيتشه لا يحتاج إلى حماية باسم مستعار لمعالجة الشقيقة، وهي حالة صحية بسيطة، وإذا كان بحاجة إلى أيّ شيء، فإن علاجه الحالي يتطلب منه، هو بريوير، أن يتحمّل المخاطر، لذلك، فإنه هو، لا نيتشه، من يحتاج إلى ملاذ للسريّة.

دخلت العربة المنطقة الثامنة التي تعرف باسم جوزيفستادت، وتوقّفت عند بوابة عيادة لوزون. عندما رأى البوّاب فيشمان، لم ينظر إلى من في العربة بل انطلق بسرعة ليفتح البوابة الحديدية. تهادت العربة فوق الدرب المكسو بالحصى الذي يبلغ طوله مائة متر، وراحت تعلو وتهبط باتجاه الرواق ذي الأعمدة البيض في وسط المبنى. كانت عيادة لوزون، ذلك المبنى الأنيق المؤلف من أربعة طوابق المشيّد بالحجارة البيضاء، تضم أربعين من المرضى النفسيين والعصبيين. وعندما بُنى قبل ثلاثمائة سنة ليسكن فيه البارون فريدريك لوزون، كان يقع خارج أسوار مدينة فيينا، محاطاً بأسوار عالية، وفيه إسطبلات وبيت للسائس وأكواخ للخدم، وتمتد الحدائق والبساتين على مسافة عشرين هكتاراً. هنا ولد جيل بعد جيل من شباب لوزون الذين كانوا يُرَّبون ويُرسلون لاصطياد الخنزير البري العظيم. وبعد وفاة آخر بارون وعائلته بعد تفشي وباء التيفوئيد في عام ١٨٥٨، انتقل قصر لوزون إلى البارون ويرذييم، ابن عم بعيد له، لكنه كان مبذّراً ولم يغادر منزله الريفي في بافاريا إلا نادراً.

نصحه المشرفون على العقار بأنه لا يستطيع التخلص من عبء القصر الموروث إلا إذا حوّله إلى مؤسسة عامة، قرّر البارون ويرذييم أن

يحوّل المبنى إلى عيادة للنقاهة، شريطة أن تتلقى عائلته عناية طبية مجّانية باستمرار. فأنشئت مؤسسة خيرية، وشكل مجلس أمناء لها. لم يكن الأمر غير العادي هو مشاركة عدّة عائلات كاثوليكية بارزة من فيينا في المجلس، بل مشاركة عائلتين يهوديتين تحبّان أعمال الخير، وهما آل غومبيرز وألتمان. وعلى الرغم من أن العيادة التي افتتحت في عام ١٨٦٠ تعالج الأغنياء، فقد تم وقف ستّة من أسرّته الأربعين لمعالجة المرضى الفقراء، شريطة أن يكونوا مرضى نظيفين.

كان أحد هذه الأسرّة الستّة هي التي خصصها بريوير الذي يمثّل عائلة ألتمان في مجلس أمناء المشفى، لينتشه. كان تأثير بريوير في لوزون يتجاوز كونه عضواً في المجلس، لأنه كان الطبيب الشخصي لمدير المشفى ولعدد من الأعضاء الآخرين في الإدارة أيضاً.

عندما وصل بريوير ومريضه الجديد إلى المشفى، أُستقبلا باحترام عظيم. ولم تجر إجراءات التسجيل والقبول الرسمية، ورافق مدير العيادة ورئيسة الممرضات الطبيب شخصياً ومريضه في جولة إلى الغرف المتاحة.

«معتمة كثيراً»، قال بريوير عن الغرفة الأولى، «سيضطر هير موللر إلى بذل جهد كبير لكي يقرأ ويكتب رسائله. لنلقِ نظرة على غرفة في الطرف الجنوبي».

كانت الغرفة الثانية صغيرة لكنها مضيئة، فعلّق نيتشه قائلاً: «هذه الغرفة ملائمة. فالنور هنا أفضل بكثير».

لكن بريوير عارضه بسرعة وقال: «إنها صغيرة جداً. لا يوجد فيها هواء. ما هي الغرف الفارغة الأخرى؟»

أحبّ نيتشه الغرفة الثالثة أيضاً. «نعم، إنها جيدة».

لكن بريوير لم يكن مسروراً بها، وقال: «فيها عدد كبير من

الأشخاص. شديدة الضوضاء. هل يمكن رؤية غرفة بعيدة عن مكتب التمريض؟»

عندما دخلوا الغرفة التالية، لم ينتظر نيتشه تعليق بريوير فوضع حقيبته على الفور في الخزانة، وخلع حذاءه، واستلقى على السرير. لم يعترض بريوير على هذه الغرفة المضيئة الرحبة في الطابق الثالث التي توجد فيها مدفأة كبيرة وتشرف بشكل رائع على الحدائق. أُعجب الرجلان بالسجادة الأصفهانية الكبيرة ذات اللون الوردي الأزرق الفخم التي لا بد أنها من بقايا الأيام الأكثر سعادة وازدهاراً في قصر لوزون. أومأ نيتشه تقديراً لطلب بريوير بأن يجلبوا طاولة للكتابة ومصباح غاز وكرسياً مريحاً إلى الغرفة.

ما إن أصبحا وحدهما، حتى اعترف نيتشه بأنه لم يشف تماماً من نوبته الأخيرة، فأحسّ بالإرهاق، وعاوده ألم في رأسه. بدون اعتراض، وافق على أن يمضي الساعات الأربع والعشرين القادمة ليستريح بهدوء في السرير. توجّه بريوير إلى مكتب التمريض ليطلب الأدوية التالية: كولشيسين لإزالة الألم، كلورال هيدرات للمساعدة على النوم. فقد كان نيتشه مدمناً على الكلورال الذي احتاج التخلص منه إلى عدّة أسابيع.

عندما مدّ بريوير رأسه إلى غرفة نيتشه ليستأذن منه ليغادر، رفع نيتشه رأسه عن وسادته، ومدّ يده بكأس الماء الصغيرة بجانب سريره، مقترحاً نخب صحته: «حتى بداية مشروعنا غداً، بعد أن أنال قسطاً من الراحة، أزمع أن أمضي ما تبقى من اليوم في وضع خطة لاستشارتنا الفلسفية. أوف ويدرشين، يا دكتور بريوير».

خطة! الوقت، قال بريوير لنفسه في العربة وهو في طريقه إلى البيت، وقت *لي* أيضاً، للتفكير في خطة. كان مستغرقاً تماماً في التفكير بإيقاع نيتشه في الفخ، ولم يفكر مطلقاً بالطريقة التي يمكنه فيها من ترويض مقلع الحجارة القابع الآن في الغرفة رقم ١٣ في عيادة لوزون.

بينما كانت العربة تترنح، حاول بريوير أن يركز على وضع خطة خاصة به. بدا مشوشاً تماماً. لا مبادئ توجيهية حقيقية ولا سوابق. عليه أن يبتكر أسلوباً جديداً تماماً للمعالجة. من الأفضل له أن يناقش هذا الأمر مع سيغ. إنه هذا النوع من التحدي الذي يحبه. طلب بريوير من فيشمان أن يتوقّف عند المشفى ويبحث عن الدكتور فرويد.

كان مشفى فيينا العام الذي كان فرويد، الطبيب الطامح يعدّ نفسه فيه كطبيب ممارس، أشبه بمدينة صغيرة. كان يأوي ألفي مريض وفيه اثنا عشر مبنى رباعي الأضلاع، كلّ قسم منفصل عن الآخر، له الفناء والجدران الخاصة به، كلّ منها يرتبط بمتاهة من الأنفاق تحت الأرض بجميع المباني الأخرى الرباعية الزوايا. جدار حجري بارتفاع أربعة أمتار يفصل المشفى كله عن العالم الخارجي.

ركض فيشمان الذي يعرف أسرار هذه المتاهة منذ فترة طويلة، ليجلب فرويد من جناحه الطبي. بعد بضع دقائق، عاد وحده وقال: «الدكتور فرويد غير موجود. قال الدكتور هوسير إنه ذهب إلى ستاملوكال منذ ساعة».

كان المقهى الذي يرتاده فرويد «كافيه لاندتمان» الواقع في ساحة فرانزينس لا يبعد إلا بضع حارات عن المشفى. وجده بريوير جالساً في المقهى وحده، يحتسي القهوة ويقرأ مجلّة أدبية فرنسية. وكان يرتاد كافيه لاندتمان أطباء طامحون وطلاب كلية الطبّ. وبالرغم من أنه كان أقلّ عصرية من مقهى غرينستيدل الذي يرتاده بريوير، فقد كان مشتركاً في أكثر من ثمانين نشرة دورية، ربما أكثر من أي مقهى آخر في فيينا.

«سيغ، لنذهب إلى ديميل لنتناول بعض الحلويات. لديّ بعض الأمور الهامة التي أريد أن أحدثك عنها عن حالة البروفسور المصاب بداء الشقيقة».

خلال ثوان ارتدى فرويد معطفه. ومع أنه كان يحبّ أفضل محل للحلويات والمعجنات في فيينا، لم يكن بوسعه ارتياد هذا المحل إلا إذا دعاه شخص آخر. بعد عشر دقائق، كانا يجلسان في زاوية هادئة. طلب بريوير فنجاني قهوة وفطيرة شوكولاته له، وطلب لفرويد فطيرة ليمون التهمها بسرعة، ثم أقنع بريوير صديقه الشاب بأن يختار فطيرة أخرى من عربة المعجنات الفضّية ذات الثلاث طبقات. عندما تناول فرويد فطيرة الشوكولاتة وفنجان قهوة ثان، أشعل الرجلان سيجاراً. ثمّ وصف بريوير بالتفصيل كلّ ما حدث معه مع هير موللر منذ حديثهما الأخير: رفض البروفسور بدء علاج نفسي، مغادرته بغضب، داء الشقيقة الذي داهمه في الليل، الدعوة الغريبة لزيارته، جرعته الزائدة، وحالة الوعي الغريبة لديه، الصوت المنخفض الحزين، وأخيراً، الصفقة الرائعة التي عقداها في مكتب بريوير ذلك الصباح.

كان فرويد يحدق في بريوير وهو يروي له ذلك، نظرة يعرفها بريوير. لم يكن فرويد يتأمّل كلّ شيء فحسب، بل كان يسجلّها أيضاً. فبعد ستّة أشهر سيكون بإمكانه أن يكرر هذا الحديث بدقة متناهية. لكن سلوك فرويد تغيّر فجأة عندما وصف بريوير اقتراحه النهائي.

«جوزيف، ماذا عرضت عليه؟ أنت ستعالج الشقيقة التي تصيب هير موللر، وهو سيعالجك من اليأس؟ لا يمكن أن تكون جدّياً! ماذا يعني ذلك؟»

«سيغ، صدّقني، هذه هي الوسيلة الوحيدة. لو جرّبت شيئاً آخر، بوووف، لكان في طريقه الآن إلى بازل. تذكّر تلك الخطة الممتازة التي وضعناها؟ إقناعه بدراسة الإجهاد في حياته والتخفيف من حدته؟ لقد هدّم ذلك في دقائق بأن امتدح الإجهاد. إنه ينشد ملاحم شعرية في امتداحه. إن ما لا يقتله، كما يقول، يزيده قوة. لكن كلما استمعت إليه

أكثر وفكّرت بكتاباته، ازدادت قناعتي بأنه يحبّ أن يعتبر نفسه طبيباً، لا طبيباً شخصياً بل طبيب لثقافتنا برمتها».

«إذاً»، قال فرويد، «لقد نصبت له فخاً عندما أوحيت له بأن شفاء الحضارة الغربية يبدأ بشفاء نموذج منفرد وهو أنت؟»

«هذا صحيح يا سيغ. لكنه أوقعني في الفخ أولاً! أو أن ذلك الرجل الذي تدّعي أنه ينشط في كلّ منّا قد أوقعني في الشرك بتوسله المثير للشفقة «ساعدني، ساعدني». كاد ذلك، يا سيغ، يكفي لأن يجعلني أومن بأفكارك بوجود جزء غير واع في العقل».

ابتسم فرويد لبريوير، ومجّ نفساً طويلاً من سيجاره بمتعة، وقال: «حسناً، بعد أن أوقعته في الفخ، ماذا بعد؟»

«أول شيء يجب أن نفعله يا سيغ هو أن نتخلّص من هذا التعبير «الفخ». إن فكرة إيقاع إكارت موللر في الفخ غير لائقة، مثل اصطياد غوريلا وزنه ألف رطل بشبكة اصطياد فراشة».

ابتسم فرويد ابتسامة أعرض وقال: «نعم، لنلغ عبارة «فخّ» ولنقل فقط أنك جلبته إلى المشفى وأنك ستراه كل يوم. ما هي خطتك؟ لا شكّ أنه يفكرّ بخطة ليساعدك على التخلص من حالة اليأس التي تنتابك، ستبدأ غداً».

«نعم، هذا ما قاله لي تماماً. ربما بدأ يعمل عليها منذ هذه اللحظة. لذلك حان الوقت لأضع خطتي أيضاً، وأرجو أن تتمكن من مساعدتي. لم أفكّر بالخطة تماماً، لكن الخطة واضحة .يجب *أن أقنعه بأنه يساعدني، بينما أقلب الأدوار دون أن يلاحظ ذلك ليصبح هو المريض وأعود أنا، مرة أخرى، الطبيب*».

«تماماً»، قال فرويد موافقاً، ثم أضاف، «هذا بالضبط ما يجب أن تفعله».

أعجب بريوير بقدرة فرويد على الظهور دائماً بأنه شديد الثقة بنفسه، حتى في الحالات التي لا توجد فيها حقيقة مطلقة.

واصل فرويد كلامه بقوله: «إنه يتوقّع أن تكون طبيبه لعلاجك من اليأس، ويجب أن تلبي هذا التوقّع. دعنا نضع خطة، خطوة خطوة. يجب أن تتمثل المرحلة الأولى في إقناعه بيأسك. لنخطّط هذه المرحلة. عمَّ ستتحدّث؟»

«لا توجد لديّ مخاوف بشأن ذلك يا سيغ. يمكنني أن أتخيّل أشياء عديدة يمكن مناقشتها».

«لكن حقاً يا جوزيف، كيف ستجعله يصدّق ذلك؟»

تردّد بريوير وتساءل إلى أي درجة يمكنه البوح عن نفسه، لكنه أجاب، «هذا أمر سهل يا سيغ. كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أقول الحقيقة».

نظر فرويد إلى بريوير مندهشاً، وقال: «الحقيقة؟ ماذا تعني يا جوزيف؟ إنك لا تعاني من اليأس، لديك كلّ شيء. إنك موضع حسد جميع الأطباء في فيينا. أوروبا كلها تطلب خدماتك. الكثير من الطلاب الممتازين، مثل الدكتور الشاب الواعد فرويد، يقدّر كلّ كلمة تقولها. أبحاثك رائعة، زوجتك أكثر النساء رهافة وجمالاً في الإمبراطورية. اليأس؟ لماذا، يا جوزيف، إنك في أعلى قمة الحياة».

وضع بريوير يده على يد فرويد، وقال: «قمّة الحياة! لقد أصبت يا سيغ. قمّة، أعلى قمّة في تسلّق الحياة! *لكن مشكلة القمم أنها تقود إلى المنحدر*. من القمّة يمكنني أن أرى ما تبقى من سنوات حياتي تمتد أمامي، والمشهد لا يسرني. لا أرى إلا الشيخوخة، الضعف، أن أصبح أباً، أن أصبح جداً».

«لكن، جوزيف»، بدا الخوف في عيني فرويد، «كيف يمكنك قول

ذلك؟ أرى نجاحاً، لا انحداراً! أرى أمناً، ثناء، فاسمك مرتبط على الدوام باكتشافين فيزيولوجيين رئيسيين».

أجفل بريوير. كيف يمكنه أن يعترف بأنه راهن على حياته كلها ليجد في النهاية أن الجائزة النهائية، ليست كما يشتهي؟ لا، يجب أن يحتفظ بهذه الأشياء لنفسه. ثمة أشياء لا تقلها لمن يصغرونك سناً.

«دعني أشرح الأمر بهذه الطريقة يا سيغ. إن المرء يشعر بالأشياء عن الحياة في الأربعين من العمر لا يمكنه أن يعرفها عندما يكون في الخامسة والعشرين».

«السادسة والعشرون. على الجانب البعيد من السادسة والعشرين».

ضحك بريوير وقال: «آسف يا سيغ، فأنا لا أقصد أن أكون متعالياً. لكن خذ كلمتي بأنه توجد أمور خاصة كثيرة يمكنني مناقشتها مع موللر. فمثلاً، توجد مشاكل في زواجي لا أفضّل التحدث عنها معك، لكي لا تضطر إلى التكتم على أمور عن ماتيلد وتسيء إلى علاقتكما المقربة من بعضكما. صدّقني: لديّ أمور كثيرة يمكنني أن أقولها لهير موللر، ويمكنني أن أجعلها مقنعة لأنني سألتزم كثيراً بالحقيقة. إني أشعر بالقلق من الخطوة التالية».

«أتقصد ماذا سيحدث بعد أن يصبح مصدراً لمساعدتك *ليأسه*؟ ماذا يمكنك أن تفعل للتخفيف من العبء الذي يتحمله؟»

هزّ بريوير رأسه.

«قل لي يا جوزيف، افترض أنك تمكنت من وضع المرحلة التالية بالطريقة التي تشاء. ماذا تحبّ أن يحدث؟ ما هو الشيء الذي يمكن أن يقدمه أحدكما للآخر؟»

«جيد! جيد! إنك تحفزّ تفكيري. إنك رائع في هذا الأمر يا سيغ». توقف بريوير عدّة دقائق مستغرقاً في التفكير، ثم أضاف، «مع أن

مريضي رجل، وليس بالطبع، مصاباً بالهستيريا، فإني أظن أنني أودّ أن يفعل كما فعلت بيرثا تماماً».

«كنس المدخنة؟»

«نعم، أن يبوح لي بكلّ شيء. إني مقتنع بأن هناك شفاء إذا أفرغ المرء مكنونات نفسه. انظر إلى الكاثوليك. فالكهنة يقدمون راحة نفسية منذ قرون من خلال الاعتراف».

فقال فرويد: «إني أتساءل هل يأتي الارتياح من التخلص من العبء أم من الإيمان بالغفران الإلهي؟»

«كان عندي مريض كاثوليكي لاأَدْرِيّ(*) لا يزال يجد إفادة من الذهاب للاعتراف. وفي مناسبتين في حياتي، قبل سنوات، شعرت بالراحة والانفراج عندما اعترفت بكلّ شيء لصديق. ماذا عنك يا سيغ؟ هل سبق أن خفّفت عن عبئك بالاعتراف؟ هل أفضيت بما يعتمل في نفسك لأي شخص؟»

«طبعاً. لخطيبتي. إني أكتب إلى مارثا كلّ يوم».

«هيا يا سيغ»، قال بريوير مبتسماً ووضع يده على كتف صديقه، «إنك تعرف أن هناك أشياء لا يمكنك أن تخبرها لمارثا *أبداً*، *خاصة* مارثا».

«لا يا جوزيف، إني أخبرها *بكلّ* شيء. ماذا يمكنني ألاّ أخبرها به؟»

«عندما تعشق امرأة فإنك تريد أن تجعلها تحسن الظن بك بشتى الطرق. ومن الطبيعي أنك ستخفي أشياء عن نفسك، أشياء قد تقدّمك بمنظار سيء مثل رغباتك الجنسية».

(*) مذهب يعتقد أصحابه بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها.

لاحظ بريوير احمرار وجه فرويد. لم يدر حديث من هذا النوع بينه وبين فرويد من قبل. لعل فرويد لم يتحدث في أمر كهذا من قبل.

«لكن مشاعري الجنسية تنحصر في مارثا. فلا تجذبني أي امرأة أخرى».

«إذاً لنقل *قبل* مارثا».

«لم تكن هناك *قبل مارثا*. فهي المرأة الوحيدة التي أشتهيها».

«لكن يا سيغ، لا بد أن تكون هناك أخريات. فلدى كلّ طالب طبّ في فيينا سوسمدتشين (*Sussmddchen*). يبدو أنه كانت لدى شنيزلير الشاب فتاة جديدة كلّ أسبوع».

«هذا هو الجزء من العالم الذي أريد أن أبعد مارثا عنه. إن شنيزلير شاب خليع، كما يعرف الجميع. ليست لدي رغبة في الانغماس في مثل هذه الأمور. لا يوجد لدي وقت. ولا نقود، فأنا بحاجة إلى كلّ فلورين لشراء الكتب».

من الأفضل ترك مناقشة هذا الموضوع، قال بريوير لنفسه، لكني تعلّمت شيئاً مهماً: أصبحت أعرف الآن الحدود التي يمكنني أن أتقاسمها مع فرويد.

«سيغ، لقد خرجنا عن الموضوع. لنعد خمس دقائق إلى الوراء، فقد سألتَ ماذا أريد أن يحدث - إني أقول أنني أرجو أن يتحدث هير موللر عن شعوره باليأس. أرجو أن يستخدمني كقس اعتراف. ربما كان ذلك في حد ذاته شافياً، ربما أعاده ذلك إلى الجماعة البشرية. فهو من أكثر المخلوقات التي رأيتها في حياتي انعزالاً. لا أظن أنه أفضى لأحد عن مكنونات نفسه من قبل».

«لكنك قلت لي إن أشخاصاً آخرين غدروا به. لا ريب أنه وثق بهم وأفضى لهم عن مكنونات نفسه. وإلا لما حدثت خيانة».

«نعم، إنك محقّ. فالخيانة مسألة هامة بالنسبة له. في الحقيقة، أظن أن ذلك يجب أن يشكل مبدأ أساسياً، بل ربما المبدأ الجوهري لطريقتي: لا ضرر ولا ضرار، أن لا أفعل شيئاً يضرّ به، أن لا أفعل شيئاً قد يفسر بأنه خيانة».

فكّر بريوير بكلماته بضع لحظات ثم أضاف، «أتعرف يا سيغ أنني أعالج كلّ المرضى بهذه الطريقة، لذلك لن تكون هناك أي مشكلة في عملي القادم مع هير موللر. لكن ازدواجيتي معه في الماضي التي قد يعتبرها خيانة، مع أنني لا أستطيع التخلص منها. أتمنّى أن أتمكن من تطهير نفسي وأبادله كلّ شيء: لقائي بالآنسة سالومي، المؤامرة التي حاكها له أصدقاؤه حتى يأتي إلى فيينا، والأهم من كل ذلك، ادعائي بأنني أنا، وليس هو، المريض».

هزّ فرويد رأسه بقوة، وقال: «بالتأكيد لا! فهذا التطهير، هذا الاعتراف سيكون من أجلك لا من أجله. لا، أظن أنك إذا أردت حقاً أن تساعد مريضك، فيجب أن تستمر بهذه الأكذوبة».

أومأ بريوير. كان يعرف أن فرويد على حقّ، وقال: «حسناً، لنستعرض ما قمنا به. ما الذي أنجزناه حتى الآن؟»

فردّ فرويد بسرعة. كان يحبّ هذا النوع من التدريب الفكري، «لدينا عدّة خطوات. *أولا*، أشغله بالإفصاح عن نفسك. *ثانياً*، اعكس الأدوار. *ثالثاً*، ساعده في الكشف عن نفسه بالكامل. ولدينا مبدأ أساسي واحد: الحفاظ على ثقته بك وتجنب أيّ مظهر من مظاهر الخيانة. الآن، ما هي الخطوة التالية؟ لنفترض أنه أفضى لك عن يأسه، ثمّ ماذا؟»

فأجاب بريوير، «ربما يجب ألاّ تكون هناك خطوة تالية؟ ربما شكل الإفضاء عن نفسه إنجازاً رئيسياً، ربما كان التغيير في أسلوب حياته في حد ذاته كافياً؟»

«لن يكون الاعتراف البسيط مؤثراً بقوة يا جوزيف، ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك كاثوليكون عصابيون».

«نعم، أني متأكّد من أنك محقّ. لكن ربما»، أخرج بريوير ساعته، «هذا ما يمكننا أن نخطط له الآن». لوّح للنادل لجلب الحساب.

«جوزيف، لقد استمتعت بهذه الاستشارة، وأقدّر الطريقة التي نتشاور فيها. إنه شرف لي أن تأخذ اقتراحاتي على محمل الجد».

«في الحقيقة يا سيغ، إنك رائع في هذا الأمر. معاً نشكل فريقاً جيداً. ومع ذلك فإني لا أستطيع أن أتخيّل إن إجراءاتنا الجديدة ستحظى بتقدير كبير. كم مرّة يأتي مرضى يطلبون طريقة معالجة بيزنطانية هكذا؟ في الحقيقة، أحسست اليوم بأنّنا لا نبتكر معالجة طبية بل نحيك مؤامرة. إنك تعرف من أفضّله كمريض. ذلك الشخص الآخر الذي طلب المساعدة».

«أتقصد الوعي اللا واعي المنحصر داخل مريضك».

«نعم»، قال بريوير، وأعطى النادل ورقة من فئة الفلورين دون أن يدقق المبلغ. لم يفعل ذلك من قبل قط، «نعم، سيكون التعامل معه أسهل بكثير. تعرف يا سيغ، ربما كان ذلك هدف المعالجة، تحرير ذلك الوعي الخفي، السماح له بطلب المساعدة تحت ضوء الشمس».

«نعم، هذا جيد يا جوزيف. لكن المصطلح هو تحرير؟ بعد كل شيء، لا يوجد لديه وجود منفصل. إنه جزء غير واع من موللر. ألا نسعى إلى *التكامل*؟ «بدا فرويد معجباً بفكرته، وخبط بقبضته بهدوء على منضدة الرخام وهو يكرّر: «تكامل العقل الباطن».

«آخ يا سيغ، هذا هو». أثارت الفكرة بريوير، «بصيرة هامة».

أبقى للنادل بضعة كريوزيرات نحاسية، وسار هو وفرويد إلى ميدان ميكليربلاز. «نعم، إذا تمكن مريضي من إدماج هذا الجزء الآخر من

نفسه، فإن ذلك سيكون إنجازاً حقيقياً. إذا استطاع أن يتعلّم أنه من الطبيعي أن يطلب الراحة من شخص آخر، فمن المؤكد أن ذلك سيكون كافياً».

سارا في كوهناركت، ووصلا إلى شارع غاربن الذي يعج بالحركة ثم افترقا. انعطف فرويد إلى شارع ناغليرغاس نحو المستشفى، بينما تمشّى بريوير عبر ميدان ستيفانسبلاتز باتجاه شارع باكرشتراس ٧ الذي امتد وراء الأبراج الرومانسية المرتقبة لكنيسة القديس ستيفن. فقد أدخل حديثه مع سيغ مزيداً من الثقة للقائه مع نيتشه صباح الغد. لكن كان ينتابه هاجس قلق بأن كلّ هذا التحضير المتقن قد يكون مجرد وهم، بأن ما سيعدّه نيتشه، لا ما سيعدّه هو، الذي سيهيمن على لقائهما.

الفصل ١٤

كان نيتشه مستعداً. ففي صباح اليوم التالي، ما إن أنهى بريوير فحصه الطبي، حتى أخذ نيتشه زمام الأمور.

«ترى»، قال لبريوير، عارضاً دفتر ملاحظات جديداً كبيراً، «كم أنا منظّم! فقد تفضّل هير كوفمان، أحد ممرضيك، بشراء هذا الدفتر لي البارحة».

نهض من سريره، وأضاف، «وطلبت أيضاً كرسياً آخر للغرفة. هل نجلس على الكرسيين ونبدأ عملنا؟»

عمل بريوير، الذي ارتبك قليلاً من نبرة مريضه السلطوية، بما اقترحه نيتشه وجلس إلى جانبه. كان الكرسيان قبالة المدفأة حيث تطقطق نار برتقالية اللون. بعد أن تدفّأ لبرهة، أدار بريوير كرسيه ليتمكن من رؤية نيتشه بسهولة أكبر وأقنع نيتشه بأن يفعل الشيء نفسه.

قال نيتشه: «لنبدأ بتحديد الأسس الرئيسية للتحليل. لقد دوّنت المسائل التي ذكرتها البارحة عندما طلبت مساعدتي».

فتح نيتشه دفتر ملاحظاته وأراه كيف أنه دوّن على صفحة منفصلة جميع الشكاوى التي ذكرها بريوير، وقرأها بصوت مرتفع: «واحد: تعاسة عامة؛ اثنان: تراوده أفكار غريبة. ثلاثة: كره الذات؛ أربعة: الخوف من الشيخوخة؛ خمسة: الخوف من الموت؛ ستّة: دوافع للانتحار. هل هذا كل شيء؟»

منبهراً من نبرة نيتشه الرسمية، لم يرق لبريوير أن يسمع مخاوفه العميقة المدرجة بدقة وبتركيز في القائمة موصفة بطرقة سريرية دقيقة، لكنه ردّ الآن بتعاون معه وقال: «ليست كلها. فلديّ مشكلة جدّية تتعلّق بزوجتي. فأنا أبدو بعيداً عنها لأسباب مجهولة كما لو أنني وقعت في فخّ زواج وحياة لم أخترهما».

«هل تعتبر هذه مشكلة إضافية واحدة؟ أم مشكلتين؟»

«هذا يتوقف على تعريفك».

«نعم، هذه مشكلة، لأن البنود غير مرتبة بنفس المستوى المنطقي. قد يكون بعضها نتيجة أو سبباً لأخرى»، وراح نيتشه يتصفح دفتر ملاحظاته، «فعلى سبيل المثال، قد تكون التعاسة نتيجة للأفكار الغريبة، أو قد تكون الدوافع للانتحار نتيجة أو سبباً للخوف من الموت».

ازداد شعور بريوير بالضيق. لم يعجبه المسار الذي بدأ يأخذه هذا الأمر.

«لماذا يتعين علينا أن نضع قائمة أصلاً؟ على نحو ما، فإن فكرة وضع قائمة تضايقني».

بدا الاضطراب على نيتشه. كان من الواضح أن إحساسه بالثقة كالنسيج الرقيق.

اعتراض واحد من بريوير جعل سلوكه كله يتغيّر. فردّ بنبرة استرضائية.

«ظننت أننا نستطيع أن نمضي بصورة منظّمة أكثر بتحديد أولويات الشكاوى. لكن، لأكون صريحاً، لستُ متأكّداً إن كان علينا أن نبدأ بأهم مشكلة، لنقل الآن، الخوف من الموت، أو أدناها أهمية أو أكثرها ثانوية، لنقل بشكل اعتباطي، غزو أفكار غريبة، أم نبدأ بأكثرها أهمية

من الناحية السريرية، لنقل الدوافع إلى الانتحار، أو بالمشكلة الأكثر إزعاجاً التي تزعج حياتك اليومية، لنقل كره الذات».

ازداد شعور بريوير بعدم الارتياح، وقال: «لست متأكّداً تماماً بأن هذا النهج جيد».

«لكني اعتمدت على أسلوبك الطبي»، أجاب نيتشه.

«حسب ما أذكر، طلبتَ مني أن أتحدث بصورة عامة عن حالتي. فوضعت قائمة عن مشاكلي، ثم مضيت بطريقة منهجية، بدرجة كبيرة من المنهجية، كما أذكر، لاستكشاف كلّ واحدة تباعاً. أليس هذا صحيحاً؟»

«نعم، بهذه الطريقة أجري الفحص الطبي».

«إذاً دكتور بريوير، لماذا تقاوم مثل هذا النهج الآن؟ هل يمكنك أن تقترح نهجاً بديلاً؟»

هزّ بريوير رأسه، وقال: «عندما تضع الأمر بهذه الطريقة، فإني أميل إلى الموافقة على طريقتك المقترحة. يبدو أن التحدث عن أعمق مخاوف حياتي في فئات مرتّبة أمراً مرغماً أو اصطناعياً. أرى أن جميع المشاكل متشابكة على نحو معقّد. كما تبدو فإن قائمتك باردة جداً. هذه أشياء حسّاسة، ليس من السهل التحدّث عنها مثل ألم الظهر أو الطفح الجلدي».

«لا تخلط بين الإحراج وبين الصلابة يا دكتور بريوير. تذكّر أنني شخص منكفئ على نفسي كما حذّرتك. فلم أعتد على العلاقات الاجتماعية الدافئة والسهلة».

أغلق نيتشه دفتر ملاحظاته، وحدّق من النافذة للحظة.

«دعني أسلك نهجاً آخر. أتذكّر أنك قلت البارحة إننا يجب أن

نستنبط أسلوبنا معاً. قل لي، دكتور بريوير، هل لديك تجربة مماثلة في ممارستك نستطيع أن ننطلق منها».

«تجارب مماثلة؟ هممممم... لا توجد سابقة حقيقية في الممارسة الطبية لما أفعله أنا وأنت. حتى أنني لا أعرف ماذا يمكن أن أطلق عليها، ربما علاج اليأس أو المداواة الفلسفية، أو اسم لم يُخترع بعد. صحيح أنه يطلب من الأطباء معالجة بعض أنواع الاضطرابات النفسية: مثل اضطرابات لها أساس جسدي، من قبيل هذيان حمّى الدماغ، أو بارانويا زهري الدماغ، أو ذهان التسمّم بالرصاص. كما نتحمّل أيضاً المسؤولية عن المرضى الذين تدمر حالتهم النفسية صحتهم، أو تهدّد حياتهم مثل السوداوية الأوبية الحادّ أو الهوس».

«مهددة للحياة؟ كيف ذلك؟»

«المصابون بالسوداوية يجوّعون أنفسهم حتى الموت أو قد ينتحرون. أما المهووسون فإنهم يستنزفون أنفسهم في أغلب الأحيان حتى الموت».

لم يجب نيتشه، بل جلس صامتاً، يحدّق في النار.

وتابع بريوير، «لكن من الواضح أن هذه أبعد ما تكون عن حالتي الشخصية، وعلاج كلّ حالة من هذه الحالات ليس فلسفياً أو نفسياً، بل علاج فيزيائي مثل التحفيز الكهربائي، الحمّامات، الأدوية، الراحة المفروضة على المريض، وما إلى ذلك. وفي بعض الأحيان، يجب أن نبتكر طريقة نفسية للمرضى الذين يعانون من خوف لا عقلاني، لتهدئتهم. دُعيت مؤخراً لزيارة امرأة مسنة تخشى الخروج من غرفتها التي لم تغادرها منذ أشهر. ما فعلته هو أنني حدثتها بلطف حتى وثقت بي. وكلما كنت أراها، كنت أمسك بيدها لأزيد إحساسها بالأمان وأرافقها مسافة خارج غرفتها. لكن هذا ارتجال طبيعي، كما لو كنت تدرب طفلاً. مثل هذا العمل قلما يحتاج إلى طبيب».

«كلّ هذا يبدو بعيداً عن مهمتنا»، قال نيتشه، «ألا يوجد هناك شيء أكثر أهمية؟»

«بالطبع، هناك مرضى كثيرون لا يزالون يرون الأطباء بسبب ظهور أعراض جسدية، كالشلل أو عيوب في التكلم، أو نتيجة نوع من العمى أو الصمم التي يكمن سببها كليًا في النزاع النفسي. إننا نطلق على هذا الأمر حالة «هستيريا» من الكلمة اليونانية *hysterus* التي تعني الرحم».

هزّ نيتشه رأسه بسرعة كما لو أنه يشير إلى عدم الحاجة إلى ترجمة الكلمة اليونانية له. عندما تذكر بريوير أنه أستاذ في فقه اللغة، سارع إلى القول: «كنا نظن أن سبب هذه الأعراض رحم متجوّل، فكرة بالطبع، لا معنى لها من الناحية التشريحية».

«كيف شرّحوا المرض عند الرجال؟»

«لم نفهم الأسباب بعد. إنه مرض يصيب الإناث. لا توجد حالات موثّقة عن إصابة الذكور بالهستيريا. كنت أقول دائماً إن الهستيريا مرض يجب أن يوليه الفلاسفة اهتماماً خاصاً. ربما كانوا هم، لا الأطباء، من سيوضح لماذا لا تتطابق أعراض الهستيريا مع الأساليب التشريحية».

«ماذا تقصد؟»

بدا بريوير أكثر ارتياحاً. إن تفسير مسائل طبية لطالب طبّ فطن دور مريح ومألوف له.

«حسناً، لنضرب مثلاً واحداً، فقد رأيت مرضى خُدِّرت أيديهم بطريقة لا يمكن أن يكون سببها اضطراب في الأعصاب. لديهم خدر «قفازي»، لا يوجد إحساس تحت رسغهم، كما لو أن رسغهم قد ربط بشريط مخدر».

«ألا يتوافق ذلك مع الجهاز العصبي؟» سأل نيتشه.

«صحيح. إن التغذية العصبية لليد لا تعمل بهذه الطريقة: إذ تُزوِّد اليد

بثلاثة أعصاب مختلفة هي: الكعبرية والزندية والمتوسطة، لكلّ منها أصل مختلف في الدماغ. في الحقيقة، يزود عصب واحد نصف أصابع اليد، ويزود عصب آخر النصف الآخر، لكن المريضة لا تعرف ذلك. يبدو كأن المريضة تتخيّل أن اليد مزودة بعصب واحد، «عصب اليد»، ثم ينشأ اضطراب ليتوافق مع مخيلتها».

«رائع». فتح نيتشه دفتر ملاحظاته ودوّن بضع كلمات. «افترض وجود امرأة خبيرة في تشريح جسم الإنسان، وأصيبت بالهستيريا. هل سيكون لديها شكل صحيح لتشريح المرض؟»

«أنا واثق من ذلك. فالهستيريا اضطراب افتكاري، لا تشريحي. هناك أدلة كثيرة على أنها لا تنطوي على أي ضرر تشريحي حقيقي للأعصاب. في الواقع، يمكن تنويم بعض المرضى مغنطيسياً، عندها تختفي الأعراض خلال دقائق».

«إذاً، هل الاستئصال بالتنويم المغناطيسي هو أسلوب العلاج المتبع حالياً؟»

«لا! للأسف، فالتنويم المغناطيسي ليس أسلوباً طبياً معاصراً، على الأقل ليس في فيينا. إن له سمعة سيئة، لأني أعتقد، بصورة رئيسية، أن الكثير من المنومين المغناطيسيين الأوائل كانوا نصابين لم يجروا أي تدريب طبي. كما أن العلاج بالتنويم المغناطيسي وقتي دائماً، لكن بما أنه مفيد حتى لفترة قصيرة، فإنه يقدم برهاناً على السبب النفسي للمرض».

فسأله نيتشه، «هل عالجت أنت نفسك مثل هؤلاء المرضى؟»

«عدد قليل منهم. هناك مريض عالجته لفترة طويلة، ينبغي أن أصف لك حالته، لا لأنني أوصي بأن تستخدم هذا العلاج معي، بل لأنها ستجعلنا نبدأ العمل على القائمة التي وضعتها، أظن البند رقم اثنين».

فتح نيتشه دفتر ملاحظاته، وقرأ بصوت عال، «محاصر بأفكار غريبة؟ لا أفهم. لماذا غريبة؟ وما هي العلاقة بالهستيريا؟»

«دعني أوضّح لك. أولاً، إني أطلق على هذه الأفكار عبارة «غريبة» لأنها تبدو أنها تغزوني من الخارج. لا أريد أن أفكّر بها، لكني عندما أبعدها عن تفكيري، فإنها تهرب لفترة وجيزة فقط، لكنها سرعان ما تعود، على نحو ماكر، وتتسلل إلى عقلي مرة أخرى. وما أنواع هذه الأفكار؟ حسناً، إنها أفكار عن امرأة جميلة، المريضة التي عالجتها من الهستيريا. هل لي أن أبدأ من البداية وأحكي لك القصة كلها؟»

لم يكن نيتشه فضولياً، لكنه بدا غير مرتاح لسؤال بريوير، فقال: «كقاعدة عامة، أقترح بأن تكشف فقط ما يكفي لكي أفهم المسألة. إني أحثك على ألا تحرج أو تهين نفسك؛ فلا شيء جيد يمكن أن يتمخض عن ذلك».

كان نيتشه رجلاً كتوماً. ويعرف بريوير ذلك جيداً، لكنه لم يتوقّع أن يطلب منه نيتشه أن يظل كتوماً. أدرك بريوير أنّ عليه أن يتخذ موقفاً من هذه المسألة: أن يكشف عن نفسه بالكامل بقدر الإمكان. عندها فقط، قال لنفسه، يستطيع نيتشه أن يعلم أنه لا توجد خشية من الانفتاح والصدق بين الناس.

«قد تكون محقّاً، لكن يبدو لي أنني كلما كنت قادراً على الإفصاح عن أعمق مشاعري، ازددت ارتياحاً».

تشنج نيتشه، لكنه أومأ لبريوير لمواصلة كلامه.

«بدأت القصة قبل سنتين، عندما طلبت مني إحدى مريضاتي أن أرعى ابنتها طبياً، سأطلق عليها اسم آنا لعدم الكشف عن هويتها الحقيقية».

«لكنك حدثتني عن طريقتك في انتقاء الأسماء المستعارة، لذلك فإن الحروف الأولى الحقيقية لاسمها لا بد أن يكون ب. باء».

ابتسم بريوير وقال لنفسه إن هذا الرجل مثل سيغ لا ينسى شيئاً. وتابع وصف تفاصيل مرض بيرثا، ثم قال: «ومن المهم أيضاً أن تعرف أن آنا و. هي في الحادية والعشرين من العمر، حادة الذكاء، على درجة عالية من الثقافة، وعلى قدر كبير من الجمال. هبّة، لا بل إعصار من الهواء النقي بالنسبة لرجل أخذ يقترب بسرعة من الأربعين! هل تعرف أي نوع من النساء التي أصفها؟»

تجاهل نيتشه السؤال قال: «وهل أصبحت طبيبها؟»

«نعم، وافقت على أن أصبح طبيبها، ولم أخن قط تلك الثقة. إن التجاوزات التي سأكشف عنها تنطوي على أفكار وتخيلات وليس على أفعال. دعني أولاً أركّز على العلاج النفسي.

«خلال لقاءاتنا اليومية كانت تدخل في حالة غيبوبة خفيفة تلقائياً وتحكي، أو على حد قولها، «تفرغ» كلّ الأحداث التي أثارت قلقها والأفكار التي اعترتها خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. وقد أثبتت هذه العملية التي أطلقت عليها «كنس المدخنة» فائدة كبيرة في مساعدتها على أن تشعر بأنها في حال أفضل خلال الأربع وعشرين الساعة التالية، إلا أنه لم يكن لها تأثير على أعراض الهستيريا التي كانت تعتريها. وفي أحد الأيام، اكتشفت أسلوب علاج فعّال».

ومضى بريوير يصف كيف أنه لم يتمكن من إزالة جميع أعراض بيرثا من خلال تتبع أسبابها الأصلية فحسب، بل كلّ جزء من مرضها عندما ساعدها على اكتشافه وإعادة معاناة سببه الأساسي وهو شرف موت والدها.

قال نيتشه الذي كان يدوّن ملاحظاته بحماسة: «أرى أن معالجتك

لهذه المريضة استثنائية! من الممكن أن تكون قد توصّلت إلى اكتشاف بالغ الأهمية في العلاج النفسي، وربما كان أيضاً ذا قيمة كبيرة لحل المشاكل التي تعاني منها. تعجبني إمكانية أن يساعدك اكتشافك هذا لأنه لا يستطيع شخص آخر أن يساعد المرء، بل عليه أن يجد القوّة لمساعدة نفسه. ربما كان عليك، مثل آنا و. أن تكتشف السبب الأصلي لكلّ مشكلة من مشاكلك النفسية، مع أنك قلت إنك لا تحبّذ هذا النهج في المعالجة لك. لم لا؟»

«لعدد من الأسباب»، ردّ بريوير بيقين سلطة طبية، «فحالتي تختلف تماماً عن حالة آنا.و. فأولاً، لا توجد عندي ميول نعاسية: فلم تعترني قط أي حالة غير عادية من حالات الوعي. هذا أمر مهم لأني أعتقد أن الهستيريا تنجم عن تجربة رضيّة تحدث بينما يكون الفرد في حالة شاذة من الوعي، لأن الذاكرة الرضيّة والإثارة اللحائية المتزايدة تتواجدان في وعي متبادل، لذلك لا يمكن «معالجتها» أو إدماجها أثناء المعاناة اليومية».

من دون أن يقاطعه، نهض بريوير وأذكى نار المدفأة، ووضع قطعة حطب أخرى وقال: «أيضاً، وربما الأهم، فإن الأعراض التي تنتابني ليست هستيرية لأنها لا تؤثّر على الجهاز العصبي أو على أحد أجزاء الجسم. تذكّر أن الهستيريا مرض أنثوي. إن حالتي هي أقرب *من الناحية النوعية* إلى القلق أو التعاسة الإنسانية الطبيعية .*ومن الناحية الكميّة*، بالطبع، فإنها تتضخم كثيراً.

«وثمة شيء آخر، فإن الأعراض التي تعتريني ليست شديدة: وقد تطوّرت ببطء خلال السنوات. انظر إلى قائمتك. لا أستطيع أن أحدد بداية دقيقة لأي من هذه المشاكل، لكن هناك سبباً آخر قد يجعل العلاج الذي اتبعته مع مريضتي غير مفيد لي. سبب مقلق بعض الشيء. فعندما كانت أعراض بيرثا...»

«بيرثا؟ كنت محقّاً عندما خمّنت أن الحرف الأول من اسمها هو ب».

أعمض بريوير عينيه بحزن، وقال: «أخشى أن أكون قد ارتكبت حماقة في قول ذلك. من المهم جداً بالنسبة لي ألا أنتهك حقّ مريضتي في السرية. خاصة هذه المريضة. لأن أسرتها معروفة في أوساط الجالية، ويعرف الجميع بأني طبيبها. لذلك، حرصت على ألاّ أتكلم كثيراً إلى الأطباء الآخرين عن علاجي لها، لكن يصعب استخدام اسم مستعار هنا، معك».

«أتقصد أنه يصعب التحدث بحرية وتحرّر نفسك من العبء، وفي الوقت نفسه، تظل حذراً بكلماتك خشية أن تستخدم الاسم الخاطئ؟»

فقال بريوير مطلقاً تنهيدة: «تماماً. لم يعد لديّ خيار الآن سوى مواصلة التحدث عنها باسمها الحقيقي، بيرثا، لكن يجب أن تقسم بأنك لن تكشف عن هذا الاسم لأي شخص».

عندما قال نيتشه «بالطبع» الجاهزة، أخرج بريوير علبة السيجار الجلدية من جيب سترته، استلّ منها سيجاراً، وعندما رفض رفيقه أن يأخذ واحداً، أشعل سيجاره، وسأله، «أين كنت؟»

«كنت تتحدّث عن السبب بأن طريقة معالجتك الجديدة قد لا تكون ذات صلة بمشاكلك، شيء عن سبب مقلق».

«نعم، السبب المقلق»، ونفث بريوير عموداً طويلاً من الدخان الأزرق قبل أن يتابع كلامه، «كنت على قدر من الحماقة عندما تبجّحت بالقول بأنني اكتشفت اكتشافاً مهماً عندما عرضتُ حالتها على حفنة من الزملاء وطلاب الطبّ. فبعد أسابيع قليلة، عندما انتقلت إلى طبيب آخر، علمت أن جميع أعراضها تقريباً قد عادت إليها. أترى مدى صعوبة موقفي؟»

فأجاب نيتشه، «صعوبة. لأنك تحدثت عن معالجة قد لا تكون حقيقية؟»

«أحلم غالباً بأن أعثر على الأشخاص الذين حضروا ذلك المؤتمر وأخبرهم واحداً واحداً بأن النتائج التي خلصت إليها ليست صحيحة. قلق ليس غريباً عليّ وهو أن آراء زملائي الخاطئة عني يحزنني حقاً. فعلى الرغم من تأكدي بأنهم يكنون لي احتراماً، فإني لا أزال أشعر بأنني محتال، وهذه مسألة أخرى تقلقني. أضفها إلى قائمتك».

فتح نيتشه دفتر ملاحظاته باهتمام ودوّن للحظة.

«أما الاستمرار مع بيرثا، فإني لا أعرف تماماً سبب انتكاستها. ربما كانت معالجتي، شأن معالجتي بالتنويم المغناطيسي، قد نجحت مؤقتاً فقط. لكن ربما كانت أيضاً المعالجة فعّالة، لكن النهاية الكارثية أبطلت مفعولها».

التقط نيتشه قلمه الرصاص ثانية، وسأله: «ماذا تقصد النهاية الكارثية؟»

«لكي تفهم، يجب أن أحدّثك أولاً عمّا رشح بيني وبين بيرثا. لا معنى لأن أكون مرهفاً حول ذلك. دعني أكون صريحاً وأقولها لك. أنا، ذلك الأحمق العجوز، أغرمت بها! أصبحت مهووساً بها. لم تعد تفارق تفكيري». في الحقيقة، دُهش بريوير لمدى سهولة أن يكشف المرء عن هذا القدر من مكنونات نفسه.

«كان يومي مقسّماً إلى قسمين وهما أن أكون مع بيرثا وأن أنتظر حتى أكون معها مرة أخرى! كنت ألتقي بها لمدة ساعة يومياً في الأسبوع، ثم بدأت زيارتها مرّتين في اليوم. عندما كنت أراها، كان ينتابني إحساس كبير بالنشوة، وعندما كانت تلمسني، كنت أشعر بإثارة جنسية».

«لماذا كانت تلمسك؟»

«كانت تجد صعوبة في المشي فتمسك بذراعي ونتمشى معاً. في غالب الأحيان، كانت التشنجات الحادّة المفاجئة التي تنتابها تتطلّب مني أن أجري تدليكاً عميقاً لعضلات فخذها. أحياناً كانت تبكي على نحو يثير الرثاء، فأضطر إلى ضمها بين ذراعي لأهدئ من روعها. وأحياناً، عندما أجلس بجانبها، كانت تدخل في غيبوبة تلقائياً وتضع رأسها على كتفي، و«تفرغ المدخنة لمدة ساعة، أو أنها تضع رأسها في حضني وتنام كطفلة. وفي مرات كثيرة كان كلّ ما يمكنني أن أفعله هو أن أحتوي مشاعري الجنسية».

فقال نيتشه: «ربما فقط لأن الرجل يستطيع أن يطلق عنان المرأة».

رفع بريوير رأسه، وقال: «لعلي أسأت فهمك. فكما تعرف، طبعاً، لا تجوز الممارسة الجنسية مع مريضة، شيء يتنافى مع قسم أبقراط الذي يقسمه الطبيب».

«والمرأة؟ ما مسؤولية المرأة؟»

«لكن هذه ليست امرأة. إنها مريضة! ربما لم أفهم قصدك».

«لنعد إلى ذلك لاحقاً»، أجاب نيتشه، «لم أسمع بعد النهاية الكارثية».

«حسناً، بدا لي أن بيرثا آخذة في التحسّن، فقد بدأت أعراضها تتلاشى، الواحد تلو الآخر. لكن طبيبها لم يعمل جيداً. بدأت زوجتي، ماتيلد، التي كانت تتفهم باستمرار وذات مزاج معتدل، تبدي استياءها أولاً من الفترة التي أمضيها مع بيرثا. لحسن الحظ، لم أكن من الحماقة لأخبر ماتيلد عن طبيعة مشاعري، لكنّي أظن أن الشكوك كانت تنتابها. وفي أحد الأيام، كلّمتني غاضبة وطلبت ألاّ أذكر اسم بيرثا أمامها. بدأت أشعر بالضيق من زوجتي، بل نبتت لديّ فكرة لا عقلانية بأنها تقف في طريقي، بأني لولاها لكان بإمكاني أن أبدأ حياتي مع بيرثا».

توقّف بريوير الذي لاحظ أن نيتشه أغمض عينيه، ثمّ قال: «هل أنت على ما يرام؟ هل نلت ما يكفي ليوم واحد؟»

«إني أستمع. أحياناً أرى أفضل بعينين مغمضتين».

«حسناً، ثمة عامل آخر زاد الأمر تعقيداً. فقد كانت تعمل عندي ممرضة تدعى إيفا بيرغر، قبل السيدة بيكر، وخلال السنوات العشر التي عملت فيها في عيادتي، أصبحت صديقة مقرّبة ومؤتمنة على أسراري. ازداد قلق إيفا كثيراً، فقد ساورها القلق بأن يؤدي تعلقي ببيرثا إلى الدمار، وأنّني لن أتمكن من مقاومة دوافعي وأقدم على حماقة. في الحقيقة، بدافع صداقتها لي، وقعت ضحية».

فتح نيتشه عينيه بقوة. رأى بريوير قدراً كبيراً من بياض العين.

«ماذا تعني بضحية؟»

«كانت كلماتها تنطوي على أنها مستعدة للقيام بأي عمل يمنعني من تدمير نفسي. إن إيفا تعرف جيداً أنه لا يوجد بيني وبين ماتيلد أي علاقة جنسية، وظنّت أن ما جعلني أتمسك ببيرثا. اعتقدت أنها قدمت لي نفسها لكي تخفف من حدة توتّري الجنسي»

«وهل تعتقد أنّها فعلت ذلك من أجلك؟»

«أني مقتنع بذلك. إن إيفا امرأة جذّابة ويمكنها جذب العديد من الرجال. أؤكد لك أنها لم تعرض نفسها عليّ من أجل وسامتي: فهذا الرأس الذي أخذ ينتشر الصلع فيه، وهذه اللحية التي تشبه الشوك، وهذين المقبضين»، ولمس أذنيه الكبيرتين المنتصبتين، «كما يطلق عليهما رفاقي في اللعب دائماً. كما أنها أسرّت لي ذات مرة، قبل سنوات، بأنها أقامت علاقة حميمية مدمرة مع ربّ عمل كانت تعمل لديه كلّفها عملها في نهاية الأمر، وأقسمت بأن لا تفعل ذلك مرة أخرى أبداً».

«وهل أفادت تضحية إيفا؟»

متجاهلاً هذا الشكّ، بل ربما السخرية في لفظ كلمة «تضحية»، أجاب بريوير كأمر واقع، «لم أقبل عرضها قط. كنت غبياً عندما خيّل لي أن النوم مع إيفا سيكون خيانة لبيرثا. في بعض الأحيان، أشعر بالأسف على ذلك كثيراً».

«لا أفهم»، قال نيتشه، مع أن عينيه ظلتا واسعتين من شدة الاهتمام. فقد ظهرت عليهما أمارات التعب كما لو أنه رأى الآن وسمع أكثر مما ينبغي، «لمَ تشعر بالأسف؟»

«لعدم قبول عرض إيفا، طبعاً. غالباً ما أفكّر بتلك الفرصة الضائعة. إنها فكرة أخرى من تلك الأفكار القبيحة التي تساورني»، وأشار بريوير إلى دفتر ملاحظات نيتشه، وقال: «دوّنها في القائمة».

تناول نيتشه قلم الرصاص مرة أخرى، وبينما راح يضيف بنداً آخر إلى قائمة مشاكل بريوير المستفيضة، سأل، «هذا الأسف، لا أزال لا أفهمه. لو كنتَ قد قبلت إيفا، فكيف كنت ستكون مختلفاً الآن؟»

«مختلفاً؟ ما علاقة ذلك بأن أكون مختلفاً؟ كانت فرصة فريدة. فرصة لن تواتيني مرة أخرى».

«كانت أيضاً فرصة فريدة لأن تقول *لا المباركة*. أن تقول لا لشخص مفترس. وتلك الفرصة التي انتهزتها».

ذهل بريوير من تعليق نيتشه. من الواضح أن نيتشه لا يعرف شيئاً عن التوق الجنسي. لكن لم يكن من الجدوى مناقشة هذا الأمر الآن. أو لعله لم يوضح أن إيفا قد تكون وفق ما يشتهيه. ألم يفهم نيتشه أن على المرء أن يغتنم الفرصة عندما تتاح له؟ ومع ذلك هناك شيء غريب يكتنف عبارة *لا المباركة*. إنها مزيج غريب، قال بريوير لنفسه، من نقاط عمياء

ضخمة وأصالة سريعة كالبرق. مرة أخرى، خطر لبريوير أنه ربما كان لدى هذا الرجل الغريب شيء قيّم يقدمه له.

«أين كنّا؟ آه، نعم، الكارثة النهائية! كنت أعتقد طوال الوقت أن علاقتي الجنسية مع بيرثا كانت ذاتية كلياً، أي أن ذلك لا يحدث إلا في عقلي، وأنني أخفيتها تماماً عنها. تخيّل صدمتي عندئذ، عندما أخبرتني أمّها ذات يوم بأن بيرثا أعلنت أنها حامل بطفل من الدكتور بريوير».

وصف بريوير غضب ماتيلد عندما سمعت عن الحمل الكاذب وطلبها الغاضب بأن يحوّل بيرثا فوراً إلى طبيب آخر وأن يطرد إيفا أيضاً.

«وماذا فعلت؟»

«ماذا يمكنني أن أفعل؟ كانت مهنتي كلها، أسرتي، حياتي برمتها مهدّدة بالضياع. كان أسوأ يوم في حياتي. تعيّن عليّ أن أطلب من إيفا أن تغادر. بالطبع، اقترحت عليها أن تظل تعمل عندي حتى أساعدها على إيجاد عمل آخر. بالرغم من أنها قالت إنها فهمت، ولم تعد إلى العمل في اليوم التالي، ولم أرها قط بعد ذلك. كتبت لها عدّة مرات، لكنّها لم تجب على رسائلي.

«أما بالنسبة لبيرثا، فقد كانت الأمور أسوأ. فعندما زرتها في اليوم التالي، زال هذيانها، وزال معه وهمها بأنني حبّلتها. في الواقع، نسيت الحادثة تماماً وكانت ردة فعلها عنيفة عندما أخبرتها بأنه لم يعد بإمكاني أن أظل طبيبها، فبكت وتوسلت أن أغيّر رأيي ورجتني أن أخبرها ما هو الخطأ الذي ارتكبته. وبالطبع، *لم ترتكب أي خطأ*. فقد كان هيجانها بشأن طفل الدكتور بريوير جزءاً من الهستيريا التي أصابتها. لم تكن تلك كلماتها، إنما كلامها أثناء هذيانها».

«وهذيان من كان ذلك؟» سأل نيتشه.

«بالطبع هذيانها هي، لكن ليست هي المسؤولة عنه، فالمرء لا

يتحمل المسؤولية عن الأحداث الغريبة العشوائية التي يراها في حلم. ففي مثل هذه الحالة، يقول الناس أشياء غريبة غير مترابطة».

«لا تبدو لي كلماتها غير مترابطة أو عشوائية. لقد اقترحت يا دكتور بريوير أن أقول أيّ شيء يخطر لي. دعني أبدي ملاحظة: إني أجد من الرائع بأنك تتحمل المسؤولية عن كلّ أفكارك وكلّ أعمالك، أما هي، كان صوت نيتشه صارماً وراح يهزّ إصبعه في وجه بريوير، فهي مبرّأة *من كلّ شيء* بسبب مرضها».

«لكن بروفسور نيتشه، كما تقول أنت فالقوّة هي التي تهم. فأنا أمتلك القوّة بسب موقعي. كانت تنظر إليّ وتطلب مني المساعدة. كنت أدرك نقاط ضعفها، أعرف أنها كانت تحبّ والدها كثيراً، وأن موته عجّل في إصابتها بالمرض، وأعرف أيضاً أنّها صبّت كل حبها له عليّ، وقد استغللت ذلك. لقد أردتها أن تحبّني. هل تعرف ماذا كانت آخر كلماتها لي؟ بعد أن قلت لها إنني سأحوّلها إلى طبيب آخر، صاحت، *ستكون دائماً الرجل الوحيد بالنسبة لي. لن يكون هناك رجل آخر في حياتي غيرك*. كلمات فظيعة! دليل على مقدار جرحي لمشاعرها. لكن كان هناك شيء أفظع، فقد استمتعت بهذه الكلمات! استمتعت بسماعها وهي تعترف بقوّتي عليها! كما ترى فقد تركتها ضعيفة، معاقة. كان بإمكاني أيضاً أن أقيّد قدميها وأشوههما».

فسأل نيتشه، «منذ أن رأيتها آخر مرة، ماذا حلّ بمصير بهذه المعاقة؟»

«أُدخلت إلى مصحّة أخرى في كريوزلنجين. فقد عادت إليها الكثير من أعراضها السابقة: تقلّب في المزاج، فقدان لغتها الأمّ في الصباح، وألمها الفظيع الذي لا يمكن الحد منه إلا بالمورفين الذي أدمنت عليه. وثمة شيء مهم أيضاً، فقد أغرم بها طبيبها الجديد، لكنه تخلى عن معالجتها، ثم عرض عليها الزواج».

«آه، نفس الشيء يتكرر مع الطبيب الآخر، هل لاحظت ذلك؟»

«لا لم ألاحظ. لكن فكرة أن تكون بيرثا مع رجل آخر تدمرني. أرجو أن تضيف الغيرة إلى قائمتك: إنها إحدى مشاكلي الرئيسية. أتخيّل أنهما يتكلمان، يلمس أحدهما الآخر، بل حتى يمارسان الحبّ. بالرغم من أن هذه التخيلات تسبب لي ألماً شديداً، فإني لا أزال أعذّب نفسي. هل يمكنك أن تفهم ذلك؟ هل شعرت بمثل هذه الغيرة من قبل؟»

أحدث هذا السؤال نقطة تحوّل في الجلسة. في البداية، تعمّد بريوير البوح عن نفسه ليضع نموذجاً لينتشه، راجياً أن يشجعه على أن يفعل الشيء نفسه، لكنه سرعان ما دخل تماماً في عملية الاعتراف. لا خطر من ذلك لأن نيتشه الذي ظن جدياً أنه يعالج بريوير أقسم بالحفاظ على السريّة.كانت تجربة جديدة بالنسبة له، فلم يسبق أن أفضى بريوير هذا القدر عن نفسه. هناك ماكس. لكن مع ماكس كان يريد أن يحافظ على صورته وكان يختار كلماته بحذر وعناية. وحتى مع إيفا بيرغر، كان يحجم عن الإفصاح عن نفسه، يخفي مواطن الضعف في حياته، تردده وشكوكه الذاتية، تلك الصفات التي قد تجعل رجلاً متقدماً في السنّ يبدو ضعيفاً أو ثقيلاً أمام شابّة جذّابة.

لكنه عندما بدأ يصف مشاعره بالغيرة من بيرثا وطبيبها الجديد، عاد بريوير يؤدي دور طبيب نيتشه. لم يكن يكذب، فقد انتشرت حقاً إشاعات عن بيرثا وطبيب آخر، وشعر بالغيرة، لكنّه بالغ في مشاعره لكي ينظم البوح الذاتي لدى نيتشه. فلا بد أن نيتشه عانى من الغيرة في العلاقة «الفيثاغورثية» التي ضمته هو ولو سالومي وبول ري.

بيد أن هذه الطريقة لم تثبت جدواها. فعلى الأقل، لم يظهر نيتشه أي اهتمام غير عادي في هذه المسألة. فلم يفعل شيئاً سوى أنه أخذ يهز رأسه بغموض، ويقلّب صفحات دفتره، ويدقق في ملاحظاته. لاذ الرجلان بالصمت. راحا يحدّقان في النار التي أخذت تخبو. مدّ بريوير

يده إلى جيبه وأخرج ساعة ذهبية ثقيلة، هدية من أبيه حُفِرت على الجانب الخلفي منها عبارة «إلى جوزيف، ابني. انقل روح روحي إلى المستقبل». نظر إلى نيتشه. هل تعكس هاتان العينان المرهقتان الأمل بأن هذا اللقاء يقترب من نهايته؟ حان وقت الذهاب.

«بروفسور نيتشه، إني أشعر بالارتياح عندما أتحدث إليك. لكن لديّ مسؤولية تجاهك أيضاً، وأذكر أنني وصفت لك الراحة لكي تتفادى إصابتك بالشقيقة، لكني لم أفعل ذلك وجعلتك تنصت إليّ طويلاً. فكرة أخرى: تذكّرت ما حكيته لي عن يوم نموذجي في حياتك، لا توجد فيه أي علاقات مباشرة كثيرة مع أشخاص آخرين. هل هذه جرعة كبيرة أعطيتها لك دفعة واحدة؟ لا التكلم لفترة طويلة والاستماع فحسب، بل التحدث أيضاً عن تفاصيل كثيرة عن الحياة الحميمة لشخص آخر؟»

«إن اتفاقنا يدعو إلى الصدق والأمانة، يا دكتور بريوير، وليس من الأمانة أن أعارضك الرأي. لقد أنجزنا الكثير اليوم، وأنا مرهق». ارتمى على كرسيه، ثم قال: «لكن لا، لم أسمع أموراً كثيرة عن حياتك الحميمة فحسب، لكني أتعلّم منك أيضاً. كنت أقصد عندما قلت إنك يجب أن تبدأ من الصفر إذا أردت أن تتعلم كيف تحكي لأشخاص آخرين عنك».

عندما نهض بريوير ومدّ يده ليأخذ معطفه، أضاف نيتشه، «شيء آخر. لقد تحدثت كثيراً عن البند الثاني في قائمتنا: تراودك أفكار غريبة. لعلنا استنزفنا اليوم هذا البند، وأقدّر الآن كيف أن هذه الأفكار التافهة تغزو عقلك وتهيمن عليه. مع أنها أفكارك أنت، وهذا عقلك أنت، فإني أتساءل ما الفائدة التي يمكن أن تجنيها لكي تسمح لذلك أن يحدث، أو بعبارة أقوى، في جعلها تحدث».

تسمّر بريوير الذي أدخل ذراعاً في كمّ معطفه في مكانه. «أجعلها تحدث؟ لا أعرف. كلّ ما أستطيع أن أقوله هو أنني من الداخل، لا

أشعر بهذه الطريقة. أشعر كأنها تحدث لي. إن قولك بأنني أجعلها تحدث ـ كيف يمكنني قول ذلك؟ لا معنى عاطفي بالنسبة لي».

«يجب أن نجد طريقة لإعطائها معنى». نهض نيتشه وتوجّه نحو الباب مع بريوير. ثم قال: «لنحاول تجربة فكرية. من أجل حديثنا غداً، أرجو أن تفكر في هذا السؤال: لو لم تكن تفكّر بهذه الأفكار الغريبة، فبماذا كنت ستفكر؟»

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات حالة الدكتور بريوير عن إكارت موللر، ٥ كانون الأول ١٨٨٢

بداية ممتازة. أُنجز الكثير. فقد وضع قائمة بالمشاكل التي أعاني منها والسبل التي سيركز على كل منها في كلّ مرة. جيد. دعه يظن أن هذا ما نفعله. فلكي أشجعه على الاعتراف، عرّيت نفسي أمامه اليوم.

لم يبادلني ذلك، لكن، مع مرور الوقت، سيحدث ذلك. لا بد أنه مندهش من صراحتي وانفتاحي.

لديّ فكرة مثيرة للاهتمام! سأصف حالته كما لو أنها حالتي. ثمّ أدعه يقدم لي النصح، وبهذه الطريقة يقدّم النصح لنفسه بصمت.بهذه الطريقة، يمكنني أن أساعده أن يشتغل على مثلثه ـ مع لو سالومي وبول ري ـ بأن يطلب مساعدتي لمثلثي أنا بيرثا وطبيبها الجديد. إنه رجل كتوم جداً؛ لذلك لعلها الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أقدم له المساعدة. ربما لن يطلب المساعدة مباشرة.

لديه عقل مبدع، لذلك لا يمكنني أن أتنبأ بردة فعله. لعل لو سالومي على حقّ. ربما كان مقدراً له أن يكون فيلسوفاً عظيماً. ما دام يتفادى موضوع البشر! ففي معظم السمات المتعلقة بالبشر، لديه نقاط عمياء هائلة. لكن عندما يتعلق الأمر بموضوع النساء، فهو بربري، قلما يكون

بشراً. مهما كانت تلك المرأة أو الحالة، فإن ردّة فعله متوقّعة: فالمرأة مفترسة وماكرة. ويمكن التنبؤ بنصيحته عن المرأة أيضاً: لومها ومعاقبتها! نعم، وسيلة أخرى ـ تحاشاهن.

أما المشاعر الجنسية: فهل توجد لديه أي منها؟ هل يعتبر المرأة شديدة الخطر؟ لا بد أنه يشعر بالرغبة الجنسية. لكن ماذا حدث لها؟ هل هي حبيسة، هل يمكن أن تنطلق بمجرد الضغط عليها بطريقة ما؟ أتساءل هل يمكن أن يكون ذلك هو مصدر داء الشقيقة؟

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات فريدريك نيتشه حول الدكتور بريوير، ٥ كانون الأول ١٨٨٢

القائمة تزداد. فقد أضاف الدكتور بريوير إلى قائمتي المؤلفة من ستة بنود، خمسة بنود أخرى هي:

٧ ـ الإحساس بأنه وقع في الشرك بسبب الزواج، الحياة.

٨ ـ الإحساس بالبعد عن زوجته.

٩ ـ الشعور بالأسف لرفض «تضحية» إيفا الجنسية.

١٠ ـ القلق الشديد من آراء الأطباء الآخرين به.

١١ ـ الغيرة: بيرثا والرجل الآخر.

هل ستنتهي القائمة؟ هل سيفرّخ كلّ يوم مشاكل جديدة؟ كيف يمكنني أن أجعله يرى بأن مشاكله تتطلب الاهتمام لكي تحجب المشاكل التي لا يريد أن يراها؟ أفكار تافهة تتسلل إلى عقله كالفطر. في نهاية الأمر ستفسد جسمه كله وتجعله يبلى. عندما كان على وشك المغادرة اليوم، سألته، ماذا سيرى إذا لم تكن تعميه التوافه. هكذا أشرت إلى الطريق. هل سيسلكها؟

إنه مزيج غريب ـ ذكي لكنه أعمى، صادق لكنه مخادع. هل يعرف عدم صدقه؟ يقول إني أساعده. إنه يمتدحني. هل يعرف كم أكره الهدايا؟ هل يعرف أن الهدايا تخدش جلدي وتزعزع نومي؟ هل هو من أولئك الأشخاص الذين يدّعون بأنهم يعطون ـ فقط لانتزاع الهدايا؟ لن أعطيها له. هل هو من الذين يوقّرون الوقار؟ هل يريد أن يعثر عليّ بدلاً من أن يعثر على نفسه؟ يجب ألاّ أعطيه شيئاً! عندما يحتاج صديق إلى مكان للراحة، من الأفضل أن تقدم له سريراً صلباً.

إنه شخص رائع، متعاطف. احذر! في بعض الأمور أقنع نفسه بأنه سيرتقي إلى الأعلى، لكن لم تقتنع أحشاؤه. بالنسبة للنساء، قلما يكون إنسانياً. مأساة، أن يتمرّغ في ذلك الوحل! أعرف ذلك الوحل: من الجيد أن تنظر إلى الأسفل وأن ترى ما أمكنني التغلّب عليه.

إن أعظم شجرة تبلغ عنان السماء، وتغوص جذورها في أعماق الأرض، في الظلام ـ حتى الشرّ؛ لكنّه لا يرتقي إلى الأعلى ولا يهبط إلى الأسفل. الشهوة الحيوانية تستنزف قوّته وعقله: ثلاث نساء يمزّقنه، ويشعر بالامتنان لهن. يلعق أنيابهن الدموية.

إحداهن ترشّه بعطرها المسك وتدّعي أنها ضحية. تعرض عليه «هدية» العبودية ـ عبوديته.

الأخرى تعذّبه. تتظاهر بالضعف لتلتصق به. تتظاهر بأنها نائمة لتضع رأسها فوق رجولته، وعندما تملّ من هذه العذاب القليل، تذلّه على الملأ. عندما تنتهي اللعبة، تمضي قدماً وتواصل حيلها مع الضحيّة التالية. إنه لا يرى كلّ هذا. مهما فعلت، يشعر بالشفقة على مرضها، ويحبّها.

أما المرأة الثالثة فتأسره في عبودية دائمة. لكني أفضّل هذه. فعلى الأقل فإنها لا تخفي مخالبها!

***

رسالة إلى لو سالومي من فريدريك نيتشه، كانون الأول ١٨٨٢

عزيزتي لو،

... بالنسبة لي فإنك أفضل داعم لي لكنك أيضاً القاضي الأشد قسوة! أطلب أن تحاكمي نفسك وأن تقرّري عقابك... فقد قرّرت أن أعود إلى أورتا لأكشف عن فلسفتي كلها. لا توجد لديك فكرة ماذا كان القرار: كنت أعتقد أنني لا أستطيع أن أقدّم لأحد هدية أفضل...

كنت أنحو آنذاك لأن أعتبرك رؤية ومظهراً لمثاليتي الدنيوية. أرجو أن تلاحظي أن قدرتي على الرؤية سيئة للغاية!

أظن أنه لا يوجد أحد يمكنه أن يفكّر أفضل منك، لكن أيضاً ليس أسوأ.

لو كنت قد خلقتك لمنحتك صحة أفضل وأكثر من ذلك بكثير... وربما المزيد من الحبّ لي (على الرغم من أن لهذا أدنى قدر من الأهمية) وسينطبق الأمر على الصديق ري. لا أستطيع أن أقول لك أو له كلمة واحدة عن الأمور التي تشغل قلبي. يخيّل لي أنك لا تعرفين ما أريد على الإطلاق؟ لكن هذا الصمت يكاد يخنقني لأنني مولع بكما.

الفصل ١٥

بعد جلستهما الأولى، خصص بريوير بضع دقائق أخرى من وقته الرسمي لنيتشه: يدوّن ملاحظاته في سجّل إكارت موللر، ويشرح للممرضات عن حالته المتعلقة بالشقيقة، وعندما يعود إلى مكتبه، يكتب تقريراً شخصياً في دفتر يشبه الدفتر الذي يستعمله نيتشه في تدوين ملاحظاته.

لكن في الأربع والعشرين ساعة التالية، بدأ نيتشه يأخذ معظم وقت بريوير الذي كان مخصصاً لمرضى آخرين ومن وقت ماتيلد وأطفاله، والأهمّ من كلّ ذلك، من وقت نومه. ففي فترات النوم المتقطع في ساعات الليل الأولى، كان بريوير يحلم أحلاماً واضحة مزعجة.

فقد حلم بأنّه هو ونيتشه يتحدثان معاً في غرفة لا توجد فيها جدران ـ ربما كان في مسرح. كان العمّال الذي يمرّون بجانبهما يحملون قطع أثاث. كان يبدو أن الغرفة مؤقتة، كما لو أنه يمكن طيها ونقلها إلى مكان آخر.

وفي حلم آخر، رأى نفسه جالساً في حوض حمّام. عندما فتح صنبور الماء تدفق سيل من الحشرات وقطع آلات صغيرة، وتدلت كرات كبيرة من الوحل من فوهة الصنبور في خيوط طويلة مثيرة للاشمئزاز. شوّشته قطع الآلات، وأثار الوحل والحشرات اشمئزازه. في الساعة الثالثة، أفاق من كابوسه المتكرّر: الأرض تهتز، البحث عن

بيرثا، الأرض تميد تحت قدميه. انزلق داخل الأرض، وغاص مسافة أربعين قدماً قبل أن يستقر فوق تلك البلاطة التي حُفرت عليها رسالة غير مقروءة.

ظلّ بريوير صاحياً، يستمع إلى دقات قلبه. حاول أن يهدئ من روعه بالانشغال بأمور فكرية. تساءل أولاً لماذا تصبح الأشياء التي تبدو براقة ولطيفة في الساعة الثانية عشر ظهراً تقطر بالخوف في أحيان كثيرة عند الثالثة صباحاً. عندما لم يحصل على إجابة مقنعة، انتقل إلى مسألة أخرى، وحاول أن يتذكر كلّ ما باح به لنيتشه في ذلك اليوم. لكنه كلما تذكّر أكثر، ازداد ارتباكاً واضطراباً. هل باح له بأشياء كثيرة؟ هل ما قاله نفّر نيتشه منه؟ ما الذي جعله يفشي بسرّه وبمشاعره المخجلة عن بيرثا وإيفا؟ في ذلك الوقت بدا ملائماً التحدث عن كلّ شيء للتكفير عما ارتكبه، أما الآن فراح يتذلّل ليعرف ما رأي نيتشه به. وبالرغم من أن نيتشه يحمل آراء متزمّتة عن الجنس، فقد بادره بهذا الحديث الجنسي. ربما تعمّد ذلك، ربما كان يتوارى وراء ستار المرض، ربما كان يهدف إلى صدمه وإغضابه. لكن لماذا؟

لكن سرعان ما انسلّت بيرثا، الإمبراطورة التي تسيطر على عقله، إلى مجال رؤيته، مسطّحة ومبدّدة أفكاره الأخرى، مطالبة بتركيز اهتمامه عليها فقط. كانت جاذبيتها الجنسية قوية في تلك الليلة: بيرثا تحلّ أزرار رداء المستشفى الذي ترتديه ببطء وباستحياء. بيرثا العارية تدخل في غيبوبة. بيرثا تحتضن ثدييها بيديها وتومئ إليه بأن يقترب. حلمتها الناعمة المشرئبة تملأ فمه. بيرثا تباعد بين ساقيها، وتهمس «خذني»، وتشدّه إليها. كان بريوير ينبض شهوة. فكّر بأن يتقرب من ماتيلد ليفرّج عن نفسه، لكنه لم يعد يحتمل النفاق والشعور بالذنب، مرة أخرى، لأن يستخدم جسدها بينما يتخيّل بيرثا تحته. نهض مبكراً واتجه إلى الحمّام.

في وقت لاحق من ذلك الصباح، قال بريوير لنيتشه وهو يراجع

سجل المستشفى: «يبدو أن هير موللر نام أفضل بكثير من الدكتور بريوير». حكى له ما جرى في تلك الليله: نوم متقطع، فزع، أحلام، هاجس، شعوره بالقلق لأنه كشف الكثير عن نفسه.

خلال الحديث كان نيتشه يهزّ رأسه ويدوّن أحلام بريوير في دفتره، ثم قال: «كما تعرف أنا أيضاً عرفت ليالي كليلة البارحة، بغرام واحد فقط من الكلورال نمت خمس ساعات متتالية، لكن مثل هذه الليلة نادر. مثلك، حلمت بأنني أختنق من الفزع الليلي. مثلك تساءلت كثيراً لماذا تسود المخاوف في الليل. بعد عشرين سنة من هذا التساؤل، بدأت أعتقد الآن أن المخاوف لا تولد من الظلام، بل إنها، شأن النجوم - كامنة دائماً، لكن نور الشمس يحجبها».

نهض نيتشه من السرير ومشى مع بريوير عبر الغرفة ليجلس كل منهما على كرسيه بجانب الموقد، ثم واصل نيتشه كلامه، «إن الأحلام لغز رائع مجيد يجب فهمها. إني أحسدك على أحلامك. فأنا قلما أتذكر أحلامي. إني لا أتفق مع الطبيب السويسري الذي نصحني ذات مرة بأن لا أضيّع وقتي في التفكير بالأحلام لأنها ليست سوى فضلات عشوائية، الفضلات التي يطرحها العقل في الليل، وقال إن العقل يطهّر نفسه كلّ أربع وعشرين ساعة بإفراغ الأفكار التي تخطر للمرء أثناء النهار من خلال الأحلام».

توقّف نيتشه لقراءة ملاحظاته عن أحلام بريوير، ثم قال: «إن متاهتك الليلية تحيّرني تماماً، لكنّي أظن أن حلميك الآخرين انبثقا من مناقشتنا البارحة. تقول لي إنك ربما بحت بأمور كثيرة، ثمّ حلمت بغرفة واسعة لا جدران لها، وكان الحلم الآخر، الصنبور والمخاط والحشرات، ألا يدعم خوفك بأنك أخرجت أشياء كثيرة من الظلام، أجزاء قبيحة عن نفسك؟»

«نعم، من الغريب كيف أخذت هذه الفكرة تتطور أكثر وأكثر مع

تقدم الليل. انتابني شعور بالقلق بأنني ربما أسأت إليك، صدمتك أو جعلتك تشعر بالاشمئزاز. ساورني القلق بالطريقة التي يمكن أن تنظر فيها إليّ».

«لكن ألم أتوقع ذلك؟» قال نيتشه الذي جلس القرفصاء أمام كرسي بريوير، وراح ينقر بقلمه الرصاص على دفتره ليؤكد ما يقوله، ثم أضاف، «إن ما كنت أخشاه هو إحساسك بالقلق كيف سأشعر تجاهك، لذلك طلبت منك بأن لا تبوح بأكثر مما ينبغي لك أن تبوح به لكي أفهم مشكلتك. أرجو أن أتمكن من مساعدتك على أن تكبر وتنمو، لا على أن تضعف نفسك بالاعتراف بعيوبك».

«لكن بروفسور نيتشه، هنا نختلف كثيراً. في الواقع اختلفنا في الأسبوع الماضي حول هذه المسألة. دعنا نحاول التوصل إلى نتيجة أكثر ودية هذه المرة. أذكر أنك قلت، وقرأت ذلك أيضاً في كتبك، أنه يجب فهم جميع العلاقات على أساس القوّة. مع أني لا أعتبر هذا الأمر صحيحاً. إني لا أتنافس معك ولست مهتماً بأن أهزمك. لا أبغي سوى مساعدتك على استعادة حياتي. يبدو أن ميزان القوى بيننا، من هو الرابح ومن هو الخاسر أمر تافه لا أهمية له».

«إذاً، دكتور بريوير، لماذا تشعر بالخجل لأنك أظهرت بواطن ضعفك لي؟»

«لا لأنني خسرت شيئاً من المنافسة معك! من يعبأ بذلك؟ إني أشعر بالندم لسبب واحد فقط وهو أني أقدّر رأيك بي كثيراً، وبعد اعترافي الصريح البارحة، أخشى أن تغيّر نظرتك نحوي. راجع قائمتك»، وأومأ بريوير برأسه نحو دفتر نيتشه، وأضاف «تذكّر البند المتعلق بكره الذات، رقم ثلاثة على ما أظن. إني أبقي نفسي الحقيقية مخبأة لأنه توجد أشياء حقيرة كثيرة في داخلي، ثمّ أزداد كراهية من نفسي لأنني انقطعت عن

أناس آخرين. لو تمكنت من كسر هذه الحلقة المفرغة، لتمكنت من البوح عن نفسي للآخرين».

«ربما، لكن انظر»، وأشار نيتشه إلى البند العاشر المدون في دفتره، «هنا تقول إنك تعير اهتماماً كبيراً لآراء زملائك. لقد عرفت عدداً كبيراً من الأشخاص ممن يكرهون أنفسهم ويحاولون تصحيح ذلك بإقناع الآخرين أولاً بأن يحسنوا الظن بهم، وعندما يتم لهم ذلك، يبدأون يحسّنون أنفسهم. لكن ليس هذا حلاً صحيحاً، لأن ذلك يعد استسلاماً لسلطة الآخرين. إن واجبك أن تقبل نفسك، لا أن تبحث عن سبل لتكسب قبولي لك».

بدأ رأس بريوير يدور. لديه عقل سريع ثاقب، لذلك لا يمكن التفوق عليه عقلياً. لكن يبدو من الواضح أن الجدال العقلاني مع نيتشه غير مستحب، لأنه لا يمكن أن يهزمه أو يقنعه بأيّ شئ يعارض موقفه. وخلص بريوير إلى أنه ربما استطاع أن يحرز نتيجة أفضل لو اتبع منهجاً لا عقلانياً.

«لا، لا، لا! صدّقني، بروفسور نيتشه، مع أن ذلك يبدو معقولاً، لكنه لا يجدي نفعاً معي! أعرف أني أحتاج إلى قبولك. إنك محقّ: فالهدف النهائي هو ألاّ يكون المرء خاضعاً لآراء الآخرين، لكن الوسيلة لتحقيق هذا الهدف، وأنا أتحدّث هنا عن نفسي لا عنك، هي أن أعرف أنني لم أتجاوز حدود اللياقة المقبولة. يجب أن أكون قادراً على أن أبوح بكلّ شيء عن نفسي لشخص آخر وأن أتعلّم بأنني أنا أيضاً... مجرد إنسان».

وأضاف مستدركاً، «إنسان، إنسان بكل معنى الكلمة».

جلب عنوان كتابه ابتسامة إلى وجه نيتشه. «*اللمس*، دكتور بريوير.

من يمكنه أن يختلف حول هذه العبارة الملائمة؟ بدأت أتفهم مشاعرك الآن، لكني لا أعرف ما مدى تأثيرها على طريقتنا».

اختار بريوير كلماته بعناية في هذه النقطة الحسّاسة.

«ولا أنا. لكنّي أعرف أنّني يجب أن أقلل من شدة حذري. لن ينفع أن أكون حذراً بما أفضيه لك. دعني أحكي لك حادثة جرت مؤخراً قد تكون ذات أهمية. كنت أتكلّم مع نسيبي، ماكس. لم أتحدّث قط مع ماكس عن أموري الحميمة لأني أرى أنه شخص غير حساس من الناحية النفسية. فقد انحدر زواجي إلى درجة أصبحت أشعر فيها بالحاجة إلى مناقشة الأمر مع أحدهم. حاولت إثارة الموضوع أثناء حديث لي مع ماكس، لكن الخجل سرعان ما تملكني ووجدت صعوبة كبيرة في مواصلة حديثي. ثمّ، وبطريقة ما، لم أتوقّع أن يبادلني ماكس بالكشف عن صعوبات مماثلة يواجهها في حياته. على نحو ما، حرّرني الكشف عن نفسه، وللمرة الأولى في حياتنا، دار بيننا، أنا وهو، حديث شخصي. لقد ساعدني ذلك كثيراً».

«عندما تقول *ساعدت*»، سأله نيتشه على الفور، «هل تقصد أن شعورك باليأس قد تناقص؟ أو أن علاقتك مع زوجتك قد تحسّنت؟ أو أن المناقشة كانت بمثابة تكفير مؤقت؟؟»

آخ! أدرك بريوير أنه وقع في الفخ. فإذا ادّعى أن حديثه مع ماكس كان مفيداً حقاً، عندها سيسأل نيتشه لماذ إذاً يحتاج إلى استشارته، هو نيتشه. انتبه، انتبه.

«لا أعرف ماذا أقصد. لا أعرف إلا أنني شعرت بأنني أصبحت في حال أفضل. في تلك الليلة لم أظل صاحياً طوال الليل ولم يعترني شعور بالخجل. ومنذ ذلك الحين، بدأت أشعر بمزيد من الانفتاح، وأصبحت أكثر استعداداً لمواصلة الكشف عن نفسي».

لا يسير الأمر على ما يرام، قال بريوير لنفسه. ربما كان طلباً بسيطاً مباشراً أفضل.

«إني متأكد يا بروفسور نيتشه من أنني سأعبّر عن نفسي بمزيد من الصدق لو ضمنتُ قبولك. فعندما أتحدّث عن حبّي أو عن غيرتي الاستحواذية، فإن ذلك يساعدني في معرفة عما إذا كنت قد تعرضت لمثل هذه الأمور أيضاً. فعلى سبيل المثال أشك بأنك ترفض الجنس ولا توافق كثيراً على استحواذ الجنس على تفكيري. من الطبيعي أن هذا يجعلني لا أشعر بالارتياح للبوح عن جوانب نفسي هذه».

صمت طويلاً. حدّق نيتشه في السقف مستغرقاً في التفكير. كان بريوير مترقباً لأنه كان يجيد زيادة الضغط، وأمل أن يكون نيتشه قد أصبح أخيراً مستعداً لأن يكشف عن نفسه بشيء ما.

فأجاب نيتشه، «لعلني لم أوضح موقفي بما يكفي. أخبرني، هل وصلتك الكتب التي طلبتها من ناشري؟»

«ليس بعد. لماذا تسأل؟ هل تحتوي على فقرات لها علاقة بمناقشتنا اليوم؟»

«نعم، خاصة في كتابي *العلم المرح* الذي أقول فيه إن العلاقات الجنسية لا تختلف عن العلاقات الأخرى في أنها تنطوي هي أيضاً على صراع من أجل السلطة. ففي جوهرها، فإن الشهوة الجنسية هي شهوة للهيمنة التامة على عقل وجسد الآخر».

«لا يبدو هذا صحيحاً. لا بالنسبة لشهوتي».

«نعم، نعم»، أصرّ نيتشه، «إذا نظرت في العمق فإنك سترى أن الشهوة هي أيضاً شهوة للهيمنة على الآخرين جميعاً. «فالحبيب» ليس الذي «يحبّ»: بل يهدف إلى امتلاك حبيبه وحده. إنه يرغب في أن يبعد العالم كله عن بضاعة ثمينة. إنه شخص وضيع كالتنين الذي يحرس كنزه

الذهبي. إنه لا يحبّ العالم، بل على العكس، فإنه لا يبالي مطلقاً بجميع المخلوقات الحيّة الأخرى. ألم تقل ذلك أنت نفسك؟ لذلك، كنت مسروراً بـ، نسيت اسمها، بالعاجزة؟»

«لكن بيرثا ليست عاجزة...».

«نعم، نعم، لقد سررت عندما قالت بيرثا إنك ستكون دائماً الرجل الوحيد في حياتها».

«لكنك تُخرج الجنس من الجنس! إني أشعر برغبتي الجنسية في أعضائي التناسلية، لا في الساحة العقلية المجرّدة للقوّة».

فقال نيتشه: «لا، إني أسميها باسمها الصحيح! أنا لا أعترض على رجل يمارس الجنس عندما يحتاج إلى ذلك. لكنّي أكره الرجل الذي يستجديه، الرجل الذي يتخلّى عن قوّته للمرأة، للمرأة الماكرة التي تحوّل ضعفه وقوّته، لصالح قوّتها».

«آخ، كيف يمكنك أن تنفي الإثارة الجنسية؟ إنك تتجاهل الحافز، الشهوة البيولوجية التي تتراكم في داخلنا والتي تمكننا من التناسل. إن الشهوانية جزء من الحياة، من الطبيعة».

«جزء، لكن ليس الجزء العالي. حقاً، إنه العدو اللدود للجزء العالي. هنا، دعني أقرأ لك عبارة كتبتها هذا الصباح».

وضع نيتشه نظارته السميكة ومدّ يده إلى طاولة مكتبه. التقط دفتراً مهترئاً وراح يقلّب الصفحات المليئة بخربشات غير مقروءة. توقّف عند الصفحة الأخيرة، وراح يقرأ، يكاد أنفه يلامس الورقة: «إن الشهوانية كلبة تعض كعوب أقدامنا! وكم من الرائع أن نعرف أن هذه الكلبة تعرف كيف تستجدي الحصول على قطعة من الروح عندما لا تقدم لها قطعة من اللحم».

أغلق الكتاب، وقال: «إذاً فالمشكلة لا تكمن في أن الجنس

موجود، بل في أنه يجعل شيئاً آخر يتلاشى، شيء ثمين أكثر، ثمين جداً! الشبق، الإثارة، الشهوانية هي التي تستعبد المرء! فالرعاع يمضون حياتهم مثل خنزير يأكل من حوض مليء بالشبق».

«حوض مليء بالشبق»، كرر بريوير لنفسه، مندهشاً من حدة نبرة نيتشه، «لديك مشاعر قوّية حول هذه المسألة. أسمع في صوتك عاطفة وحماسة أقوى من أي وقت مضى».

«العاطفة القوية مطلوبة لهزيمة العاطفة. فقد تكسّر رجال كثيرون على دولاب عاطفة أقل حدة».

«وتجاربك الخاصة في هذا المجال؟» كان بريوير يحاول أن يستقي معلومات منه، وأضاف، «هل تعرضت أنت نفسك إلى تجارب مؤسفة ساعدت في تشكيل استنتاجاتك هذه؟»

«فكرتك السابقة عن الهدف الأساسي للتناسل، دعني أسألك هذا». طعن نيتشه الهواء بإصبعه ثلاث مرات، وأضاف، «ألا ينبغي أن نخلق، ألا ينبغي أن نكون، قبل أن نتكاثر؟ إن مسؤوليتنا في الحياة تكمن في أن نخلق مخلوقاً أعلى، لا أن نتناسل مخلوقاً أوطأ. يجب ألاّ يتدخّل أي شيء في نشوء البطل في داخلك. وإذا وقفت الشهوة في طريقك فيجب عليك أيضاً أن تتغلّب عليها».

واجه الحقيقة! قال بريوير لنفسه. لا يمكنك أن تتحكم عملياً بهذه المناقشات يا جوزيف. لأن نيتشه يتجاهل أيّ سؤال لا يريد الإجابة عنه.

«كما تعرف يا بروفسور نيتشه، فأني أوافق على الكثير مما تقوله فكرياً، أما مستوى حديثنا فهو مجرّد تماماً. لا يكفي أن يكون الأمر شخصياً بالنسبة لي، فربما كنت شديد التمسّك بالأمور العملية، لأن حياتي المهنية كلها تركزت على انتزاع الشكوى، وتشخيص الأعراض، ثم البدء بمعالجة الشكوى بعلاج محدد».

انحنى إلى الأمام لينظر إلى نيتشه مباشرة، وقال: «أعرف أن مرضي هو من النوع الذي لا يمكن معالجته بطريقة براغماتية، لكننا بدأنا نستطرد كثيراً في حديثنا إلى الجانب المعاكس تماماً. لا يمكنني أن استفيد من الكلمات التي تقولها. إنك تطلب مني أن أتغلّب على شهوتي، عواطفي الدنيا. تطلب مني أن أرعى الأجزاء الأعلى في نفسي، لكنّك لا تخبرني كيف يمكنني أن أتغلّب على نفسي، كيف يمكنني أن أرعى البطل في نفسي. إنها عبارات جميلة شاعرية، لكنها مجرد كلمات جوفاء بالنسبة لي».

كان من الواضح أن نيتشه لم يتأثر برجاء بريوير، فردّ كما يردّ معلّم على تلميذ نافد الصبر، فقال: «مع مرور الوقت، سأعلّمك كيف تتغلّب عليها. إنك تريد أن تطير، لكنّك لا تستطيع أن تبدأ أن تطير بالطيران فوراً. يجب أن أعلّمك أولاً كيف تمشي، والخطوة الأولى لتعلّم المشي هي أن تفهم أن من لا يُطع نفسه يحكمه الآخرون. فمن الأسهل، الأسهل بكثير إطاعة شخص آخر على أن يأمر المرء نفسه ويوجهها». عند ذلك، أخرج نيتشه مشطه الصغير وراح يمشّط شاربه.

«من الأسهل على المرء أن يطيع شخصاً آخر على أن يأمر نفسه؟ مرة أخرى، بروفسور نيتشه، لماذا لا تخاطبني بصورة شخصية أكثر؟ إني أفهم فحوى كلامك، لكن وجّه كلامك إليّ؟ ماذا يمكنني أن أفعل إزاء ذلك؟ اغفر لي إن كنت أبدو دنيوياً. الآن أشعر بأن رغباتي أصبحت دنيوية. أن أتطلع إلى أشياء بسيطة، أن أنام نوماً لا تتخلله كوابيس حتى الساعة الثالثة صباحاً، وأن لا أصاب بالانقباض البَرَكي. هنا يبدأ قلقي، هنا...» وأشار إلى المنطقة الواقعة في وسط عظم صدره.

وواصل قائلاً: «إن ما أحتاج إليه الآن، ليس كلاماً مجرداً، شاعرياً، بل شيء إنساني، مباشر. إني أحتاج إلى المشاركة الشخصية: هل يمكنك أن تحدثني كيف كانت الأمور تسير معك؟ هل سبق أن أحببت

أو ساورك هاجس ما؟ كيف تمكنت من تجاوز ذلك؟ كيف تغلّبت عليها؟ كم استغرق ذلك من وقت؟؟»

«ثمة شيء آخر أردت مناقشته معك اليوم»، قال نيتشه، ووضع مشطه جانباً. مرة أخرى، متجاهلاً سؤال بريوير، أضاف، «هل يوجد لدينا وقت؟؟»

استقر بريوير في كرسيه وقد غمره شعور بالقلق. كان من الواضح أن نيتشه سيستمر في تجاهل أسئلته. حثّ نفسه على أن يتحلى بالصبر. نظر إلى ساعته وقال إن بوسعه البقاء خمس عشرة دقيقة أخرى. «سأزورك الساعة العاشرة من كلّ يوم وسأمكث معك من ثلاثين إلى أربعين دقيقة، ولا شك في أنه ستكون هناك أيام سأضطر فيها إلى أن أغادرك في وقت أبكر في حال استدعيت إلى حالة طارئة».

«جيد! هناك شيء مهم كنت أريد أن أقوله لك. فقد سمعتك تردد أنك تشعر باليأس. في الواقع»، فتح نيتشه دفتر ملاحظته على الصفحة التي دوّن فيها قائمة المشاكل التي يعاني منها بريوير، «شعور عام بالتعاسة هو المشكلة الأولى التي تتصدر قائمتك. لقد تحدثتَ اليوم أيضاً عن شعورك بالانقباض الودّي...»

«*البَرَكي* ـ المنطقة الواقعة فوق القلب».

«نعم، شكراً، أحدنا يعلّم الآخر.شعورك بالانقباض *البَرَكي*، المخاوف التي تنتابك في الليل، الأرق، شعورك باليأس. إنك تكرر هذه الشكاوى كثيراً، وتصف رغبتك «الدنيوية» للتخلص بسرعة من إحساسك بالضيق. تتذكر أن مناقشتنا لا تتيح ذلك كما هو الحال في مناقشتك مع ماكس».

«نعم، و...».

«وتريدني أن أعالج شعورك بالانقباض مباشرة، تريدني أن أجعلك تشعر بالراحة».

«تماماً»، انحنى بريوير في كرسيه مرة أخرى. أومأ، حاثاً نيتشه على الاستمرار.

«لقد قاومت اقتراحك قبل يومين بأن أصبح ـ ماذا يمكنني أن أسمي ذلك؟ مرشدك وأساعدك على معالجة شعورك باليأس. لم أوافق عندما قلت إنني خبير عالمي لأنني درست هذه الأمور لسنوات عديدة.

«أما الآن، عندما أفكّر في الأمر، فإني أدرك أنك على حقّ: إني خبير. عندي أشياء كثيرة أستطيع أن أعلمّك إياها: فقد كرّست وقتاً طويلاً من حياتي لدراسة اليأس. كم سنة من حياتي، يمكنني أن أريك بسهولة. فمنذ بضعة أشهر، أرتني أختي إليزابيث رسالة كنت قد كتبتها لها في عام ألف وثمانمئة وخمسة وستين، عندما كنت في الحادية والعشرين. لم تُعِد إليزابيث رسائلي لي قط. إنها تحتفظ بكلّ شيء وتقول إنها ستبني متحفاً ذات يوم تعرض فيه كلّ الأشياء التي تتعلق بي وستطلب رسماً على الدخول. لا ريب، بما أنني أعرف إليزابيث، فإنها ستجعلني موضع إعجاب رئيسي. ذكرت في تلك الرسالة أن ثمة انقسام أساسي في الأساليب التي يتبعها الأشخاص: فالذين يسعون إلى سلام الروح والسعادة يجب أن يؤمنوا وأن يعتنقوا الإيمان، أما *الذين يسعون وراء الحقيقة، فيجب أن يتخلوا عن راحة البال* ويكرّسوا حياتهم للبحث عن الحقيقة.

«عرفت ذلك عندما كنت في الحادية والعشرين، أي نصف حياة مضت. وقد آن الأوان لكي تتعلمها: يجب أن تكون نقطة انطلاقك الأساسية. يجب أن تختار بين الراحة والبحث الحقيقي. فإذا اخترت العلم، فإنك تختار أن تتحرّر من السلاسل المسكنة للعالم الغيبي، وإذا، كما تدّعي، اخترت أن تترك الإيمان وإنكار الله، فلن تستطيع أن

تتوق إلى الأشياء المريحة الصغيرة التي يؤمن بها المؤمن! فإذا قتلتَ الله، فيجب أن تغادر أيضاً ملاذ المعبد».

جلس بريوير صامتاً، وراح ينقّل نظره من نيتشه إلى حديقة المصحّة حيث يجلس رجل مسن في كرسي للمعوّقين، مغمض العينين، وممرضة شابة تدفع كرسيه في ممر دائري. كانت تعليقات نيتشه مؤثرة. يصعب اعتبارها مجرّد فلسفة جوفاء. وعلى الرغم من ذلك، حاول مرة أخرى.

«إنك تجعل الأمر يبدو أن هناك خيارات أكثر. لم يكن اختياري متعمّداً، ولا عميقاً جداً. لم يكن اختياري لعدم الإيمان اختياراً بل أنني لم أستطع أن أومن بقصص دينية خرافية. ببساطة، لقد اخترت العلم لأنه الوسيلة الوحيدة الممكنة للتحكم بأسرار الجسم».

«إذاً إنك تخفي إرادتك عن نفسك. يجب أن تتعلّم الآن أن تعترف بحياتك وأن تكون لديك الشجاعة لأن تقول: «هكذا اخترتها» إن روح الإنسان تتكون من اختياراته».

تململ بريوير في كرسيه. إن نبرة نيتشه الوعظية جعلته لا يشعر بالارتياح. أين يمكن أن يكون قد تعلّم ذلك؟ ليس من والده الواعظ الذي مات عندما كان نيتشه في الخامسة من عمره. هل يمكن أن تنتقل المهارات والقدرات على الوعظ بالوراثة؟

واصل نيتشه موعظته. «إذا اخترت أن تكون واحداً من هؤلاء القلة الذين يشاركون في متعة النمو وبهجة حرية عدم الإيمان، فعليك أن تعدّ نفسك للألم الأعظم. إن أحدهما مرتبط بالآخر ولا يمكن عيش الواحدة بمعزل عن الأخرى. فإذا أردت ألماً أقل، فعليك أن تنكمش، كما فعل الرواقيون، وتتخلّى عن اللذة العليا».

«لست متأكّداً يا بروفسور نيتشه، أنه يجب على المرء أن يقبل هذه

النظرة الشاملة المريضة عن الكون. يبدو ذلك مثل شوبنهاور، لكن هناك وجهات نظر أقل كآبة».

«كئيبون؟ اسأل نفسك، دكتور بريوير، ما السبب الذي يجعل جميع الفلاسفة العظماء كئيبين؟ اسأل نفسك من هم الذين يشعرون بالأمان، بالراحة، بالبهجة إلى الأبد؟ سأقول لك الجواب: *فقط أولئك الذين لديهم رؤية قاتمة* ـ عامة الناس والأطفال».

«بروفسور نيتشه إنك تقول إن النمو هو مكافأة الألم....»

فقاطعه نيتشه قائلاً: «لا، ليس النمو فقط. هناك القوّة أيضاً. فالشجرة بحاجة إلى طقس عاصف لكي تصبح سامقة، والإبداع والاكتشاف يولدان في الألم. هنا دعني أن أقتبس نفسي من ملاحظاتي التي كتبتها منذ بضعة أيام فقط».

مرة أخرى، قلّب نيتشه أوراقه، وراح يقرأ: «يجب أن يكون في داخل المرء فوضى وجنون مؤقت حتى يلد نجماً راقصاً».

بدأ بريوير يزداد انزعاجاً من قراءة نيتشه. بدا خطابه الشاعري أشبه بحاجز يفصل بينهما. بصورة عامة، كان بريوير متأكّداً من أن الأمور ستكون أفضل إذا تمكن من إنزال نيتشه من النجوم.

«مرة أخرى، إنك تجريدي جداً. أرجو ألاّ تسيء فهمي يا بروفسور نيتشه. إن كلماتك جميلة وقويّة، لكن عندما تقرأها لي، فإني لا أشعر بأن أحدنا يرتبط بالآخر شخصياً. إني أفهم المعنى الذي تقصده فكرياً: نعم، هناك مكافأة من الألم ـ النمو، القوّة، الإبداع. إني أفهمها هنا» ـ وأشار بريوير إلى رأسه ـ «لكنها لا تدخل هنا» ـ وأشار إلى بطنه، «إذا كان ذلك سيساعدني، يجب أن تصل إليّ حيث تترسخ خبرتي. فهنا، في أحشائي، لا توجد تجربة في النمو، فأنا لا ألد أي نجوم راقصة! لا يوجد لدي سوى الجنون والفوضى».

ابتسم نيتشه ابتسامة عريضة وهزّ إصبعه في الهواء، ثم قال: «تماماً! لقد قلتها بنفسك الآن! هنا تكمن المشكلة! ولماذا لا يوجد نمو؟ لماذا لا توجد أفكار أهم؟ كانت هذه نقطة سؤالي الأخير البارحة. عندما سألت بماذا كنت ستفكر لو لم تكن مستغرقاً بتلك الأفكار الغريبة؟ أرجوك، عد واجلس، أغمض عينيك، وجرّب هذه التجربة الفكرية معي.

«لنجثم في مكان بعيد، ربما فوق قمّة جبل، ونراقب معاً. هناك، هناك، بعيداً، نرى رجلاً، رجلاً ذا عقل ذكي وعلى درجة كبيرة من الحساسية. لنراقبه معاً. ربما نظر ذات مرة في أعماق رعب وجوده. لعله رأى الكثير! لعله صادف فكيّ الزمن الملتهمين، أو ضآلته ـ بأنه مجرد ذرة تافهة ـ أو أن الحياة زائلة وطارئة. كان خوفه فجاً وفظيعاً حتى اليوم الذي اكتشف فيه أن الشهوة تهدئ من حدة الخوف. لذلك أصبح يرحّب بالشهوة في عقله، والشهوة، المنافسة الهمجية، سرعان ما جرفت جميع أفكاره الأخرى. لكن الشهوة لا تفكر. إنها تشتهي. إنها تتذكّر. لذلك بدأ هذا الرجل يتذكّر بشهوانية بيرثا، المقعدة. لم يعد ينظر بعيداً، لكنه أمضى وقته وهو يتذكّر معجزات مثل كيف تحرّك بيرثا أصابعها، فمها، كيف تخلع ثيابها، كيف تتكلم وتتلعثم، وكيف تعرج وهي تمشي.

«وسرعان ما غمر كيانه كله شعور بالضآلة. وامتلأت جادات عقله العظيمة التي عُبِدت من أجل الأفكار النبيلة بالنفايات، وبدأت ذاكرته التي امتلأت ذات يوم بأفكار عظيمة تخبو وكادت تتلاشى، وتضاءلت مخاوفه أيضاً، ولم يبق لديه سوى قلق واحد ينهشه بأن هناك خطأ ما. مشوّشاً، راح يبحث عن مصدر قلقه وسط نفايات عقله. وهكذا نجده اليوم يفتش في القمامة كما لو أنها تحتوي على الإجابة. حتى أنه يطلب مني أن أشاركه في ذلك».

توقّف نيتشه، منتظراً ردّ بريوير. ساد صمت.

«قل لي»، حثّه نيتشه، «كيف ترى هذا الرجل الذي نلاحظه؟»

صمت.

«دكتور بريوير، ما رأيك؟»

جلس بريوير صامتاً، عيناه مغمضتان، كما لو أن كلمات نيتشه قد سمرّته.

«جوزيف! جوزيف، ماذا تظن؟»

أيقظ نفسه. فتح بريوير عينيه ببطء والتفت لينظر إلى نيتشه. لكنه لم يقل شيئاً.

«ألا ترى يا جوزيف بأنّ المشكلة ليست أنك تشعر بضيق؟ ما أهمية التوتّر أو الضغط في صدرك؟ من الذي وعدك بالراحة؟ إذاً أنت لا تنام جيداً. من الذي وعدك بنوم هانئ؟ لا، ليست المشكلة هي الشعور بالضيق. إن المشكلة هي أن تشعر بالضيق من أجل الشيء الخاطئ».

نظر نيتشه إلى ساعته، وقال: «أرى أنني أبقيتك لفترة طويلة. لننه جلستنا بنفس الاقتراح الذي عرضته عليك البارحة. أرجو أن تفكّر بما ستفكّر به لو لم تحجب بيرثا عقلك. اتفقنا؟»

أومأ بريوير، واستأذن منصرفاً.

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات الدكتور بريوير عن إكارت موللر، ٦ كانون الأول ١٨٨٢

أشياء غريبة حدثت أثناء حديثنا اليوم. لم نتحدث عن أي شيء كنت قد خطّطت له. لم يجب عن أي سؤال من أسئلتي، لم يكشف شيئاً عن نفسه. يأخذ دوره كمستشار بجدية تامة إلى درجة أنني أراها مضحكة أحياناً. لكني عندما أنظر إلى الأمر من وجهة نظره، فإني أرى أن سلوكه

سليم تماماً: إنه يحترم اتفاقه معي، ويحاول، بقدر الإمكان، مساعدتي. إني أحترمه على ذلك.

من الرائع ملاحظة ذكائه في التعامل مع مشكلة كيف يمكن مساعدة شخص واحد، مخلوق من لحم ودم ـ لي. لكنه حتى الآن ظل فاقداً الخيال على نحو غريب ويعتمد كلية على الخطابة. هل يعتقد حقاً بأن مجرد الشرح العقلاني أو تقديم النصح سيعالج المشكلة؟

في أحد كتبه، يجادل بأنّ التكوين الأخلاقي الشخصي للفيلسوف هو الذي يملي نوع التصوّف الذي يخلقه. إني أعتقد الآن بأنّ المبدأ نفسه صحيح في نوعية الاستشارة المقدمة: إن شخصية المستشار هي التي تملي نهج استشارته. لذلك، بسبب المخاوف الاجتماعية التي تنتاب نيتشه وكرهه للبشرية، يختار أسلوباً بعيداً غير شخصي. لكنه بالطبع لا يرى ذلك: إنه يمضي لوضع نظرية لتبرير وشرعنة أسلوبه في تقديم الاستشارة. لذلك فهو لا يقدم أي دعم شخصي، ولا يمدّ يداً ليريح، يلقي عليّ محاضرات من منبر عال، ويرفض الاعتراف بمشاكله الشخصية، ويرفض إشراكي بطريقة إنسانية. باستثناء لحظة واحدة، مع اقتراب حديثنا من نهايته اليوم ـ نسيت ما كنّا نتحدث عنه ـ أشار إليّ فجأة باسم «جوزيف». ربما نجحت في ترسيخ الوئام بيننا أكثر مما كنت أتوقع.

كنا في نزاع غريب. لنر من يمكنه أن يساعد الآخر أكثر. أشعر بالانزعاج من هذه المنافسة: أخشى أن ذلك سيؤكد له نموذج «قوته» العقيم في العلاقات الاجتماعية. ربما عليّ أن أفعل ما يقوله ماكس: أن أكفّ عن المنافسة وأتعلّم ما يمكنني أن أتعلمه منه. من المهم له أن يكون هو المسيطر. أرى إشارات عديدة بأنه يشعر بأنه منتصر: يخبرني مقدار ما يجب أن يعلّمني إياه، يقرأ ملاحظاته لي، ينظر إلى الساعة وينهي جلستنا بعجرفة بإعطائي وظيفة لمناقشتها في لقائنا التالي. كلّ

ذلك مزعج! لكني أذكّر نفسي بأنني طبيب: فأنا لا ألتقي به لمتعتي الشخصية. لكن ما المتعة الشخصية في استئصال لوزتي مريض أو إزالة انحشار البراز؟

مرت لحظة اليوم شعرت فيها غياباً غريباً. كدت أشعر كما لو أنني كنت في غيبوبة. ربما كنت كذلك، بعد كل شيء، كنت قابلاً للتنويم المغناطيسي.

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات فريدريك نيتشه حول الدكتور بريوير، ٦ كانون الأول ١٨٨٢

في بعض الأحيان، من الأسوأ لفيلسوف أن يُفهم على أن يساء فهمه. إنه يحاول أن يفهمني جيداً؛ يحاول أن يتعرف على أمور معينة مني. إنه يريد اكتشاف طريقتي واستخدامها، باعتبارها طريقته أيضاً. لم يفهم بعد أن هناك طريقتي وهناك طريقتك، لكن لا توجد طريقة واحدة. وهو لا يسأل عن الطريقة مباشرة، بل يداور ويتملّق ويزعم أن تملّقه شيء آخر: فهو يحاول اقناعي بأنّ الكشف عن نفسي ضروري في عملنا، وأن ذلك سيساعده على التكلّم، سيجعلنا أكثر إنسانية «معاً» كما لو أن التمرّغ في الوحل معاً يعني أننا نصبح بشراً! أحاول أن أعلمّه أن الأحبة الحقيقين لا يخشون المياه الهائجة أو المياه الوسخة. إن ما نخشاه هو المياه الضحلة!

إذا كانت الممارسة الطبية تعمل كدليل في هذا المسعى، إذاً ألا يجب أن أصل إلى «تشخيص»؟ ها هنا علم جديد ـ تشخيص اليأس. أشخّصه بأنه شخص يتوق لأن يكون روحاً حرة لكنه لا يستطيع أن يتخلص من قيود الإيمان. فهو لا يريد إلا كلمة نعم، القبول، الاختيار، ولا شيء من لا، التنازل. إنه مخادع لذاته. إنه يختار، لكنه يرفض أن

يكون هو الذي يختار. إنه يعرف أنه حزين، لكنه لا يعرف بأنه حزين على الشيء الخاطئ! إنه يتوقّع منّي المساعدة والراحة والسعادة. لكن يجب أن أعطيه المزيد من التعاسة. يجب أن أحوّل تعاسته التافهة وأعيدها إلى تعاسة نبيلة كما كانت من قبل.

كيف يمكن نزع التعاسة التافهة من مكمنها؟ جعل المعاناة صادقة مرة أخرى؟ لقد اتبعت أسلوبه ـ أسلوب الشخص الثالث الذي استخدمه معي الأسبوع الماضي أثناء محاولته الخرقاء لإغرائي لأن أضع نفسي تحت رعايته؛ طلبت منه أن ينظر إلى نفسه من الأعلى. لكن ذلك كان قوياً جداً، إلى حد أنه كاد يغمى عليه. يجب أن أكلّمه كطفل، أن أدعوه «جوزيف»، لأنعشه.

إن عبئي هائل. أعمل لكي أحرره. وأحرر نفسي أيضاً. لكني لست بريوير ـ فأنا أفهم تعاستي وأرحب بها. ولو سالومي ليست مقعدة. مع أنني أعرف كيف يبدو الأمر عندما يحاصرني شخص أحبّه وأكرهه!

الفصل ١٦

يبدأ بريوير، الممارس العظيم لفن الطبّ، عادة زياراته إلى المستشفى بفتح حديث قصير بجانب السرير يقوده برشاقة إلى التحقيق الطبي. لكن ذلك الحديث القصير لم يدر عندما دخل الغرفة رقم ١٣ في عيادة لوزون في صباح اليوم التالي. فقد أخبره نيتشه على الفور بأن تحسناً كبيراً طرأ على صحته، وقال إنه يرجو أن لا يضيّع وقتهما الثمين في التحدّث عن أعراضه غير الموجودة، واقترح أن يباشرا عملهما فوراً.

«سيأتي دوري مرة أخرى، دكتور بريوير. إن مرضي لا يدوم طويلاً أو يشرد بعيداً. لكن بما أننا في عطلة الآن، فلنواصل عملنا لحلّ مشاكلك. ما التقدم الذي أحرزته في التجربة الفكرية التي اقترحتها عليك البارحة؟ بماذا كنت ستفكّر لو لم تكن تخيلاتك عن بيرثا تشغل تفكيرك؟»

«بروفسور نيتشه، دعني أتكلّم عن شيء آخر أولاً. أثناء حديثنا البارحة لم تخاطبني بلقبي المهني ودعوتني جوزيف فقط. لقد أحببت ذلك. شعرت بأنني أصبحت قريباً منك، وقد أعجبني ذلك. فعلى الرغم من أن علاقة مهنية تربطنا، فإن طبيعة حديثنا تتطلّب أن نرفع الكلفة في حديثنا، أليس كذلك؟ لذلك، يجب أن يخاطب أحدنا الآخر باسمه الأول؟»

ارتبك نيتشه الذي رتّب حياته لتفادي مثل هذا التواصل الشخصي.

تلوى وتأتأ، لكن عندما بدا أنه لم يجد وسيلة أفضل ليرفض ذلك، هزّ رأسه بتذمر أخيراً. أما بالنسبة لسؤال بريوير الآخر بأن يخاطبه فريدريك أو فريتز، فقد أجفل نيتشه، وقال: «فريدريك، من فضلك. لنبدأ عملنا الآن».

«نعم، لنبدأ العمل! بالعودة إلى سؤالك. ماذا يقبع وراء بيرثا؟ أعرف أن هناك جدولاً من مخاوف أعمق وأكثر ظلمة، وإني على قناعة بأنها تكثفت قبل عدّة أشهر من بلوغك الأربعين. كما تعرف يا فريدريك، فإن أزمة بلوغ الأربعين ليست أمراً غير عادي. انتبه، بقي أمامك سنتان فقط. يجب أن تهيئ نفسك».

كان بريوير يعرف أن رفع الكلفة قد أزعج نيتشه، لكن أجزاء منه كانت تتوق أيضاً إلى تواصل إنساني أوثق.

«لست قلقاً كثيراً»، قال نيتشه من حيث المبدأ، «أظن أنني بلغت الأربعين عندما كنت في العشرين».

ما هذا؟ أسلوب جديد! لا ريب أنه أسلوب جديد! تذكّر بريوير قطة صغيرة كان ابنه روبرت قد وجدها في الشارع منذ فترة. قال لابنه ضع لها قليلاً من الحليب وابتعد عنها قليلاً. دعها تشعر بالأمان وهي تشرب لكي تعتاد على وجودك. وعندما تبدأ تشعر بالأمان، يمكنك أن تداعبها. تراجع بريوير.

«كيف يمكنني أن أصف أفكاري بصورة أفضل؟ إني أفكّر بأمور سوداوية سقيمة. في أحيان كثيرة، أحسّ كأن حياتي ذات قشور»، توقّف بريوير عندما تذكّر كيف أوضح فرويد ذلك، «لقد ارتقيتُ إلى القمّة، وعندما أنظر من الحافة لرؤية ماذا يقبع في الأسفل: الانحدار إلى الشيخوخة، أن أصبح جداً، يبيضّ شعري، أو في الحقيقة ـ»، ونقر في

وسط صلعته ـ «لم يبق شعر على الإطلاق. لكن لا، هذا غير صحيح. ليس الهبوط هو الذي يزعجني، بل عدم الصعود».

«عدم الصعود، دكتور بريوير؟ لماذا لا تواصل الصعود؟»

«فريدريك، أعرف أنه يصعب عليّ التخلّي عن هذه العادة، لكن أرجوك خاطبني جوزيف».

«جوزيف إذن. حدثني يا جوزيف عن عدم الصعود».

«أحياناً أتخيّل أنه توجد لكلّ شخص عبارة سرية يا فريدريك. موضوع عميق يصبح الأسطورة المركزية في حياة المرء. عندما كنت شاباً صغيراً، دعاني أحدهم ذات يوم «فتى الوعد اللانهائي». لقد أحببت تلك العبارة. رحت أكررها آلاف المرات. في أحيان كثيرة، تخيّلت نفسي مغنٍ أغنيها بطبقة عالية: فتـــى الووووعد اللانهاااائي. كنت أحب ترديدها ببطء وبطريقة مسرحية، مركّزاً على كلّ حرف فيها. حتّى الآن فإن هذه العبارة تثيرني».

«وماذا حلّ بفتى الوعد اللانهائي ذاك؟»

«آه، هذا هو السؤال! إني أتأمّل فيه كثيراً. ماذا حصل له؟ أعرف أنه لم يعد هناك وعد. فقد استنفد».

«قل لي ماذا تعني بعبارة وعد تماماً؟»

«لستُ متأكّداً إن كنت أعرف. كنت أظن أنني أعرف. إنها تعني إمكانية الصعود، الصعود بشكل لولبي. تعني النجاح، الاستحسان، اكتشافات علمية. لكنّي ذقت طعم ثمرة هذه الوعود. فأنا طبيب محترم، مواطن محترم مرموق. أحرزت بعض الاكتشافات العلمية الهامة، وطالما وجدت سجلات تاريخية، فإن اسمي سيذكر دائماً بأنني أحد مكتشفي وظيفة الأذن الداخلية في تنظيم التوازن. كما شاركت أيضاً في اكتشاف عملية تنظيمية هامة للجهاز التنفسي باسم مُنْعَكَسُ هيرنغ ـ بريوير».

«إذاً، جوزيف، ألستَ رجلاً محظوظاً؟ ألم تحقق وعدك؟»

كانت نبرة نيتشه محيّرة. هل يطلب معلومات حقا؟ أم أنه يقوم بدور سقراط مع آلسيبياديس؟ فقرّر بريوير أن يجيب بالمعنى الظاهري.

«تحقيق الأهداف، نعم، لكن من دون الشعور بالرضى يا فريدريك. في البداية، كان تدفق النجاح الجديد يستمر شهوراً، لكن شيئاً فشيئاً يتحول إلى أسابيع عابرة، ثمّ إلى أيام، بل حتى إلى ساعات. الآن أصبح هذا الشعور يتبخّر بسرعة كبيرة إلى حد أنه لم يعد يتغلغل إلى داخل جلدي. بدأت أومن الآن أن أهدافي لم تكن سوى دجل. لم تناسب قط فتى الوعد اللانهائي. في أحيان كثيرة، يعتريني شعور بالتشويش: لم تعد الأهداف القديمة تجدي، وفقدت الرغبة في استنباط أشياء جديدة. عندما أفكّر بتدفق حياتي، أحسّ بالخيانة أو بالخداع، كما لو أن نكتة سماوية قد لُعبت عليّ، كما لو أني رقصت حياتي على اللحن غير الصحيح».

«اللحن غير الصحيح؟»

«لحن فتى الوعد اللانهائي. اللحن الذي دندنته طوال حياتي».

«كان اللحن الصحيح يا جوزيف، لكن الرقصة الخطأ».

«اللحن الصحيح لكن الرقصة الخطأ؟ ماذا تقصد؟» لاذ نيتشه بالصمت.

«أتقصد أنني أخطأت في تفسير كلمة «وعد»؟»

«وعبارة «اللانهائي» أيضاً يا جوزيف».

«إني لا أفهم. هل يمكنك أن تتحدث بوضوح أكبر؟»

«ربما يجب أن تتعلّم أن تكلّم نفسك بوضوح أكبر. في الأيام القليلة الماضية، أدركت أن العلاج الفلسفي يتضمن أن تتعلّم الإنصات لصوتك الداخلي. ألم تقل لي إن مريضتك بيرثا قد عالجت نفسها بواسطة

التحدّث عن كلّ جانب من جوانب أفكارها؟ ما هي العبارة التي استخدمتها لوصف ذلك؟»

«كنس المدخنة. في الحقيقة هي التي استنبطت هذه العبارة. أن تكنس مدخنتها تعني أن تطلق العنان لنفسها حتى تتمكن من تهوية دماغها، تطهّر عقلها من جميع الأفكار المزعجة».

«إنها استعارة جيدة»، قال نيتشه، «لعلنا يجب أن نستخدم هذه الطريقة في نقاشنا. ربما الآن. هل تستطيع مثلاً أن تحاول كنس مدخنة فتى الوعد اللانهائي؟»

أحنى بريوير رأسه إلى الوراء وأسنده إلى ظهر كرسيه، وقال: «أظن أنني قلت كل شيء. فقد بلغ ذلك الفتى الهرم في الحياة نقطة لم يعد يرى الهدف منها. هدفه في الحياة. هدفي من الحياة. بدأت الأهداف، المكافآت التي كانت تدفعني في الحياة تبدو تافهة الآن. عندما أتذكّر كيف أنني كنت أجري وراء تلك التفاهات، كيف أنني أهدرت حياتي الوحيدة، يتملكني شعور فظيع باليأس».

«وراء أي شيء كان يجب أن تجري بدلاً من ذلك؟»

تشجع بريوير من نبرة نيتشه التي أصبحت الآن أكثر لطفاً، أكثر ثقة، كأنه يعرف هذه الأمور.

«هذا هو أسوأ جزء! فالحياة اختبار بلا إجابات صحيحة. وإذا تعين عليّ أن أفعل كلّ ذلك مرة أخرى، فإني أظن أنني سأفعل الشيء نفسه تماماً، وسأرتكب الأخطاء ذاتها. قبل أيام، فكّرت بحبكة جيدة لرواية قصيرة. كم أتمنى أنني أستطيع أن أكتب! تخيّل هذا: رجل متوسط العمر، عاش حياة غير مرضية، يقترب منه جني ويعرض عليه فرصة أن يعيش حياته مرة أخرى بينما يحافظ على ذكريات حياته السابقة كلها. بالطبع، سيغتنم الفرصة. لكن لدهشته ورعبه، سيجد نفسه يعيش حياة

مماثلة: نفس الاختيارات، نفس الأخطاء، يعتنق نفس الأهداف الخاطئة والآلهة المزيفة».

«وهذه الأهداف التي تعيش من أجلها، من أين جاءت؟ كيف اخترتها؟»

«كيف اخترت أهدافي؟ اخترت، اخترت ـ كلمتك المفضّلة! فالفتيان في الخامسة أو العاشرة أو العشرين من العمر لا يختارون حياتهم. لا أعرف كيف أفكّر بسؤالك».

«لا تفكّر»، حثّه نيتشه، «فقط اكنس المدخنة».

«أهداف؟ الأهداف في الثقافة، في الهواء. إنك تتنفّسها. كلّ صبي صغير كبرتُ معه تنشّق نفس الأهداف. كنا نريد جميعاً الخروج من الغيتو اليهودي، الارتقاء في العالم، تحقيق النجاح، الثروة، الاحترام. هذا ما كان كلّ شخص يريد تحقيقه. لم يتعمد أحد منا اختيار أهدافه. كانت هناك، النتائج الطبيعية للزمن الذي كنت أعيشه، قومي، عائلتي».

«لكنّها لم تجد نفعاً معك يا جوزيف. لم تكن متينة بما يكفي لدعم حياة. أوه، ربما كانت متينة بما يكفي بالنسبة للبعض، لذوي الرؤية الضعيفة، أو للعدائين البطيئين الذين يمضون حياتهم كلها سعياً لتحقيق أهداف مادية، أو حتى الذين يتمكنون من تحقيق نجاح لكنهم قادرون على الاستمرار في وضع أهداف جديدة بعيدة المنال. أما أنت، فمثلي، لديك عينان جيدتان. لقد نظرت بعيداً جداً في الحياة. رأيتَ أن من العبث الوصول إلى أهداف خاطئة، ومن العبث وضع أهداف خاطئة جديدة. إن ضرب صفر بصفر يساوي صفراً على الدوام».

انتشى بريوير لهذه الكلمات. بهت كلّ شيء: الجدران، النوافذ، المدفأة، حتى جسد نيتشه. لقد انتظر طوال حياته هذه المناقشة.

«نعم، كلّ ما تقوله صحيح، يا فريدريك، ماعدا إصرارك على أن

المرء يختار مسار حياته متعمّداً. فالفرد لا يختار أهداف حياته بوعي منه: إنها مصادفة تاريخية، أليس كذلك؟»

«أن لا تمتلك خطة حياتك يعني أن تترك وجودك يصبح صدفة».

«لكن»، قال بريوير محتجاً، «لا يمتلك أحد مثل هذه الحرية. لا يمكنك أن تخطو خارج منظور زمنك، ثقافتك، عائلتك....»

فقاطعه نيتشه قائلاً: «ذات مرة نصح معلّم يهودي حكيم أتباعه بالانفصال عن أمّهاتهم وآبائهم حتى يبلغوا درجة الكمال. قد تكون تلك خطوة جديرة لفتى الوعد اللانهائي! قد تكون تلك الرقصة الصحيحة للحن الصحيح».

الرقصة الصحيحة للحن الصحيح! حاول بريوير أن يركز على معنى هذه الكلمات، لكنه شعر فجأة بأنه مثبط.

«فريدريك، أشعر برغبة شديدة في مواصلة هذا الحديث، لكن صوتاً في داخلي يلحّ عليّ بالسؤال، هل أننا نحقق أي نجاح؟ إن مناقشتنا أثيرية جداً. بعيدة كل البعد عن الطرقات التي أسمعها في صدري والثقل في رأسي».

«اصبر يا جوزيف. إلى متى قلت إن آنا و. كنست مدخنتها؟»

«نعم، استغرقت وقتاً. بضعة أشهر. لكن لا يوجد لدينا، أنا وأنت، شهوراً لعمل ذلك. وهناك فرق: فقد ركّز كنس مدخنتها دائماً على ألمها، أما حديثنا المجرد عن الأهداف وعن الهدف في الحياة فيبدو أن لا علاقة له بألمي».

واصل نيتشه، غير متأثر، كأن بريوير لم يقل شيئاً، «جوزيف، تقول إن جميع هموم الحياة تلك قد تكثفت عندما بلغتَ الأربعين؟»

«يا للمثابرة يا فريدريك! تلهمني بأن أتحلى بالصبر مع نفسي. لو كان لديك اهتمام كاف للسؤال عن سنتي الأربعين، فلا بد أن أجد التصميم

الكافي للإجابة عن سؤالك. السنة الأربعون. نعم، كانت تلك السنة سنة أزمة، أزمتي الثانية. فقد تعرضت لأزمة سابقة عندما كنت في التاسعة والعشرين، عندما مات أوبولزير، رئيس كلية الطبّ في الجامعة، لإصابته بوباء التيفوس. السادس عشر من شهر نيسان سنة ألف وثمانمائة وواحد وسبعين. لا أزال أذكر ذلك التاريخ جيداً. كان أستاذي، نصيري، أبي الثاني».

«إني مهتمّ بالأب الثاني»، قال نيتشه، «حدّثني عنه أكثر».

«كان أعظم معلّم في حياتي. عرف الجميع بأنه كان يريد أن أكون وريثاً له. كنت أفضل مرشّح لكي أحلّ مكانه، وكان يجب اختياري لأن أشغل كرسيه الشاغر. لكن ذلك لم يحدث. ربما أنني لم أعمل بما يكفي لتحقيق ذلك. وعُيّن شخص أدنى مني مرتبة لأسباب سياسية، وربما لأسباب دينية أيضاً. ذهب المنصب فنقلت مختبري، حتى الحمامات التي أجري أبحاثي عليها، إلى بيتي وتفرغت للعمل في عيادتي الخاصة. *كانت تلك*»، قال بريوير بحزن، «نهاية مهنتي الأكاديمية الواعدة اللانهائية».

«بقولك لم تساعده في أن يتم ذلك، ماذا تقصد؟»

نظر بريوير إلى نيتشه بدهشة وقال: «يا له من تحول من فيلسوف إلى طبيب سريري. لقد أصبحت لديك أذنا طبيب. لا شيء يمكن أن يفوتك. لقد ألقيت هذا التعليق لأني أعرف أنني يجب أن أكون صادقاً. مع أنها لا تزال نقطة مؤلمة. لم أكن أريد أن أتحدّث عنها مع أنها هي العبارات التي اخترتها».

«كما ترى يا جوزيف، في اللحظة التي أحثّك فيها على التحدّث عن شيء ضد إرادتك، تكون هي اللحظة التي تختار فيها أن تستلم السلطة

للرد بمديح جميل. الآن، ألا تزال تدّعي أن الصراع على السلطة لا يشكل جزءاً هاماً في علاقتنا؟»

غاص بريوير في كرسيه، وقال: «أوه، مرة أخرى»، ولوّح بيده أمامه، «دعنا لا نعيد فتح هذا النقاش. أرجوك، دع ذلك».

ثمّ أضاف، «انتظر! لدي تعليق أخير: إذا منعت التعبير عن أيّ مشاعر إيجابية، عندها ستدع العلاقة التي توقّعت أن تكتشفها داخل الجسم الحي تفلت منك. هذا علم سيئ. إنك تتلاعب بالمعطيات».

«علم سيئ؟» فكّر نيتشه للحظة، ثم هزّ رأسه وقال: «إنك محقّ! أغلق النقاش! لنعد إلى موضوع كيف أنك لم تساعد وظيفتك».

«حسناً، الدلائل كثيرة. فقد دأبت على تأجيل كتابة المقالات العلمية ونشرها. رفضت أن أتخذ الخطوات الرسمية الضرورية لخدمة مهنتي. فلم أنضم إلى الجمعيات الطبية، ولم أشارك في لجان الجامعة، ولم أقم الارتباطات السياسية الصحيحة. لا أعرف لماذا. ربما لذلك علاقة بالقوّة. لعلي أحجم عن الصراع التنافسي. من الأسهل لي أن أتنافس مع لغز نظام توازن حمامة على أن أتنافس مع رجل آخر. أظن أن مشاكلي بالمنافسة هي التي تسبب لي هذا الألم عندما أفكر بأن بيرثا مع رجل آخر».

«ربما يا جوزيف، شعرتَ بأنه يجب على فتى الوعد اللانهائي ألاّ يخدش ويخمش طريقه صعوداً».

«نعم، هذا أيضاً ما كنت أشعر به. لكن مهما كان السبب، فقد أدى ذلك إلى إنهاء مهنتي الأكاديمية. كان ذلك أول جرح لفنائي، أول هجوم على أسطورتي للوعد اللانهائي».

«إذاً كان ذلك عندما كنت في التاسعة والعشرين. وعندما بلغت الأربعين حدثت الأزمة الثانية؟»

«جرح أعمق. إن بلوغي الأربعين حطّم الفكرة بأن جميع الأمور ممكنة بالنسبة لي. فجأة فهمت أشد حقائق الحياة وضوحاً: أنه لا يمكن إعادة ذلك الزمن إلى الوراء، بأن حياتي بدأت تنفد. بالطبع، كنت أعرف ذلك من قبل، لكن معرفته في الأربعين كان نوعاً مختلفاً من المعرفة. الآن أصبحت أعرف أن فتى الوعد اللانهائي كان مجرد راية متنقلة، أن ذلك «الوعد» وهم، وأن «اللانهائي» لا معنى له، وأنني أسير خطوة خطوة مع جميع الرجال الآخرين السائرين نحو الموت».

هزّ نيتشه رأسه مؤكداً، وقال: «تقول إن الرؤية الواضحة هي جرح؟ انظر إلى ما تعلّمته يا جوزيف: أنه لا يمكن كسر الزمن، أن الإرادة لا يمكن أن تعود إلى الوراء. المحظوظ فقط هو الذي يدرك هذه الرؤى».

«المحظوظ؟ كلمة غريبة! تعلمت أن الموت يقترب، بأنني عاجز وعديم الأهمية، بأن ليس للحياة هدف أو قيمة حقيقية ـ وتدعو ذلك محظوظاً».

«إن الحقيقة بأن الإرادة لا يمكن أن تعود إلى الخلف لا يعني أن الإرادة عاجزة. لأن الله، شكراً لله، مات. هذا لا يعني أنه ليس للوجود هدف! لأن الموت يأتي ـ هذا لا يعني بأنه لا توجد قيمة للحياة. هذه هي الأمور التي سأعلّمك إياها خلال لقاءاتنا. لكن أنجزنا ما يكفي اليوم ـ ربما أنجزنا أشياء كثيرة. قبل يوم غد، أرجو أن تراجع حديثنا جيداً. تمعّن فيه جيداً».

متفاجئاً من إنهاء نيتشه الجلسة فجأة، نظر بريوير إلى ساعته ورأى أنه لا يزال أمامه عشر دقائق أخرى. لكنه لم يبد اعتراضاً وغادر غرفة نيتشه شاعراً بالارتياح مثل تلميذ يغادر غرفة الدرس مبكراً.

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات الدكتور بريوير عن إكارت موللر، ٧ كانون الأول ١٨٨٢

الصبر، الصبر، الصبر. لأول مرة، أتعلّم معنى وقيمة هذه الكلمة. يجب أن آخذ في الاعتبار هدفي البعيد المدى. لقد أخفقت جميع الخطوات الجريئة غير الناضجة في هذه المرحلة. فكّر ببدء لعبة الشطرنج. تتحرك القطع ببطء وبانتظام. تبني مركزاً صلباً. لا تحرّك قطعة أكثر من مرة. لا تحرك الملكة قبل الأوان!

«وهل يؤتي ذلك ثماره؟ الخطوة الكبيرة إلى الأمام اليوم هي الاتفاق على أن يخاطب أحدنا الآخر باسمه الأول. كاد يشعر بالاختناق عندما سمع اقتراحي؛ أكاد لا أستطيع أن أكبت ضحكتي. ففي تفكيره الحرّ كله، فإنه فييني قلباً وقالباً، ويحبّ الألقاب ـ بقدر موضوعيته! فبعد أن أن خاطبته باسمه فريدريك عدة مرات، أخذ يبادلني الشيء ذاته.

لقد أثّر ذلك على أجواء الجلسة. بعد بضع دقائق، فتح الباب شقّاً صغيراً. وألمح إلى أنه نال أكثر من نصيبه من الأزمات وأنه في الأربعين عندما كان لا يزال في العشرين. تركت ذلك يمر الآن! لكنّي يجب أن أعود إليها!

ربما، في الوقت الحاضر، من الأفضل أن أنسى محاولاتي لمساعدته. من الأفضل أن أساير جهوده الرامية إلى مساعدتي وأجاريها. كلما ازددت صدقاً وصراحة، وكلما قلّت محاولتي للتلاعب، كان أفضل. إنه مثل سيغ ـ لديه عينا صقر ويرى المشاعر الخفية.

كانت المناقشة اليوم محفزة للأفكار، مثل الأيام القديمة في فصول الفلسفة التي كان يقدمها برينتانو. في بعض الأحيان كنت أغوص فيها. لكن هل هذا مثمر؟ كرّرت له مخاوفي عن الشيخوخة، الموت الفناء، عدم وجود هدف ـ جميع تأملاتي السقيمة. بدا على نحو غريب أنه

معجب بعبارة فتى الوعد اللانهائي. لست متأكّداً أنني أفهم تماماً فكرته بعد، هذا إذا كانت هناك فكرة!

اليوم بدأتُ أحبّ أسلوبه أكثر. بما أنه يعتقد بأن هوسي ببيرثا يبعدني عن مخاوفي الحالية، إصراره على أن يواجهني بها، أن يثيرها، ربما ليزعجني أكثر. لذلك، فإنه يستفزني بحدّة ولا يقدم أي دعم مهما كان. وإذا نظرنا إلى شخصيته، فبالطبع لا يصعب عليه أن يفعل ذلك.

يبدو أنه يعتقد أن أسلوب الجدال الفلسفي سيؤثّر عليّ. أحاول أن أعلمه أن ذلك لا يؤثر بي. لكنه، مثلي، يظل يجرّب ويرتجل أساليب في مضيه في عمله. الطريقة الأخرى التي ابتدعها اليوم تتمثل في استخدام أسلوب «كنس مدخنتي». يبدو من الغريب أن أكون أنا من يكنس ولست المراقب ـ أمر غريب، لكن ليس مزعجاً.

ما المزعج والمثير في الأمر هو عظمته التي تشرق مراراً وتكراراً. اليوم قال إنه سيعلّمني معنى الحياة وقيمتها. لا الآن! فأنا لست مستعداً لذلك بعد.

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات فريدريك نيتشه عن الدكتور بريوير، ٧ كانون الأول ١٨٨٢

أخيراً! مناقشة جديرة بالاهتمام ـ مناقشة تثبت بأنّ لديّ فكراً. ها هنا رجل مثقل بالجاذبية ـ ثقافته، وضعه، أسرته ـ كأنه لا يعرف إرادته على الإطلاق. إنه معجون بالتماثل والمطابقة إلى حد أنه بدا مندهشاً عندما تحدثت عن الاختيار، كما لو كنت أتكلّم بلسان أجنبي. لعل التماثل يقيّد اليهود، فالاضطهاد الخارجي خاصة يربط الناس ببعضهم بإحكام إلى درجة أن الفرد منهم لا يعود يستطيع أن يخرج منها.

عندما واجهته بالحقيقة بأنه ترك حياته نهب المصادفة، أنكر إمكانية الاختيار. قال لي إنه لا يمكن لأحد له جذور راسخة في ثقافة ما أن يختار. عندما واجهته بلطف بوصية المسيح بالانفصال عن الأبوين والثقافة بحثاً عن الكمال، قال إن طريقتي أثيرية جداً وغيّر الموضوع.

من الغريب أنه يمتلك هذا المفهوم منذ سنّ مبكّر، لكنه لم يطوّر رؤيته. فقد كان «فتى الوعد اللانهائي»، كما هو حالنا جميعاً، لكنه لم يفهم قط طبيعة وعده. لم يفهم قط أن واجبه هو أن يجعل الطبيعة مثالية، أن يتغلّب على نفسه، على ثقافته، على عائلته، على شهوته، على طبيعته الحيوانية الوحشية، أن يصبح من هو، ماذا كان. لم يتطور قط. لم ينسلخ عن جلده الأول قط: ظن خاطئاً أن الوعد هو أن يحقق أهدافاً مادية ومهنية. وعندما حقق هذه الأهداف دون أن يُسكت الصوت الذي كان يقول «كن أنت نفسك. دخل في حالة يأس. حتى الآن لم يفهم الأمر.

هل يوجد لديه أمل؟ على الأقل إنه يفكّر بالأمور بشكل صحيح ولا يلجأ إلى المفاهيم الدينية المضللة. لكن ينتابه خوف شديد. كيف يمكنني أن أعلّمه أن يصبح قاسياً؟ قال ذات مرة إن الحمّامات الباردة جيدة لتقسية الجلد. هل توجد وصفة لتقوية العزيمة؟ وقد توصل إلى الفكرة بأننا لسنا محكومين برغبة الله، بل برغبة الزمن. يدرك أن الإرادة عاجزة أمام «هكذا كان». هل لديّ القدرة على تعليمه أن يحوّل «هكذا كان» إلى «هكذا تريد إرادتي»؟

إنه يصرّ على مناداتي باسمي الأول، مع أنه يعرف أنني لا أفضل ذلك. إنه مجرد عذاب ضئيل. إني على ذلك القدر من القوة لأسمح له تحقيق ذلك النصر الضئيل.

***

رسالة إلى لو سالومي من فريدريك نيتشه، كانون الأول ١٨٨٢

لو،

سواء أكنت أعاني كثيراً أم لا فهذا أمر غير ذي أهمية مقارنة بالسؤال فيما إذا وجدت، عزيزتي لو، أم لم تجدي نفسك مرة أخرى. فلم أتعامل قط مع شخص مسكين مثلك:

جاهلة لكنك سريعة البديهة

غنية في استغلال ما هو معروف

عديمة الذوق لكنك ساذجة في هذا العيب

صادقة وعادلة في المسائل البسيطة، بدافع من العناد عادة

على نطاق أوسع، الموقف الكلي إزاء الحياة - مخادعة

بلا أيّ حسّاسية للأخذ والعطاء

من دون روح لا تقوين على الحبّ

في الواقع مريضة دوماً وعلى حافة الجنون

بلا شكر، بلا خجل تجاه من أحسن لك

بصورة خاصة

لا يُعتمد عليك

سيئة السلوك

فظة في أمور الشرف

دماغ له الإشارات الأولى لشخص

فيه روح قطة مفترسة في ثياب حيوان أليف،

النبل مجرد ذكرى،

إرادة قوية، لكن بلا هدف كبير

بلا مثابرة ولا نقاء
إلغاء الشهوانية بقسوة
أنانية طفولية بسبب الضمور الجنسي والتأخير
بلا حبّ للناس بل حبّ لله
حاجة إلى التوسّع
محتالة، مفعمة بضبط النفس في ما يتعلق بالجنس مع الرجال

المخلص، ف. ن.

الفصل ١٧

قلما تحدثت الممرضات في عيادة لوزون عن هير موللر، مريض الدكتور بريوير في الغرفة ١٣. فلم تكن هناك أشياء كثيرة يمكن التحدث عنها. فقد كان هير موللر مريضاً مثالياً بالنسبة للممرضات المنهمكات في عملهن. ففي الأسبوع الأول، لم تنته نوبات الشقيقة. ولم تكن لديه طلبات كثيرة ولم يكن بحاجة إلى اهتمام كبير، ما عدا مراقبة علامات هامة: النبض، درجة الحرارة، معدل التنفس، وضغط الدم ستّ مرات كل يوم. واعتبرته الممرضات ـ وكذلك السيدة بيكر، ممرضة بريوير ـ رجلاً محترماً حقاً.

لكن من الواضح أنه شخص يقدّر خصوصيته إلى درجة كبيرة. فلم يكن يباشر حديثاً مع أحد، وعندما يخاطبه العاملون في العيادة أو المرضى الآخرون، فإنه يكلّمهم بلطف وبإيجاز. كان يفضل تناول طعامه في غرفته، وبعد جلساته الصباحية مع الدكتور بريوير (التي كانت الممرضات يعتقدن أنها تتضمن التدليك والمعالجة الكهربائية)، يمضي معظم يومه وحيداً، يكتب في غرفته، وإذا كان الطقس يسمح له، فإنه يخربش ملاحظات وهو يتمشّى في الحديقة. وعن كتابته، كان هير موللر لا يشجع على الحديث بأدب. كان يُعرف بأنه لا يهتمّ إلا بزرادشت، نبي فارسي قديم.

كان بريوير معجباً بالتناقض بين أسلوب نيتشه الرقيق في العيادة، وصوته الحاد، المحارب في كتبه. عندما طرح السؤال على مريضه،

ابتسم نيتشه وقال: «إنه ليس لغزاً عظيماً. فإذا لم يكن هناك أحد يستمع إليك، فمن الطبيعي أن تصرخ».

كان يبدو قانعاً بحياته في العيادة. وقال لبريوير إن أيامه ليست لطيفة وخالية من الألم فحسب، بل إن أحاديثهما اليومية معاً مثمرة كثيراً بالنسبة لفلسفته. وقال إنه يزدري دائماً الفلاسفة مثل كنط وهيغل، الذين يكتبون بقلم أكاديمي للأوساط الأكاديمية فقط. أما فلسفته فهي عن الحياة ومن أجل الحياة. ويردد دائماً إن أفضل الحقائق هي الحقائق الرهيبة التي تستخلص من تجربة حياة الفرد.

قبل أن يتعرف على بريوير، لم يحاول قط أن يطبق فلسفته عملياً. وكان يرفض أحياناً مشكلة التطبيق، قائلاً إن الذين لا يتمكنون من فهمه لا يستحقون أن يضيع وقته معهم، بينما سيجد المتفوّقون طريقهم إلى حكمته ـ إن لم يكن الآن، فبعد مائة سنة! لكن لقاءاته اليومية مع بريوير أرغمته على أن يأخذ المسألة بجدية أكبر.

إلا أن هذه الأيام المثمرة الخالية من الهموم التي يمضيها في عيادة لوزون لم تكن مثالية بالنسبة لنيتشه كما يبدو على السطح. فقد استنزفت التيارات المتعاكسة تحت الأرض قوّته. ففي كل يوم تقريباً، يكتب رسائل إلى لو سالومي مليئة بالغضب والشوق واليأس. فلم تبارح صورتها مخيلته وتحوّل طاقته من بريوير، من زراداشت، ومن البهجة التامة للاستمتاع بأيام خالية من الألم.

سواء أنظر من السطح أم من الأعماق، فقد اعترى التوتر والعذاب حياة بريوير في الأسبوع الأول من دخول نيتشه إلى العيادة. فقد ازدادت الساعات التي يمضيها في لوزون من شعوره بالإرهاق. فقد كانت القاعدة الطبية في فيينا أنه كلما كان الطقس أسوأ، ازدادت ساعات عمل الطبيب. ولأسابيع عديدة، ظل الشتاء المكفهر والسماء الرمادية،

وهبوب الرياح الشمالية الشديدة البرودة، والهواء الرطب، يرسل مريضاً إثر مريض في سيل متدفق إلى غرفة الفحص في عيادته.

هيمنت أمراض كانون الأول على جدول بريوير: التهاب القصبات الهوائية، الالتهاب الرئوي، التهاب الجيوب الأنفية، إلتهاب اللوزتين، التهاب الأذن، إلتهاب البلعوم، وانتفاخ الرئة. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك دائماً مرضى مصابون بأمراض عصبية. ففي الأسبوع الأول من كانون الأول، جاء إلى عيادته مريضان شابان جديدان مصابان بتصلّب منتشر. كان بريوير يكره هذا التشخيص بالذات لأن ليس لديه أي علاج لهذا المرض، ويخشى إن كان عليه أن يخبر مريضيه الشابين عن المصير الذي ينتظرهما: عجز متزايد، وحالات متزايدة من الضعف أو الشلل أو العمى التي قد تحدث في أيّ لحظة.

في الأسبوع الأول من ذلك الشهر، جاءت أيضاً مريضتان جديدتان لا تبدو عليهما أية أعراض تشير إلى وجود أمراض عضوية. كان بريوير متأكّداً من أنهما تعانيان من هستيريا. كانت إحداهما امرأة متوسطة العمر، تنتابها خلال السنتين الماضيتين نوبات تشنجية عندما تكون وحدها، أما المريضة الأخرى التي لم تتجاوز السابعة عشرة، فقد كانت مصابة باضطراب تشنجي في الساقين ولا يمكنها أن تمشي إلا باستخدام مظلّتين كعكازين. وكانت تعتريها بين الحين والآخر حالات من الإغماء تصيح خلالها عبارات غريبة مثل: «اتركني! اذهب! أنا لست هنا! ليس أنا».

قال بريوير لنفسه إن كلتا المريضتين مرشّحتين لعلاج آنا و. أي العلاج بالكلام. إلا أن مسار هذا العلاج كان ثقيلاً على حياته، على سمعته المهنية، على توازنه العقلي، على زواجه. حتى عندما أقسم بأنه لن يقبل معالجة مثل هذه الحالات مرة أخرى، فقد وجد من المثبط أن يتحول إلى استخدام النظام العلاجي التقليدي غير الفعال، وهو تدليك

العضل العميق والتحفيز الكهربائي، وفق التعليمات الدقيقة غير الفعالة التي أوردها ويلهيلم إرب في كتابه «*دليل المداواة بالكهرباء*».

كان يرجو أن يحوّل هاتين المريضتين إلى طبيب آخر. لكن إلى من؟ فلم يكن أي طبيب يريد مثل هذه الإحالات. ففي كانون الأول ١٨٨٢، لم يكن هناك أحد في فيينا أو في أوروبا كلها يعرف سبل معالجة الهستيريا، إلا هو.

إلا أن كثرة الطلبات الطبية التي تنهال على بريوير لم تستنزفه كما استنزفه العذاب النفسي الذاتي الذي كان يعاني منه. وفي جلساتهما الرابعة والخامسة والسادسة، حرصا على تنفيذ الجدول الذي وضعاه في جلستهما الثالثة: فقد ضغط عليه نيتشه لمناقشة المسائل الوجودية في حياته، لاسيما الهموم التي تشغل باله بعدم وجود هدف في حياته، والتزامه ببني جلدته، وانعدام الحرية، ومخاوفه من الشيخوخة والموت. وقال بريوير لنفسه إذا كان نيتشه يريدني حقاً أن أصبح غير مرتاح، فلا بد أن يكون سعيداً للتقدّم الذي أحرزه.

بدا بريوير بائساً حقاً. فقد بدأ يشعر بجفاء متزايد من ماتيلد. أنهكه القلق. لم يتمكن من تحرير نفسه من الضغط الذي أثقل على صدره، كأن ملزمة عملاقة تسحق أضلاعه. كان تنفّسه ضحلاً. ظل يذكّر نفسه بأنه يجب أن يتنفّس بعمق. لكن مهما حاول بصعوبة، لم يتمكن من إخراج التوتّر الذي أطبق عليه. وبعد أن تعلّم الجرّاحون كيف يدخلون أنبوب صدري لاستخراج السائل الجنبي من المريض، كان يتخيّل أحياناً أنه يُدخل أنابيب في صدره وإبطيه ويُخرج كل القلق الذي يعتمل في صدره. ليلة بعد ليلة، كان يعاني من أحلام مخيفة وأرق حادّ. بعد عدّة أيام، بدأ يتناول كميات من الكلورال لينام أكبر مما كان يتناولها نيتشه. كان يتساءل إلى متى يمكنه أن يستمرّ هكذا. هل حياة كهذه جديرة بالحياة؟ في بعض الأحيان، كان يفكّر بأن يتناول جرعة زائدة من دواء

فيرونال المنوّم. لقد عانى عدد من مرضاه ذلك لسنوات عديدة. حسناً، دعهم يفعلون ذلك. دعهم يتعلّقون بحياة بائسة عديمة المعنى. لكن ليس هو.

يفترض أن نيتشه هنا لمساعدته، لكنه لم يقدم له سوى قدر ضئيل من الراحة. فعندما وصف له ألمه، رفضه نيتشه باعتباره أمراً تافهاً. «طبعاً إنك تعاني. إن ذلك ثمن الرؤية. طبعاً إنك خائف، فالحياة تعني أن تكون في خطر. كن صلباً»، قال يحثّه، «إنك لست بقرة، وأنا لست رسولاً لحيوان مجترّ».

في مساء يوم الإثنين، بعد أسبوع من اتفاقهما، عرف بريوير أن خطة نيتشه انحرفت عن مسارها. فقد رأى نيتشه أن تخيلات بيرثا وسيلة مشتتة للعقل، إحدى وسائل «مسارب العقل الخلفية» لتفادي مواجهة مخاوف الوجود المؤلمة التي تسعى للحصول على الانتباه. واجه قضايا الوجود الهامة، أصرّ نيتشه، وعندها ستتلاشى وساوسك المتعلقة ببيرثا.

لكنّها لم تخفت! فقد اجتاحت التخيلات مقاومته بضراوة. كانت تطلب منه المزيد: المزيد من اهتمامه، المزيد من مستقبله. مرة أخرى، تخيّل بريوير أنه يغيّر حياته، أنه يجد وسيلة للخروج من سجنه ـ سجنه الزوجي والثقافي والمهني والهرب من فيينا وبيرثا بين ذراعيه.

إحدى التخيلات التي راودته شحذت قوّته. فقد تخيّل أنه عاد إلى البيت ذات ليلة ورأى عدداً من الجيران ورجال الإطفاء متجمعين في الشارع الذي يقطن فيه. رأى بيته يحترق! ألقى بمعطفه على رأسه واندفع بقوة رافعاً ذراعيه وصعد الدرج إلى البيت المحترق لإنقاذ أسرته، لكن ألسنة النيران والدخان جعلت عملية الإنقاذ مستحيلة. أغمي عليه وأنقذه رجال الإطفاء الذين أخبروه أن جميع أفراد أسرته لقوا حتفهم في الحريق: ماتيلد وروبرت وبيرثا ودورا ومارغريت ويوهانز. وأثنى الجميع على محاولته الشجاعة لإنقاذ أسرته، وحزن الجميع لأنه فقد أسرته. كان

حزنه عميقاً، لا يمكن وصف ألمه. لكنّه أصبح حرّاً. حرّاً من أجل بيرثا، حرّاً ليهرب معها، ربما إلى إيطاليا، ربما إلى أمريكا، حرّاً ليبدأ حياة جديدة.

لكن هل سيجدي ذلك نفعاً؟ هل تصغره سناً كثيراً؟ هل لديهما الاهتمامات نفسها؟ هل سيبقى الحبّ؟ ما إن كانت تبرز هذه الأسئلة حتى تبدأ الأنشوطة مرة أخرى: مرة أخرى يذهب إلى الشارع، يراقب بيته تلتهمه النيران!

حاول عبثاً التخلص من هذه التهويمة لكنها ما إن كانت تبدأ حتى تستمر حتى تنتهي. حتى في الفترات القصيرة التي تفصل بين زيارة مريض وآخر، كان بريوير يجد نفسه أحياناً أمام بيته المحترق. وإذا دخلت السيدة بيكر مكتبه في تلك اللحظة، فقد كان يتظاهر بأنه يدوّن ملاحظة في سجل المريض ويشير إليها بأن تتركه وحده للحظة.

عندما يكون في البيت، لا يستطيع أن ينظر إلى ماتيلد من دون أن ينتابه إحساس بالذنب لأنه وضعها في البيت المحترق. لذلك كان يتفادى النظر إليها كثيراً، ويمضي وقتاً أطول في مختبره يجري أبحاثاً على الحمام، ويمضي مزيداً من الأمسيات في المقهى، يلعب التاروك مع أصدقائه مرّتين في الأسبوع، ويقبل عدداً أكبر من المرضى، ثم يعود إلى البيت منهكاً.

وماذا عن مشروع نيتشه؟ لم يعد يسعى إلى مساعدة نيتشه بحماسة. فقد وجد ملاذاً في فكرة جديدة وهي أنه ربما كان بإمكانه أن يساعد نيتشه على نحو أفضل إذا ساعده نيتشه. يبدو أن حالة نيتشه تسير على ما يرام، فلم يعد يسيء استخدام العقاقير، وبدأ ينام بعمق إذا تناول نصف غرام من الكلورال، وتحسنت شهيته، ولم تعد تنتابه آلام معوية أو الشقيقة.

اعترف بريوير الآن بيأسه وحاجته إلى المساعدة. فتوقف عن خداع نفسه، ولم يعد يتظاهر بأنه يتكلّم مع نيتشه لصالح نيتشه، وأن جلسات

الكلام ما هي إلا ذريعة، استراتيجية ذكية لحثه على التكلم عن يأسه. أعجب بريوير بغواية العلاج بالتحدّث. جذبته كثيراً. فالتظاهر بأنك في غمرة العلاج هو أن تكون منغمساً فيه. من الرائع أن يفضي المرء بهمومه، وأن يشاطر الآخرين أسوأ أسراره، وأن يحظى باهتمام شخص يفهمه ويقبله، بل حتى يغفر له. وعلى الرغم من أن بعض الجلسات جعلته يشعر بأنه في حالة أسوأ، كان يتطلع، لأسباب مجهولة، إلى الشيء القادم بترقب. ازدادت ثقته بقدرات نيتشه وحكمته. لم يعد يشك بأن لدى نيتشه قوّة لشفائه. كم يتمنى أن يستطيع، هو بريوير، أن يعثر على الطريق إلى تلك القوّة.

وماذا عن نيتشه الشخص؟ تساءل بريوير هل لا تزال علاقتنا مهنية فقط؟ لا بد أنه يعرفني أكثر، أو على الأقل، فهو يعرف عني أكثر مما يعرفه عني أي شخص في العالم. هل أحبّه؟ هل يحبّني؟ هل نحن صديقان؟ لم يكن بريوير متأكّداً من الإجابة عن أيّ من هذه الأسئلة، أم أنه يهتم بشخص لا يزال بعيداً جداً. هل يمكن أن أكون مخلصاً؟ أم أنني، أنا أيضاً، سأخونه ذات يوم؟

ثمّ حدث شيء غير متوقّع. فبعد أن غادر نيتشه في صباح أحد الأيام، وصل بريوير إلى مكتبه، فحيّته السيدة بيكر كالمعتاد. قدمت له قائمة بإثني عشر مريضاً، ووضعت علامة حمراء إلى جانب أسماء المرضى الذين وصلوا، ومغلفاً أزرق هشّاً ميّز فيه خطّ لو سالومي. فتح بريوير المغلف المختوم وأخرج منه بطاقة محاطة بشريط فضي:

١١ كانون الأول ١٨٨٢

د. بريوير،

آمل أن أراك بعد ظهر اليوم.

لو

لو! لا يوجد لدى هذه الفتاة أي تحفظ بإطلاق الاسم الأول، قال بريوير لنفسه، ثم أدرك أن السيدة بيكر تتحدث.

«جاءت الآنسة الروسية منذ ساعة وقالت إنها تريد أن تراك»، قالت السيدة بيكر، متجهمة الوجه، تقطيبة جعّدت جبهتها الناعمة في العادة، وأضافت، «قلت لها إن جدولك الصباحي مليء وقالت إنها ستعود في الخامسة، وأعلمتها أيضاً أن جدولك مليء في فترة بعد الظهر، ثمّ طلبت عنوان البروفسور نيتشه في فيينا، لكنّي قلت لها إني لا أعرف شيئاً، وأنها ستتحدث معك عن ذلك. هل قلت الشيء الصحيح؟»

«طبعاً يا سيدة بيكر، كالعادة. لكن يبدو أنك قلقة؟» كان بريوير يعرف أنها لم تحب لو سالومي خلال زيارتها الأولى فحسب، بل اعتبرت أيضاً أنها سبب العبء الثقيل مع نيتشه. فقد أحدثت الزيارات اليومية التي يقوم بها إلى عيادة لوزون هذه الضغط على مكتب بريوير ولم يعد يولي اهتماماً كبيراً بممرضته.

«صدقاً يا دكتور بريوير، لقد انزعجت كثيراً لأنها دخلت إلى العيادة المزدحمة بالمرضى، وتتوقّع أنك تنتظرها هنا، وأنها يجب أن تدخل لرؤيتك قبل المرضى الآخرين. والأنكى من ذلك، فقد سألتني عن عنوان البروفسور. ثمة شيء غير مريح في ذلك. تلفّ وتدور وراء ظهرك وظهر البروفسور أيضا».

«لذلك أقول إنكِ فعلتِ الشيء الصحيح»، قال بريوير بهدوء، «فقد كنت حذرة معها، وحولتها إليّ، وحميت خصوصية مريضنا. لا يمكن لأحد أن يعالج الأمر أفضل منك. الآن، أرجو أن تطلبي من هير فيتنر الدخول».

في حوالي الساعة الخامسة والربع، أعلنت السيدة بيكر عن وصول

الآنسة سالومي، وذكّرته في الوقت نفسه أن خمسة مرضى لا يزالون ينتظرون دورهم.

«أدخل أي مريض بعد ذلك؟ السيدة ماير تنتظر منذ ساعتين تقريباً».

أحس بريوير بالضغط. كان يعرف أن لو سالومي تتوقع أن يراها في الحال.

«أدخلي السيدة ماير. سأرى الآنسة سالومي بعدها».

بعد عشرين دقيقة، بينما كان بريوير يدوّن ملاحظته عن السيدة ماير، رافقت السيدة بيكر لو سالومي إلى مكتبه. وثب بريوير على قدميه وضغط بشفتيه على اليد التي مدّتها. منذ لقائهما الأخير، بهتت صورتها في مخيلته. ذهل من جمالها الآخاذ. لقد أشرق مكتبه بغتة.

«أهلاً ياآنسة، كم يسعدني أن ألقاك ثانية! لقد نسيت».

«هل نسيتني للتو، هير دكتور؟»

لا، لم أنسك أنت، بل نسيت مدى متعة رؤيتك».

«إذاً انظر ملياً هذه المرة. ها هنا، سأعطيك هذا الجانب»، وأدارت لو سالومي رأسها بدلع إلى اليمين أولاً، ثمّ إلى اليسار، «والآن الجانب الآخر. يقولون لي إن هذا هو جانبي الأفضل. ألا ترى ذلك؟ لكن قل لي الآن، يجب أن أعرف، لا بد أنك قرأت رسالتي القصيرة؟ أرجو ألاّ تكون قد أزعجتك؟»

«أزعجتني؟ لا، طبعاً لا، مع أنني حزين لأنني لن أتمكن من رؤيتك منذ فترة طويلة، فإني سأمنحك، ربما ربع ساعة»، وأشار لها لأن تجلس على كرسي. عندما استقرت في الكرسي، برشاقة وببطء، كأن الوقت كله في العالم تحت تصرّفها، جلس بريوير في الكرسي بجانبها.

«لقد رأيتِ كم أن غرفة الإنتظار مليئة بالمرضى. لسوء الحظ، لا يوجد لدي وقت اليوم».

بدت لو سالومي رابطة الجأش. فمع أنها أومأت مبدية تعاطفاً، فقد أعطت الانطباع بأن غرفة الانتظار في عيادة بريوير لا تعنيها.

وأضاف، «وعليّ أن أقوم بزيارة عدد من المرضى في بيوتهم، ويجب أن أحضر هذه الليلة اجتماعاً للجمعية الطبية».

«آه، هذا هو ثمن النجاح، هير دكتور بروفسور».

لم يكن بريوير راضياً بترك المسألة، فقال: «أخبريني يا آنستي العزيزة، لماذا تعيشين في هذه الظروف الخطيرة؟ لماذا لا تكتبين لي قبل فترة لأتمكن من ترتيب وقت كاف لك؟ تمر أيام لا أملك فيها لحظة واحدة، وفي أيام أخرى أستدعى إلى خارج البلدة لزيارة مرضى. من الممكن أن تأتي إلى فيينا ولا ترينني. لماذا تجازفين وتتجشمين عناء المجيء بلا جدوى؟»

«طوال حياتي يحذّرني الناس من مثل هذه الأخطار. لكن بالرغم من ذلك، لم يخب أملي حتى الآن. انظر اليوم، هذه اللحظة! أنا هنا، أتكلم معك. وقد أبقى في فيينا، وقد نلتقي مرة أخرى غداً، إذاً قل لي يا دكتور، لماذا يجب أن أغيّر سلوكاً يبدو أنه يسير بشكل جيد؟ كما أنني متهورة، ولا أستطيع في معظم الأحيان أن أكتب مقدماً لأنني لا أخطط للمستقبل. إني أتخذ قراراتي بسرعة وأتصرّف حيالها بسرعة.

«دكتور بريوير العزيز»، واصلت لو بهدوء، «لم أعنِ شيئاً من هذا عندما سألت إن كانت رسالتي قد أساءت إليك. أتساءل إن كنت قد أسأت إليك لأنني رفعت الكلفة، واستخدمت اسمي الأول؟ فمعظم أهل فيينا يشعرون بالتهديد أو بالعري إذا خاطبهم أحد بدون ألقاب رسمية، لكنّي أمقت البعد غير الضروري. أوّد أن تخاطبني باسم لو».

يا إلهي، يا لها من امرأة صعبة واستفزازية، قال بريوير لنفسه. على الرغم من عدم ارتياحه، لم يجد وسيلة يحتج بها دون أن يجمع نفسه

مع سكان فيينا المتعجرفين. فجأة قدّر الموقع السيئ الذي وضع فيه نيتشه قبل أيام قليلة. لكنه كان هو ونيتشه في عمر متقارب، بينما لو سالومي في نصف عمره.

«بالطبع، بكل سرور. لن أصوّت لصالح وضع حواجز بيننا».

«جيد، إذاً سيكون لو. أما بالنسبة للمرضى الذين ينتظرون، فتأكد أنني لا أملك إلا كل الاحترام لعملك. في الحقيقة، نناقش أنا وصديقي بول ري كثيراً مسألة التحاقي بكليّة الطب، لذلك فإني أقدّر الالتزامات تجاه المرضى، وسأدخل في الموضوع بسرعة. لا ريب أنك خمنّت بأنني أتيت اليوم ومعي أسئلة ومعلومات مهمة عن مريضنا، هذا إذا كنت لا تزال تلتقي به. لقد علمت من بروفسور أوفيربيك أن نيتشه غادر بازل وأتى لاستشارتك. لا أعرف شيئاً آخر».

«نعم، التقينا. لكن قولي لي يا آنسة، ما هي المعلومات التي تحملينها؟»

«رسائل من نيتشه. عنيفة ومليئة بالغضب والاضطراب إلى حد أنه يبدو أحياناً أنه فقد رشده. ها هي الرسالة»، وأعطت بريوير حزمة من الأوراق، ثم أضافت، «أثناء انتظاري حتى أراك اليوم، نسختُ مقتطفات منها من أجلك».

نظر بريوير إلى الصفحة الأولى التي لا تزال بيد لو سالومي الجميلة:

في ما يتعلق بالسوداوية... أين يوجد بحر يمكن للمرء أن يغرق فيه حقاً؟

لقد فقدت ذلك الشيء الصغير الذي كنت أملكه: اسمي الجيد، ثقة حفنة من الأشخاص.

سأفقد صديقي ري ـ لقد أضعت السنة كلها بسبب التعذيب الفظيع الذي يعتريني حتى الآن.

المرء يغفر لأصدقائه بصعوبة أكبر مما يغفر لأعدائه.

مع أنه توجد أمور أكثر بكثير، توقّف بريوير فجأة. فمهما كانت كلمات نيتشه خلابة، كان يعرف أن كلّ سطر يقرأه خيانة لمريضه.

«حسنا، دكتور بريوير، ما رأيك بهذه الرسائل؟»

«قولي لي مرة أخرى، لماذا تشعرين أنني يجب أن أراها».

«لقد حصلت عليها فجأة. كان بول يخفيها عني لكنه أدرك أنه لا يحقّ له أن يفعل ذلك».

«لكن لماذا يجب ان أراها بسرعة؟»

«تابع القراءة! انظر ماذا يقول نيتشه. إني متأكدة من أن الطبيب يجب أن يطلع على هذه المعلومات. إنه يذكر الانتحار. كما أن الكثير من الرسائل غير منظمة وفوضوية: لعل قدراته العقلانية آخذة في التدهور. وأنا أيضاً كائن بشري، كلّ هذه الهجمات عليّ، المرّة والمؤلمة، لا أستطيع أن أبعدها عن كاهلي. صدقاً، إني بحاجة إلى مساعدتك».

«ما نوع المساعدة؟»

«إني أحترم رأيك. فأنت مراقب مدرب. هل تعتبرني هكذا؟» قلّبت الرسائل وقالت، «اسمع هذه التهم: امرأة عديمة الحساسية... بلا روح...غير قادرة على الحبّ... لا يمكن الاعتماد عليها... غير ناضجة في الأمور المتعلقة بالشرف. أو اسمع هذه: حيوان مفترس في رداء حيوان منزلي أليف، أو إلى هذه: إنك تستحقين الشنق، كنت أظن أنك تجسدين الفضيلة والشرف».

هزّ بريوير رأسه بقوة، وقال: «لا، لا، بالطبع فأنا لا أنظر إليك هكذا. لكن في لقاءاتنا القليلة، القصيرة والجدّية، ماذا يجدي رأيي؟ هل هذه هي حقاً المساعدة التي تطلبينها مني؟»

«أعرف أن معظم ما يكتبه نيتشه اندفاعي، كُتب بغضب، كُتب

لمعاقبتي. لقد تحدثتَ معه، وتحدّثتَ عني، إني واثقة من ذلك. يجب أن أعرف ما رأيه بي حقاً. هذا هو طلبي لك. ماذا يقول عني؟ هل يكرهني حقاً؟ هل يعتبرني وحشاً حقاً؟»

جلس بريوير صامتاً لبضع لحظات، يفكّر في أسئلة لو سالومي.

ثم تابعت كلامها، «لكني أجلس هنا أطرح عليك المزيد من الأسئلة، ولم تجب بعد عن أسئلتي السابقة: هل تمكنت من إقناعه بأن يكلمك؟ ألا تزال تلتقي به؟ هل تحرز تقدّماً؟ هل تعلّمت أن تعالج مرضى اليأس؟»

صمتت قليلاً وحدّقت مباشرة في عيني بريوير، منتظرة أن يرد على أسئلتها. أحسّ بالضغط يزداد، ضغط من جميع الاتجاهات: منها ومن نيتشه ومن ماتيلد ومن المرضى الذين ينتظرون دورهم ومن السيدة بيكر. أراد أن يصرخ.

أخيراً، أخذ نفساً عميقاً وأجاب، «آنستي العزيزة، كم يؤسفني أن أقول إن الرد الوحيد الذي يمكنني أن أقوله لك هو لا شيء على الإطلاق».

«ولا أي جواب» قالت مندهشة، «دكتور بريوير، لا أفهم».

«فكّري بمكانتي. فعلى الرغم من أن الأسئلة التي تطرحينها عليّ منطقية، لا يمكنني أن أجيب عنها دون أن أنتهك سرية المريض».

«إذن هذا يعني أنه مريضك وأنك لا تزال تراه؟»

«للأسف، لا يمكنني حتى أن أجيب عن هذا السؤال».

«لكن الأمر مختلف بالنسبة لي»، قالت وقد ازدادت سخطاً، «أنا لست غريبة أو محصلة ديون».

«ليس لدوافع الشخص السائل أهمية. المهم هنا حقّ المريض في السرّية».

«لكن هذا الضرب من العناية الطبية غير اعتيادي. فالمشروع كله فكرتي. إني أتحمّل مسؤولية قدوم نيتشه لرؤيتك لتمنعه من الانتحار. من المؤكد أنني أستحقّ أن أعرف ما هي ثمرة جهودي».

«نعم، ذلك أشبه بتصميم تجربة وتريدين أن تعرفي ما هي نتيجة هذه التجربة».

«تماماً. لا أظن أنك تحرمني من ذلك؟»

«لكن ماذا لو عرّض قولي النتيجة التجربة كلها للخطر؟»

«كيف يمكن أن يحدث ذلك؟»

«ثقي بحكمتي في هذا الأمر. تذكّري أنك طلبتِ مساعدتي لأنك تعتبرينني طبيباً خبيراً، لذلك فإني أطلب منك أن تعامليني على هذا النحو».

«لكن دكتور بريوير، أنا لستُ متفرجة غير مهتمة، لستُ مجرّد شاهدة في موقع حادث لها فضول سقيم على مصير الضحية. كان نيتشه مهماً بالنسبة لي، ولا يزال. وكما ذكرتُ فإن أظن أنني أتحمّل قدراً من المسؤولية عن حالة يأسه»، ثم ازداد صوتها حدة، «وأنا أيضاً أشعر بالاكتئاب. لديّ كلّ الحقّ في أن أعرف».

«نعم، إني أسمع شعورك بالقنوط. لكني كطبيب، يجب أن أهتم أولاً بمريضي وأقف إلى جانبه. ربما ذات يوم، إذا تابعت طموحك وأصبحت طبيبة، فإنك ستقدّرين موقفي».

«وماذا عن شعوري بالاكتئاب؟ ألا يهم؟»

«إني مكتئب لاكتئابك، لكنّي لا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال ذلك. يجب أن أقترح أن تذهبي إلى طبيب آخر لمساعدتك».

«هل يمكنك أن تعطيني عنوان نيتشه؟ يمكنني أن أتصل به فقط عن طريق أوفيربيك الذي قد لا يمرر رسائلي له».

في النهاية، بدأ انزعاج بريوير يزداد من إلحاح لو سالومي. فقد اتضح له الموقف الذي يجب أن يتخذه. فقال: «إنك تطرحين أسئلة صعبة عن واجب الطبيب تجاه مرضاه. لقد أرغمتني على أن أتخذ مواقف لم أفكر بها من قبل، لكنّي أظن أنني لا أستطيع أن أخبرك شيئاً الآن: لا أين يعيش، ولا عن حالته، ولا حتى إن كان مريضي أم لا. وبمناسبة الحديث عن المرضى يا آنسة سالومي»، قال، ونهض عن كرسيه، «فيجب أن أعود الآن إلى هؤلاء الذين ينتظروني».

عندما بدأت لو سالومي تنهض من كرسيها أيضاً، أعاد لها بريوير الرسائل التي أحضرتها وقال: «يجب أن أعيدها إليك. إني أتفهم لماذا جلبتها لي، لكن إذا كان، كما تقولين، اسمك بمثابة سمّ بالنسبة له، فلن أستطيع أن أفيد من هذه الرسائل. أظن أنني أخطأت لأنني قرأتها».

بسرعة أخذت الرسائل، تحرّكت، ومن دون أن تنبس بكلمة، اندفعت خارج المكتب. مسح بريوير جفنه، وجلس ثانية. هل هذه هي آخر مرة يرى فيها لو سالومي؟ شكّ في الأمر. عندما دخلت السيدة بيكر المكتب لتسأله إن كان بإمكانها أن تطلب من هير بفيفيرمان الذي يسعل بشدة في غرفة الانتظار الدخول، طلب منها بريوير أن تنتظر بضع دقائق.

«كما تريد يا دكتور بريوير، فقط أخبرني متى أطلب منه أن يدخل. لعلك تريد كوباً من الشاي الحار»، لكنّه هزّ رأسه، وعندما أصبح وحده، أغمض عينيه وتمنّى أن ينال قسطاً من الراحة. فقد هاجمته رؤى عن بيرثا.

الفصل ١٨

كلما فكّر بريوير بزيارة لو سالومي، ازداد غضباً. لم يكن غاضباً منها ـ فقد بدأت تنتابه مشاعر الخوف منها ـ بل من نيتشه. فقد دأب نيتشه على لومه لانهماكه ببيرثا ـ كيف صاغها؟ ـ «الاعتداء من حوض الرغبة» أو «البحث في قمامة عقلك»، وها هو نيتشه، يبحث في تلك القمامة طوال الوقت.

لا، لم يكن عليه أن يقرأ كلمة واحدة من تلك الرسائل. لكنّه لم يفكّر بذلك بسرعة، والآن ماذا يمكنه أن يفعل إزاء ما رآه؟ لا شيء! لا شيء ـ لا الرسائل ولا زيارة لو سالومي ـ يمكنه أن يتحدث عنها مع نيتشه.

من الغريب أنه هو ونيتشه يتشاركان في الكذبة نفسها. فكلّ منهما يخفي لو سالومي عن الآخر. هل أثّر النفاق على نيتشه كما أثّر عليه؟ هل يشعر نيتشه بأنه فاسد؟ مذنب؟ هل هناك طريقة يمكنه أن يستغل هذا الذنب لصالح نيتشه؟

تحرك ببطء، قال بريوير لنفسه في صباح يوم السبت، وهو يصعد الدرج الرخام العريض باتجاه الغرفة رقم ١٣. لا تقدم على أيّ تصرف راديكالي. ثمة شيء هامّ يحدث. انظر إلى التقدم الذي أحرزناه بعد انقضاء أسبوع واحد فقط.

«فريدريك»، قال بريوير بعد أن أجرى له فحصاً طبياً قصيراً، «لقد

حلمت حلماً غريباً عنك ليلة البارحة. كنت في مطبخ أحد المطاعم. سكب الطباخون المهملون قليلاً من الزيت على أرض المطبخ. انزلق فوق الأرض وسقط منه موسى حلاقة وعلق في شقّ في الأرضية، ثمّ دخلتَ أنت، مع أنك لم تكن تشبه نفسك. لقد عرفتك على الرغم من أنك كنت ترتدي بدلة جنرال. أردت مساعدتي في استعادة موسى الحلاقة. طلبت منك ألاّ تفعل لأنه سيغوص أكثر في الشق. لكنك حاولت فدفعته إلى الأسفل، وعلق بقوة في الشقّ، وكلما حاولت أن أخرجه، جرحت أصابعي». صمت ونظر بترقب إلى نيتشه، «كيف تفسر هذا الحلم؟»

«كيف تفسره يا جوزيف؟»

«كله تقريباً، شأن معظم أحلامي، هراء، ما عدا ذلك الجزء المتعلق بك فلا بد أنه يعني شيئاً».

«ألا تزال تستطيع أن ترى الحلم في مخيلتك؟»

أومأ بريوير.

«فكّر به جيداً واكنس المدخنة».

تردّد بريوير. بدا فزعاً، ثمّ حاول التركيز، وقال: «النرَ. وقع مني شيء، موسى حلاقتي، وأتيت أنت...»

«في بدلة جنرال».

«نعم، تأتي مرتدياً بدلة جنرال وتحاول أن تساعدني، لكنّك لا تساعدني».

«في الواقع، زدت الأمر سوءاً. دفعت الموسى إلى الأعمق».

«حسناً، كلّ هذا يطابق ما قلته. الأمور تزداد سوءاً: شعوري الوسواسي ببيرثا، مخيلة البيت المحترق، الأرق. يجب أن نفعل شيئاً مختلفاً».

«وأنا أرتدي بدلة جنرال؟»

«حسناً، هذا الجزء سهل. فلا بد أن البدلة العسكرية تدل على سلوكك المتعالي، كلامك الشاعري، تصريحاتك». مستمداً شجاعته من المعلومات الجديدة التي حصل عليها من لو سالومي، تابع بريوير قائلاً: «إنها ترمز إلى عدم رغبتك في مشاركتي بطريقة واقعية. خذ مثلاً مشكلتي مع بيرثا. من عملي مع المرضى أعرف كم هو شائع أن يكون للمرء مشاكل مع الجنس الآخر. عملياً، لا ينجو أحد من ألم الحبّ. عرف غوته ذلك، لذلك كان كتابه *أحزان فيرتر* قوياً: فقد لامس حبّه حقيقة كلّ إنسان. لا بد أن ذلك حدث لك».

عندما لم يسمع بريوير ردّاً من نيتشه، زاد من وتيرة ضغطه، وقال: «أراهن بمبلغ كبير بأنك مررت بتجربة مماثلة. لِمَ لا تحدثني عنها حتى نتمكن من التحدث بصدق كندّين؟»

«لا كجنرال وجندي، القوي والضعيف! آخ، آسف يا جوزيف. فقد وافقت على عدم التحدّث عن القوّة. حتى عندما تكون مسائل القوّة شديدة الوضوح فإنها تصيبنا في الرأس، أما بالنسبة إلى الحبّ، فأنا لا أنكر ما تقوله، لا أنكر أننا جميعاً، ومنهم أنا، تذوقنا طعم ألمه».

ثم تابع نيتشه، «لقد ذكرت آلام فارتر، لكن دعني أذكّرك بكلمات غوته «كن رجلاً ولا تتبعني، بل اتبع نفسك! بل نفسك!» هل تعرف أنه وضع هذه العبارة في الطبعة الثانية لأن عدداً كبيراً من الشباب حذوا حذو فارتر وانتحروا؟ لا، يا جوزيف، ليست المسألة الهامة هنا أن أحدثك عن طريقتي، بل المسألة تكمن في أن أساعدك على إيجاد طريقة تمكنك من الخروج من يأسك. والآن، ماذا عن الموسى في الحلم؟»

تردّد بريوير. فقد اعتبر اعتراف نيتشه بأنه هو أيضاً ذاق طعم ألم

الحبّ كشفاً رئيسياً. هل يجب أن يواصل؟ لا، يكفي الآن. ترك اهتمامه يعود لينصب عليه هو.

«لا أعرف لماذا يجب أن يكون هناك موسى حلاقة في الحلم».

«تذكّر القواعد التي حددناها يا جوزيف. لا تحاول تفسيره، بل اكنس المدخنة فقط. قل كلّ ما يخطر على بالك. لا تحذف شيئاً». مال نيتشه إلى الوراء وأغمض عينيه، منتظراً بريوير أن يتكلم.

«موسى الحلاقة، موسى الحلاقة. رأيت ليلة البارحة صديقاً، طبيب عيون يدعى كارل كولر، حليق الوجه تماماً. فكّرت هذا الصباح أن أحلق لحيتي. أفكّر بذلك كثيراً».

«واصل عملية الكنس».

«موسى حلاقة ـ رسغ ـ لديّ مريض، شاب مصاب بالاكتئاب لأنه مثلي، جرح رسغيه بموسى حلاقة قبل يومين. سأراه اليوم. بالصدفة يدعى جوزيف. ومع أنني لا أفكّر بقطع رسغي، فإني أفكّر، كما قلت لك، بالانتحار. إنه تفكير كسول، لا تخطيط. أشعر أني بعيد جداً عن فكرة أن أقتل نفسي. ربما كان احتمال ذلك لا يزيد على أن أحرق بيت أسرتي أو أن آخذ بيرثا إلى أمريكا، مع أني بدأت أفكّر بالانتحار أكثر».

«إن جميع المفكّرين الجدّيين يفكرون بالانتحار»، قال نيتشه، «إنه راحة تساعدنا على اجتياز الليل». فتح عينيه واستدار إلى بريوير، وأضاف، «تقول إننا يجب أن نفعل شيئاً آخر لمساعدتك. ما هو؟»

«هاجم وساوسي بصورة مباشرة. إنها تدمرني. إنها تدمر حياتي كلها. إني لا أعيش الآن. إني أعيش في الماضي، أو في مستقبل لن يحدث أبداً».

«لكن آجلاً أم عاجلاً، يجب أن تتلاشى وساوسك يا جوزيف. إن نموذجي صحيح. من الواضح أن وراء وساوسك تقبع مخاوفك

الأساسية عن *الوجود*. ومن الواضح كذلك أننا كلما تحدثنا بوضوح عن المخاوف، ازدادت وساوسك شدة. ألا ترى كيف أن وساوسك تحاول أن تبعد انتباهك عن هذه الحقائق العميقة للحياة؟ إنها الطريقة الوحيدة التي تعرفها لتهدئ من حدة مخاوفك».

«لكن فريدريك، إننا متفقان. فأنا مقتنع بوجهة نظرك، وأرى أن نموذجك صحيح. لكن لمهاجمة وساوسي مباشرة لا يعني إضعاف النموذج. لقد وصفت وساوسي ذات مرة بأنها فطر أو عشب ضار. أوافقك على ذلك، وأوافق أيضاً على أنني لو كنت قد صقلت عقلي بطريقة مختلفة منذ فترة طويلة، لما ترسخت تلك الوساوس. لكن بما أنها ترسخت الآن، يجب استئصالها، اقتلاعها. لكن الأسلوب الذي تتبعه بطيء جداً».

تململ نيتشه في كرسيه. من الواضح أنه لم يشعر بالارتياح من انتقاد بريوير له، وقال: «هل لديك اقتراحات محددة لاستئصالها؟»

«إني أسير الوسواس. لن تدعني أعرف كيف أنجو منها. لهذا السبب أسألك عن تجربتك بهذا الألم والسبيل الذي اتبعته للتخلص منه».

فأجاب نيتشه، «لكن هذا ما كنت أحاول أن أفعله خلال الأسبوع الماضي عندما طلبت منك أن تنظر إلى نفسك من مسافة بعيدة. إن وجهة النظر الشاملة تخفف من حدة المأساة. إذا ارتقينا إلى مستوى عال بما يكفي فإننا سنبلغ ارتفاعاً لا تعود فيه المأساة تبدو مأساوية».

«نعم، نعم، نعم»، بدأ شعور بريوير بالانزعاج يزداد، «أعرف ذلك من الناحية الفكرية. لكن، فريدريك، إن القول بأن «ارتفاعاً لا تعود فيه المأساة تبدو مأساوية» لا يجعلني أشعر بالتحسّن. اغفر لي إن بدوت لا أتحلى بالصبر، لكن هناك فجوة، فجوة ضخمة، تكمن بين معرفة الشيء فكرياً وبين معرفته عاطفياً. في أحيان كثيرة، عندما أبقى صاحياً

في الليل خوفاً من الموت، أردد حكمة لوكريتيوس: «حيث أكون، لا يكون الموت، وحيث يكون الموت، لا أكون أنا». إنها حكمة عقلانية للغاية وصحيحة على نحو لايقبل الجدل. لكن عندما أكون خائفاً حقاً، فإنها لا تنفع أبداً، ولا تهدّئ من حدة مخاوفي أبداً. وهنا يكمن عيب الفلسفة. إن تعليم الفلسفة وتطبيقها في الحياة أمران مختلفان تماماً».

«إن المشكلة يا جوزيف هي أننا عندما نتخلى عن العقلانية ونستخدم ملكاتنا العقلية الدنيا للتأثير على الناس، ينتهي بنا الحال بأن نجد رجلاً أدنى وأرخص. وعندما تقول إنك تريد شيئاً مفيداً، فإنك تعني أنك تريد شيئاً يمكن أن يؤثّر على العواطف. حسناً، يوجد خبراء في هذا الأمر. من هم؟ القساوسة! إنهم يعرفون أسرار التأثير على الناس. إنهم يتلاعبون بالموسيقى الملهمة، يقزّموننا بأبراج شاهقة وكنائس شامخة، وهم يشجّعون على الشهوة من أجل الاستسلام، ويعظون بأشياء غيبية، وبالحماية من الموت، وحتى الخلود. لكن انظر إلى الثمن الذي يحصلون عليه: العبودية الدينية، تبجيل الضعفاء، الركود، كراهية الجسد، كراهية البهجة في هذا العالم. لا، لا نستطيع استخدام هذه الأساليب المهدئة ضد الإنسانية. يجب أن نجد أساليب أفضل لشحذ قوى العقل».

فردّ بريوير، «يبدو أن المسؤول عن توجيه عقلي الذي يبعث لي صور بيرثا وبيتي المحترق لا يتأثر بالعقل».

«لكن بالتأكيد»، قال نيتشه وهزّ قبضتيه المطبقتين، «يجب أن تدرك أنه لا توجد حقيقة في أي ما يشغل بالك! إن رؤيتك لبيرثا، هالة الجاذبية والحبّ الذي يحيط بها، لا يوجد لها وجود في الواقع. إن هذه الأوهام السيئة ليست جزءاً من الحقيقة الإلهية. إن الرؤية نسبية، وكذلك المعرفة برمتها. إننا نخترع ما نتعرض إليه في التجربة، ويمكننا أن نحطم ما اخترعناه».

فتح بريوير فمه ليبدي احتجاجاً بأن هذا النوع من الخطاب عديم الجدوى، لكن نيتشه واصل كلامه.

«دعني أوضح لك الأمر يا جوزيف. عندي صديق، كان صديقي، يدعى بول ري. إنه فيلسوف. نؤمن كلانا بأن الله مات. وقد خلص إلى أنه لا معنى لحياة بدون الله، واعتراه كرب شديد فبدأ يغازل الانتحار، وراح يعلق قارورة سمّ حول رقبته. بالنسبة لي، فإن عدم الإيمان مناسبة للابتهاج. إني أستمتع بحريتي. أقول لنفسي: ماذا يمكن أن يكون هناك للخلق لو كانت هناك آلهة؟ أترى ما أقصد؟ الحالة نفسها، المعلومات ذاتها ـ ليست سوى حقيقتين».

غاص بريوير في كرسيه مكتئباً، وقد ازداد تشاؤماً حتى أنه لم يبتهج عندما ذكر نيتشه بول ري، وقال متذمراً: «لكني أقول لك إن هذه الحجج لا تثيرني»، وأضاف، «ما فائدة هذه الفلسفة؟ فمع أننا نخترع الحقيقة، فإن عقولنا مصممة بطريقة تخفي عنا ذلك».

«لكن انظر إلى واقعك»، قال نيتشه محتجاً، «نظرة متفحصة واحدة يمكن أن تظهر لك كم أنها ذريعة، كم أنها غير منطقية. انظر إلى الشخص الذي تحبه، هذه العاجزة، بيرثا، أي رجل عقلاني يمكنه أن يحبّها؟ تقول لي إنها لا تستطيع أن تسمع في معظم الأحيان، تصبح حولاء، تلوي ذراعيها وكتفيها. لا تستطيع أن تشرب الماء، لاتستطيع أن تمشي، لا تستطيع أن تتحدث الألمانية في الصباح. في بعض الأيام تتكلم الإنكليزية، وفي أيام أخرى تتكلم الفرنسية. كيف يعرف المرء كيف يتكلّم معها؟ يجب أن تعلّق لافتة، كما في المطاعم، تعلن فيها عن اللغة التي ستستخدم اليوم»، ابتسم نيتشه ابتسامة عريضة، مستمتعاً بالدعابة التي قالها.

لم يبتسم بريوير. تجهمت تعابيره، وقال: «لماذا تهينها؟ لاحظ أنك لا تذكر اسمها دون أن تضيف كلمة عاجزة».

«إني أكرر فقط ما قلته لي».

«صحيح إنها مريضة، لكن مرضها ليس كلّ ما هي. فهي امرأة جميلة جداً أيضاً. رافقها في الشارع وسترى جميع الرؤوس قد التفتت نحوك. إنها امرأة ذكية، موهوبة، مبدعة إلى درجة كبيرة. كاتبة راقية، تحبّ الفنون، لطيفة، حسّاسة، وأعتقد أنها محبّة».

«أظن أنها ليست محبّة وحسّاسة. انظر كيف تحبّك. إنها تحاول أن تغويك لممارسة الزنا».

هزّ بريوير رأسه، وقال: «لا، ليس...»

فقاطعه نيتشه قائلا: «نعم، نعم! لا تستطيع إنكار ذلك. الإغواء هي الكلمة الصحيحة. إنها تنحني عليك، تتظاهر بأنها لا تستطيع أن تسير. تضع رأسها في حضنك، وشفتاها بالقرب من شيئك. إنها تحاول تدمير حياتك الزوجية. لقد أذلتك على الملأ عندما ادعت أنها حامل بطفل منك. هل هذا هو الحبّ؟ دعني من حبّ كهذا».

«إني لا أحكم على مرضاي ولا أهاجمهم ولا أسخر من أمراضهم يا فريدريك. أؤكد لك أنك لا تعرف هذه المرأة».

«الحمد لله على ذلك. فقد عرفت مرضى مثلها. صدقني يا جوزيف، هذه المرأة لا تحبّك، بل تريد أن تحطمك»، قال نيتشه بحماسة وهو ينقر على دفتر ملاحظاته عند كلّ كلمة.

«إنك تحكم عليها بمقارنتها بنساء أخريات عرفتهن. لكنك مخطئ. فكلّ من عرفها شعر بما أشعر به. ماذا تستفيد من السخرية منها؟»

«في هذه الأمر، كما في أمور عديدة، إنك تصطدم بفضائلك. أنت أيضاً يجب أن تتعلّم أن تسخر! فهذا أمر صحي».

«عندما يتعلق الأمر بالنساء يا فريدريك، فإنك تصبح شديد القسوة».

«وأنت يا جوزيف رقيق جداً. لماذا يتعين عليك أن تدافع عنها باستمرار».

لم يعد بريوير قادراً على البقاء جالساً فنهض واتجّه نحو النافذة. نظر إلى الحديقة حيث كان رجل بعينين معصوبتين يجرّ قدميه، يمسك بإحدى ذراعيه ممرضة، ويمسك بالأخرى عكازاً ينقر بها الطريق أمامه.

«أطلق العنان لمشاعرك يا جوزيف. لا تحبسها».

التفت بريوير الذي كان لا يزال يحدق من النافذة وقال من فوق كتفه: «من السهل عليك أن تهاجمها. لو رأيتها فإني واثق من أنك ستغنّي لحناً مختلفاً. ستجثو على ركبتيك أمامها. إنها امرأة رائعة، إنها هيلين طروادة، جوهر الأنوثة. قلت لك إن طبيبها الثاني أغرم بها أيضاً».

«تقصد ضحيّتها الثانية».

«فريدريك»، استدار بريوير لمواجهة نيتشه، وقال: «ماذا تفعل؟ لم أرك هكذا أبداً. لماذا تدفع هذا الأمر بهذه القسوة؟»

«إني أفعل تماماً ما طلبت مني أن أفعله، وهو أن أجد طريقة أخرى لمعالجة وساوسك. إني أعتقد يا جوزيف أن جزءاً من اكتئابك ينبع من غضبك الدفين. ثمة شيء فيك ـ خوف، خجل ـ لا يمكنك من التعبير عن غضبك. بدلاً من ذلك، إنك تفتخر بوداعتك وخنوعك. إنك تجعل من الضرورة فضيلة: تدفن مشاعرك عميقاً، ثم، لأنك لا تشعر بأي استياء، فإنك تعتبر أنك مثل قديس، ولا تعود تأخذ دور الطبيب المتفهم. لقد أصبحت ذلك الدور. تعتقد أنه لا بأس أن تجرب الغضب. جوزيف، إن انتقاماً صغيراً شيء جيد. لكن ابتلاع الغضب يمرض المرء».

هزّ بريوير رأسه وقال: «لا يا فريدريك، أن تفهم يعني أن تغفر. لقد تفحصت جذور جميع أعراض بيرثا. لا يوجد فيها شرّ. إذا كان ثمة شيء

فيها، فإنها فتاة شديدة الطيبة. كريمة، تضحي بنفسها من أجل الآخرين. فقد مرضت بسبب موت أبيها».

«جميع الآباء يموتون ـ أبوك وأبي وآباء الجميع ـ هذا ليس تفسيراً للمرض. إني أحبّ الأعمال، لا الأعذار. لقد فات وقت الأعذار. لبيرثا، لك...». أغلق نيتشه دفتر ملاحظاته. انتهى الاجتماع.

بدأ الاجتماع التالي بنفس الأسلوب العاصف. طلب بريوير معالجة مباشرة للوسواس الذي ينتابه. «حسناً»، قال نيتشه الذي يريد أن يكون دائماً محارباً، «إن كنت تريد حرباً، فإنك ستجد الحرب». وخلال الأيام الثلاثة التالية، بدأ حملة نفسية ضخمة، أكثرها إبداعاً، وأكثرها غرابة، في التاريخ الطبي في فيينا.

بدأ نيتشه بذكر وعد بريوير باتباع كلّ التوجيهات دون طرح أسئلة، من دون مقاومة. ثمّ طلب منه نيتشه أن يعدّ قائمة من عشر شتائم يتخيّل أنه يلقيها على بيرثا. ثمّ شجّعه نيتشه على أن يتخيّل أنه يعيش مع بيرثا، ثم يتصوّر سلسلة من المشاهد: جالسة إلى مائدة الفطور يراقب ساقيها وذراعيها خلال نوبة تشنّج، عيناها الحولاوان، خرساء، رقبتها ملوية، تهلوس، تتلعثم؛ ثم اقترح نيتشه صوراً قبيحة أخرى: بيرثا تتقيّأ، جالسة في المرحاض. بيرثا تعاني من آلام الحمل الكاذب. إلا أن أياً من هذه التجارب لم تؤثر في إزالة السحر من صورة بيرثا.

في اجتماعهما الثاني، جرّب نيتشه نهجاً مباشرة أكثر. «عندما تكون وحدك وتبدأ تفكّر ببيرثا، اصرخ **لا**، أو **توقفي** بأعلى صوتك. وإذا لم تكن وحدك، اقرص نفسك بقوة كلما خطرت ببالك».

طوال يومين، رددت غرف بريوير الخاصة أصداء **لا**! و**توقفي**. أصبحت ذراعه مليئة بالكدمات من كثرة القرص. في إحدى المرات

عندما كان جالساً في العربة صاح «توقّفي» بصوت عال فأوقف فيشمان حصانيه بقوة وراح ينتظر سماع تعليمات أخرى. وفي مرة أخرى، هرعت السيدة بيكر إلى المكتب عندما سمعت كلمة **لا** تتردد في أرجاء المكتب. لكن هذه الأدوات لم تقدم سوى مقاومة هشة لرغبة عقله. ظلت الوساوس تراوده.

في يوم آخر، طلب نيتشه من بريوير أن يراقب تفكيره ويسجّل في دفتره كلّ ثلاثين دقيقة كم مرة يفكّر ببيرثا، والفترة التي يفكّر بها. دهش بريوير عندما عرف أنه قلما تمر ساعة من دون أن يفكّر بها. وحسب نيتشه أنه يمضي مائة دقيقة تقريباً يومياً في وسواسه، أي خمسمائة ساعة سنوياً. هذا يعني أن بريوير سيكرّس في السنوات العشرين القادمة أكثر من ستمائة يوم ثمين من يقظته إلى نفس التخيلات المضجرة الضعيفة الخيال. أطلق بريوير تأوهة لهذه الفكرة، وظل هذا الوسواس ينتابه.

ثمّ جرّب نيتشه وسيلة أخرى، فقد طلب من بريوير أن يخصص فترات معيّنة للتفكير ببيرثا، أأراد ذلك أم لم يرد.

«إنك تصرّ على التفكير ببيرثا؟ وأنا أصرّ على أن تفعل ذلك. أصرّ على أن تفكّر بها ملياً لمدة خمس عشر دقيقة ستّ مرات كل يوم. لنستعرض جدولك اليومي ونقسم المرات الستّ خلال اليوم. قل لممرضتك إنك تحتاج إلى وقت دون أن تقاطعك لأنك تريد أن تكتب شيئاً. وإذا أردت أن تفكّر ببيرثا في أوقات أخرى، لا بأس، فالأمر يعود لك. لكن خلال هذه الفترات الستّ، يجب أن تفكّر ببيرثا. في ما بعد، بعد أن تعتاد على هذه الممارسة، سنقلل شيئاً فشيئاً من فترات التأمل القسري». طبّق بريوير الجدول الذي وضعه نيتشه، لكن وسواسه ظل يلاحق بيرثا.

ثم اقترح نيتشه على بريوير أن يحمل محفظة خاصّة يضع فيها خمسة كريوزير كلما فكّر ببيرثا، ثمّ يتبرّع بما يجمعه إلى جمعية خيرية. لم

يوافق بريوير على هذه الخطة. فهو يعرف أنها لن تكون مجدية لأنه يحبّ أن يتبرع دائماً للجمعيات الخيرية. عندها اقترح نيتشه أن يمنح النقود إلى جورج فون شونيرير في الجمعية الوطنية الألمانية لمعاداة اليهود. حتى هذا لم يجد نفعاً.

لم ينفع شيء.

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات الدكتور بريوير عن حالة إكارت موللر، ٩ ـ ١٤ كانون الأول ١٨٨٢

لم يعد هناك مجال لأخدع نفسي. فهناك مريضان في جلساتنا، ومن بين هذين المريضين، فإن حالتي هي الأكثر أهمية. من الغريب أنني كلما اعترفت بذلك لنفسي، بدا أننا، أنا ونيتشه، نعمل معاً بمزيد من الود. ربما كانت المعلومات التي حصلت عليها من لو سالومي قد غيّرت أيضاً الطريقة التي نعمل بها.

بالطبع لم أقل عنها شيئاً لنيتشه. ولم أتحدث أيضاً عن أنني أصبحت مريضاً حقيقياً، مع أنه يخيّل إليّ أنه يحسّ بهذه الأشياء. ربما كنت أنقل إليه هذه الأمور بطريقة غير شفهية، من دون قصد. من يعرف؟ ربما بصوتي، بنبرتي، أو بإيماءاتي. الأمر شديد الغموض. سيغ يهتمّ بتفاصيل هذا الحديث. يجب أن أحدّثه عنها.

كلما نسيت محاولة مساعدته، ازداد انفتاحاً لي. انظر ماذا قال لي اليوم؟ إن بول ري كان صديقه ذات يوم.

وأنه هو، نيتشه، قد نال نصيبه من ألم الحبّ. وأنه يعرف امرأة مثل بيرثا. ربما كان من الأفضل على كلينا أن نركز عليّ وأن ننسى أن نسبر أغواره.

كما أنه بدأ يلمح الآن إلى الطرائق التي يستخدمها ليساعد نفسه ـ مثل

طريقة «تغيير وجهة النظر» التي يرى فيها نفسه من منظور كوني من مسافة بعيدة. إنه محقّ أننا إذا نظرنا إلى أوضاعنا التافهة في مسيرة حياتنا الطويلة، في حياة الجنس برمتها، في تطور الوعي، فإنها ستفقد بالطبع أهميتها الشاملة.

لكن ما السبيل لتغيير وجهة نظري؟ أوامر وحثّ أمراض لتغيير وجهة نظري. لم تفلح محاولاته ونصائحه في تغيير وجهة نظري، ولا محاولاته في أن أتخيّل نفسي بأنني أتراجع. لا أستطيع أن أبعد نفسي عاطفياً عن مركز حالتي. لا يمكنني أن أكون على مسافة كافية. وبالحكم من الرسائل التي كتبها للو سالومي، فلا أظن أنه يستطيع ذلك أيضاً.

... كما أنه يركز كثيراً على تعابير الغضب. وقد جعلني أهين بيرثا بعشر طرائق مختلفة اليوم. بهذه الطريقة، على الأقل، يمكنني أن أفهم. إن تفريغ الغضب معقول من الناحية الفيزيولوجية: يجب تفريغ تراكم الإثارة اللحائية بين الحين والآخر. ووفق أوصاف لو سالومي لرسائله، فإنها طريقته المفضّلة. أظن أنه يوجد خزان واسع من الغضب. لماذا، أتساءل؟ بسبب مرضه؟ أم بسبب افتقاده للتقدير المهني؟ أم لأنه لم يستمتع بدفء امرأة؟

إنه يجيد الإهانات. أتمنّى أن أتذكّر بعضاً منها. أحببت وصفه للو سالومي بأنها «وحش مفترس في ثوب قطة منزلية».

إنها تأتي بسهولة إليه ـ لكن ليس هكذا هو الحال بالنسبة لي. إنه محق تماماً بعدم قدرتي على إظهار غضبي. هذا الأمر يجري في عائلتي. أبي، أعمامي. بالنسبة لليهود فإن كبت الغضب يعتبر ميزة من ميزات البقاء. حتى أنني لا أستطيع أن أعرّف الغضب. إنه يصرّ على أنه نحو بيرثا، لكنني واثق من أنه يخلط بينه وبين غضبه نحو لو سالومي.

من المؤسف أنه متورط فيها! أتمنّى أن أتمكن من التعاطف معه. فكّر

في الأمر! ليس لهذا الرجل تقريباً أي تجربة مع النساء. ومن تختار أن تورط نفسها معه؟ بالتأكيد أقوى امرأة رأيتها في حياتي، وهي لا تتجاوز العشرين من العمر! فليساعدنا الله جميعاً عندما تصبح امرأة كاملة! والمرأة الأخرى في حياته، أخته، إليزابيث، أرجو ألاّ ألتقي بها أبداً. فهي تبدو عنيفة مثل لو سالومي وربما أكثر حقارة.

... اليوم طلب مني أن أتخيّل بيرثا طفلة رضيعة تضع حفّاضة ملوثة بحركة أمعائها ـ وأنا أقول لها كم هي جميلة وأنا أتخيّلها تحدّق بي بعينيها الحولاوين وعنقها الملوي.

... اليوم طلب مني أن أضع كروزور في حذائي كلما تخيّلت بيرثا وأن أسير به طوال اليوم. من أن يأتي بهذه الأفكار. يبدو أن لديه نبع لا ينضب منها.

... أن أصيح «لا» وأقرص نفسي، وأحصي كلّ مرة أتخيلها فيها وأسجّلها في دفتر ملاحظات، وأن أسير وقطعة عملة معدنية في حذائي، وأن أعطي المال إلى شونيرير... أن أعاقب نفسي لأنني أعذّب نفسي. جنون!

سمعت أنّهم يدربون الدببة الرقص والوقوف على ساقين بتسخين بلاط الأرضية تحتها. هل يختلف ذلك عن هذه الطريقة؟ إنه يحاول أن يدرب عقلي على أساليب العقاب الصغيرة المبتكرة.

لكني لست دبّاً وعقلي غني جداً بحث لا يستطيع مدرّب حيوانات أن يؤثر عليه. فلا جدوى من بذل هذه الجهود، وتقلل من شأني.

لكني لا أستطيع أن ألومه. فقد طلبت منه أن يعالج أعراضي بشكل مباشر. إنه يلاطفني. قلبه ليس في هذه الجهود. طوال الوقت يصرّ على أن النمو أهم من الراحة.

لابد أن تكون هناك طريقة أخرى.

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات فريدريك نيتشه عن حالة الدكتور بريوير، ٩ ـ ١٤ كانون الأول ١٨٨٢

إغواء «نظام». لقد وقعت فريسة له لفترة من الوقت اليوم! اعتقدت أن كبت جوزيف لغضبه يقبع وراء كلّ صعوباته، وقد استنزفت نفسي وأنا أحاول أن أحرضّه. ربما يؤدي كبت العواطف إلى تغييرها وإضعافها.

... إنه يقدّم نفسه على أنه رجل طيب، لا يؤذي أحداً، إلا نفسه والطبيعة! يجب أن أمنعه من أن يكون واحداً من أولئك الذين يدعون أنفسهم طيبين لأن ليس لديهم مخالب.

أظن أنه يجب أن يتعلّم أن يلعن قبل أن أثق بكرمه. إنه لا يغضب! هل يخاف أن يؤذيه أحد؟ هل هذا هو السبب الذي يجعله لا يجرؤ على أن يكون نفسه؟ لماذا يقنع بقليل من السعادة فقط؟ ويدعو ذلك فضيلة. إن اسمها الحقيقي جبن.

إنه رجل متحضّر، مهذب. لقد روّض طبيعته البرّية، حوّل ذئبه إلى كلب صغير، ويدعو ذلك اعتدالاً. إن اسمه الحقيقي ضحالة.

... أصبح يثق بي الآن وبدأ يؤمن بي. لقد وعدته بأنني سأبذل كل ما بوسعي لأن أشفيه. لكن يجب على الطبيب أولاً، مثل الحكيم، أن يشفي نفسه. عندها فقط يستطيع مريضه أن يرى بعينيه رجلاً يشفي نفسه. لكنني لم أتمكن من شفاء نفسي. الأسوأ من ذلك، أنني أعاني من ذات الآلام التي يعاني منها جوزيف. هل إنني، بصمتي، أفعل ما كنت قد أقسمت على ألاّ أفعله قط: وهو خيانة صديق؟

هل أتحدث عن معاناتي؟ سيفقد ثقته بي. ألن يؤذيه ذلك؟ ألن يقول إنني إذا لم أتمكن من شفاء نفسي، فلن أتمكن من شفائه؟ أم هل سيهتم بمعاناتي ويتخلى عن مصارعة معاناته؟ هل أسدي له خدمه أفضل بأن

ألوذ بالصمت؟ أو بالاعتراف بأننا مبتليين بمعاناة متشابهة وأننا يجب أن نتّحد لإيجاد حلّ؟

... اليوم! أرى كم تغيّر... فقد أصبح أقل خداعاً... ولم يعد يتملّق، ولم يعد يحاول أن يقوي نفسه بإظهار ضعفي.

...هذا الهجوم المباشر على أعراضه، الذي طلب مني أن أبدأه، هو أصعب أنواع التمرّغ في مياه ضحلة فعلته في حياتي. يجب أن أرفع من شأنه، لا أن أقلل منه. إن معاملته كما يعمل طفل يجب أن يصفع عندما يسيء التصرف يعمل على الحط من شأنه، ويحط من شأني أنا أيضاً! إذ كان الشفاء يحط من قدر المعالج، فهل من الممكن أن يرفع من قدر المريض؟

لابد أن تكون هناك وسيلة أرقى.

***

رسالة إلى لو سالومي من فريدريك نيتشه، كانون الأول ١٨٨٢

عزيزتي لو،

لا تكتبي لي رسائل كهذه! ماذا يمكنني أن أفعل إزاء كل هذه الحقارة؟ أرجو أن ترتقي بنفسك أمامي لكي لا أضطر إلى احتقارك.

لكن، لو! أيّ نوع من الرسائل تكتبين؟ تلميذات المدارس الناقمات الشهوانيات هن اللاتي يكتبن بهذه الطريقة! ماذا عليّ أن أفعل بهذه التفاهة المثيرة للشفقة؟ أرجو أن تفهمي. أريدك أن ترتقي بنفسك أمامي، لا أن تقللي من شأنك. كيف يمكنني أن أغفر لك إذا لم أدرك أنك عدت إلى نفسك كي أتمكن من أن أغفر لك.

لا، يا عزيزتي لو، لا نزال بعيدين كثيراً عن المغفرة. لا يمكنني أن أخرج المغفرة من أردان قميصي بعد أن تسللت الإهانة إلى نفسي في الشهور الأربعة.

إلى اللقاء، يا عزيزتي لوي، لن أراك ثانية. إحمِي روحك من مثل هذه التصرفات وعاملي الآخرين جيداً وخاصة صديقي ري طالما لم تتمكني من معاملتي جيداً.

لم أخلق العالم، يا لو، مع أنني كنت أتمنّى أن أفعل ذلك ـ عندها سأكون قادراً على تحمل كلّ الذنوب التي أدت إلى الأمور التي جرت بيننا.

إلى اللقاء يا عزيزتي لو، لم أقرأ رسالتك حتى النهاية لكنّي قرأت الكثير منها حتى الآن.

ف.ن.

الفصل ١٩

«لم نحرز أي تقدم يا فريدريك. إن حالتي تزداد سوءاً»

نيتشه الذي كان يكتب على طاولته لم يسمع بريوير وهو يدخل. التفت. فتح فمه ليتكلم، لكنه ظل صامتاً.

«هل فاجأتك يا فريدريك؟ لا بد أن يكون الأمر مربكاً عندما يدخل طبيبك غرفتك ويشتكي بأن حالته ازدادت سوءاً، خاصة عندما يرتدي ثياباً أنيقة ويحمل حقيبته الطبية السوداء بثقة طبيب محترف.

«لكن ثق بي، فإن مظهري الخارجي خادع. فتحته ملابسي مبلّلة، وقميصي ملتصق بجلدي. هذا الوسواس ببيرثا. إنها دوّامة في عقلي، تشفط كلّ فكرة نظيفة.

«لا ألومك»، جلس بريوير بجانب طاولة المكتب، وأضاف، «إن عدم إحراز أي تقدّم هو خطئي. فقد طلبت منك أن تواجه الوسواس مباشرة. إنك محقّ بأننا لا نسبر الأمور بعمق أكثر. نكتفي بتشذيب الأوراق في الوقت الذي يتعين فيه علينا أن نقتلع الأعشاب الضارة».

فأجابه نيتشه «نعم، لم نحقق شيئاً»، وأضاف، يجب أن نعيد النظر في النهج الذي نتبعه. أنا أيضاً أشعر بالإحباط. كانت جلساتنا الأخيرة خاطئة وسطحية. انظر إلى ما حاولنا أن نفعله: تنظيم سلسلة أفكارك، السيطرة على سلوكك، تدريب الفكر وتشكيل السلوك. هذه الطرائق ليست للعالم الإنساني! آخ، إننا لسنا مدربي حيوانات».

«نعم، نعم! بعد الجلسة الأخيرة شعرت بأنني مثل دبّ يُدرّب على الوقوف على قائمتيه والرقص».

«تماماً. يجب أن يكون المعلّم رافعاً من قدر الرجال. لكني في الجلسات الأخيرة، قللت من شأنك ومن شأني أنا أيضاً. لا يمكننا مقاربة الهموم والمخاوف بطرائق حيوانية».

نهض نيتشه وأومأ باتجاه الموقد حيث ينتظرهما كرسييهما. «هل نبدأ؟» وخطر لبريوير، وهو يستقر في كرسيه، أنه على الرغم من «الأطباء الذين يعالجون اليأس» في المستقبل قد يتخلون عن استخدام الأدوات الطبية التقليدية: سماعة الطبيب، منظار الأذن، منظار العين، لأنهم سيطوّرون أدواتهم مع مرور الزمن، بدءاً بكرسيين مريحين بجانب الموقد.

«إذاً»، قال بريوير، «لنعد إلى حيث كنّا قبل البدء بهذه الحملة المباشرة غير الحكيمة لمقارعة وسواسي. فقد وضعت نظرية تقول إن بيرثا انحراف، وليست سبباً رئيسياً، وأن المركز الحقيقي لقلقي يقبع في خوفي من الموت وعدم الإيمان. ربما كان الأمر كذلك. أظن أنك قد تكون محقّاً. صحيح أن وسواسي ببيرثا يجعلني أبقى ملتصقاً بسطحية الأمور، ولا يترك لي وقتاً للتفكير بالأفكار الأكثر عمقاً أو الأشد ظلمة.

«لكن على الرغم من ذلك يا فريدريك، فإني لا أجد تفسيرك مرضياً تماماً. فأولاً، لا يزال هناك اللغز «لماذا بيرثا؟» ومن بين كلّ الطرق الممكنة للدفاع عن نفسي من القلق، لماذا أختار هذا الوسواس الغبي بالذات؟ لم لا أفكر بطريقة أخرى، مخيلة أخرى؟

«ثانياً، تقول إن بيرثا مجرد انحراف لحرف انتباهي عن قلقي الرئيسي. لكن كلمة انحراف باهتة. لا يكفي شرح قوّة وسواسي. أليس التفكير ببيرثا قسري ينطوي على معنى قوي خفي؟

«معنى». ضرب نيتشه يده بقوة على مسند كرسيه، «تماماً. إني أفكّر بجملتين متطابقين منذ أن غادرت البارحة. ربما كانت كلمتك الأخيرة معنى هي المفتاح. ربما كان خطؤنا منذ البداية يكمن في إهمال معنى وسواسك. لقد ادّعيت أنك عالجت جميع أعراض بيرثا الهستيرية باكتشاف أصل كل منها، كما أن لا علاقة بطريقة *الأصل* هذه بحالتك لأن أصل الوسواس ببيرثا كان معروفاً. فقد بدأ بعد أن رأيتها واشتد بعد أن لم تعد تراها.

«لكن ربما»، واصل نيتشه، «كنت تستخدم الكلمة الخطأ. لعل ما يهم ليس *الأصل*، أي بدء ظهور الأعراض، بل معنى العرض. ربما كنت مخطئاً. لعلك شفيتَ بيرثا بعدم اكتشافك الأصل، بل باكتشافك معنى كلّ عرض من الأعراض .*ربما*». هنا كاد نيتشه أن يتكلم همساً كما لو كان ينقل سرّاً بالغ الأهمية ـ «*ربما كانت الأعراض هي رسل لمعنى ما، وتزول عند فهم الرسالة التي ينقلها*. إذا كان الأمر كذلك، فإن خطوتنا التالية واضحة: إذا تعين علينا أن نتغلب على الأعراض، فيجب أن نحدد ماذا يعني الوسواس ببيرثا بالنسبة لك»

ما هي الخطوة التالية؟ تساءل بريوير. كيف يمكن للمرء أن يكتشف معنى وسواس ما؟ فقد تأثّر بحماسة نيتشه وراح ينتظر تعليماته. لكن نيتشه عاد واستقر في كرسيه. أخرج مشطه وراح يمشط شاربه. بدأ بريوير يزداد توتراً وقلقاً.

«حسناً يا فريدريك؟ إني أنتظر»، فرك صدره، وتنفّس بعمق، وأضاف، «إن التوتّر هنا، في صدري، يزداد كلّ دقيقة أجلس فيها هنا. بعد قليل سينفجر. لا أستطيع أن أبعد تفكيري عنها. أخبرني كيف أبدأ. كيف يمكنني أن أكتشف معنى أخفيته أنا نفسي؟»

«لا تحاول أن تكتشف أو أيّ شيء»، ردّ نيتشه وهو لا يزال يمشّط

شاربه، «هذه مهمتي أنا. أما مهمتك فتكمن في كنس المدخنة فقط. تحدّث عمّا تعنيه بيرثا لك».

ألم أتحدّث عنها كثيراً؟ هل أتمرّغ مرة أخرى في تأملاتي عن بيرثا؟ لقد سمعتها كلها، ملامستها، نزع ثيابها، مداعبتها، احتراق بيتي، موت الجميع، الهروب إلى أمريكا. هل تريد حقاً أن تسمع كلّ هذه القمامة من جديد؟» نهض بريوير فجأة، وراح يمشي وراء كرسي نيتشه.

واصل نيتشه كلامه بهدوء واتزان، وقال: «إن ما يحيرني هو عناد وسواسك. مثل صدفة بحرية تتعلّق بصخرتها. ألا يمكننا يا جوزيف، للحظة فقط، أن نمعن النظر في الأمر وننظر إلى الأسفل؟ أقول اكنس المدخنة من أجلي، اكنس المدخنة لهذا السؤال: كيف كانت ستكون الحياة، حياتك، من دون بيرثا؟ تكلّم فقط. لا تحاول أن تفكر كثيراً. بل لا تقل جملاً كاملة. قل أيّ شيء يخطر على بالك».

«لا أستطيع. إني متوتّر، إني نابض ملتف حول نفسه».

«توقّف عن السير ذهاباً وإياباً. اغمض عينيك وحاول أن تصف ما تراه وراء جفنيك. دع الأفكار تتدفق ولا تحاول أن تتحكم بها».

وقف بريوير وراء كرسي نيتشه وأمسك بيديه ظهر الكرسي مغمضاً عينيه، وراح يهتزّ يمنة ويسرة، كما كان يفعل والده عندما يصلي، وبدأ يغمغم أفكاره ببطء:

«حياة بدون بيرثا، حياة كالفحم لا ألوان فيها. حياة جنائزية كلّ شيء فيها مقرّر مسبقاً، الآن وعلى الدوام، سأكون هنا، ستجدني هنا، دائماً! هنا، في هذه البقعة، بهذه الحقيبة الطبية، في هذه الثياب، بهذا الوجه الذي سيزداد، يوماً بعد يوم، حلكة وتجهماً».

تنفّس بريوير بعمق، خفّ إحساسه بالغضب، وجلس، ثم تابع قائلاً: «حياة بدون بيرثا؟ ماذا أيضاً؟ أنا عالم، لكن لا لون للعلم. المرء

يعمل في العلم فقط، لا أن يحاول أن يعيش فيه. إني بحاجة إلى سحر، وإلى شغف. لا تستطيع أن تعيش بلا سحر. هذا ما كانت بيرثا تعنيه بالنسبة لي، الشغف والسحر. حياة بلا شغف، من يمكنه أن يعيش حياة كهذه؟». فتح عينيه فجأة ثم أضاف، «هل تستطيع أنت؟ هل يستطيع أحد؟»

«أرجوك اكنس المدخنة من الشغف والعيش»، قاطعه نيتشه.

واصل بريوير قائلاً: «كانت إحدى مريضاتي قابلة، مسنة، ذاوية، وحيدة، مريضة بالقلب، لكنها كانت شغوفة بالحياة. عندما سألتها عن مصدر شغفها، قالت إنها اللحظة التي ترفع فيها مولوداً جديداً صامتاً وتصفعه صفعة الحياة، وقالت إنها تشعر بأن حياتها تتجدّد عندما تنغمس في لحظة اللغز تلك، تلك اللحظة التي تمتدّ بين الوجود والنسيان».

«وأنت يا جوزيف؟»

«أنا مثل تلك القابلة. أريد أن أكون قريباً من اللغز. إن شغفي ببيرثا ليس طبيعياً. إنه خارق للطبيعة، أعرف ذلك، لكنّي أحتاج إلى سحر. لا يمكنني أن أعيش باللونين الأسود والأبيض فقط».

فقال نيتشه، «كلنا بحاجة إلى شغف يا جوزيف. إن شغف عاطفة ديونيسيوس هو الحياة. لكن هل يجب أن يكون الشغف سحرياً ومحطاً؟ ألا يستطيع المرء أن يجد وسيلة يصبح فيها سيد هذا الشغف؟

«دعني أحدّثك عن راهب بوذي التقيت به السنة الماضية في إنغادين. إنه يعيش حياة تقشف. يتأمّل خلال ساعات استيقاظه، ويمضي أسابيع دون أن يتبادل كلمة واحدة مع أحد. طعامه بسيط، وجبة طعام واحدة فقط في اليوم، أي شيء يستطيع أن يستجديه، ربما تفاحة فقط. لكنّه يتأمّل تلك التفاحة ويرمقها حتى تتفجر احمراراً وتقطر نضارة وطراوة. وفي نهاية اليوم، يتوقّع وجبة طعامه بشغف. إن الفكرة يا جوزيف، أنه

ليس من الضروري أن تتخلى عن الشيء المشغوف به، بل يجب أن تغيّر شروطك لهذا الشغف».

أومأ بريوير.

«تابع كلامك»، حثّه نيتشه، «اكنس مدخنتك أكثر عن بيرثا. ماذا تعني بالنسبة لك».

أغمض بريوير عينيه، وقال: «أرى نفسي أجري معها. أهرب. إن بيرثا تعني الهرب. الهرب من الخطر».

«كيف ذلك؟»

«إن بيرثا خطر. قبلها، كنت أعيش داخل قواعد محددة. واليوم أغازل حدود تلك القواعد. ربما هذا ما كانت القابلة تقصده. أفكّر بأن أفجّر حياتي، بأن أضحّي بمهنتي، بأن أزني، بأن أفقد عائلتي، بأن أهاجر، بأن أبدأ حياتي مرة أخرى مع بيرثا». ضرب بريوير رأسه قليلاً، وقال: «غبي! غبي! أعرف أنني لن أفعل ذلك».

«لكن ثمة سحر في هذا الخطر الذي يترنّح على الحافة؟»

«سحر؟ لا أعرف. لا يمكنني الإجابة عن ذلك. أنا لا أحبّ الخطر. إذا كان هناك سحر، فهو ليس الخطر. أظن أن السحر هو الهروب، لا من الخطر بل من الأمان. ربما عشت حياة مليئة بالأمان».

«ربما يا جوزيف، إن العيش بأمان خطر. خطر مميت».

«إن العيش بأمان خطر»، دمدم بريوير هذه العبارة لنفسه عدة مرات، «إن العيش بأمان خطر. إن العيش بأمان خطر. فكرة قوية يا فريدريك، وكذلك معنى بيرثا: الهرب من حياة خطيرة على نحو مميت؟ هل بيرثا هي أمنية حريتي، هروبي من فخّ الزمن؟»

«ربما من فخّ زمنك، لحظتك التاريخية. لكن جوزيف»، قال بجدية، «لا تخطئ بالتفكير بأنها ستقودك إلى خارج الزمن. فلا يمكن كسر

الزمن. هذا هو عبئنا الأعظم. وأعظم تحد لنا هو أن نعيش بالرغم من ذلك العبء».

لمرة واحدة، لم يحتجّ بريوير على نبرة نيتشه كفيلسوف. إنها فلسفة مختلفة. لم يعرف ماذا يفعل بكلمات نيتشه، لكنّه عرف أنّها وصلته، حرّكت شجونه. وقال: «تأكّد أنني لا أحلم بالخلود. والحياة التي أريد أن أهرب إليها هي حياة البرجوازي الطبيب في فيينا في عام ألف وثمانمائة واثنين وثمانين. أما الحياة الأخرى فإني أعرفها. إني أحسد حياتي لكنّي أخاف منها. أخاف من رتابتها ومعرفة ما سيحدث. إني أخافها كثيراً إلى درجة أنه يخيّل إليّ أحياناً أن حياتي هي فترة حكم بالإعدام. تعرف قصدي يا فريدريك؟»

هز نيتشه رأسه، وقال: «هل تذكر عندما سألتني، ربما في أول مرة تحدثنا فيها، هل توجد فوائد من أن يصاب المرء بالشقيقة؟ كان سؤالاً وجيهاً. فقد ساعدتني على التفكير بحياتي بطريقة مختلفة، وهل تذكر جوابي؟ فقد جعلتني أستقيل من منصبي أستاذاً في الجامعة؟ الكلّ: عائلتي، أصدقائي، حتى زملائي، رثوا سوء حظي، وإني متأكد من أن التاريخ سيسجّل أن مرض نيتشه هو الذي أنهى وظيفته المهنية على نحو مأساوي. لكن الأمر ليس كذلك. العكس هو الصحيح! فقد كانت وظيفتي أستاذاً في جامعة بازل حكم إعدامي. لقد حكمت عليّ بحياة أكاديمية جوفاء وأن أمضي بقيّة أيامي أعيل أمّي وأختي. كنت محاصراً حتى الموت».

«وبعد ذلك يا فريدريك، الشقيقة ـ المحرر العظيم ـ هبطت عليك».

«لم تختلف كثيراً، يا جوزيف، عن هذا الوسواس الذي يهبط عليك؟ ربما كنا متشابهين أكثر مما نظن».

أغمض بريوير عينيه. يا له من شيء رائع أن يشعر بأنه أصبح قريباً

جداً من نيتشه. اغرورقت الدموع في عينيه. تظاهر بأن نوبة سعال انتابته ليدير رأسه.

«لنتابع»، قال نيتشه بهدوء، «إننا نحرز تقدّماً. إننا نفهم أن بيرثا تمثّل الشغف، اللغز، الهروب، الخطر، يا جوزيف؟ ما هي المعاني الأخرى الكامنة فيها؟»

«الجمال! إن جمال بيرثا جزء مهم في اللغز. ها هنا، لقد جلبت لك هذه لتراها».

فتح حقيبته وأخرج منها صورة. وضع نيتشه نظارته السميكة، واتجه نحو النافذة ليتفحصها في ضوء أفضل. كانت بيرثا، المتشحة بالسواد من قمة رأسها حتى أصابع قدميها، استعداداً لركوب الخيل. كانت سترتها ضيقة جداً: صفّ مزدوج من الأزرار الصغيرة، يمتد من خصرها الضامر حتى ذقنها، يكاد يحوي صدرها الكبير. كانت تمسك بيدها اليسرى تنورتها برفق وسوط خيل طويل، وتدلت من يدها الأخرى قفازات. كان أنفها بارزاً. شعرها قصير وحادّ، حطّت عليه قبعة سوداء بلا مبالاة. كانت عيناها كبيرتين غامقتين، تنظر إلى آلة التصوير بلا وجل، لكنها كانت تحدّق في نقطة بعيدة.

«إمرأة رائعة يا جوزيف»، قال نيتشه، وأعاد له الصورة وجلس ثانية. ثم قال: «نعم، إنها رائعة الجمال، لكنّي لا أحبّ النساء اللاتي يحملن سياطاً».

قال بريوير: «إن الجمال جزء مهم في معنى بيرثا. هذا الجمال يأسرني بسهولة. أظن بسهولة أكثر من معظم الرجال. إن الجمال لغز. لا أكاد أعرف كيف أتكلّم عنه، لكن امرأة تمتلك هذه التوليفة من اللحم والثديين والأذنين والعينين الكبيرتين الداكنتين والأنف والشفتين، خاصة

الشفتين، تثيرني. يبدو هذا غبياً، لكنّي أكاد أعتقد أن لدى تلك النساء قوى تفوق طاقة البشر».

«أن تفعل ماذا؟»

«إنه أمر شديد الغباء»، أخفى بريوير وجهه بين يديه.

«اكنس المدخنة فقط يا جوزيف. لا تقدم أحكاماً، تكلّم فقط. أعدك بأنني لن أطلق عليك أحكاماً أيضاً».

«لا يمكنني أن أصوغ ذلك في كلمات».

«حاول أن تنهي هذه الجملة: في حضور جمال بيرثا، أشعر...»

«في حضور جمال بيرثا، أشعر... أشعر. بماذا أشعر؟ أشعر أنني في جوف الأرض، في مركز الوجود. أكون حيث يجب أن أكون. في المكان الذي لا توجد فيه أسئلة عن حياة أو هدف، مركز، مكان الأمان. إن جمالها يقدم شعوراً لا نهائياً بالأمان». رفع رأسه وقال: «انظر، أقول لك إن لا معنى لهذا».

«تابع»، قال نيتشه.

«بالنسبة لي، فلكي تأسرني المرأة، يجب أن تتمتع بنظرة معينة. نظرة عشق. يمكنني أن أراها في عقلي الآن. عينان مفتوحتان على وسعيهما، براقتان. الشفتان مضمومتان في نصف ابتسامة حنونة، يبدو أنها تقول - آه، لا أعرف...».

«تابع يا جوزيف، أرجوك! استمر في تخيّل الابتسامة. ألا تزال تستطيع أن تراها؟» أغمض بريوير عينيه وهز رأسه.

«ماذا تقول لك».

«تقول: «إنك جذاب. كل ما تفعله جميل. آه يا حبيبي، إنك لا تسيطر على نفسك، لكن المرء يتوقّع ذلك من فتى». الآن أراها تلتفت

إلى النساء الأخريات حولها، وتقول: «أليس هو رائع؟ أليس هو رائع؟ أليس هو عزيزي؟ سأضمه إليّ وأهدهده»».

«هل تستطيع أن تقول المزيد عن تلك الابتسامة؟»

«تقول لي إني أستطيع أن ألعب، أن أفعل ما أريد. يمكن أن أقع في ورطة. لكن مهما كان، ستظل سعيدة بي، ستظل تجدني رائعاً».

«هل للابتسامة تاريخ شخصي بالنسبة لك، يا جوزيف؟»

«ماذا تقصد؟»

«عد إلى الوراء. هل تضم ذاكرتك مثل هذه الابتسامة؟»

هزّ بريوير رأسه، وقال: «لا، لا توجد ذكريات».

«إنك ترد بسرعة»، قال نيتشه بإصرار، «لقد بدأت تهزّ رأسك قبل أن أنهي سؤالي. ابحث! واصل رؤية تلك الابتسامة في عين عقلك وانظر ماذا يأتي».

أغمض بريوير عينيه وراح يبحث في طيات ذاكرته، ثم بدأ يقول: «لقد رأيت ماتيلد تبتسم تلك الابتسامة لابننا، يوهانز. أيضاً، عندما كنت في العاشرة أو الحادية عشرة، فتنت بفتاة تدعى ماري غومبيرز. لقد ابتسمت لي تلك الابتسامة! تلك الابتسامة ذاتها! حزنت كثيراً عندما سافرت أسرتها. لم أرها منذ ثلاثين سنة، ومع ذلك فإني لا أزال أحلم بماري».

«وماذا أيضاً؟ هل نسيت ابتسامة أمّك؟»

«ألم أخبرك؟ فقد ماتت أمّي وأنا في الثالثة من عمري. لم تكن تتجاوز الثامنة والعشرين من عمرها، وقد ماتت بعد ولادة أخي الأصغر. قيل لي إنها امرأة جميلة، لكنني لا أملك ذكريات عنها، ولا حتى ذكرى واحدة».

«وزوجتك؟ هل لماتيلد تلك الابتسامة السحرية؟»

«لا. إني متأكّد من ذلك. إن ماتيلد جميلة، لكن لا توجد لابتسامتها قوة عليّ. أعرف أنه من الغباء التفكير بأنه لدى ماري، في العاشرة من العمر، قوّة، بينما لا يوجد لدى ماتيلد شيء. لكنني أشعر بالأمر هكذا. في زواجنا، أنا من له قوّة عليها، وهي التي ترغب في حمايتي. لا، لا يوجد لماتيلد سحر، لا أعرف لماذا».

«السحر يحتاج إلى عتمة وغموض»، قال نيتشه، «ربما قضي على غموضها من الألفة من الزواج لأربع عشرة سنة. هل تعرفها حق المعرفة؟ ربما كنت لا تستطيع أن تتحمل حقيقة إقامة علاقة مع امرأة جميلة».

«بدأت أفكر بأنّني أحتاج إلى كلمة أخرى غير الجمال. إن ماتيلد تتمتع بكلّ مقومات الجمال. لديها الجمال، لكنها لا تمتلك قوّة الجمال. لعلك على حقّ. إنها مألوفة كثيراً. في أحيان كثيرة، أرى اللحم والدم تحت الجلد، وثمة عامل آخر وهو عدم وجود منافسة. فلم يكن هناك رجال آخرون في حياة ماتيلد. كان زواجنا زواجاً مرتّباً».

«ما يحيّرني يا جوزيف هو أنك تريد منافسة. فمنذ أيام قليلة فقط، كنت تقول إنك تخشى المنافسة».

«أريد منافسة ولا أريد. تذكّر أنك قلت إنه ليس من الضروري أن يكون كلامي متماسكاً. إني أعبّر فقط عن الكلمات كما تخطر على بالي. دعني أرى. دعني أستجمع أفكاري. نعم، توجد لدى المرأة الجميلة قوّة أكبر إذا كانت مرغوبة من رجال آخرين. لكن مثل هذه المرأة تكون خطرة للغاية. إنها ستحرقني. ربما كانت بيرثا الحل الوسط المثالي بالنسبة لي. فهي لم تتشكّل بالكامل بعد. إنها حسناء في حالة جنينية، لم تكتمل بعد».

«إذاً»، سأل نيتشه، «هل تعتبر أنك أكثر أماناً لأنه لا يوجد رجال آخرون ينافسونك عليها؟»

«ليس هذا تماماً. إنها أكثر أماناً لأن لديّ الغلبة. أيّ رجل يمكن أن يرغبها، لكنّي أستطيع أن أهزم جميع المنافسين بسهولة. إنها، أو بالأحرى، كانت تعتمد عليّ اعتماداً تاماً. فقد رفضت لعدة أسابيع أن تأكل إذا لم أطعمها كلّ وجبة بنفسي.

«من الطبيعي، باعتباري طبيبها، حزنت عندما انتكست مريضتي. تسك، تسك، قرقعت لساني. تسك، تسك، يا للشفقة! أعربت عن قلقي المهني لأسرتها، لكن في سريرتي، كرجل، ولن أعترف بذلك قط لأي شخص إلا لك، كنت أستمتع بسيطرتي عليها. عندما أخبرتني بأنها حلمت بي، أحسست بالنشوة. يا له من نصر. التوغل في عمق أعماقها، المكان الذي لم يتمكن أي رجل آخر أن يدخله أبداً. وبما أن صور الحلم لا تموت، فقد كان مكاناً أستطيع أن أمكث فيه إلى الأبد».

«إذاً يا جوزيف، لقد ربحت المنافسة دون أن يتعين عليك منافسة أحد».

«نعم، هذا معنى آخر لبيرثا. منافسة آمنة، نصر مؤكد. لكن امرأة جميلة بدون أمان، فهذا أمر آخر». صمت بريوير.

«تابع يا جوزيف. إلى أين ذهبت أفكارك الآن؟»

«كنت أفكّر بامرأة خطيرة، حسناء مكتملة الجمال قريبة من عمر بيرثا جاءت لرؤيتي في عيادتي منذ أسبوعين. امرأة يبجلها رجال كثيرون. لقد فتنتني، وأفزعتني. لم أتمكن من معارضتها ولم أستطع أن أجعلها تنتظر ورأيتها قبل المرضى الآخرين الذين كانوا ينتظرون دورهم قبلها. وعندما طلبت مني شيئاً طبياً غير ملائم، تمكنت من مقاومة رغباتها».

«آه، أعرف مثل هذه المحنة»، قال نيتشه، «إن المرأة الأكثر رغبة

هي المرأة الأكثر إرعاباً. وهذا بالطبع، لا بسبب ما هي، بل لأننا نجعلها نحن كذلك. إنه لأمر محزن حقاً».

«محزن يا فريدريك؟»

«محزن للمرأة غير المعروفة، ومحزن أيضاً للرجل. أنا أعرف هذا النوع من الحزن».

«هل تعرف أنت أيضاً بيرثا؟»

«لا، لكنّي أعرف امرأة تشبه المريضة التي وصفتها، التي لا يمكن إنكارها».

لو سالومي، قال بريوير لنفسه. لو سالومي، بدون شكّ! أخيرا، يتكلّم عنها! مع أنه يرفض أن يترك التركيز على نفسه، لكن بريوير واصل الضغط في السؤال.

«إذاً، فريدريك، ماذا حدث لتلك السيدة التي لم تتمكن من إنكارها».

تردّد نيتشه، ثمّ أخرج ساعته، وقال: «لقد أصبنا صيداً نفيساً اليوم. من يعرف، ربما كان صيداً نفيساً لكلينا. لكنّ وقتنا بدأ ينفد وإني واثق من أنه لا تزال لديك أمور كثيرة تريد أن تقولها. أرجوك تابع وقل لي ماذا تعني بيرثا بالنسبة لك».

عرف بريوير أن نيتشه اقترب أكثر من أي وقت مضى من البوح عن مشاكله الخاصة. لعل ما يلزم هو طرح سؤال لطيف عن هذا الأمر. لكن عندما سمع نيتشه يحثّه ثانية قال: «لا تتوقّف دع أفكارك تتدفّق». كان بريوير في غاية السعادة ليواصل كلامه.

«إني أرثي لتعقيد الحياة المزدوجة، الحياة السرية، وعلى الرغم من ذلك فإني أحترمها. إن الحياة البرجوازية السطحية قاتلة. إنها واضحة للغاية، إذ بإمكان المرء رؤية النهاية بوضوح شديد وجميع التصرفات

والأفعال التي تؤدي مباشرة إلى النهاية. يبدو ذلك جنوناً، أعرف، لكن الحياة المزدوجة هي حياة إضافية. إنها تعد بعمر مديد».

هز نيتشه رأسه وقال: «إنك تشعر أن الوقت يلتهم إمكانيات الحياة السطحيّة، بينما الحياة السرية لا تنضب؟»

«نعم، ليس هذا تماماً ما قلته، لكن هذا ما قصدته. ثمة أمر آخر، ربما هو الأكثر أهمية، وهو الشعور الذي لا يمكن وصفه الذي تملكني عندما كنت مع بيرثا أو الذي يتملكني الآن عندما أفكر بها. منتهى السعادة! هذه هي العبارة الأقرب».

«كان يخيّل لي دائماً يا جوزيف أننا نعشق الشهوة أكثر مما نعشق المشتهى».

«نعشق الشهوة أكثر مما نعشق المشتهى»، ردّد بريوير، «أرجوك أعطني ورقة. أريد أن أتذكّر ذلك».

مزّق نيتشه صفحة من دفتر ملاحظاته، وانتظر حتى أنهى بريوير كتابة الجملة، ثم طوى الورقة ووضعها في جيب سترته.

«وثمة شيء آخر»، واصل بريوير، «إن بيرثا تساعد في التخفيف من وحدتي. بقدر ما أذكر، فقد كنت أخاف الأماكن الفارغة في داخلي. ولا علاقة لي بوجود، أو عدم وجود أناس. هل فهمت قصدي؟»

«آخ، من يستطيع أن يفهمك أفضل مني؟ في بعض الأحيان، كنت أظن أنني أكثر الأشخاص وحدة في الوجود، ومثلك، فإن لا علاقة لذلك بوجود الآخرين. في الحقيقة، فأنا أكره الذين يسلبون وحدتي مني، ومع ذلك، فهم لا يقدمون لي صحبة حقيقية».

«ماذا تقصد يا فريدريك؟ كيف لا يقدمون صحبة؟»

«لأنهم لا يقدّرون الأشياء التي أقدّرها. أحياناً أحدّق بعيداً في الحياة

وأتطلع فجأة حولي فلا أرى أحداً برفقتي، وأجد أن رفيقي الوحيد هو الزمن».

«لست متأكّداً من أن وحدتي تشبه وحدتك. ربما لم أجرؤ قط على ولوجها بعمق مثلك».

«ربما»، قال نيتشه، «لأن بيرثا تمنعك من الولوج إلى عمق أكثر».

«لا أظن أنني أريد الولوج أكثر. في الحقيقة فإني أشعر بالامتنان لبيرثا... لأنها خلصتني من وحدتي. هذا شيء آخر تعنيه لي. في السنتين الماضيتين، لم أشعر بأني وحيد، لأن بيرثا كانت دائماً في بيتها، أو في المشفى، تنتظر زيارتي. وهي الآن في داخلي على الدوام، ولا أزال أنتظر».

«إنك تنسب إلى بيرثا شيئاً أنجزته أنت».

«ماذا تقصد؟»

«أنك لا تزال وحيداً كما من قبل، وحيداً مثل أي شخص محكوم عليه بالوحدة. لقد صنعت أيقونتك الخاصة بك ثم أصبحت تشعر بالدفء برفقتها. ربما كنت متديناً أكثر مما تظن».

فأجاب بريوير، «لكن بمعنى أنها هناك دائماً، أو كانت، منذ سنة ونصف السنة. وعلى الرغم من أن ذلك كان سيئاً، فقد كانت أفضل فترة في حياتي وأكثرها حيوية. كنت أراها كلّ يوم، كنت أفكّر بها طوال الوقت، أحلم بها في الليل».

«حدثتني عن حلم لم تكن موجودة فيه يا جوزيف، في ذلك الحلم الذي يتكرر كثيراً. كيف يبدأ... وهل كنت تبحث عنها...؟»

«يبدأ بحدوث شيء مخيف. تبدأ الأرض تميد تحت قدميّ، فأبدأ أبحث عن بيرثا لكني أجدها...»

«نعم إني مقتنع بأنه يوجد شيء مهم في هذا الحلم. ما هو ذلك الحدث المخيف الذي حدث... تنشق الأرض تحتك؟»

أومأ بريوير.

«لماذا يا جوزيف كان عليك أن تبحث عن بيرثا في تلك اللحظة؟ ألحمايتها؟ أم لتحميك؟»

ساد صمت طويل. أحنى بريوير رأسه مرّتين كما لو أنه يقول لنفسه بأن ينتبه، ثم قال: «لا يمكنني أن أمضي أبعد من ذلك. إنه أمر صاعق، لكن عقلي توقف عن العمل. لم أشعر بمثل هذا الإرهاق من قبل. مع أننا لم نتجاوز منتصف النهار، أصبحت أشعر كأنني كنت أعمل بلا توقّف لأيام وأيام».

«أحسّ بذلك أيضاً. كان عمل اليوم شاقاً».

«لكنه العمل الصحيح كما أظن. يجب أن أذهب الآن. أراك غداً يا فريدريك».

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات الدكتور بريوير عن إكارت موللر، ١٥ كانون الأول ١٨٨٢

هل توسلت إلى نيتشه قبل بضعة أيام لكي يبوح بمكنونات نفسه؟ اليوم، أخيراً، كان مستعداً ومتحمساً. أراد أن يخبرني بأنه مهنته الجامعية كانت تحاصره، بأنه رفض إعالة أمّه وأخته، بأنه كان وحيداً ويعاني بسبب امرأة جميلة.

نعم، أراد أخيراً أن يكشف عن مكنونات نفسه لي. لكن على الرغم من ذلك، فهو رائع حقاً ـ لم أشجّعه! لم أكن أرغب في الإنصات له. لا، الأسوأ من ذلك! شعرت بالامتعاض من كلامه! شعرت بالامتعاض من تطفّله على وقتي!

هل كان ذلك منذ أسبوعين فقط عندما حاولت أن أدفعه إلى البوح بأمر تافه عنه. أنني شكوت إلى ماكس والسيدة بيكر عن كتمانه وسرّيته، بأنني كنت ألصق أذني بشفتيه لأسمعه يقول: «ساعدني، ساعدني»، وأنني وعدته، «اعتمد عليّ؟»

لماذا أهملته اليوم إذاً؟ هل أصبحت جشعاً؟ الاستشارة، كلما طالت أكثر، قلّ فهمي لها. مع أنها مقنعة. أكثر وأكثر، أفكّر بأحاديثي مع نيتشه. في بعض الأحيان، تتقاطع مع مخيلتي عن بيرثا. أصبحت هذه الجلسات محور يومي. أصبحت جشعاً لأستغل وقتي معه، وفي أحيان كثيرة، لم أعد أكاد أستطيع الانتظار حتى يحين موعد جلستنا التالية. ألهذا السبب تركت نيتشه ينهي الجلسة؟

في المستقبل ـ من يدري متى، ربما بعد خمسين سنة؟ ـ قد يصبح العلاج بالكلام هذا شائعاً. أن يصبح «طبّ القلق» اختصاصاً، ويتدربون عليه في كليات الطب أو ربما في أقسام الفلسفة.

ماذا يجب أن يضم منهاج تدريس «طبّ القلق» في المستقبل؟ حالياً يمكنني أن أكون واثقاً من موضوع أساسي وهو «العلاقة»! من هنا ينشأ التعقيد. كما يتعين على الجرّاحين أن يتعلّموا تشريح الجسم أولاً، يجب على «طبيب القلق» في المستقبل أن يفهم أولاً العلاقة بين الشخص الذي يقدم المشورة والشخص الذي تقدم له المشورة. وإذا قيض لي أن أساهم في علوم هذا النوع من الإستشارة، فيجب أن أتعلّم ملاحظة علاقة الاستشارة بموضوعية بقدر دماغ الحمامة.

إن ملاحظة العلاقة ليست سهلة عندما أكون أنا نفسي جزءاً منها. على الرغم من ذلك، فإنني ألاحظ الاتّجاهات الصارخة.

كنت أنتقد نيتشه، لكني توقفت عن ذلك الآن. بل على العكس،

بدأت أقدّر كلّ كلمة يقولها، ويوماً بعد يوم، بدأت أزداد اقتناعاً بأنه يستطيع أن يساعدني.

كنت أظن أنّني أستطيع أن أساعده. لم أعد أظن ذلك. لا يوجد لديّ الكثير الذي يمكنني أن أقدمه له. إنه يمتلك كلّ شيء يمكن أن يقدمه لي.

كنت أنافسه، أبتكر أفخاخاً من لعبة الشطرنج لأوقعه فيها. لم أعد أفعل ذلك. إنه يمتلك فطنة استثنائية. ذكاؤه يحلق عالياً. أحدّق فيه كما تحدّق دجاجة في صقر. أبجّله كثيراً! هل أريده أن يحلّق فوقي؟ ربما لهذا السبب لا أريد أن أسمعه يتكلّم. ربما لا أريد أن أعرف شيئاً عن ألمه، إمكانية ارتكابه الخطأ.

كنت أفكّر كيف يمكنني أن «أتعامل» معه. لم أعد أفعل ذلك الآن! في معظم الأحيان، أشعر بإحساس هائل من الدفء اتجاهه. هذا تغيير. ذات مرة قارنت حالتنا بقيام روبرت بتدريب قطته الصغيرة: «ارجع إلى الوراء، دعها تشرب حليبها. بعدها ستتركك تلمسها. اليوم، خلال حديثنا في منتصف النهار، تسربت صورة أخرى في عقلي: قطتان صغيرتان مخطّطتان كالنمر، رأس الواحدة يلامس رأس الأخرى، تلعقان الحليب من الطاسة نفسها.

ثمة شيء غريب آخر. لماذا ذكرت عبارة «حسناء مكتملة الجمال» زارت مكتبي مؤخراً؟ هل أريد أن أعلمه أنني التقيت لو سالومي؟ هل كنت أغازل الخطر؟ أستثيره بصمت؟ هل حاولت أن أدقّ إسفيناً بيننا؟

ولماذا قال نيتشه إنه لا يحب النساء اللاتي يحملن السياط؟ لا بد أنه يشير إلى تلك الصورة التي فيها لو سالومي والتي لا يعرف أنني رأيتها. يجب أن يدرك أن مشاعره تجاهها لا تختلف عن مشاعري تجاه بيرثا. لذلك، هل كان يستثيرني بصمت؟ مزحة خاصة صغيرة؟ ها نحن،

رجلان يحاولان أن يكون أحدهما صادقاً مع الآخر، مع أن ما يحفزّنا هو عفريت الازدواجية.

بصيرة جديدة أخرى! ما يشكله نيتشه بالنسبة لي، كنت كذلك بالنسبة لبيرثا. فقد ضخمت حكمتي، واحترمت كلّ كلمة قلتها، ووقّرت جلساتنا، لم تكد تنتظر قدوم الجلسة التالية، حتى أنه أقنعني بأن أراها مرتين في اليوم.

وكلما جعلتني مثالياً في نظرها، منحتها مزيداً من القوة. كانت بلسم آلامي. مجرد نظرة منها كانت كفيلة بأن تشفيني من وحدتي. لقد منحت حياتي هدفاً وأهمية. ابتسامتها البسيطة جعلتني أشعر بأني مرغوب، برأتني من جميع الدوافع البهيمية. حبّ غريب: نتشمّس كلانا في شعاع وألق سحر أحدنا الآخر.

على الرغم من ذلك فإني أزداد تفاؤلاً. ثمة قوّة في حواري مع نيتشه، وإني على قناعة بأنّ هذه القوّة ليست وهماً.

من الغريب، أنني بعد ساعات فقط، نسيت معظم حديثنا. نسيان غريب، ليس مثل تبخر حديث دار في مقهى. هل يوجد شيء مثل نسيان نشط ـ نسيان شيء لا لأنه غير مهم، بل لأنه مهم للغاية؟

دوّنت عبارة صادمة: «إننا نعشق الشهوة أكثر مما نعشق المشتهى».

وعبارة أخرى: «العيش بأمان خطر». يقول نيتشه إن حياته الهادئة كانت محفوفة بالخطر. أظن أنه يقصد أنني عرضة لخطر أن أخسر نفسي الحقيقية، أو أنني لن أصبح أنا. لكن من أنا؟

***

مقتطفات من دفتر ملاحظات فريدريك نيتشه عن الدكتور بريوير، ١٥ كانون الأول ١٨٨٢

أخيراً، نزهة نستحقها. مياه عميقة، غطسات سريعة إلى الأسفل وإلى

الأعلى. مياه باردة. مياه منعشة. أحبّ الفلسفة الحية! أحبّ فلسفة حُفرت من تجارب فجة. شجاعته تتنامى. إرادته ومحنته تقودان الطريق. لكن ألم يحن الوقت لنتبادل المخاطر؟

لم يحن الوقت بعد للفلسفة التطبيقية. متى؟ بعد خمسين سنة، مائة سنة؟ سيأتي وقت سيتوقف فيه الرجال عن الخوف من المعرفة، ولن يعودوا يخفون مواطن ضعفهم وراء قناع «قانون أخلاقي»، وسوف يجدون الشجاعة لكسر قيد «يجب أن تفعل». عندها سيتوق الرجال إلى حكمتي الحيّة، عندها سيحتاج الرجال إلى توجيهي لهم إلى حياة صادقة، حياة الشكّ والاكتشاف. حياة التغلّب. التغلّب على الشبق. وأي شبق أعظم من شبق الاستسلام؟

لديّ أغان أخرى يجب أن أغنيها. إن عقلي حبلى بالأنغام، وزارادشت يدعوني دائماً بصوت عال. حرفتي ليست مهنة شخص فني. لكن لا يزال يتوجب عليّ أن أضع يدي في العمل وأسجّل جميع الدروب المسدودة وجميع المسارات المخفية.

اليوم، تغيّر اتّجاه عملنا بالكامل. والمفتاح؟ فكرة المعنى لا «الأصل».

قبل أسبوعين، أخبرني جوزيف أنه عالج كلّ عرض من أعراض بيرثا باكتشاف سببه الأصلي. فعلى سبيل المثال، عالج خوفها من مياه الشرب بمساعدتها بأن تتذكّر أنها رأت ذات مرة خادمتها تسمح للكلب بأن يلعق الماء من كأس بيرثا. في البداية ساورني الشكّ، ويساورني أكثر الآن. إن رؤية كلب يشرب من كأس أحدهم أمر غير سار؟ بالنسبة إلى البعض، نعم! أمر مفجع؟ بشق النفس! سبب يدعو إلى الهستيريا؟ مستحيل!

لا، لم يكن ذلك «سبباً» بل إظهار شيء من القلق الأعمق! لهذا السبب تلاشى علاج جوزيف بسرعة.

يجب أن نبحث في المعنى. فالعرض لا يعدو كونه رسولاً ينقل الخبر بأن القلق ينفجر من أعمق أعماق الدنيا! مخاوف شديدة تتعلق بمحدودية قدرة المرء، موت الله، العزلة، الهدف، الحرية: مخاوف شديدة محبوسة طوال العمر، تكسر قيودها الآن وتقرع بقوة على أبواب العقل ونوافذه. إنها تطالب بأن تُسمع، لا أن تُسمع فقط، بل أن تعاش.

لا يزال ذلك الكتاب الروسي الغريب عن «الرجل السري» يهيمن على أفكاري. يكتب دوستويفسكي أن هناك أشياء لا يمكن قولها، بل الاستماع إليها. وثمة أشياء أخرى لا يمكن البوح بها حتى إلى الأصدقاء. وأخيراً، هناك أشياء لا يبوح بها المرء حتى لنفسه! من المؤكد أن الأشياء التي لم يبح بها جوزيف حتى لنفسه هي التي تنطلق الآن في داخله.

انظر ماذا تعني بيرثا بالنسبة لجوزيف.إنها هروب، هروب خطر، هروب من خطر الحياة الآمنة. والشغف أيضاً، والغموض والسحر. إنها أعظم محررة تعمل على تأجيل حكم إعدامه. إنها تمتلك قوى خارقة. إنها مهد الحياة. الأمّ المعترفة: فهي تصفح عن كلّ شيء وحشي وبهيمي فيه. تقدم له النصر المضمون على جميع المنافسين، بحب دائم، رفقة أبديّة، ووجود أبدي في أحلامها. إنها درع يقاوم أسنان الزمن، تساعده في إنقاذه من الهاوية في داخله، أمان من الهاوية في الأسفل.

بيرثا هي قرن خصب لذلك اللغز، الحماية، الخلاص! جوزيف بريوير يسمي ذلك حباً. لكن اسمه الحقيقي صلاة.

اعتاد كهنة الرعية، مثل أبي، على حماية قطيعهم من براثن الشيطان. يعلّمونهم أن الشيطان هو عدو الإيمان، وأنه لكي يقوّض الإيمان، فقد يتخذ الشيطان أي مظهر، وأخطرها وأكثر خبثاً هو ستار الشكّ والتشكيك.

لكن من سيحمينا ـ المتشككون الدينيون؟ من سيحذّرنا من التهديدات المتعلقة بحبّ الحكمة وكراهية العبوديّة؟ هل يجب أن تكون تلك دعوتي؟ لدينا نحن المتشكّكون أعداؤنا، شياطيننا التي تقوّض الشكّ فينا وتبذر بذور الإيمان في أكثر الأماكن خداعاً. هكذا نقتل الآلهة، لكنّنا نقدّس بدائلهم: المعلمون، الفنانون، النساء الجميلات. وجوزيف بريوير، العالم المشهور، سعيد منذ أربعين سنة، بابتسامة جميلة لفتاة صغيرة تدعى ماري.

نحن المتشككين يجب أن نكون يقظين وأقوياء. إن الدافع الديني شرس. انظر كيف أن بريوير، الملحد، يتوق إلى الاستمرار، لأن يكون موضع اهتمام إلى الأبد، يُغفر له، وأن يكون معشوقاً ومحمياً. هل يجب أن تكون دعوتي دعوة كاهن شكّاك؟ هل أنفق حياتي في اكتشاف الرغبات الدينية وتحطيمها، مهما كان الستار الذي تتستر وراءه؟ إنّ العدو هائل. إن مخاوف الموت والنسيان واللامعنى هي التي تغذي جذوة الإيمان.

إلى أين سيقودنا المعنى؟ إذا كشفت معنى الهوس، وماذا بعد؟ هل ستخف حدة أعراض جوزيف؟ وأعراضي؟ متى؟ هل سيكون الغطس بسرعة إلى عمق «الفهم» كافياً؟ أم هل يجب أن تكون غطسة طويلة؟

وأيّ معنى؟ يبدو أنه هناك معاني عديدة لنفس الأعراض، ولم يبدأ جوزيف باستنزاف معاني هوسه ببيرثا.

ربما يتعين علينا أن نقشّر المعاني الواحد تلو الآخر حتى تتوقّف بيرثا عن أن تعني أيّ شيء إلا أن تصبح بيرثا نفسها. ما إن تزال عنها المعاني الزائدة، فإنه سيراها بصورة الإنسان العاري الخائف، بشر بكلّ معنى الكلمة، كما هي وهو وكلّنا حقاً.

الفصل ٢٠

في صباح اليوم التالي، دخل بريوير غرفة نيتشه وهو لا يزال يرتدي معطفه السميك المبطّن بالفراء ويحمل قبعة سوداء. «فريدريك، انظر من النافذة. تلك الكرة البرتقالية الخجولة في أسفل السماء. هل تتذكرها؟ لقد برزت شمس فيينا أخيراً. هل نحتفل بالتنزه بهذه المناسبة اليوم؟ يقول كلانا إننا نفكر على نحو أفضل عندما نمشي».

وثب نيتشه من وراء طاولة مكتبه كأن نوابض مثبتة في قدميه. لم يره بريوير قط وهو يتحرّك بهذه الحيوية. ثم قال: «لا شيء يسعدني أكثر من ذلك. فلم تسمح لي الممرضات بالخروج منذ ثلاثة أيام. إلى أين يمكننا أن نذهب؟ هل لدينا وقت كاف للهرب من الأحجار المقببة؟»

ها هي خطتي. اعتدت على زيارة قبر والديّ كل يوم سبت مرة في الشهر. رافقني اليوم. إن المقبرة لا تبعد أكثر من ساعة بالعربة. سأتوقّف قليلاً لأضع إكليلاً من الزهور، ومن هناك نذهب إلى سيميرنغر هايد مشياً على الأقدام في الغابة والمروج لمدة ساعة تقريباً. سنعود عند العشاء. يوم السبت، لا أقبل مواعيد حتى بعد الظهر».

انتظر بريوير حتى انتهى نيتشه من ارتداء ملابسه. فقد قال ذات مرة إنه على الرغم من أنه يحبّ الطقس البارد، فإن الطقس البارد لا يحبّه، ولحماية نفسه من داء الشقيقة، ارتدى كنزتين ثقيلتين، ولفّ حول رقبته وشاحاً من الصوف طوله خمسة أقدام عدّة مرات قبل أن يرتدي معطفه

بشيء من الصعوبة. بعد أن وضع ظلاً أخضر لحماية عينيه من وهج الضوء، اعتمر قبعة بفارية خضراء مصنوعة من اللباد.

خلال الجولة، استفسر نيتشه عن أكداس الجداول السريرية والنصوص والمجلات الطبية المحشورة في جيوب باب العربة والمبعثرة على المقاعد الفارغة. قال بريوير إن عربته بمثابة مكتبه الثاني.

«تمر أيام أمضي فيها في العربة وقت أطول مما أقضيه في المكتب في شارع باكشتراس. منذ فترة أراد طالب طبّ شاب يدعى سيغموند فرويد، أن يعرف كيف يمضي الطبيب يوماً في حياته، وطلب أن يرافقني طيلة يوم كامل. فزع من عدد الساعات التي أمضيها في هذه العربة، فقرر أن يبحث عن مهنة في الطب تقتصر على الأبحاث ولا توجد فيها معالجة سريرية».

دارت العربة حول الجزء الجنوبي من المدينة في شارع رينغشتراس، وعبرا نهر فاين، واجتازا جسر شوارزينبيرغ، ثم القصر الصيفي على امتداد رينفيغ، ثم سمنيرينغ هوبتشتراس، ثم وصلا إلى المقبرة المركزية لمدينة فيينا. بعد دخولهم البوابة الكبيرة الثالثة، وهو الجزء اليهودي في المقبرة، اجتاز فيشمان الذي اعتاد على إيصال بريوير إلى قبر والديه منذ عشر سنين، متاهة من الدروب الصغيرة دون أن يضل طريقه، بعضها عريض يكاد يتسع لعبور العربة. ثم توقّف أمام المقبرة الكبيرة لعائلة روثشيلد. عندما ترّجل بريوير ونيتشه من العربة، أعطى فيشمان بريوير إكليلاً كبيراً من الورد كان قد وضعه تحت مقعده. مشى الرجلان بصمت في درب ترابي عبر صفوف من التماثيل حفر على بعضها اسم وتاريخ الوفاة فقط، وحفرت على بعضها الآخر عبارات قصيرة عن الذكرى، وزُيِّن البعض الآخر بنجمة داوود أو برسم ناتئ لأيدٍ ذات أصابع ممتدة للدلالة على موتى كوهين، أقدس قبيلة.

أومأ بريوير نحو باقات زهور مقطوفة حديثاً موضوعة أمام عدة قبور.

«في أرض الموتى هذه، هؤلاء هم الموتى، وهؤلاء»، وأشار إلى جزء قديم مهمل من المقبرة، «هؤلاء هم الموتى الحقيقيون. فلم يعد أحد يهتم بقبورهم لأنه لم يبق أحد على قيد الحياة يعرفهم. إنهم يعرفون ماذا يعني أن يكونوا أمواتاً».

عندما وصل إلى المكان المقصود، وقف بريوير أمام مقبرة عائلية كبيرة محاطة بسور من الحجارة المحفورة الرقيقة، في داخلها شاهدتا قبر: شاهدة صغيرة منتصبة عمودياً كتب عليها، «أدولف بريوير ١٨٤٤ ـ ١٨٧٤»، وبلاطة رخامية رمادية مسطحة كبيرة حُفر عليها نقشان:

ليوبولد بريوير ١٧٩١ ـ ١٨٧٢

المعلّم والأب المحبوب

لا ينساه أبناؤه

بيرثا بريوير ١٨١٨ ـ ١٨٤٥

الأمّ والزوجة المحبوبة

ماتت وهي في عزّ شبابها وجمالها

التقط بريوير المزهرية الحجرية الصغيرة المركونة فوق البلاطة الرخامية، وأفرغ منها الأزهار الجافة المتبقية من الشهر الماضي، ووضع مكانها الأزهار التي جلبها حتى امتلأت، وبعد أن وضع حصاة ناعمة صغيرة على جانبي بلاطة والديه وشاهدة قبر شقيقه، وقف صامتاً، محني الرأس.

نيتشه، احتراماً لحاجة بريوير إلى الخلوة، سار في درب تحفّه شواهد قبور من الرخام والصوان، وبعد قليل دخل حيّ يهود فيينا

الأغنياء: غولدشميدت، غومبيرز، ألتمان، ويرذييمير، الذين كانوا في موتهم، كما في حياتهم، يريدون الاندماج في مجتمع فيينا المسيحي. أضرحة كبيرة تضم عائلات كاملة، مداخلها مسدودة بشبك من الحديد الملفوف الثقيل المزدان بأوراق كرمة حديدية مدلاة، تحرسها تماثيل جنائزية متقنة الصنع. وفي أسفل الدرب، انتصبت شواهد قبور ضخمة تقبع فوقها تماثيل ملائكة، أذرعها الحجرية الممتدة تتضرع، تخيّل نيتشه، للاهتمام والذكرى.

بعد عشر دقائق، لحق به بريوير، وقال: «كان من السهل عليّ أن أجدك يا فريدريك. لقد سمعتك تدندن».

«إني أتسلّى بتأليف قصيدة عندما أتمشى. اسمع»، قال نيتشه عندما حاذاه بريوير، «وكان هذا آخر ما ألفته:

مع أن الأحجار لا تسمع ولا ترى شيئاً

فكلّ واحدة تبكي بصمت وتقول: تذكّروني، تذكّروني.

ثمّ سأله من دون أن ينتظر ردّاً من بريوير، «من هو أدولف، بريوير الثالث، الراقد بجانب والديك؟»

«أدولف شقيقي الوحيد. مات منذ ثماني سنوات. قيل لي إن أمّي ماتت أثناء ولادته. ثم انتقلت جدتي إلى بيتنا لتربينا، لكنّها ماتت منذ وقت طويل. والآن»، قال بريوير بهدوء، «لقد ذهبوا جميعاً وجاء دوري».

«والحصى؟ رأيت شواهد قبور كثيرة هنا عليها حصى».

«إنها عادة يهودية مغرقة في القدم، فقط لإكرام الموتى، للدلالة على الذكرى».

«للدلالة لمن؟ اعذرني يا جوزيف إن تجاوزت خطوط اللياقة».

مدّ بريوير يده إلى معطفه ليرخي ياقته، وقال: «لا، حسناً. في

الحقيقة، إنك تسأل هذا النوع من الأسئلة المتمردة التي أسألها عادة أنا يا فريدريك. يا له من شيء غريب أن أتلوّى بالطريقة التي أجعل فيها الآخرين يتلوّون، لكنّي لا أملك جواباً. أترك الحصى للا أحد، لا من أجل الشكل الاجتماعي حتى يراها الآخرون مع أنني الشخص الوحيد الذي يزور هذا المقبرة. لا بسبب الخرافة أو الخوف، ومن المؤكد لا بسبب الأمل أو الجزاء فيما بعد: فمنذ طفولتي أومن بأن الحياة شرارة بين فراغين متماثلين هما الظلام قبل الولادة والظلام بعد الموت».

«حياة ـ شرارة بين فراغين. صورة جميلة يا جوزيف. لكن أليس من الغريب أننا منشغلون بالفراغ الثاني ولا نفكر بالفراغ الأول؟»

هز بريوير رأسه بتقدير، ثم واصل كلامه بعد بضع لحظات، «أما الحصى. إنك تسأل لمن أترك هذه الحصى؟ لعل ما جذب يدي هو برهان باسكال. بعد كل شيء ماذا يمكن خسارته؟ إنها حصى صغيرة، جهد صغير».

«وسؤال صغير أيضاً يا جوزيف. سؤال سألته لأكسب وقتاً حتى أفكر بسؤال أهم بكثير».

«ما هو؟»

«لماذا لم تقل لي إن اسم أمّك هو بيرثا».

لم يكن بريوير يتوقّع سؤالاً كهذا. التفت لينظر إلى نيتشه، وقال: «لماذا كان عليّ أن أخبرك؟ لم أفكّر بالأمر. لم أخبرك أن اسم أكبر بناتي هو بيرثا أيضاً. لا علاقة لذلك بالأمر. كما قلت لك فقد ماتت أمّي عندما كنت في الثالثة من عمري، ولا أملك أي ذكريات عنها».

«لا تملك ذكريات واعية»، قال نيتشه مصحّحاً، «لكن معظم ذكرياتنا تقبع في اللاوعي. لا بد أنك قرأت كتاب هارتمان «فلسفة اللاشعور؟ إنه متوفر في جميع المكتبات».

هزّ بريوير رأسه، وقال: «أعرفه جيداً. فقد أمضت الشلة التي ألتقي معها في المقهى ساعات طويلة في مناقشته».

«هناك عبقري حقيقي يقبع وراء هذا الكتاب، وهو الناشر لا المؤلف. إن هارتمان، في أحسن الأحوال، فيلسوف ماهر استولى على أفكار غوته وشوبنهوار وشيلينغ. لكنني أرفع القبعة احتراماً للناشر، دنكير، وألقى نيتشه قبعته الخضراء في الهواء، ثم قال: «هناك رجل يعرف كيف يضع كتاباً أمام أنوف جميع القراء في أوروبا. لقد صدرت طبعته التاسعة. قال لي أوفيربيك إن أكثر من مائة ألف نسخة قد بيعت! هل يمكنك أن تتخيّل ذلك. وأنا أشعر بالامتنان إذا بيعت مئتا نسخة من أحد كتبي».

أطلق تنهيدة وأعاد قبعته إلى رأسه.

«لكن بالعودة إلى هارتمان، فهو يناقش أربعاً وعشرين جانباً مختلفاً من جوانب العقل الباطن، ولا يترك أي مجال للشكّ بأن الجزء الأعظم من ذاكرتنا والعمليات العقلية تقبع خارج الوعي. إني أوافقه على ذلك، لكنه لم يستفض بما يكفي: فمن الصعب، في ظني، المبالغة في تقدير الدرجة التي تعاش فيها الحياة، الحياة الحقيقية، بالعقل الباطن. إن الوعي هو مجرد جلد شفاف يغطّي الوجود: وتستطيع العين المدربة أن ترى من خلالها القوى البدائية، الغرائز، حتى الدافع الذي يدفع الإرادة.

«في الحقيقة يا جوزيف، ألمحت البارحة إلى العقل الباطن عندما تخيلت أنك تدخل أحلام بيرثا. كيف قلت ذلك، بأنك تمكنت من ولوج أعمق حجرة فيها، ذاك الملاذ الذي لا يمكن لأيّ شيء أن يفسد فيه؟ إذا كانت صورتك تقبع في عقلها إلى الأبد، فأين تقبع عندما تفكّر في أشياء أخرى؟ لا بد أن هناك مستودعاً واسعاً يضم الذكريات اللاوعية».

في تلك اللحظة، شاهدا مجموعة صغيرة من المشيعين متحلقين

بالقرب من مظلة تغطّي قبراً مفتوحاً. أنزل أربعة من العاملين في المقبرة ذوي أجسام ضخمة التابوت بواسطة حبال غليظة، واصطف المشيّعون، حتى الضعفاء منهم والعجائز، لإلقاء كمية صغيرة من التراب في القبر. سار بريوير ونيتشه بصمت بضع دقائق، يتنشقان رائحة التراب الحلوّة الحامضة الذي نُبش حديثاً. عندما وصلا إلى تقاطع، لمس بريوير ذراع نيتشه إشارة إلى أنهما يجب أن ينعطفا إلى الدرب الواقع إلى اليمين.

«أما بالنسبة لذكريات العقل الباطن»، استأنف بريوير كلامه عندما لم يعودا يسمعان صوت الحصى الذي يلقى على التابوت الخشبي، وقال: «أتفق معك تماماً. في الحقيقة، وفر لي عملي بتنويم بيرثا أدلة كثيرة على وجودهما. لكن إلام تلمح يا فريدريك؟ من المؤكد أنني لم أحبّ بيرثا لأن اسمها مثل اسم أمّي؟»

«ألا تجد أنه من الملفت للاهتمام يا جوزيف أننا على الرغم من أننا تحدثنا عدة ساعات عن مريضتك بيرثا ولم تخبرني بأن هذا هو اسم أمّك إلاّ هذا الصباح؟»

«لم أخفه عنك. بكل بساطة لم أربط اسم أمّي ببيرثا. حتى الآن، يبدو الأمر متكلفاً وبعيد الاحتمال. بالنسبة لي، فإن بيرثا هي بيرثا بابينهيم. لم أفكّر قط بأمّي. لم تدخل صورتها عقلي قط».

«مع ذلك فإنك تضع زهوراً على قبرها طوال حياتك».

«على قبر عائلتي كلها».

شعر بريوير أنه كان عنيداً، لكنه على الرغم من ذلك، كان عازماً على مواصلة التعبير عن رأيه بصراحة وبصدق. أحسّ بموجة من الإعجاب لطاقة نيتشه وهو يصر على متابعة تحقيقه النفسي بدون تذمر وبأعصاب هادئة.

«البارحة بحثنا في كلّ معنى ممكن من معاني بيرثا. فقد إن قيامك

بكنس المدخنة أثار لديك ذكريات كثيرة. كيف يمكن أنه لم يخطر لك اسم أمك قط؟»

«كيف يمكنني أن أجيب عن ذلك؟ إن ذكريات العقل الباطن تقبع وراء سيطرتي الواعية. لا أعرف أين هي. فلديها حياتها الخاصة بها. لا يمكنني إلا أن أتحدّث عمّا خبرته، عمّا هو حقيقي. وبيرثا لكونها بيرثا فهي أكثر الأشياء الحقيقية في حياتي».

«لكن يا جوزيف، هنا تكمن المسألة. ماذا تعلّمنا البارحة إن لم تكن علاقتك ببيرثا غير *حقيقية*، وهم نسجته من صور وأشواق لا علاقة لها ببيرثا الحقيقية؟

«عرفنا البارحة أن تخيلك لبيرثا يحميك من *المستقبل*، من الرعب من الشيخوخة والموت والنسيان. واليوم أدرك أن رؤيتك لبيرثا ملوّثة أيضاً بأشباح من الماضي. جوزيف هذه اللحظة فقط هي اللحظة الحقيقية. في النهاية، إننا نعايش أنفسنا في الحاضر. إن بيرثا ليست حقيقية. إنها مجرد شبح يأتي من المستقبل والماضي».

لم ير بريوير نيتشه قط شديد الثقة، متأكّداً من كلّ كلمة.

ثم واصل كلامه، «دعني أضعها بطريقة أخرى. تظن أنك أنت وبيرثا ثنائي حميم. أشد العلاقات عمقاً وحميمية يمكن تصورها، أليس كذلك؟»

أومأ بريوير.

«بالرغم من ذلك»، قال نيتشه مؤكداً، «فإني مقتنع تماماً *بأنك لست أنت وبيرثا على علاقة خاصة بأي شكل من الأشكال*. أظن أنك ستشفى من هوسك عندما تتمكن من الإجابة عن سؤال محوري هو: كم عدد *الأشخاص في هذه العلاقة*؟»

كانت العربة تنتظر على مسافة غير بعيدة منهما. ركبا العربة وطلب بريوير من فيشمان أن يأخذهما إلى سميرنغر هايد.

ما إن أصبحا داخل العربة، حتى سأل بريوير: «لقد فقدت المعنى الذي ترمي إليه يا فريدريك».

«بالتأكيد، يمكنك أن ترى أنّك أنت وبيرثا لم تنفردا معاً. لم تكن معها وحدها قط. إن مخيلتك تعجّ بآخريات: نساء جميلات لهن قدرات إنقاذية ووقائية. رجال مجهولون تهزمهم من أجل أفضال بيرثا. بيرثا بريوير وأمّك وفتاة في العاشرة من العمر ذات ابتسامة رائعة. إذا تعلّمنا شيئاً يا جوزيف، فهو أن هوسك ببيرثا *ليس عن بيرثا*».

هز بريوير رأسه وأطرق مفكراً. صمت نيتشه أيضاً، وراح يحدّق من النافذة خلال الفترة المتبقية من الجولة. عندما ترجّلا من العربة، طلب بريوير من فيشمان أن يأتي ويأخذهما بعد ساعة.

اختفت الآن الشمس وراء سحابة رمادية ضخمة، وواجه الرجلان ريحاً شديدة البرودة اكتسحت البارحة السهوب الروسية. زررا معطفيهما حتى عنقهما وغذا خطاهما. كسر نيتشه جدار الصمت.

«جوزيف، من الغريب كم تجعلني المقبرة أشعر براحة في النفس. قلت لك إن أبي كان قسيساً لوثرياً، لكن هل أخبرتك أيضاً بأن باحة الكنيسة في القرية شكلت خلفيتي وملعبي؟ بالمصادفة، هل قرأت مقالة مونتغن عن الموت التي ينصحنا فيها بأن نقيم في غرفة لها نافذة تطل على مقبرة؟ ويزعم إنها تجلي عقل المرء، وتجعل أولويات المرء واضحة. هل للمقابر نفس التأثير عليك».

أومأ بريوير، وقال: «أعجبتني تلك المقالة. مرت فترة كنت أشعر فيها أن زيارة المقبرة تنعشني. منذ بضع سنوات، عندما أحسست أن نهاية مهنتي في الجامعة حطمتني، وجدت عزاء بين الأموات. بطريقة

ما، جعلتني القبور أشعر بالهدوء والسكينة. مكنتني من تتفيه التافه في حياتي، لكنها تغيرت بغتة».

«كيف ذلك؟»

«لا أعرف لماذا، لكن بطريقة ما اختفى تأثير المقبرة المهدئ التنويري. ففقدت احترامي وتبجيلي لها وبدأت أعتبر الملائكة الجنائزية والتصاوير التي تمثل النوم بين ذراعي الله أشياء غبية، بل مثيرة للشفقة. ومنذ سنتين، طرأ عليّ تغيير آخر. فقد بدأ كلّ شيء يتعلق بالمقبرة: شواهد القبور، التماثيل، بيوت الموتى العائلية، يثير فزعي. ومثل طفل، بدأت أشعر أن المقبرة مسكونة بالأشباح، وعندما كنت أذهب إلى قبر والديّ، يبدأ رأسي بالدوران، فأتطلع حولي وخلفي. وأصبحت أسوّف للمجيء إلى المقبرة وأبحث عن شخص يرافقني، وأصبحت زياراتي الحالية تقصر وتقصر، وصرت أخاف من رؤية قبر والديّ، وأصبحت أشعر أحياناً، عندما أقف هناك، أن الأرض ستنشق وتبتلعني».

«مثل كابوسك بأن الأرض تميد تحت قدميك».

«كم حديثك عن ذلك مخيف يا فريدريك. منذ دقائق قليلة فقط، مرّ ذلك الحلم في مخيلتي».

«لعله حلم عن مقبرة. ففي الحلم، كما أذكر، سقطتَ مسافة أربعين قدماً وهبطت فوق بلاطة. ألم تكن البلاطة الكلمة التي قلتها؟»

«بلاطة رخام! شاهدة قبر!» أجاب بريوير، «كتبت عليها كلمات لم أتمكن من قراءتها. وثمة شيء آخر لا أظن أنني أخبرتك به. هذا الطالب الشاب، صديق لي أيضاً، سيغموند فرويد، الذي ذكرته من قبل، الشاب الذي يرافقني طوال اليوم في زياراتي إلى بيوت المرضى».

«نعم؟»

«حسناً، إن الأحلام هوايته. وفي أحيان كثيرة يطلب من الأصدقاء أن

يحكوا له عن أحلامهم. إذ تثير اهتمامه أعداد أو عبارات معينة ترد في الأحلام، وعندما وصفت له كابوسي، اقترح فرضية مبتكرة عن السقوط أربعين قدماً تماماً. فبما أنني حلمت هذا الحلم لأول مرة في فترة قريبة من عيد ميلادي الأربعين، فقد اقترح أن الأقدام الأربعين تعني أربعين سنة».

«عبقري». مشى نيتشه ببطء وصفق بيديه، وأضاف،«لا أقدام، بل سنوات. الآن بدأ لغز الحلم يتكشف. عندما تقترب من سن الأربعين، فإنك تتخيّل أنك تهوي إلى الأرض وتسقط فوق بلاطة رخام. لكن هل البلاطة هي النهاية؟ هل هو الموت؟ أم أنه يدّل، بطريقة ما، على وجود فرصة، إنقاذ؟»

منتظراً الرد، واصل نيتشه بحماسة وقال: «وثمة سؤال آخر أيضاً: أيّ بيرثا كنت تبحث عنها عندما بدأت الأرض تميد من تحتك؟ بيرثا الشابة التي تقدّم لك وهم الحماية؟ أم الأمّ التي وفرت لك ذات يوم الأمان الحقيقي والتي حفر اسمها على البلاطة؟ أم أنها مزيج بين الاثنتين؟ فهما في جميع الأحوال متقاربتان في العمر، فقد ماتت أمّك عندما لم تكن تكبر بيرثا بكثير».

«أيّ بيرثا؟» هزّ بريوير رأسه، «كيف يمكنني أن أجيب عن ذلك؟ أن أفكّر بأنني كنت أتخيّل قبل بضعة أشهر فقط بأن العلاج بالكلام قد يتطوّر في نهاية الأمر ليصبح علماً دقيقاً، لكن كيف يمكن أن يكون دقيقاً بمثل هذه الأسئلة؟ ربما تعين علينا أن نقيس الصواب بالقوّة المطلقة: إذ تبدو كلماتك قويّة. إنها تثير شجوني، وتبدو صحيحة. لكن هل يمكن الوثوق بالمشاعر؟ في كل مكان، يشعر المتعصبون الدينيون بوجود الله: هل عليّ أن أعتبر أن مشاعرهم أدنى ثقة من مشاعري؟»

فقال نيتشه مفكّراً: «أتساءل عما إذا كانت أحلامنا أقرب إلينا مما هي قريبة من العقلانية أو المشاعر».

«إن اهتمامك بالأحلام يفاجئني يا فريدريك، فقلما أتى كتاباك على ذكر ذلك. لا أذكر إلا قولك بأن الحياة العقلية للإنسان البدائي لا تزال تعمل في الأحلام».

«أظن أننا يمكننا أن نجد فترة ما قبل تاريخنا في نص أحلامنا، لكن الأحلام تسحرني من بعيد فقط: لسوء الحظ، فإني لا أتذكّر إلا القليل جداً من أحلامي، مع أن حلماً رأيته مؤخراً شديد الوضوح».

سار الرجلان بصمت، يسحقان الأغصان الصغيرة وأوراق الأشجار تحت قدميهما. هل سيصف نيتشه حلمه؟ تعلّم بريوير الآن أنه كلما قل سؤاله، تحدث نيتشه عن نفسه أكثر. فالصمت أفضل.

بعد عدّة دقائق، تابع نيتشه كلامه، فقال: «إنه قصير، ومثل حلمك، يحتوي على نساء وعلى الموت. حلمت أنني في السرير مع امرأة، وكنا نتعارك. وكان كلّ واحد منا يشدّ الملاءة، وبعد دقيقتين، وجدت نفسي موثقاً بإحكام بالملاءة، فلم يعد بإمكاني التحرّك وبدأت أختنق. صحوت متعرقاً، ألهث طلباً للهواء وأصيح: عش، عش».

حاول بريوير مساعدة نيتشه حتى يتذكّر أشياء أخرى في الحلم، لكن بلا جدوى. كان التداعي الوحيد للحلم هو أنه كان ملفوفاً في ملاءات مثل المومياءات المصريين. فقد أصبح مومياء.

فقال بريوير: «إن ما يدهشني هو أن حلمينا متناقضان تماماً. ففي حلمي هناك امرأة تنقذني من الموت، وفي حلمك فإن المرأة هي أداة للموت».

«نعم هذا ما يذكره حلمي، وأظن أن الأمر كذلك. أن تحب امرأة يعني أن تكره الحياة».

«لا أفهم، يا فريدريك. عدت تتكلم بغموض».

«أقصد أن المرء لا يستطيع أن يحبّ امرأة دون أن يتعامى عن

البشاعة القابعة تحت تلك البشرة البيضاء: الدم، العروق، الدهون، المخاط، الغائط، الرعب الجسدي. يجب على العشيق أن يفقأ عينيه. يجب أن يتخلى عن الحقيقة. بالنسبة لي فإن حياة غير حقيقية هي موت حي».

«إذاً لا يمكن أن يكون هناك مكان للحبّ في حياتك؟» تنفس بريوير بعمق وأضاف، «مع أن الحبّ يهدم حياتي، فإن ما تقوله يجعلني أحزن عليك يا صديقي».

«إني أحلم بحبّ أكثر من أن يسعى شخصان جاهدين حتى يمتلك أحدهما الآخر. منذ فترة قصيرة، خيّل إليّ أنني وجدته، لكنّي كنت مخطئاً».

«ماذا حدث؟»

خيّل إلى بريوير أنّ نيتشه هزّ رأسه قليلاً، فلم يشأ أن يضغط عليه. سارا معاً، ثم استأنف نيتشه كلامه وقال: «إني أحلم بحبّ يتبادل فيه شخصان عاطفة ليبحثا معاً عن حقيقة أعلى. ربما كان اسمه الحقيقي الصداقة».

كم كانت مناقشتهما مختلفة في ذلك اليوم. أحسّ بريوير أنه أصبح قريباً من نيتشه، حتى أنه رغب في أن يمشي معه ويشبك ذراعه بذراعه، لكنه أحسّ بخيبة أيضاً. فقد عرف أنه لن يحصل على المساعدة التي يحتاج إليها اليوم، فلم تكن هناك تلك الكثافة والحماسة في حديثهما أثناء سيرهما. فمن السهولة بمكان، في لحظة غير مريحة، أن ينزلقا إلى الصمت وأن يركزا على الهواء الذي يتنفساه ويسمعا طقطقة الأغصان الصغيرة العارية التي ترتعش في الريح.

عندما أبطأ بريوير خطواته، التفت نيتشه يبحث عنه، ففوجئ عندما

رأى رفيقه حاملاً قبعته في يده، واقفاً ومحنياً أمام نبتة صغيرة عادية الشكل.

«كفّ الثعلب»، أوضح بريوير، «لديّ ما لا يقل عن أربعين مريضاً مصاباً بقصور في القلب تعتمد حياتهم على نعمة هذه النبتة».

نكأت زيارة المقبرة جروح طفولة قديمة في كلا الرجلين. وبينما كانا يتمشيان، راحا يتذكّران. حكى نيتشه حلماً تذكّره عندما كان في السادسة من العمر، بعد سنة واحدة من وفاة والده.

«إني أتذكره بوضوح شديد اليوم كما لو أنني حلمته ليلة البارحة. يُفتح قبر ويخرج أبي مرتدياً كفناً، ثم يدخل كنيسة، ويعود بعد قليل، حاملاً طفلاً صغيراً بين ذراعيه. ثم يعود إلى قبره مع الطفل، وتطبق الأرض عليهما، وتنزلق شاهدة القبر فوق فتحة القبر».

«الشيء المروّع حقاً هو أن أخي الصغير مرض بعد فترة قليلة من رؤيتي لذلك الحلم ثم مات من التشنّجات».

فقال بريوير: «يا له من شيء فظيع. يا له من شيء غريب أن ترى مثل هذه الرؤية».

«كيف تفسر الأمر؟»

«لا أستطيع. منذ فترة طويلة، يفزعني عالم ماوراء الطبيعة، وقد دأبت على تلاوة صلواتي بحماسة كبيرة. لكن في السنوات القليلة الماضية، بدأت أشكّ بأن لا علاقة للحلم بأخي، بل جاء أبي من أجلي، وأن الحلم يعبّر عن خوفي من الموت».

استمر الرجلان اللذان ارتاح أحدهما للآخر كما لم يحدث من قبل، في استدعاء ذاكرتيهما. فقد تذكّر بريوير حلماً عن كارثة وقعت في بيته القديم: فقد كان والده يقف عاجزاً، يصلي ويهتزّ إلى الأمام والوراء، متلفعاً بشال الصلاة الأزرق والأبيض؛ ووصف نيتشه كابوساً وهو أنه

عندما دخل غرفة نومه، رأى رجلاً عجوزاً يرقد في سريره، يحتضر، حشرجات الموت تصدر من حنجرته.

«لقد واجه كل منا الموت عندما كنا صغاراً»، قال بريوير مفكراً، «وعانينا من خسارة مبكّرة فظيعة. أعتقد، وأنا أتكلّم عن نفسي، بأنني لم أتماثل للشفاء قط. وأنت، ماذا عن خسارتك؟ ماذا عن عدم وجود أب يحميك؟»

«يحميني أم يعذبني؟ هل كانت خسارة؟ لست متأكّداً تماماً. أو ربما كانت خسارة بالنسبة للطفل، لكن ليس للرجل».

«ماذا يعني ذلك؟» سأل بريوير.

«يعني أن حمل أبي على ظهري لم يثقلني، لم يخنقني قط عبء حكمه، لم أقل قط إن هدف الحياة هو تحقيق طموحاته الواهية. ربما كان موته رحمة، تحرراً. لم تصبح نزواته قط قانوناً بالنسبة لي. فقد تُركت وحيداً حتى اكتشف طريقي، الطريق الذي لم يطرقه أحد من قبل. فكّر في الأمر! هل كان بإمكاني، أنا ضد المسيح، أن أتخلص من اعتقادات خاطئة، وأبحث عن حقائق جديدة مع أب خوري يتلوى ألماً لكلّ إنجاز قد أحققه، أب يعتبر هجومي على الأوهام بمثابة هجوم شخصي عليه؟»

فقاطعه بريوير وقال: «لو حظيت بحمايته عندما كنت بحاجة إليها، هل كنت ستصبح ضد المسيح؟»

لم يجب نيتشه، ولم يضغط عليه بريوير أكثر. كان قد بدأ يتعلم كيف يتناغم مع إيقاع نيتشه: أيّ سؤال يتعلق بالبحث عن الحقيقة جائز، بل مرحّب به، لكن أي قوة إضافية ستجابه بالمقاومة. أخرج بريوير ساعته، الساعة التي أعطاها له والده. لقد حان الوقت ليعودا إلى العربة حيث

كان فيشمان بانتظارهما. بما أن الريح كانت وراءهما، أضحى السير أسهل.

فقال بريوير: «قد تكون أكثر صدقاً مني. ربما تكون حكمة أبي قد أثقلت كاهلي أكثر مما كنت أدرك، لكني أشتاق إليه كثيراً في أحيان كثيرة».

«ماذا تشتاق؟»

فكرّ بريوير بوالده واختار الذكريات التي مرّت أمام عينيه. الرجل العجوز، القبعة على رأسه، وهو يتلو صلاة المباركة قبل أن يتناول العشاء المؤلف من البطاطا المسلوقة وسمك الرنكة، ابتسامته وهو جالس في المعبد يراقب ابنه الذي يلفّ أصابعه في شرّابة شال الصلاة. رفضه للسماح لابنه بأن يتراجع عن حركة أقدم عليها بالشطرنج: «جوزيف، لا أسمح لنفسي أن أعلمك عادات سيئة». صوته العميق الذي يملأ البيت وهو ينشد مقاطع للتلاميذ الصغار الذين يعدّهم للاحتفال بعيد بلوغهم.

«الأهمّ من كل ذلك، أظن أنني أشتاق إلى اهتمامه. فقد كان دائماً المستمع الرئيسي إليّ، حتى في أواخر حياته عندما بدأ يعاني من اضطرابات شديدة وفقدان الذاكرة. كنت أحرص على إخباره عن النجاحات التي أحققها، وانتصاراتي في مجال التشخيص، والاكتشافات التي أحققها في أبحاثي حتى التبرّعات التي أقدمها للجمعيات الخيرية. وحتى بعد أن مات، ظل مستمعي الرئيسي، ولسنوات رحت أتخيّله وهو ينظر من فوق كتفي، يراقبني ويثني على إنجازاتي، وكلما بهتت صورته أكثر، ازددت صراعاً مع الشعور بأن كل نشاطاتي ونجاحاتي زائلة، بأنه ليس لها أي معنى حقيقي».

«هل تقصد يا جوزيف بأنه إذا سجلت نجاحاتك في عقل أبيك الزائل، لكان لها معنى؟»

«أعرف أن هذا شيء لا عقلاني. إنه أشبه بصوت شجرة تسقط في غابة خاوية. هل للنشاط غير الملحوظ معنى؟»

«بالطبع فإن الفرق هو أنه ليس للشجرة آذان، بينما تمنح أنت، أنت نفسك، من يمنح المعنى».

«فريدريك، إنك لا تعتمد على الآخرين أكثر مني، بل أكثر من أي شخص أعرفه. أذكر أنني أعجبت، في لقائنا الأول، كثيراً بقدرتك على إحراز تقدم دون أي تقدير واعتراف من زملائك».

«جوزيف، لقد تعلّمت منذ مدة طويلة أن مواجهة سمعة سيئة أسهل من مواجهة ضمير سيء، كما أنني لست طمّاعاً، وأنا لا أكتب للعامة، وأعرف كيف أتحلى بالصبر. لعل تلامذتي لم يولدوا بعد. إن يوم بعد غد فقط هو الذي يهمني، فبعض الفلاسفة يولدون بعد أن يموتوا».

«لكن يا فريدريك. إن كنت تعتقد أنك ستولد بعد موتك، فهل هذا يختلف كثيراً عن أنني أشتاق إلى اهتمام أبي؟ يمكنك أن تنتظر، حتى إلى بعد غد، لكنك أنت أيضاً تتوق إلى جمهور».

سادت فترة صمت طويلة. هز نيتشه رأسه أخيراً، ثم قال بهدوء: «ربما. ربما توجد في داخلي جيوب من الغرور تنتظر أن تُطهَّر».

أومأ بريوير. لم تفته ملاحظة أن هذه هي المرة الأولى التي أقرّ فيها نيتشه بإحدى ملاحظاته. هل هذه نقطة تحوّل في علاقتهما؟

لا، ليس بعد. بعد لحظة، أضاف نيتشه، «لا يزال هناك فرق بين الرغبة في الحصول على موافقة أحد الوالدين والسعي إلى رفع الذين سيأتون بعدك في المستقبل».

لم يجب بريوير، مع أنه كان من الواضح له أن دوافع نيتشه لا تنبع من التعالي الذاتي المحض، بل لديه دروبه الخلفية الخاصة لمغازلة الذاكرة. وبدا لبريوير أن جميع الدوافع، دوافعه هو ودوافع نيتشه، تنبع

من مصدر واحد وهو دافع الهرب من نسيان الموت. هل بدأ يزداد اكتئاباً؟ ربما كان ذلك بتأثير المقبرة، لعل زيارة واحدة في الشهر كثيرة.

لكن حتى المرض لم يفسد مزاج هذه النزهة. راح يفكّر بتعريف نيتشه عن الصداقة: شخصان يلتقيان للبحث عن حقيقة أعلى. ألا يفعل ذلك هو ونيتشه اليوم؟ نعم، إنهما صديقان.

كانت تلك فكرة مواسية، مع أن بريوير يعرف أن تعميق علاقتهما ومناقشتهما الشاملة لم تقرّبه كثيراً من إنهاء ألمه، ومن أجل الصداقة، حاول أن يتجاهل هذه الفكرة المقلقة.

لكن لا بد من أن نيتشه قرأ أفكاره، وقال: «لقد أحببت هذه النزهة معاً يا جوزيف، لكن يجب ألا ننسى سبب لقاءاتنا، حالتك النفسية».

انزلق بريوير فتشبث بشجيرة وهما يهبطان الهضبة. «انتبه يا فريدريك، هذه الصخور زلقة». أعطى نيتشه يده لبريوير وواصلا هبوطهما.

ثم واصل نيتشه كلامه وقال: «مع أن مناقشاتنا تبدو مستفيضة، أظن أننا بدأنا نقترب من التوصل إلى حلّ. صحيح أن هجومنا المباشر على هوسك ببيرثا كان عديم الجدوى، لكننا في اليومين الأخيرين اكتشفنا السبب: لأن الهوس لا يتضمّن بيرثا، أو ليس هي فقط، بل سلسلة من المعاني المغلفة ببيرثا. هل نوافق على هذا؟»

أومأ بريوير، يريد أن يقترح بتهذيب بأن المساعدة لن تأتي من خلال هذه المطارحات الثقافية. لكن نيتشه أسرع وقال: «من الواضح الآن أن خطأنا الرئيسي هو أننا اعتبرنا بيرثا هي الهدف. *لم نختر العدو الحقيقي*».

«وهو؟»

«تعرف يا جوزيف ما هو السبب الذي يجعلني أقول ذلك؟ إن العدو الحقيقي هو المعنى المبطن لهوسك. فكّر بكلامنا اليوم. عدنا مرة أخرى إلى مخاوفك المتعلقة بالفراغ، النسيان، الموت. إنها موجودة في

كابوسك، في الأرض التي تميد من تحتك، في سقوطك فوق بلاطة الرخام. إنها تكمن في خوفك من المقبرة، في مخاوفك من اللا معنى، في رغبتك في أن يراك الآخرون ويتذكرونك. إن المفارقة، مفارقتك أنت، هي أنك تكرّس نفسك للبحث عن الحقيقة لكنك لا تحتمل رؤية ما تكتشفه».

«وأنت أيضاً يا فريدريك، لا بد أنك خائف من الموت ومن عدم الإيمان. منذ البداية، سألتك كيف يمكنك احتمال ذلك؟ كيف تقبلت هذ المخاوف؟»

«قد يكون قد حان الوقت لأخبرك»، أجاب نيتشه، «قبل الآن، لم أكن أظن أنك كنت مستعداً لسماعي».

متشوّقاً لمعرفة الرسالة التي يرمي إليها نيتشه، اختار بريوير، لمرة واحدة، ألاّ يعترض على صوت نبيه.

«إني لا أعلّم يا جوزيف بأن على المرء أن يحمل الموت، أو أن يتصالح معه. بهذه الطريقة تكمن خيانة الحياة. ها هو درسي لك: مت *في الوقت المناسب*».

«مت *في الوقت المناسب*». هزت هذه العبارة بريوير. لقد تحولت نزهة بعد الظهر اللطيفة هذه إلى شيء جدّي قاتل. «مت في الوقت المناسب؟ ماذا تقصد؟ أرجوك، فريدريك، لا يمكنني تحمّل ذلك، كما أقول لك مراراً عندما تقول شيئاً مهماً بهذه الطريقة المبهمة. لماذا تفعل ذلك؟»

«إنك تسأل سؤالين. عن أيهما أجيب؟»

«اليوم، حدثني عن الموت في الوقت المناسب».

«عش عندما تعيش! إن الموت يفقد رعبه إذا مات المرء بعد أن

يكون قد عاش حياته بالكامل، أما إذا لم يعش المرء في الزمن الملائم، عندها لا يستطيع أن يموت في الوقت المناسب».

«ماذا يعني ذلك؟» سأل بريوير الذي بدا محبطاً أكثر من أي وقت مضى.

«إسأل نفسك يا جوزيف: هل عشت حياتك بالكامل؟»

«إنك تجيب عن الأسئلة بطرح أسئلة يا فريدريك».

«إنك تسأل أسئلة تعرف أجوبتها»، قال محتجّاً.

«لو كنت أعرف الجواب، فلمَ أسأل؟»

«لأتحاشى معرفة جوابك».

صمت بريوير برهة. كان يعرف أن نيتشه على حقّ. توقّف عن المقاومة وحوّل انتباهه إلى داخله. «هل عشت حياتي بالكامل؟ لقد أنجزت الكثير، أكثر مما يتوقع. نجاح مادي، إنجاز علمي، أسرة، أطفال، لكننا تحدثنا عن كل ذلك من قبل».

«جوزيف لا تزال تتهرب من سؤالي. هل عشت حياتك بالكامل؟ أم أنها عاشت من خلالك؟ هل اخترتها أنت؟ أم هي التي اختارتك؟ هل أحببتها؟ أم أنك تأسف عليها؟ هذا ما قصدته عندما سألتك هل عشت حياتك بالكامل. هل استغللتها حتى النهاية؟ أتذكر الحلم الذي كان فيه والدك واقفاً بجانبك يصلّي لا يستطيع أن يفعل شيئاً عندما كان يحدث شيء كارثي لأسرته؟ ألستَ مثله؟ ألا تقف عاجزاً، تحزن على الحياة التي لم تعشها؟»

أحسّ بريوير بتصاعد الضغط. كانت أسئلة نيتشه تنسلّ إلى داخله، لم يكن لديه دفاع لمواجهتها. بدأ يتنفّس بصعوبة. بدا صدره على وشك الانفجار. توقّف عن السير لحظة، وأخذ نفساً عميقاً ثلاث مرات قبل أن يجيب.

«هذه الأسئلة. إنك تعرف الإجابة عنها. لا، لم أختر. لا، لم أعش الحياة التي كنت أريد أن أعيشها! لقد عشت الحياة التي خُصّصت لي. أما أنا، أنا الحقيقي، فكنت حبيس حياتي».

«وهذا هو، يا جوزيف، إني على قناعة بأنه مصدر أساسي للقلق الذي ينتابك. ذلك الضغط البَرَكي، لأن صدرك يطفح بالحياة التي لم تعشها، وقلبك ينبض فقط لتمضي الوقت. إن الجشع على الوقت أبدي. الوقت يلتهم ويلتهم، ولا يعيد شيئاً. يا له من شيء فظيع عندما أسمعك تقول إنك عشت الحياة التي خُصّصت لك. ويا له من شيء فظيع أن يواجه المرء الموت من دون أن يطالب بالحرية بالرغم من جميع المخاطر التي تكتنفه».

كان نيتشه يقف بحزم على منبره، يردد صدى صوت نبيه. موجة من الإحباط تملكت بريوير. كان يعرف الآن أنه لا توجد لديه أي مساعدة.

فقال: «فريدريك. هذه عبارات طنانة. إني معجب بها، فهي تحرّك روحي، لكنّها بعيدة، بعيدة كثيراً عن حياتي. ماذا تعني المطالبة بالحرية في حالتي اليومية؟ كيف يمكنني أن أتحرر؟ فحالتي لا تنطبق على حالتك. شاب أعزب يتخلّى عن وظيفة جاميعة خانقة. لقد فات الأوان بالنسبة لي. فأنا لديّ أسرة وموظفون ومرضى وطلاب. لقد تأخر الوقت كثيراً. يمكننا أن نتكلّم إلى الأبد، لكنّي لا أستطيع أن أغيّر حياتي. فهي محاكة بإحكام شديد بخيوط حياة آخرين».

خيمت فترة صمت طويلة كسرها بريوير. كان صوته مرهقاً. قال: «لكني لا أستطيع أن أنام، والآن لا أستطيع أن أحتمل الألم الذي يضغط على صدري». اخترقت الريح الباردة معطفه السميك. ارتعش وأحكم وشاحه حول رقبته. أخذ نيتشه، بإيماءة نادرة، ذراعه وهمس، «صديقي، لا يمكنني أن أخبرك كيف يجب أن تعيش حياة مختلفة، لأنني إذا فعلت ذلك، فإنك ستعيش أيضاً حياة صممها لك شخص

آخر. لكن هناك شيء يمكنني أن أفعله يا جوزيف. يمكنني أن أقدم لك هدية، هدية أعظم أفكاري، زبدة أفكاري. لعلك تعرفها جيداً لأني ذكرتها باقتضاب في كتابي هو *ذا الإنسان*. ستكون هذه الفكرة القوة الموجهة لكتابي التالي، ربما لجميع كتبي في المستقبل».

انخفض صوته، واتخذ نبرة مهيبة جدّية، كأنه يريد أن يشير إلى بلوغ كلّ شيء حدث من قبل الذروة. سار الرجلان يشبك أحدهما ذراع الآخر. نظر بريوير أمامه منتظراً كلمات نيتشه.

«جوزيف، حاول أن تجلو عقلك. تصوّر هذه التجربة الفكرية. ماذا لو قال لك شيطان ما إنك يجب أن تعيش هذه الحياة، الحياة التي تعيشها الآن والتي عشتها في الماضي، مرة أخرى، وعدداً لا يحصى، وأنه لن يكون فيها أي شيء جديد، وسيعود كلّ ألم وكلّ بهجة وكلّ شيء مهما صغر أو كبر في حياتك إليك، كلّها بنفس التعاقب والتسلسل، حتى هذه الريح وتلك الأشجار، وحتى هذا الصخر الزلق، وحتى المقبرة والفزع، وحتى هذه اللحظة اللطيفة التي تجمعنا أنا وأنت، شابكين ذراعينا، ندمدم هذه الكلمات؟»

عندما ظل بريوير صامتاً، واصل نيتشه كلامه، «تخيّل أن الساعة الرملية الأبدية للوجود قُلبت رأساً على عقب مرات عديدة، وكلما انقلبت انقلبنا فيها أيضاً، أنا وأنت، اللذان لسنا سوى مجرّد ذرتي رمل فيها».

حاول بريوير أن يفهمه، فقال: «كيف يمكن لهذا... هذا... هذا التخيّل».

«إنها أكثر من تخيّل»، قال نيتشه مصرّاً، «حقاً إنها أكثر من مجرد تجربة فكرية. استمع فقط لكلماتي! احذف كلّ شيء آخر. فكّر باللا نهاية. انظر وراءك. تخيّل أنك تنظر بشكل لانهائي إلى الماضي البعيد.

إن الزمن يمتدّ حتى الأزل، وإذا كان الزمن يمتدّ إلى الماضي بشكل لانهائي، فألا يجب أن يحدث كلّ شيء يمكن أن يحدث؟ ألا يجب أن يكون كلّ ما يحدث الآن قد حدث بهذه الطريقة من قبل؟ كل من يمشي هنا، ألا يجب أن يكون قد مشى في هذا الدرب من قبل؟ وإذا كان كلّ شيء قد مرّ من قبل في الزمن اللا نهائي، إذاً كيف تفكر يا جوزيف، عن هذه اللحظة، عن همسنا معاً تحت هذا القوس من الأشجار؟ ألا يجب أن يكون هذا أيضاً قد حدث من قبل؟ والزمن الذي يمتدّ إلى الوراء بشكل لانهائي، ألا يجب أن يمتدّ أيضاً إلى الأمام بشكل لانهائي؟ ألا يجب علينا، في هذه اللحظة، في كلّ لحظة، أن نتكرر إلى الأبد؟»

صمت نيتشه لإعطاء بريوير وقتاً لاستيعاب ما قاله. كان الوقت ظهراً، لكن السماء أظلمت. بدأ يسقط ثلج خفيف. لاحت العربة التي يقودها فيشمان من بعيد.

في طريق عودتهما إلى العيادة، استأنف الرجلان مناقشتهما. قال نيتشه إنه على الرغم من أنه أطلق على فرضيته بالتكرار الأبدي، فإنه يمكن إثبات تجربته الفكرية علمياً. شكك بريوير ببرهان نيتشه الذي يستند إلى مبدئين غيبيين: بأن الزمن لانهائي، والقوة (المادة الأساسية للكون) محدودة. ويدّعي نيتشه أنه إذا حدث عدد محدود من الحالات المحتملة من العالم وقدر لانهائي من الزمن الذي مرّ، فهذا يعني أنه لا بد أن جميع الحالات المحتملة قد حدثت من قبل، وأنه لا بد أن تكون الحالة الحالية مجرد تكرار، وكذلك من أنجبها ومن انبثق منها، وما إلى ذلك، إلى الوراء إلى الماضي، وإلى الأمام إلى المستقبل.

ازدادت حيرة بريوير وقال: «أتقصد أنه من خلال الحوادث العشوائية المطلقة لا بد أن هذه اللحظة بالذات قد حدثت في السابق؟»

«فكّر بالزمن الموجود دائماً، الزمن الممتد إلى الماضي منذ الأزل.

في مثل هذا الزمن اللانهائي، ألا يجب أن تكون مجموعة كلّ الأحداث التي تشكّل العالم قد تكرّرت عدداً لانهائياً من المرات؟»

«مثل لعبة نرد كبيرة؟»

«تماماً. لعبة النرد الكبيرة للوجود».

واصل بريوير سؤال نيتشه عن برهان التكرار الأبدي للكون، ومع أن نيتشه كان يجيب عن كلّ سؤال، كان يزداد تبرماً، ورفع يديه أخيراً.

«لقد طلبت مني يا جوزيف مرات عديدة أن أقدم لك مساعدة ملموسة. كم مرّة طلبت مني أن أكون سديداً، أن أقدم شيئاً يمكن أن يغيّرك؟ الآن أقدم لك ما تطلبه لكنك تتجاهله بالتركيز على بعض التفاصيل. صديقي، اسمع كلماتي. إنها أهم شيء سأقوله لك: دع هذه الفكرة تستحوذ عليك، وأعدك بأنها ستغيّرك إلى الأبد».

لم يتأثر بريوير بما قاله وقال: «لكن كيف يمكنني أن أصدق ما تقوله من دون برهان؟ لا يمكنني استحضار الإيمان. هل أتخلّى عن دين بكل بساطة لكي أعتنق ديناً آخر؟»

«إن البرهان معقّد للغاية. لا يزال لم يكتمل ويحتاج إلى سنة من العمل. أما الآن، نتيجة مناقشتنا، فإني لست متأكّداً من أنني يجب أن أهتمّ بتكريس الوقت للعمل لإثبات البرهان الكوني الكوزمولوجي. ربما يستخدمه الآخرون أيضاً لصرف الانتباه. ربما قاموا أيضاً، مثلك، بالتقاط تعقيدات البرهان وإثارتها وتجاهل النتائج النفسية المهمة المتعلقة بمسألة التكرار الأبدي».

لم يقل بريوير شيئاً. نظر من نافذة العربة وهزّ رأسه قليلاً.

«دعني أصيغ السؤال بطريقة أخرى»، تابع نيتشه، «ألا تظن أن التكرار الأبدي أمر محتمل؟ لا، انتظر، حتى إني لا أحتاج إلى ذلك. لنقل ببساطة أنه أمر ممكن، أو مجرد أنه ممكن. هذا يكفي. من المؤكد

أنه أمر ممكن ومحتمل أكثر من قصّة اللعنة الأبديّة الخرافية. ماذا تخسر لو اعتبرت أنها إمكانية؟ ألا يمكنك أن تفكر به إذاً بأنها برهان نيتشه؟»

هز بريوير رأسه.

«أحثّك إذاً على أن تبحث في آثار التكرار الأبدي على حياتنا، ليس تجريدياً، أما الآن، اليوم، بالمعنى الملموس».

فقال بريوير: «إنك تقترح أنّ كلّ ما أقوم به، كلّ ما أشعر به من ألم، كان قد تم عبر الزمن اللانهائي؟»

«نعم، إن التكرار الأبدي يعني أنك كلما اخترت عملاً يجب أن تكون لديك الإرادة لاختياره من أجل الخلود كله. وينطبق على كل عمل لم يُتخذ، كلّ فكرة مجهضة، كلّ اختيار تم تفاديه. وستظل الحياة كلها التي لم تُعش ناتئة في داخلك، لم تعش طوال الأبدية. وسيناديك صوت ضميرك المهمل إلى الأبد».

أحسّ بريوير بالدوار. كان من الصعب عليه أن ينصت. حاول أن يركز على شارب نيتشه الكث وهو يعلو ويهبط مع كلّ كلمة يقولها. ولما كان فمه وشفتاه مخفية تماماً، لم يكن هناك تحذير مسبق بأن كلمات ستخرج منها. وبين الحين والآخر، كانت نظرته تلتقي بعيني نيتشه، لكنهما كانتا حادّتين، فكان يحوّل انتباهه إلى الأسفل، إلى أنفه اللاحم لكن القوي، أو إلى الأعلى، إلى حاجبيه الكثيفين المتدليين كأنهما شاربان لهما عينان.

سأل بريوير أخيراً: «إذاً، كما أفهم الأمر، فإن التكرار الأبدي يعد بالخلود بشكل من الأشكال؟»

«لا»، كان نيتشه عنيفاً، «إني أعلّم أنه يجب ألاّ تُعدَّل الحياة أو تُسحق، بسبب الوعد بحياة من نوع ما في المستقبل. إن ما هو خالد هو هذه الحياة، هذه اللحظة. لا توجد حياة بعد الحياة، لا هدف تتجه إليه

هذه الحياة، لا محاكمة أو قضاء بعد الموت. *إن هذه اللحظة توجد إلى الأبد*، وأنت، وحيد، جمهور نفسك».

اعترت بريوير رعشة. بعد أن اتضحت نتائج اقتراح نيتشه المخيفة، لم يعد يبدي مقاومة، بل دخل حالة من التركيز الغريب.

«إذاً جوزيف، أقول لك مرة أخرى، دع هذه الفكرة تستحوذ عليك. الآن لدي سؤال أريد أن أسألك إياه: *هل كرهت الفكرة؟ أم أحببتها؟*»

كاد بريوير يصرخ: «كرهتها. أن أعيش إلى الأبد وتتملكني الفكرة بأنني لم أعش، وبأنني لم أذق طعم الحرية. الفكرة تملؤني بالرعب».

«إذاً»، قال نيتشه يحثّه، «*عش بالطريقة بأنك أحببت الفكرة*».

«كلّ ما أحبّه الآن يا فريدريك هو الفكرة بأنني أديت واجبي تجاه الآخرين».

«واجب؟ هل يمكن أن تكون للواجب أسبقية على حبّك لنفسك ولبحثك عن الحرية غير المشروطة؟ إذا لم تتمكن من تحقيق نفسك، «فالواجب» هو مجرد كناية عن استخدام الآخرين لتضخيم نفسك».

استجمع بريوير طاقته للإجابة إجابة أخرى، وقال: «ثمة شيء يدعى واجباً تجاه الآخرين، وقد كنت وفياً لهذا الواجب. هنا، على الأقل، أمتلك شجاعة قناعاتي».

«من الأفضل يا جوزيف، من الأفضل بكثير، أن تمتلك الشجاعة لتغيير قناعاتك. إن الواجب والإخلاص مجرد زيف، أقنعة يختبئ المرء خلفها. إن تحرير الذات يعني لا مقدّسة، حتى بالنسبة إلى الواجب».

خائفاً، حدّق بريوير في نيتشه.

واصل نيتشه، «أتريد أن تصبح نفسك؟ كم مرّة سمعتك تقول ذلك؟ كم مرّة رثيت بأنك لم تعرف حريتك قط؟ إن طيبتك، واجبك، إخلاصك ما هي إلا قضبان سجنك. إنك ستموت من هذه الفضائل

الصغيرة. يجب أن تتعلّم أن تعرف خبثك. لا يمكنك أن تكون حرّاً في جزء منك: غرائزك أيضاً متعطشة للحرية. كلابك البرّية في القبو تنبح طلباً للحرية. اسمع جيداً، ألا يمكنك أن تسمعها؟»

فقال بريوير مستجدياً: «لكني لا أستطيع أن أكون حرّاً. فقد قدمت عهوداً مقدّسة للزواج. لديّ واجب تجاه أطفالي وطلابي ومرضاي».

«لكي تبني الأطفال، يجب أن تبني نفسك أولاً. وإلا فإنك تريد إنجاب أطفال بدافع الاحتياجات الحيوانية، أو الوحدة، أو لسدّ الثقوب في نفسك. إن مهمّتك كأب تكمن في ألاّ تنجب نفسك، جوزيف آخر، بل أن تنجب شيئاً أرقى. أن تنجب خالقاً».

«وزوجتك؟» واصل نيتشه بعناد، «أليست حبيسة في هذا الزواج مثلك؟ يجب ألا يكون الزواج سجناً، بل حديقة يُزرع فيها شيء أرقى. لعل الطريقة الوحيدة لإنقاذ زواجك تكمن في أن تتخلى عنه».

«لقد أقسمت قسماً مقدّساً للحفاظ على الزواج».

«إن الزواج شيء كبير. أن يعيش إثنان معاً بصورة دائمة، أن يبقيا عاشقين شيء كبير. نعم، إن الزواج مقدّس، ولكن....»، وخفت صوت نيتشه.

«ولكن؟» سأل بريوير.

«الزواج مقدّس. ولكن»، وهنا أصبح صوت نيتشه حاداً، «من الأفضل أن تكسر الزواج على أن يكسرك هو».

أغمض بريوير عينيه واستغرق في تفكير عميق. لم يقل أحد من الرجلين شيئاً خلال الفترة المتبقية من جولتهما.

***

مقتطفات من ملاحظات فريدريك نيتشه عن الدكتور بريوير، ١٦ كانون الأول ١٨٨٢

بدأت نزهة على القدمين عندما كانت الشمس ساطعة وانتهت عندما حلّ الظلام. لعلنا أمضينا فترة طويلة في المقبرة. هل كان علينا أن نعود في وقت أبكر؟ هل طرحت عليه فكرة قوية؟ إن التكرار الأبدي مطرقة قوية. إنها ستكسر الذين ليسوا مستعدين لها بعد.

لا. عالم نفساني، كاشف ألغاز الأرواح، بحاجة إلى القسوة أكثر من أي شخص آخر، وإلا فإنه يمتلئ غروراً على نحو يثير الشفقة، وتلميذه غارق في مياه ضحلة.

لكن في نهاية جولتنا، بدا أني مارست ضغطاً قوياً على جوزيف، فلم يكد يستطيع أن يتكلم. لم يولد البعض أشداء، لكن العالم النفساني الحقيقي، كالفنان، يجب أن يحبّ اللوحة التي يرسمها. ربما تدعو الحاجة إلى مزيد من اللطف، مزيد من الصبر. هل أتعرّى قبل أن أعلّم كيف أنسج ثوباً جديداً؟ هل علّمته «الحرية من» من دون أن أعلّمه «الحرية من أجل»؟

لا، يجب أن يكون الموّجه سياج بجانب سيل جارف، لكنه يجب ألاّ يكون ركيزة. يجب على الموّجه أن يعرّي الدروب الماثلة أمام التلميذ. لكنّه يجب ألاّ يختار الدرب.

«كن معلّمي»، يطلب مني، «ساعدني على التغلّب على اليأس.» هل عليّ أن أخفي حكمتي؟ ومسؤولية التلميذ؟ يجب أن يتجلد أمام البرد، ويجب أن تمسك أصابعه بالسياج، يجب أن يضيع في الدروب الخطأ عدة مرات قبل أن يجد الدرب الصحيح.

في الجبال وحيداً، أجتاز أقصر الطرق ـ من قمّة إلى قمّة. لكن التلاميذ يضلون طريقهم عندما أسير أمامهم بخطوات سريعة. يجب أن

أتعلّم كيف أقصّر خطواتي. اليوم، لعلنا مشينا بسرعة. لقد حكيت له عن حلم، وفصلت بيرثا عن أخرى، أعدت دفن الموتى، وعلّمته أن يموت في الوقت المناسب. لم يكن كلّ هذا إلا توطئة لموضوع التكرار القوي.

كما دفعته إلى أعماق البؤس. في كثير من الأحيان كان يبدو منزعجاً عندما يسمعني. لكن ما الشيء الذي تحدّيته؟ ماذا حطّمت؟ مجرد قيم جوفاء ومعتقدات مترنّحة! يجب على المرء أن يدفع أيضاً الشيء الذي يترنّح.

اليوم فهمت أن أفضل معلّم هو الذي يتعلّم من تلميذه. ربما كان محقاً في ما يتعلق بأبي. كم كانت حياتي ستكون مختلفة لو لم أفقده. هل صحيح أنني أضرب بالمطرقة بقوة لأنني أكرهه، لأنه مات؟ وأضرب بالمطرقة عالياً جداً لأنني لا أزال أتوق لأن يكون لديّ قراء؟

أشعر بالقلق لصمته في النهاية. كانت عيناه مفتوحتين، لكنه بدا أنه لا يرى. كان يتنفّس بصعوبة.

لكني أعرف أن الندى يكون ثقيلاً عندما يكون الليل في أشد هدوئه.

الفصل ٢١

كان إطلاق طيور الحمام صعباً مثل توديع أسرته. فقد بكى بريوير عندما فتح أبواب الأقفاص المصنوعة من الأسلاك ورفعها إلى النافذة المشرعة. في البداية، بدا أن الحمامات لم تفهم ما يحدث، فرفعت رؤوسها عن الحبوب الذهبية التي كانت تنقرها في وعاء طعامها، وحدّقت غير مدركة ماذا جرى لبريوير الذي شجعها بحركة من ذراعيه لتطير وتنال حريتها.

عندما دفع أقفاصها، صفقت الطيور بأجنحتها وانسلّت من أبواب سجنها المفتوحة على مصراعيها، ودون أن تلقي نظرة واحدة إلى الوراء على سجّانها، طارت في سماء الصباح الباكر ذات الخطوط الدموية. راقبها بريوير وهي تطير بحزن، فكلّ صفقة جناح فضي كانت تعني نهاية عمله في البحث العلمي.

حتى بعد أن فرغت السماء من الطيور، ظل يحدق من النافذة طويلاً. كانت من أشد الأيام إيلاماً في حياته، وكان لا يزال خدراً من المواجهة مع ماتيلد في هذا الصباح. استعاد المشهد في مخيلته عدة مرات، وراح يبحث عن سبل أكثر لطفاً وغير مؤلمة ليقول لها إنه سيغادر.

قال لها: «ماتيلد. لا توجد وسيلة لقول ذلك أكثر من قولها ببساطة: يجب أن أنال حريتي. إني أشعر أنني وقعت في فخ، لا بسببك، بل بسبب القدر، والقدر ليس اختياري».

متفاجئة وخائفة، لم تفعل ماتيلد شيئاً سوى أنها راحت تحدق به.

ثم تابع كلامه، «فجأة أجد نفسي رجلاً عجوزاً مدفوناً في الحياة ـ مهنة، وظيفة، أسرة، ثقافة. لقد رسم لي كل شيء. لم أختر أنا شيئاً. يجب أن أمنح نفسي فرصة. يجب أن تتاح لي فرصة لأجد نفسي».

فأجابت ماتيلد، «فرصة؟ تجد نفسك؟ جوزيف، ماذا تقول؟ إني لا أفهم، ماذا تطلب؟»

«لا أطلب منك شيئاً. إني أطلب شيئاً من نفسي. يجب أن أغيّر حياتي، وإلاّ فإني سأواجه موتي من دون أن أشعر بأنني عشت».

«جوزيف، هذا جنون»، ارتفع صوت ماتيلد. اتسعت عيناها خوفاً، وأضافت، «ماذا حدث لك؟ منذ متى توجد حياة تخصك وحياة تخصني؟ إننا نتقاسم الحياة. لقد أقسمنا على أن نعيش معاً وعلى أن تكون حياتنا واحدة».

«لكن كيف لي أن أعطي شيئاً قبل أن يكون لي لكي أعطيه؟»

«لم أعد أفهمك. «الحرية»، «تجد نفسك»، «لم أعش قط» ـ كلماتك لا تعني لي شيئاً. ما الذي يحدث لك يا جوزيف؟ لنا؟» لم تعد ماتيلد تستطيع أن تقول أكثر. حشرت قبضتيها في فمها، وأشاحت بوجهها عنه، وأخذت تنشج.

راقب جوزيف جسمها وهو يعلو ويهبط. اقترب منها. كانت تتنفس بصعوبة، رأسها محني فوق ذراع الأريكة، دموعها تنهمر على حضنها، وثدياها يرتجان مع نشجيها. راجياً مواساتها، وضع يده على كتفها، لكنها تراجعت. في تلك اللحظة، أدرك أنه وصل إلى مفترق طرق في مسيرة حياته. استدار مبتعداً عن جمهرة الناس. هو من أحدث القطيعة. لم يعد كتف زوجته وظهرها وثدياها تخصه. فقد تخلّى عن حقّ لمسها، وتعين عليه الآن مواجهة العالم بدون ملاذ لحمها.

«من الأفضل أن أذهب على الفور يا ماتيلد. لا يمكنني أن أخبرك إلى أين سأذهب. من الأفضل أن لا أعرف أنا نفسي. سأترك عند ماكس جميع التعليمات المتعلقة بالعمل. سأترك لك كلّ شيء ولن آخذ شيئاً معي سوى الثياب التي أرتديها، وحقيبة صغيرة، ونقود تكفي للحصول على الطعام».

واصلت ماتيلد البكاء. بدا أنها غير قادرة على الإجابة. بل هل سمعت كلماته؟

«عندما أعرف إلى أين سأذهب، سأتّصل بك».

لم تردّ.

«يجب أن أخرج. يجب أن أغيّر حياتي وأتحكّم بها. أظن أنني عندما أكون قادراً على اختيار قدري، فسيكون كلانا في حال أفضل. قد أختار الحياة نفسها، لكنها يجب أن تكون خياراً، اختياري أنا».

لم تحر ماتيلد الباكية جواباً. غادر بريوير الغرفة مذهولاً.

كان الحديث كلّه خطأً قاسياً، قال لنفسه عندما أغلق أقفاص الحمام وأعادها إلى الرفّ في مختبره. ظلت في أحد الأقفاص أربع حمامات لم تتمكن من الطيران بسبب الخلل في توازنها الذي نجم عن التجارب الجراحية التي أجراها عليها. كان يعرف أنه يجب أن يضحّي بها قبل أن يذهب، لكنّه لم يعد يريد أن يتحمل قدراً أكبر من المسؤولية تجاه أحد أو شيء، بل كان كل ما فعله هو أنه غيّر لها الماء والحبوب وتركها تواجه مصيرها.

لم يكن يتعين عليّ أن أكلّمها عن الحرية، عن الاختيار، عن الوقوع في الشرك، عن القدر، عن أن أجد نفسي. كيف يمكنها أن تفهمني؟ فأنا لا أكاد أفهم نفسي. عندما كلمني فريدريك في البداية بتلك اللغة، لم أفهمه. كان من الأفضل أن أستخدم كلمات أخرى. كان من الأفضل

أن أقول إنني ذاهب في إجازة دراسية قصيرة، وإنني تعبت من مزاولة العمل، أو إنني سأذهب في رحلة طويلة إلى أحد الحمّامات في شمال أفريقيا.كلمات قد تفهمها، ويمكنها أن تقدمها كتفسير لأفراد الأسرة، للطائفة.

يا إلهي، ماذا ستقول للآخرين؟ في أيّ موقف وضعتها؟ لا، توقّف. إنها مسؤوليتها! لا مسؤوليتي. إن ربط مسؤولية الآخرين ـ هنا يكمن الفخ ـ لي ولهم. قطع صوت وقع خطوات تصعد الدرج تأملات بريوير. فتحت ماتيلد الباب بقوة وارتطم بالحائط. كانت أشبه بشبح: وجهها شاحب، شعرها يتدلى في حالة فوضى، عيناها متورمتان.

«لم أعد أبكي يا جوزيف، وسأجيبك الآن. هناك شيء خاطئ، شيء شرير في كلماتك، وشيء ساذج أيضاً. الحرية! الحرية! إنك تتحدث عن الحرية. إنها نكتة قاسية بالنسبة لي. كنت أتمنّى أن أمتلك حريتك: حرية الرجل في الحصول على التعليم، حرية اختيار مهنته. لم أكن أرجو كثيراً من التعليم، كنت أرجو أن أمتلك المفردات، المنطق، لكي أبيّن لك كم تبدو غبياً».

توقفت ماتيلد ثم سحبت كرسياً من وراء طاولة المكتب. رافضة مساعدة بريوير، جلست صامتة للحظة تلتقط أنفاسها.

«تريد أن تغادر؟ تريد أن تأخذ خيارات جديدة في حياتك؟ هل نسيت الخيارات التي اتخذتها للتو؟ لقد اخترت أن تتزوجني، وأن لا تفهم حقاً أنك اخترت أن تلتزم بي، بنا؟ ما هو الاختيار إذا رفضت أن تحترمه؟ لا أعرف ما هو، ربما نزوة، لكنّه ليس اختياراً».

كان من المخيف أن يرى ماتيلد هكذا. لكن بريوير كان يعرف أنه يجب أن يتشبث بموقفه. «كان يجب أن أصبح «أنا» قبل أن أصبح «نحن». لقد اتخذت اختيارات قبل أن أكون مؤهلاً لاتخاذ اختيارات».

«إذاً هذا هو أيضاً اختيار»، ردت ماتيلد، «من هي تلك «الأنا» التي لم تصبح «أنا»؟ بعد سنة من الآن ستقول إن «أنا» اليوم لم يتشكّل بعد، وأن الاختيارات التي تتخذها اليوم غير محسوبة. هذا مجرد خداع ذاتي، طريقة للتملّص من مسؤولية اختياراتك. في ليلة زفافنا، عندما قال كلانا نعم للحبر، قلنا لا للاختيارات الأخرى. كان بوسعي أن أتزوّج شخصاً آخر. بسهولة. كان هناك كثيرون يرغبون في الزواج بي. ألم تكن أنت من قال آنذاك إنني أجمل امرأة في فيينا؟»

«ولا أزال أقولها».

تردّدت ماتيلد للحظة. ثمّ، واصلت، متجاهلة كلامه، «ألا تفهم بأنك لا تستطيع أن تقطع عهداً معي ثم تقول فجأة، لا، سأتراجع عنه. إن هذا شرّ لا أخلاقي».

لم يجب بريوير. حبس أنفاسه وتخيّل أن أذنيه أصبحتا مسطحتين مثل أذني قطة روبرت. كان يعرف أن ماتيلد محقة، وكان يعرف أيضاً أن ماتيلد مخطئة.

«تريد أن تكون قادراً على الاختيار، وفي الوقت نفسه، أن تبقي جميع الاختيارات مفتوحة. لقد طلبتَ مني أن أتخلّى عن حريتي، وكم هي قليلة، على الأقل حرية اختيار زوج، وتريد الآن أن تبقي حريتك الثمينة مفتوحة. مفتوحة لإرضاء رغبتك بمريضة عمرها إحدى وعشرين سنة».

احمرّ وجه جوزيف خجلاً، وقال: «أتظنين ذلك؟ لا، لا علاقة لهذا ببيرثا أو بأيّ امرأة أخرى».

«كلماتك تقول شيئاً، ووجهك يقول شيئاً آخر. أنا لم أحصل على تعليم يا جوزيف، ولم يكن ذلك اختياري، لكنني لست غبية».

«ماتيلد، لا تبخسي قدر صراعي. إني أسعى إلى فهم معنى حياتي

كلها. إن لدى الرجل واجب تجاه الآخرين، لكن لديه واجب أعلى تجاه نفسه. إنه...»

«والمرأة؟ ماذا عن معنى حياتها، حريتها؟»

«لا أقصد الرجال، بل أقصد الأشخاص، رجالاً ونساء، على كلّ واحد منّا أن يختار».

«أنا لست مثلك. فأنا لا أستطيع أن أختار الحرية عندما يستعبد آخرون اختياري. هل فكّرت بما تعنيه حريتك بالنسبة لي؟ ما نوع الاختيارات المتاحة لأرملة، أو زوجة هجرها زوجها؟»

«أنتِ حرّة مثلي تماماً. فأنت شابة، غنية، جذّابة، مفعمة بالصحة».

«حرّة؟ أين رأسك اليوم يا جوزيف؟ فكّر في الأمر. أين هي حرية المرأة؟ فلم يُسمح لي أن أتعلّم. وخرجت من بيت أبي إلى بيتك. كان عليّ أن أجادل أمّي وجدتي من أجل حرية اختيار البسط وقطع الأثاث التي سآخذها إلى بيتي الجديد».

«ماتيلد، ليس هذا هو الواقع. إن موقفك تجاه ثقافتك هو الذي يسجنك. منذ أسبوعين، رأيت امرأة روسية شابة جاءتني للحصول على استشارة. إن النساء الروسيات لسن أكثر استقلالاً من نساء فيينا، لكنها على الرغم من ذلك، حصلت على حريتها: فقد تحدّت أسرتها، وطالبت بالتعليم، وهي تمارس حقها في اختيار الحياة التي تريدها. وكذلك يمكنكِ أنتِ. إنك حرّة في أن تفعلي أيّ شيء تريدينه. إنك امرأة غنية، ويمكنك أن تغيّري اسمك وتذهبي إلى إيطاليا».

«مجرد كلمات، كلمات، كلمات. امرأة يهودية في السادسة والثلاثين من عمرها تسافر وحدها. جوزيف، إنك تتكلم كما يتكلم رجل غبي. اصحَ. عش في الواقع، لا في الكلمات. وماذا عن الأطفال؟ أغيّر اسمي! هل يختار كلّ واحد منهم أيضاً اسماً جديداً؟»

«تذكّري يا ماتيلد أن رغبتك لم تكن تتجاوز أن تنجبي أطفالاً عندما تزوّجنا. أطفال والمزيد من الأطفال. لقد رجوتك أن ننتظر».

أمسكت كلماتها الغاضبة وأشاحت بوجهها عنه.

«لا يمكنني أن أقول لك كيف يمكنك أن تكوني حرّة يا ماتيلد. لا يمكنني أن أرسم لك طريقك. لكنك إذا كنت تمتلكين الشجاعة، فسيكون بإمكانك أن تجدي الطريق».

نهضت واتجهت نحو الباب. استدارت لمواجهته، وقالت بعبارات مدروسة: «جوزيف استمع إليّ. أتريد أن تجد حريتك وتأخذ اختياراتك؟ إذاً اعلم أنّ هذه اللحظة هي اختيار. تقول لي إنك تريد أن تختار حياتك، وأنك، مع مرور الوقت، قد تختار أن تواصل حياتك هنا.

«لكن يا جوزيف، إني أختار حياتي أنا أيضاً، وأنا أختار أن أقول لك إنه لا يوجد أمامك طريق للرجعة. لا يمكنك أبداً أن تستعيد حياتك معي كزوجتك، لأنه عندما تطأ قدماك عتبة هذا البيت اليوم، فلن أعود زوجتك. لا يمكنك أن تختار العودة إلى هذا البيت لأنه لم يعد بيتك».

أغمض جوزيف عينيه وأطرق برأسه. كانت الأصوات التالية التي سمعها هي أصوات صفق الباب ووقع خطوات ماتيلد وهي تهبط الدرج. أحسّ بأنه يترنّح من الضربات التي تلقاها، لكن بهجة غريبة غمرته. كانت كلمات ماتيلد فظيعة. لكنّها كانت محقّة! فلا يمكنه أن يتراجع عن هذا القرار.

الآن انتهى الأمر، قال لنفسه. أخيراً شيء ما يحدث لي، شيء حقيقي، لا مجرد أفكار، بل شيء في العالم الحقيقي. مرة بعد مرة، كنت أتخيّل هذا المشهد. الآن أعيشه. الآن أعرف ماذا يعني أن آخذ بزمام قدري. إنه أمر فظيع ورائع.

أنهى حزم أغراضه، ثمّ قبّل أطفاله النائمين، وهمس لهم برقة: الوداع. تحرّك روبرت وهمهم «إلى أين أنت ذاهب يا أبي؟» لكنه عاد وغط في النوم فوراً. أحسّ على نحو غريب أن الأمر لم يكن مؤلماً. استغرب بريوير للطريقة التي خدّر فيها مشاعره لحماية نفسه. أخذ حقيبته وهبط الدرج إلى مكتبه حيث أمضى ما تبقى من فترة الصباح في كتابة تعليمات طويلة للسيدة بيكر وللأطباء الثلاثة الذين سيحوّل إليهم مرضاه.

هل عليه أن يكتب رسائل تفسيرية لأصدقائه؟ تردّد. أليس هذا هو الوقت المناسب لكي يقطع كلّ صلاته بحياته السابقة؟ فقد قال نيتشه إنه يجب أن يقيم ذاتاً جديدة فوق رماد حياته القديمة، لكنه تذكّر عندئذ أن نيتشه نفسه كتب رسائل إلى حفنة من أصدقائه القدامى. إذا كان نيتشه لا يستطيع أن يحتمل عزلة كاملة، فلماذا يتعين عليه أن يطلب منه فوق طاقته؟

لذلك كتب رسائل وداع إلى أعزّ أصدقائه: إلى فرويد وإيرنست فليشل وفرانز برينتانو، وشرح لهم الأسباب التي دفعته إلى مغادرة البيت، لكنه أقرّ بأن هذه الأسباب التي أوردها في رسالة مقتضبة، قد لا تكون كافية أو مفهومة. «صدقّني»، كتب يحثّ كلّ واحد منهم، «أن هذا العمل ليس عملاً طائشاً. ولديّ أسباب هامّة دفعتني إلى القيام بذلك سأكشفها لك لاحقاً». أما اتجاه فليشل، صديقه الإخصائي في علم الأمراض الذي أصيب بالتهاب شديد عندما كان يشرّح جيفة، فقد شعر بريوير بذنب خاص: فهو يقدم له منذ سنوات الدعم الطبي والنفسي، وسينهي الآن كل ذلك؛ كما شعر بالذنب تجاه فرويد الذي كان يعتمد عليه، لا لصداقته والمشورة المهنية التي يقدمها له فقط، بل كذلك لدعمه مالياً. وعلى الرغم من أن سيغ كان يحب ماتيلد، فقد تمنى بريوير أنه سيتفهم تصرفه ويغفر له القرار الذي اتخذه، وأضاف بريوير

إلى رسالته ملاحظة منفصلة ألغى فيها رسمياً جميع ديون فرويد تجاه عائلة بريوير.

بكى وهو يهبط درج البيت للمرة الأخيرة. بينما كان ينتظر وصول العربة، راح يتأمّل اللوحة النحاسية المثبتة على باب المنزل: **الدكتور جوزيف بريوير، مستشار، الطابق الثاني**. لن تكون اللوحة مثبتة في مكانها عندما يعود لزيارة فيينا في المرة التالية، ولا مكتبه، لكن سيكون حجر الصوان والأحجار والطابق الثاني هناك، لكنها لن تعود أحجاره هو؛ وسرعان ما سيفقد مكتبه رائحة وجوده. كان ينتابه نفس الشعور بالانتقال كلما زار بيت طفولته ـ البيت الصغير الذي كان يعبق برائحة الألفة الشديدة واللامبالاة الأشد ألماً، الذي تسكن فيه عائلة مناضلة أخرى، ربما فتى واعد آخر قد يكبر فيه ويصبح طبيباً.

لكنه هو جوزيف، ليس ضرورياً: فسيطويه النسيان، وسيبتلع الزمن ووجود الآخرين مكانه. وسيموت بعد عشر أو عشرين سنة. سيموت وحده. وقال لنفسه مهما كانت الرفقة التي تحيط بالمرء فإنه يموت دائماً وحده.

أبهجته الفكرة أنه إذا كان الرجل وحيداً والضرورة وهم، إذاً فهو حرّ! لكنه ما إن استقلّ العربة، حتى تلاشت بهجته وحلّ محلها إحساس بالظلم. نظر إلى الشقق الأخرى في الشارع. هل يراقبه أحد؟ هل يحدّق به جيرانه من نوافذهم؟ لا بد أنهم يدركون هذا الحدث الجلل. هل سيعرفون غداً؟ هل ستلقي ماتيلد، بمساعدة أخواتها وأمّها ثيابه إلى الشارع؟ فقد سمع عن زوجات غاضبات فعلن ذلك.

كان بيت ماكس محطته الأولى. كان ماكس بانتظاره لأن بريوير كان قد أخبره البارحة، بعد انتهاء مناقشته مع نيتشه في المقبرة، بقراره بأنه سيتخلى عن حياته في فيينا، وطلب منه رعاية الشؤون المالية لماتيلد.

مرة أخرى بذل ماكس جهداً كبيراً ليثنيه عن الإقدام على هذا العمل المتهور والمدمّر، لكن عبثاً، لأن بريوير كان حازماً في قراره. ثم أذعن ماكس للقرار الذي اتخذه نسيبه، وانكبّ الرجلان طوال ساعة كاملة على دراسة سجلات العائلة المالية. لكن عندما تهيأ بريوير للمغادرة، نهض ماكس فجأة وسدّ المدخل بجسمه الضخم. للحظة، خاصة عندما فتح ماكس ذراعيه، خشي بريوير أنه سيحاول منعه من الخروج. لكن ماكس كان يريد أن يعانقه. تهدج صوته عندما قال: «إذاً لن نلعب الشطرنج هذه الليلة؟ لن تكون حياتي نفسها يا جوزيف. سأشتاق إليك كثيراً. إنك أعزّ صديق عرفته في حياتي».

لكي لا يردّ بكلمات، عانق بريوير ماكس وهرع مغادراً البيت، ثم طلب من فيشمان أن يوصله إلى محطة القطار. قبل أن يصلا إلى المحطة، قال له إنه سيغيب مدة طويلة، ومنحه راتب شهرين، ووعده بأن يتصل به عندما يعود إلى فيينا.

بينما كان ينتظر الصعود إلى القطار، وبّخ بريوير نفسه لأنه لم يخبر فيشمان الحقيقة بأنه لن يعود. «كيف يمكنك أن تعامله بلا مبالاة؟ بعد عشر سنوات من الخدمة معك؟» ثمّ غفر لنفسه، فهناك أشياء كثيرة لا يمكنه أن يتحملها في يوم واحد.

توجّه إلى بلدة كريوزفينغين الصغيرة في سويسرا، حيث تمكث بيرثا في مصحّة بيلفيو منذ الأشهر القليلة الماضية. كان في حيرة من حالته العقلية. فمتى وكيف اتخذ قراره لزيارة بيرثا؟

ما إن انطلقت صافرة القطار وبدأ يتحرك، حتى أسند رأسه إلى الوسادة، وأغمض عينيه، وراح يتأمّل أحداث اليوم.

كان فريدريك محقّاً: كانت حريتي ملقاة أمامي طوال الوقت لكي آخذها. كان بإمكاني أن أتحكم بحياتي منذ سنوات. لا تزال فيينا

موجودة. الحياة ستستمرّ بدوني. كان غيابي سيحدث في جميع الأحوال، بعد عشر سنوات أو عشرين سنة. من وجهة نظر كونية، ما الفرق الذي يمكن أن يحدثه ذلك؟ لقد بلغت للتو الأربعين، وقد مضى على وفاة أخي ثماني سنوات، وعلى وفاة أبي عشر سنوات، وعلى وفاة أمّي ستّ وثلاثون سنة. الآن، بينما لا أزال أستطيع أن أرى وأمشي، سآخذ جزءاً صغيراً من حياتي لنفسي. هل هذا كثير عليّ؟ لقد تعبتُ من خدمة الآخرين. تعبتُ من رعاية الآخرين: نعم، كان فريدريك محقّاً. هل يجب أن يظل النير مربوطاً في محراث الواجب إلى الأبد؟ هل عليّ أن أعيش طوال حياتي، حياة أندم عليها؟

حاول أن ينام. لكنه كلما غفا، خطرت بباله صورة أطفاله. أجفل بألم عندما فكّر أنهم سيعيشون بدون أب. ذكّر نفسه بأن فريدريك كان محقاً عندما قال: «لا تخلق أطفالاً إلا بعد تكون مستعداً لأن تكون خالقاً وتنجب خالقين». من الخطأ إنجاب أطفال بدافع الحاجة، من الخطأ استخدام الأطفال للتخفيف من وطأة الوحدة، من الخطأ تقديم هدف في الحياة بإعادة إنتاج نسخة أخرى من نفسه، من الخطأ أيضاً أن يسعى المرء إلى الخلود بقذف بذرته إلى المستقبل كما لو كان الحيوان المنوي يحتوي على وعيه.

وماذا عن الأطفال؟ لقد كانوا خطأ، فقد كانوا مرغمين عليّ، فقد جاؤوا قبل أنا أعي اختياراتي. لكنهم موجودون الآن. لا يقول نيتشه عنهم شيئاً. إنه يصمت. وقد حذرتني ماتيلد من أني قد لا أراهم ثانية.

تهاوى بريوير في لجة اليأس، لكنه سرعان ما أيقظ نفسه. لا. لأبعد هذه الأفكار من رأسي. إن فريدريك على حقّ: الواجب، اللياقة، الإخلاص، الإيثار، الرقة. هذه هي الصفات التي تهدهد المرء لينام نوماً عميقاً إلى حد أنه يصحو، هذا إن صحا، في نهاية الحياة، ليتعلم أنه لم يعش حياته حقاً.

لديّ حياة واحدة فقط، حياة قد تتكرر إلى الأبد. لا أريد أن أندم طوال حياتي بأنني فقدت نفسي وأنا أؤدي واجبي فقط تجاه أطفالي.

حانت الآن فرصتي لبناء ذات جديدة فوق رماد حياتي القديمة. وعندما أفعل ذلك، سأجد طريقي إلى أطفالي. عندها لن تتمكن أفكار ماتيلد من أن تعذبني وتقهرني بما هو مسموح به اجتماعياً. من يمكنه أن يسدّ طريق أب أمام أولاده؟ سأصبح فأساً. سأقطع كل ما يعترض طريقي وأشقّ طريقي إليهم. أما اليوم، كان الله في عونهم. لا يمكنني أن أفعل شيئاً. إني أغرق ويجب أن أنقذ نفسي أولاً.

وماذا عن ماتيلد؟ يقول فريدريك إن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذا الزواج هو التخلي عنه، و«من الأفضل أن تكسر الزواج قبل أن يكسرك». ربما كان الزواج قد كسر ماتيلد أيضاً. ربما ستكون في حال أفضل مني. ربما كانت سجينة مثلي. ستقول لو سالومي ذلك. كيف صاغتها: بأنها لن تُستعبد من أجل نزوات شخص آخر. لعل غيابي سيحرّر ماتيلد.

وصل القطار إلى كونستانز في وقت متأخر من المساء. نزل بريوير من القطار وأمضى الليلة في فندق متواضع قريب من محطة القطار. قال لنفسه إن الأوان آن لكي أتأقلم مع الإقامة في الدرجة الثانية والثالثة. وفي الصباح، استأجر عربة إلى كريوزلنجين، إلى مصحّة بيلفيو. عندما وصل، أبلغ المدير، روبرت بنسوانجير، أن استشارة مفاجئة جلبته إلى جنيف، القريبة من بيلفيو لزيارة مريضته السابقة، فراولين بابينهيم.

لم يكن هناك شيء غير اعتيادي في طلب بريوير: فقد كان معروفاً في بيلفيو بأنه صديق قديم للمدير السابق، لودفيغ بنسوانجير الأب الذي توفي مؤخراً. عرض الدكتور بنسوانجير أن يرسل أحداً لإحضار فراولين بابينهيم فوراً. «إنها تتمشّى في الحديقة الآن وتناقش حالتها مع طبيبها

الجديد، الدكتور دوركين». وقف بنسوانجير وسار نحو النافذة، وقال: «إنها هناك، في الحديقة، يمكنك أن تراهما».

«لا، لا، دكتور بنسوانجير، لا تقاطعهما. أشعر بقوة بأنه لا يوجد شيء أهم من جلسة بين الطبيب ومريضه. كما أن الشمس رائعة اليوم التي لم أر الكثير منها في فيينا مؤخراً. إذا لم يكن لديك مانع، فإني سأنتظرها في حديقتك، وسيكون من المثير للاهتمام أيضاً أن أراقب حالة فراولين بابينهيم، خاصة طريقة مشيتها، من مكان لا تراني فيه».

في شرفة أوطأ في حدائق بيلفيو الواسعة، رأى بريوير بيرثا وطبيبها يتمشّيان ذهاباً وإياباً في ممر تحفّه أشجار عالية من الجانبين. اختار موقع مراقبته بعناية: مقعد أبيض في الشرفة العليا تحت عريشة زهر الليلك عارية الأغصان يكاد يكون مخفياً تماماً. من هناك، كان باستطاعته أن ينظر إلى الأسفل ويرى بيرثا بوضوح. حتى إذا اقتربت منه سيتمكن من سماع كلماتها.

مرّت بيرثا ودوركين تحت المقعد الذي يجلس عليه وسارا مبتعدين. هبّت عليه رائحة الخزامى التي انبعثت منها. تنشّقها بنهم، وأحسّ بألم شوق عميق يسري في جسده. كم بدت بنيتها ضعيفة. ثم توقفت فجأة. كان هناك تقفّع في ساقها اليمنى. تذكّر أن ذلك كان يحدث لها كثيراً عندما كان يسير معها. كانت تمسك بدوركين ليسندها. تمسكه بإحكام كما كانت تمسك به. ها هي الآن تمسك بدوركين بكلتا ذراعيها، وتضغط بجسدها على جسده. تذكّر بريوير عندما كانت تضغط بجسدها على جسده. كم كان يحبّ ملمس ثدييها. مثل الأميرة وهي تتحسس البازلاء عبر عدة حشايا. كان يشعر بثدييها الطريين المخمليين عبر كلّ تلك العقبات. فلم تكن قبعتها الفارسية المصنوعة من جلد الحمل ومعطفها السميك المبطن بالفرو إلا عوائق رقيقة أمام متعته.

بدأ تشنج شديد في عضلة فخذ بيرثا اليمنى. أمسكت فخذها. عرف

بريوير ماذا سيحدث بعد ذلك. حملها دوركين إلى المقعد ومددها عليه. الآن سيأتي دور تدليكها. نعم، خلع دوركين قفازيه، وانسلت يداه تحت معطفها، وبدأ يدلك فخذها. هل ستئن بيرثا الآن من الألم؟ نعم، أخذت تئن بصوت منخفض. كان بوسع بريوير سماعها. ألن تغمض عينيها الآن كما لو كانت في غيبوبة، وتمدّ ذراعيها فوق رأسها، ثم تقوّس ظهرها وتدفع ثدييها إلى الأعلى؟ نعم، نعم، ها هي تفعل ذلك. الآن سينفتح معطفها ويسقط على الأرض. نعم، ها هو يرى يدها تنسّل خفية وتحلّ أزرارها. يعرف أن فستانها سيزحف إلى الأعلى. كان ذلك يتم دائماً. ها هي تثني ركبتيها. لم يرها بريوير تفعل ذلك من قبل. يرتفع فستانها ويكاد يصل إلى خصرها. يقف دوركين ساكناً، يحدّق في سروالها الداخلي الحريري الوردي اللون، والخط الباهت لمثلث معتم.

من مكانه البعيد، يحدّق بريوير من فوق كتفي دوركين، المذهول أيضاً. غطّها أيها الأحمق المسكين! يحاول دوركين أن يشدّ فستانها إلى الأسفل ويضم معطفها. تتدخّل يدا بيرثا. عيناها مغمضتان. هل هي في غيبوبة؟ يبدو دوركين مهتاجاً، كما قد يكون هو، قال بريوير لنفسه، وتطلع حوله متوتراً. لا يوجد هناك أحد. شكراً لله! خفّ تَقَفُّع ساقها. ها هو يساعد بيرثا على النهوض، وتحاول السير.

كان بريوير مذهولاً، وأحس أنه لم يعد في جسده. ثمة شيء غير واقعي في هذا المشهد الماثل أمامه، كأنه يشاهد مسرحية في آخر صفّ في الشرفة في مسرح ضخم. بماذا يشعر؟ ربما أحسّ بالغيرة من الدكتور دوركين؟ فهو شاب وسيم وعازب، وها هي بيرثا تتعلق به بقوة أكثر مما كانت تتعلق به. لكن لا. إنه لا يشعر بالغيرة، ولا بعداء تجاهه. مطلقاً، بل على العكس، شعر بالدفء وبأنه قريب من دوركين. إن بيرثا لا تفصلهما عن بعضهما، بل تجرّهما معاً إلى أخوّة الإثارة.

واصل الطبيب والمريضة سيرهما. ابتسم بريوير عندما رأى الآن أن

الطبيب، لا المريضة، بدأ يمشى بتثاقل. يجرجر قدميه. أحسّ بتعاطف تجاهه: فكم مرّة كان يمشي مع بيرثا ويحاول مداراة انتصابه المزعج. «من حسن حظك يادكتور دوركين أن الوقت شتاء»، قال بريوير لنفسه، «فلو كان صيفاً لأصبح وضعك أسوأ بكثير، بدون معطف يسترك. عليك إذاً أن تحشره تحت حزامك».

عندما وصلا إلى نهاية الدرب، عادا باتّجاهه. وضعت بيرثا يدها على خدها. كان باستطاعة بريوير أن يرى عضلاتها المحجرية قد بدأت تتشنج، وأنها تتألم. كان الألم في وجهها، الوجع، حدثاً يومياً وشديداً إلى حد أن المورفين لم يعد يكفي للتخفيف من حدته. توقّفت بيرثا. كان يعرف تماماً ماذا سيحدث بعد ذلك. شيء مخيف. مرة أخرى، بدا كأن المشهد يجري على خشبة مسرح، وأنه هو المخرج أو الملقن يدرّب الممثلين على المشاهد التالية. ضع يديك على وجهها. ضع راحتيْ يديك على خديها، المس بإبهامك أرنبة أنفها. هذا جيد. الآن، اضغط قليلاً إلى الأسفل ومسّد حاجبيها، مرة بعد أخرى. جيد. يمكنه أن يرى وجه بيرثا وقد بدأ يسترخي الآن. ترفع يديها، وتمسك دوركين من رسغيه، وترفع كلّ يد إلى شفتيها. أحسّ بريوير بطعنة. مرة واحدة فقط قبّلت يديه هكذا. كانت أكثر اللحظات قرباً بينهما. ازدادت قرباً منه. بإمكانه أن يسمع صوتها: «أبي الصغير، أبي الصغير العزيز». هذا ما كانت تقول له.

كان ذلك كلّ ما سمعه. هذا يكفي. نهض، ودون أن يقول شيئاً للممرضات المرتبكات، خرج من بيلفيو واتجّه إلى العربة التي تنتظره. مذهولاً، عاد إلى كونستانز حيث استقل القطار. أعاده صوت صافرة القطار إلى نفسه. بدأ قلبه يخفق بقوة، أراح رأسه على المسند واستغرق في التفكير بما رآه.

تلك اللوحة النحاسية، مكتبي في فيينا، بيت طفولتي، والآن بيرثا

أيضاً. لا تزال جميعها كما هي: لا أحد منهم يحتاجني في وجوده. أنا شخص ثانوي. يستطيع أي شخص أن يحل مكاني. لم أعد ضرورياً في مسرحية بيرثا. لا أحد منّا ضروري، ولا حتى الرجال الذين يتبوأون مراكز قيادية. لا أنا ولا دوركين ولا الذين سيأتون بعدنا.

بدا مغلوباً على أمره: ربما يحتاج إلى مزيد من الوقت ليستوعب كلّ ذلك. كان متعباً. أسند ظهره إلى المقعد. أغمض عينيه وعاد يحلم ببيرثا. لكن لم يحدث شيء. انتقل في خطواته المعتادة: فقد ركّز على مسرح مخيلته. أعدّ المشهد الأولي للحلم. كان منفتحاً للتطورات القادمة. كان ذلك يعود دائماً لقرار بيرثا، لا لقراره هو. تنحى جانباً بانتظار أن تبدأ الأحداث، لكن لم يبدأ شيء. لم يتحرك شيء. ظلت خشبة المسرح ساكنة بانتظار توجيهاته.

اكتشف بريوير أنه يستطيع الآن أن يستدعى صورة بيرثا أو يطردها من مخيلته عندما يشاء. عندما استدعاها، ظهرت على الفور في أي شكل أو وضعية يريدها، لكنها لم تعد مستقلة: فقد كانت صورتها تتجمّد إلى أن يأمرها بالتحرك ثانية. لم تكن الصور متماسكة.

استغرب بريوير من هذا التحول. فلم يفكّر قط ببيرثا بمثل هذه اللامبالاة. لا، ليست لامبالاة، بل بمثل هذا الهدوء، بمثل امتلاك الذات هذا. لم تعد ثمة عواطف جياشة أو اشتياق شديد لها، لكن لم تكن هناك أية مشاعر بالكراهية تجاهها. للمرة الأولى، فهم أنه هو وبيرثا يتشاركان في المعاناة. فقد كانت واقعة في الفخ مثله، كما أنها لم تعد كما كانت. فهي لم تختر حياتها، بل كانت شاهداً على نفس المشاهد التي تتكرر إلى ما لا نهاية.

عندما فكّر في الأمر، أدرك بريوير المأساة الكاملة لحياة بيرثا. لعلها لا تعرف ذلك. لعلها لم تتخلَ عن الاختيار فقط، بل تخلت عن الإدراك أيضاً. فقد كانت في غالب الأحيان في حالة «غياب»، في غيبوبة، ولم

تكن تمارس حياتها. كان يعرف أن نيتشه مخطىء في هذا الأمر. فهو ليس ضحيّة بيرثا، بل كلاهما ضحية.

لقد تعلّم أشياء كثيرة. تمنى أن يبدأ مرة أخرى ويصبح طبيبها. لقد أثبت ما رآه اليوم في بيلفيو أن نتائج معالجته زائلة. كم كان غبياً عندما أمضى شهوراً عديدة وهو يعالج الأعراض. مناوشات سطحية سخيفة، في حين أهمل المعركة الحقيقية. النضال المميت القابع أسفل ذلك.

خرج القطار من نفق طويل وهو يهدر بقوة. أعاد ظهور الشمس المتلألئة بريوير إلى محنته الحالية. إنه عائد إلى فيينا لزيارة إيفا برغر، ممرضته السابقة. تطلع بذهول حوله في مقصورة القطار. لقد فعلتها مرة أخرى، قال لنفسه. أجلس هنا في القطار، ألقي بنفسي نحو إيفا، مع أنني لا أعرف متى وكيف اتّخذت القرار لرؤيتها.

عندما وصل إلى فيينا، استقل عربة أجرة واتجه إلى بيت إيفا. اقترب من باب بيتها.كانت الساعة الرابعة بعد الظهر. كاد يعود أدراجه لأنه كان متأكّداً، أو أنه يرجو، أنها لا تزال في عملها. لكنّها كانت في البيت. بدا أنها صدمت عندما رأته ووقفت هناك تحدّق به. لم تنبس ببنت كلمة. عندما سألها هل يمكنه أن يدخل، دعته للدخول بعد أن تطلعت حولها باضطراب نحو أبواب بيوت جيرانها. على الفور أحسّ بالراحة معها. مضت ستّة أشهر على رؤيته لها، لكنه أحسّ بنفس السهولة التي كان يشعر بها عندما كان يفضي لها بهمومه. حدّثها عن كلّ ما جرى منذ أن طردها من العمل: لقاؤه بنيتشه، تحوّله التدريجي، قراره باستعادة حريته، وتخليه عن ماتيلد والأطفال، صمته، لقاؤه النهائي مع بيرثا.

«والآن، إيفا، لقد أصبحت حرّاً. لأول مرة في حياتي، أصبح بإمكاني أن أفعل أيّ شيء، أن أذهب إلى أيّ مكان أريد. بعد حديثنا مباشرة، سأذهب إلى محطة الترام وأختار مكاناً أذهب إليه. حتى الآن

فإني لا أعرف إلى أين سأذهب، ربما إلى الجنوب، نحو الشمس. ربما إلى إيطاليا».

إيفا التي اعتادت على التحدث باستفاضة والردّ بفقرات كاملة على كلّ جملة يقولها، لاذت الآن بالصمت على نحو غريب.

واصل بريوير، «طبعاً سأكون وحيداً. تعرفين كيف أنا، لكنّي سأكون حرّاً لألتقي بأي شخص أريد».

لكن إيفا لم تحر جواباً أيضاً.

«أو أدعو صديقاً قديماً للسفر معي إلى إيطاليا».

لم يصدّق بريوير الكلمات التي قالها. فجأة تخيّل سماء مليئة بالحمامات التي أطلقها من نافذة مختبره، ثم تعود إلى أقفاصها.

فزع لكنه ارتاح أيضاً لأن إيفا لم ترّد على تلميحاته المبطّنة، بل بدأت تسأله.

«أيّ حرية تقصد؟ ماذا تقصد بقولك «حياة غير معيشة»؟ هزّت رأسها غير مصدقة، ثم أردفت، «جوزيف، إن الكثير مما قلته لا يعني لي شيئاً. كنت أتمنى دائماً أن أكون حرة مثلك. ما الحرية التي أملكها أنا؟ عندما يتعين عليك أن تقلق من أجل تسديد الإيجار وفاتورة الجزّار، فإنك لا تبالي كثيراً بالحرية. أتريد أن تتحرر من مهنتك؟ انظر إلى مهنتي. عندما طردتني، تعين عليّ أن أقبل أيّ عمل أعثر عليه، والآن الحرية الوحيدة التي أتمنّاها هي حرية ألاّ أعمل في النوبة الليلية في مستشفى فيينا العام».

النوبة الليلية. إذاً لهذا السبب هي في البيت الآن، قال بريوير لنفسه.

«لقد عرضتُ عليك أن أساعدك لإيجاد وظيفة أخرى، لكنك لم تجيبي على رسائلي».

فأجابت إيفا، «كنت مصدومة. لقد تعلّمت درساً قاسياً وهو أنك لا

تستطيع أن تعتمد على أحد إلا على نفسك». هنا، للمرة الأولى، رفعت عينيها وحدّقت في عيني بريوير مباشرة.

احمّر وجهه خجلاً لأنه لم يبذل أي جهد لحمايتها، وحاول أن يطلب منها أن تصفح عنه، لكن إيفا تابعت كلامها بسرعة وراحت تتحدّث عن عملها الجديد وعن زفاف أختها وصحة أمّها، ثم عن علاقتها بجيرهارد، المحامي الشاب الذي التقت به عندما كان مريضاً في المستشفى.

عرف بريوير بأنه أساء إليها بزيارته هذه، فاستوى واقفاً. عندما اقترب من الباب، مدّ يده إلى يدها على نحو أخرق، وأراد أن يسألها سؤالاً، لكنه تردّد. هل لا يزال لديه الحقّ في قول أيّ شئ يبدو مألوفاً لها؟ قرّر أن يجازف. مع أنه كان من الواضح أن الرابطة الحميمة بينهما قد تلاشت، فلن تمحى خمس عشرة سنة من الصداقة بسهولة.

«إيفا، إني ذاهب الآن، لكن أرجوك، أريد أن أسألك سؤالاً أخيراً».

«تفضل يا جوزيف».

«لا يمكنني أن أنسى تلك الأوقات التي كنا قريبين فيها من بعضنا. هل تتذكّرين عندما جلسنا في مكتبي في إحدى الأمسيات، وتحدثنا قرابة الساعة؟ أخبرتك عندئذ أنني كنت أشعر بالانجذاب إلى بيرثا بقوة وبشكل لا يقاوم. قلتِ إنك تخافين عليّ، إنك صديقتي، وإنك لا تريدين أن أدمّر نفسي، ثمّ أمسكتني بيدي، كما أمسك بيدك الآن، وقلتِ إنكِ ستفعلين أيّ شيء، أيّ شيء أريد، إن كان سينقذني. إيفا، لا أستطيع أن أخبرك كم مرة، ربما مئات المرات، أكرر على مسامعي هذا الحديث الذي جرى بيننا، كم كان يعني بالنسبة لي، كم مرة ندمت على وسواسي ببيرثا فلم أستجب لك مباشرة. وربما كان سؤالي ببساطة هو: هل كنتِ صادقة؟ هل كان عليّ أن أستجيب؟»

سحبت إيفا يدها، ووضعتها برفق على كتفه، وقالت مترددة، «جوزيف، لا أعرف ماذا أقول. سأكون صادقة. إني آسفة لأن أجيب عن سؤالك بهذه الطريقة، لكن إكراماً لصداقتنا القديمة، يجب أن أكون صادقة. جوزيف، إني لا أتذكّر أن هذا الحديث قد دار بيننا».

بعد ساعتين، وجد بريوير نفسه يتهالك على مقعد من الدرجة الثانية في القطار المتجه إلى إيطاليا.

أدرك كم كان مهماً بالنسبة له، في السنة الماضية تلك، أن تكون إيفا ضماناً له. فقد كان يعتمد عليها. كان متأكّداً دائماً من أنها ستكون هناك عندما يحتاج إليها. كيف يمكنها أن تنسى؟

«لكن، جوزيف، ماذا كنت تتوقّع؟» سأل نفسه، «أنْ تُجمَّد في حجرة وتنتظرك حتى تفتح الباب وتعيدها إلى الحياة؟ لقد بلغتَ الأربعين، وحان الوقت لأن تفهم أن نساءك موجودات بمعزل عنك: فلديهن حياتهن الخاصة، وهن يكبرن في العمر، يواصلن حياتهن، يشخن، يقمن علاقات جديدة. الأموات فقط هم الذين لا يتغيّرون. أمّك، بيرثا، فقط هي المعلقة في الزمن، تنتظرك».

فجأة انبثقت الفكرة المرعبة بأنه ليست حياة بيرثا وإيفا فقط هي التي يجب أن تستمرّ، بل حياة ماتيلد أيضاً، بأن تستطيع أن تعيش بدونه، بأن يأتي يوم تهتمّ به بشخص آخر. ماتيلد. زوجته ماتيلد مع شخص آخر. يصعب تحمل ذلك الألم. بدأت دموعه تنهمر الآن. رفع بصره إلى رفّ الأمتعة ونظر إلى حقيبته. كانت هناك، في متناول يده، المقبض النحاسي يتدلى بلهفة نحوه. نعم، كان يعرف تماماً ماذا يجب أن يفعله: أمسك المقبض. ارفع الحقيبة من الرفّ المعدني. اسحبها إلى الأسفل. انزل في المحطّة القادمة، مهما كانت، واستقل أول قطار عائد إلى فيينا، وألقِ بنفسك فوق رحمة ماتيلد. لم يفت الآوان بعد. من المؤكد أنها ستسامحه.

لكنّه تخيّل وجود نيتشه القوي يمنعه من ذلك.

«فريدريك، كيف يمكنني أن أتخلّى عن كلّ شيء؟ كم كنت غبياً لأني أخذت بنصيحتك».

«كنت قد تخلّيت عن كلّ شيء هام قبل أن تلتقي بي يا جوزيف. لهذا السبب كنت يائساً. هل تتذكّر كيف كنت تندب خسارة فتى الوعد اللانهائي؟»

«لكن لم يعد لديّ شيء الآن».

«لا شيء هو كلّ شيء! لكي تصبح قوياً يجب أن تضرب أولاً بجذورك عميقاً في العدم وتتعلّم كيف تواجه أقصى درجة من وحدتك».

«زوجتي، أسرتي! إني أحبّهم. كيف أمكنني مغادرتهم؟ سأنزل في المحطّة التالية».

«إنك تهرب من نفسك. تذكّر أنّ كلّ لحظة تعود إلى الأبد. فكّر في الأمر: فكّر بالهروب من حريتك من أجل الخلود كله».

«عندي واجب تجاه...»

«واجب واحد وهو أن تكون من أنت. كن قوياً: وإلا فإنك تستخدم الآخرين إلى الأبد حتى تتضخم».

«لكن ماتيلد... العهود التي قطعتها! واجبي إزاء...»

«الواجب، الواجب. ستُهلك من هذه الفضائل الصغيرة. تعلّم أن تصبح شرّيراً. ابنِ نفساً جديدة فوق رماد حياتك القديمة».

طوال الطريق إلى إيطاليا، كانت كلمات نيتشه تلاحقه.

«التكرار الأبدي».

«الساعة الرملية الأبدية للوجود تُقلب رأساً على عقب، مراراً وتكراراً».

«دع هذه الفكرة تستحوذ عليك، وأعدك بأنها ستغيّرك إلى الأبد».

«هل تحبّ الفكرة أم تكرهها؟»

«عش بطريقة تجعلك تحبّ الفكرة».

«رهان نيتشه».

«عش حياتك بالكامل».

«مت في وقتك المناسب».

«الشجاعة على تغيير اعتقاداتك».

«هذه الحياة هي حياتك الأبديّة».

***

كان كلّ شيء قد بدأ منذ شهرين في فينيسيا. ها هو يتجه الآن إلى مدينة الجنادل. عندما اجتاز القطار الحدود الإيطالية السويسرية، وبدأت تتناهى إليه أصوات أحاديث باللغة الإيطالية، تحوّلت أفكاره من الاحتمالية الأبدية إلى واقع الغد.

إلى أين سيذهب عندما ينزل من القطار في فينيسيا؟ أين سينام هذه الليلة؟ ماذا سيفعل غداً؟ وبعد غد؟ كيف سيمضي وقته؟ ماذا يفعل نيتشه؟ عندما لا يكون مريضاً، فإنه يتمشى ويفكّر ويكتب، لكن هذا هو أسلوبه، كيف...؟

أولاً، كان على بريوير أن يعرف أن عليه أن يكسب رزقه. فلن تكفيه النقود التي لديه لأكثر من بضعة أسابيع: بعد ذلك سيرسل له المصرف، بناء على تعليمات من ماكس، حوالة شهرية بسيطة. ويمكنه أن يواصل ممارسة الطب. على الأقل ثلاثة من طلابه السابقين يزاولون الطبّ في فينيسيا. يجب ألاّ يواجه صعوبة في مباشرة عمله، ولن تشكل اللغة عقبة بالنسبة له لأنه يملك أذناً جيدة، وهو يتقن قليلاً من الإنكليزية والفرنسية

والإسبانية، وبإمكانه التقاط الإيطالية بسرعة. لكنه هل ضحى بكل ذلك لكي يعيد إنتاج حياته الفينيية في فينيسيا؟ لا، لقد ترك تلك الحياة وراءه.

لعله يعمل لفترة قليلة في مطعم. فقد تعلّم بريوير الطهي بسبب موت أمّه وضعف صحة جدته، فراح يساعد كثيراً في إعداد الطعام للأسرة. ومع أن ماتيلد كانت تخرجه من المطبخ، كان يدخل إلى المطبخ عندما تخرج من البيت ويراقب الطباخ ويعطيه تعليماته. نعم، كلما فكّر في الأمر، ازداد شعوره قوة بأن عمل المطعم قد يكون هو المطلوب. لا بسبب كسب النقود، بل لأنه يريد أن يلمس الطعام: أن يعدّه، وأن يقدمه.

في وقت متأخّر من المساء، وصل إلى فينيسيا وأمضى الليلة الثانية في فندق عند محطة القطار. في الصباح، استقل جندولاً واتجه إلى وسط المدينة وراح يمشي ويفكّر لساعات. التفت العديد من الفينيسيين ونظروا إليه. فهم سبب التفاتهم إليه عندما رأى صورته المنعكسة على نافذة واجهة أحد المحلات: لحية طويلة، قبعة، معطف، بدلة، ربطة عنق: كلها سوداء اللون. كان يبدو أجنبياً، تماماً مثل طبيب غني يهودي مسنّ من فيينا. في الليلة الماضية شاهد في محطة القطار مجموعة من المومسات الإيطاليات وهن يحاولن إثارة الزبائن. لم تقترب ولا واحدة منهن منه، لا عجب. يجب أن تذهب اللحية والثياب.

تشكّلت خطته ببطء: أولاً، الذهاب إلى صالون حلاق ومخزن بيع ألبسة عمالية، ثمّ سيبدأ دورة تعليمية مكثفة باللغة الإيطالية. ربما سيكون بإمكانه بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أن يبدأ باستكشاف عمل المطاعم: فقد تكون فينيسيا بحاجة إلى مطعم نمساوي جيد، أو حتى إلى مطعم نمساوي يهودي لأنه رأى عدّة معابد يهودية في أثناء جولته.

كانت حركة موسى الحلاق المملّة التي أخذت تحرك رأسه إلى الأمام وإلى الخلف عندما هاجم الحلاق لحيته التي يزيد عمرها على

إحدى وعشرين سنة. أحياناً، كانت تظهر بقع في لحيته. لكنها في أحيان كثيرة كانت تنكمش وتشكل كتلاً صغيرة من الشعر الكستنائي المجعد. كان الحلاق عنيداً وبرماً. فهم بريوير سبب ذلك. إذ إن مبلغ ستين ليرة قليل جداً لحلاقة لحية بهذا الحجم، فأشار إليه لأن يتوقف، ومدّ يده إلى جيبه وأعطاه مئتي ليرة ليكون أكثر لطفاً في حلاقة لحيته.

بعد عشرين دقيقة، بينما كان يحدّق في مرآة الحلاق المتصدّعة، غمرته موجة من الإحساس بالشفقة عندما رأى وجهه. فخلال العقود المنصرمة، نسي المعركة التي كانت تدور تحت عتمة لحيته. فبعد أن تعرّى الآن، رأى أنه مرهق ومنهك. فقد كانت جبهته وحاجباه ثابتة وتدعم طبقات بشرة وجهه المتراخية المهزومة. وكان هناك شقّ ضخم يمتدّ من كلّ منخر في أنفه يفصل خديه عن شفتيه، وتمتد تجاعيد أصغر حجماً إلى الأسفل من كلتا عينيه. طيّات حنجرة ديك هندي تتدلى من فكّه. أما ذقنه، فقد نسي أن لحيته كانت تخفي عار ذقنه الضئيلة المختبئة الآن بخجل تحت شفته السفلى المدلاة الرطبة.

في طريقه إلى مخزن لبيع الثياب، نظر بريوير إلى ثياب المارة وقرّر أن يشتري معطفاً قصيراً سميكاً أزرق اللون، وحذاء طويلاً متيناً، وبلوزة مخطّطة سميكة. لكن كان جميع الذين يمرون بجانبه يصغرونه سناً. إذاً ماذا يرتدي الرجال الأكبر سناً؟ أين هم، ما هي أحوالهم؟ إذ يبدو الجميع في سن الشباب. كيف يستطيع أن يقيم صداقات؟ كيف يمكنه أن يلتقي بنساء؟ ربما نادلة في مطعم، أو معلمة لغة إيطالية. لكنه قال لنفسه، لا أريد امرأة أخرى. لن أجد أبداً امرأة مثل ماتيلد. فأنا أحبّها. هذا جنون. لماذا تركتها؟ إني في عمر متقدم لا يسمح لي أن أبدأ من جديد. أنا أكبر شخص سناً في هذا الشارع. ربما كانت تلك المرأة التي تسير على عكاز تكبرني سناً، أو ذلك الرجل المحني الذي يبيع

الخضراوات. فجأة اعتراه شعور بالدوار. لم يكد يقدر على أن يتوقف. سمع خلفه صوتاً.

«جوزيف، جوزيف».

صوت من هذا؟ إنه يبدو مألوفاً.

«دكتور بريوير! جوزيف بريوير».

من يعرف مكاني؟

«جوزيف، اسمعني. سأعدّ من عشرة إلى واحد. عندما أصل إلى الرقم خمسة، افتح عينيك. عندما أصل إلى الرقم واحد، سوف تستيقظ تماماً. عشرة، تسعة، ثمانية...».

أعرف هذا الصوت.

«سبعة، ستّة، خمسة...»

فُتحت عيناه. رفع بصره إلى وجه فرويد المبتسم.

«أربعة، ثلاثة، إثنان، واحد. لقد استيقظت الآن».

فزع بريوير، وقال: «ماذا يحدث؟ أين أنا، يا سيغ؟»

«كلّ شيء على ما يرام يا جوزيف. استيقظ». كان صوت فرويد ثابتاً لكنه مهدئاً.

«ماذا حدث؟»

«أعط نفسك دقيقتين يا جوزيف. إنها ستعود».

رأى أنه مستلق على الأريكة في غرفة مكتبه. انتصب جالساً. مرة أخرى، سأل، «ماذا يحدث؟»

«قل لي ماذا حدث يا جوزيف».

«لقد فعلت ما طلبته تماماً. عندما بدا بريوير مذهولاً، قال له فرويد موضحاً، «ألا تتذكّر؟ لقد أتيت ليلة البارحة وطلبت مني أن آتي في

الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم لأساعدك في تجربة نفسية. عندما وصلت، طلبت مني أن أنوّمك، وقد استخدمت ساعتك كبندول».

مدّ بريوير يده إلى جيب صدريته.

«ها هي يا جوزيف، على المنضدة الصغيرة. تذكّر أنك طلبت مني أن أنوّمك بعمق وأن تتخيل سلسلة من التجارب. قلت لي إن الجزء الأول من التجربة سيكون مخصصاً لأن تأخذ إجازة من أسرتك وأصدقائك وحتى من مرضاك، وأن أقدم لك اقتراحات، إذا كان ذلك ضرورياً، مثل: «قل الوداع» أو «لا يمكنك العودة إلى بيتك». وأن الجزء التالي سيخصص لبداية حياة جديدة وأن أقدّم اقتراحات مثل: «تابع» أو «ماذا تريد أن تفعل بعد ذلك»؟»

«نعم، نعم، يا سيغ، بدأت أستيقظ. بدأ كل شيء يعود إليّ. كم الساعة الآن؟»

«الواحدة بعد ظهر يوم الأحد. لقد غبت عن الوعي لمدة ساعتين، تماماً كما خطّطنا. سيصل الجميع بعد قليل للعشاء».

«قل لي ماذا حدث بدقة. ماذا لاحظت؟

«لقد دخلت في غيبوبة بسرعة يا جوزيف، وبقيت في الجزء الأكبر منوماً. يمكنني أن أقول إن دراما حيوية كانت تدور هناك، لكن بصمت، في مسرحك الداخلي. مرتان أو ثلاث مرات بدا أنك ستخرج من الغيبوبة، وعمّقتها بالإيحاء بأنك كنت مسافراً وكنت تشعر بحركة اهتزاز القطار، وأنك أرخيت رأسك على مسند المقعد وغططت في نوم عميق. في كلّ مرة، كان يبدو ذلك فعّالاً. لا أستطيع أن أخبرك المزيد. كنتَ تبدو حزيناً جداً، وبكيتَ مرتين، وبدوتَ خائفاً في مرّة أو مرّتين. سألتك إن كنت تريد أن تتوقّف، لكنك هززت رأسك، لذلك استمررت في حثّك على المضي قدماً».

«هل تحدثت بصوت عال؟» فرك بريوير عينيه، لا يزال يحاول أن ينهض قليلاً.

«نادراً. كانت شفتاك تتحركان كثيراً، لذلك خمنّت أنك كنت تتخيّل أحاديث. لم أفهم سوى بضع كلمات. ذكرت اسم ماتيلد عدّة مرات، وسمعت أيضاً اسم بيرثا. هل كنت تتحدث عن ابنتك؟»

تردّد بريوير. كيف يمكنه أن يجيب؟ رغب في أن يخبر سيغ بكلّ شيء، لكن حدسه حذّره بأن لا يفعل ذلك. إذ لا يتجاوز سيغ السادسة والعشرين من العمر، ويعتبر نفسه بمثابة أب أو أخ أكبر. كانا معتادين على هذه العلاقة، ولم يكن بريوير مستعداً لإنهاء هذه العلاقة فجأة.

كما كان بريوير يعرف أن صديقه الشاب عديم الخبرة، ضيّق الأفق في الأمور التي تتعلق بالحب والشبق، فقد تذكّر كيف أنه أحرجه مؤخراً عندما قال إن جميع الاضطرابات العصبية تبدأ في سرير الزوجية. ومنذ بضعة أيام، أدان سيغ بسخط شنيزلير الشاب بسبب علاقاته الجنسية. لذلك إلى أي حد يمكن أن يكون سيغ متفهماً عندما يعرف أن زوجاً في الأربعين من عمره أغرم بمريضة في الحادية والعشرين من عمرها؟ خاصة أنه يعرف أن سيغ يقدّر ماتيلد كثيراً. لا، سيكون البوح له بما يجيش في صدره خطأ كبيراً. من الأفضل أن يتكلم في هذا الأمر مع ماكس أو مع فريدريك.

«ابنتي؟ لست متأكّداً يا سيغ. لا أتذكّر. لكن اسم أمّي بيرثا أيضاً، هل تعرف ذلك؟»

«آه، نعم، نسيت. لكنها ماتت وأنت صغير جداً ياجوزيف. لماذا قلت لها الوداع الآن؟»

«ربما أنني لم أدعها تذهب حقاً من قبل. أظن أن بعض الأشخاص

البالغين يدخلون عقل الطفل ويرفضون مغادرته. ربما يتعين على المرء أن يجبرهم على الخروج قبل أن يهيمنوا على أفكاره».

«مممممم. هذا أمر مثير للاهتمام. لنر الأشياء الأخرى التي قلتها؟ سمعتك تقول لن أعود إلى مزاولة الطب، ثمّ، قبل أن أوقظك مباشرة، قلت، «لم يعد سني يتيح لي البدء من جديد». جوزيف إني أتحرق فضولاً. ماذا يعني كلّ هذا؟»

اختار بريوير كلماته بعناية، وقال: «هنا يمكنني أن أخبرك يا سيغ. كلّ ذلك متعلّق بالبروفسور موللر يا سيغ. فقد أرغمني على التفكير بحياتي، وأدركت أنني وصلت إلى نقطة أصبحت فيها معظم اختياراتي خلفي. رغم ذلك، كنت أتساءل كيف ستؤول إليه الأمور إن اخترت أشياء أخرى - لو عشت حياة أخرى بدون طبّ، أسرة، ثقافة فيينا. لذلك حاولت هذه التجربة الفكرية لكي أعيش تجربة لتحرير نفسي من هذه التركيبات الاعتباطية، لمواجهة اللا شكل، حتى الدخول إلى حياة بديلة».

«وماذا تعلّمت؟»

«لا أزال مندهشاً. سأحتاج إلى فترة من الوقت لتحديد كلّ شيء. شيء واحد واضح بالنسبة لي هو أنه من المهم ألاّ تدع حياتك تعيشك. وإلا فإنك عندما تبلغ الأربعين من العمر فإنك ستشعر بأنك لم تعش حياتك حقاً. ماذا تعلّمت؟ ربما تعلّمت أن أعيش الآن، كي لا تنظر إلى الوراء عندما كنت في الأربعينات بندم عندما تبلغ الخمسين. هذا مهم بالنسبة لك أيضاً، فكلّ من يعرفك جيداً يا سيغ، يدرك أنك تمتلك مواهب استثنائية. إنك تحمل عبئاً: كلما كانت التربة أغنى، فإن عدم زراعتها أمر لا يغتفر».

«إنك مختلف يا جوزيف. لعل الغيبوبة غيّرتك. فلم تكلّمني بهذه

الأمور من قبل. شكراً لك، إن ثقتك بي تلهمني، لكن لعلها تثقل كاهلي أيضاً».

«وأنا تعلّمت أيضاً»، قال بريوير، «... أو ربما كان الأمر سيان، لست متأكّداً، إن كان علينا أن نعيش كما لو كنّا أحراراً. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نهرب من قدرنا، فإننا يجب ألا نقف ضده. يجب أن نجعل قدرنا يحدث بإرادتنا. إن الأمر كما لو أننا...»

سُمع طرق على الباب.

«هل لا تزالان هناك؟» سألت ماتيلد، «هل يمكنني أن أدخل؟»

هرع بريوير ليفتح الباب. دخلت ماتيلد حاملة طبقاً من النقانق الألمانية الصغيرة، لفت كلّ قطعة منها في عجينة رقيقة. «أكلتك المفضّلة يا جوزيف. لقد أدركت هذا الصباح أنني لم أصنعها لك منذ فترة طويلة. العشاء جاهز. ماكس وراشيل هنا، والآخرون قادمون. سيغ ستبقى معنا على العشاء. لقد جهزت لك مكاناً. سينتظر مرضاك ساعة أخرى».

بإيماءة من بريوير له، غادر فرويد الغرفة. وضع بريوير ذراعه حول ماتيلد وقال: «كما تعرفين يا عزيزتي، من الغريب أنك سألت هل لا نزال في الغرفة: سأخبرك عن حديثنا فيما بعد، لكنه كان أشبه بالمضي في رحلة بعيدة. أشعر أنني كنت غائباً منذ فترة طويلة. وها قد عدت الآن».

«هذا جيد يا جوزيف»، قالت ووضعت يدها على خدّه ومسدّت لحيته بمحبة، وقالت: «إني سعيدة لأن أرحب بعودتك. لقد اشتقت إليك».

لم يكن العشاء وفق معايير أسرة بريوير أمراً هاماً، فلم يكن يجلس إلى المائدة سوى تسعة من البالغين: والدا ماتيلد، وروث، وإحدى

أخوات ماتيلد الأخريات، وزوجها ميير، وراشيل وماكس، وفرويد. أما الأطفال الثمانية فكانوا يجلسون إلى مائدة منفصلة في البهو.

«لماذا تحدّق بي؟» دمدمت ماتيلد لبريوير وهي تحمل زبدية كبيرة من حساء الجزر والبطاطا، «إنك تحرجني يا جوزيف»، همست فيما بعد، عندما وضعت الطبق الكبير من لسان العجل والزبيب المطهو على نار هادئة. «توقّف يا جوزيف، كفّ عن التحديق بي، قالت ثانية، عندما بدأت تنظف الطاولة قبل أن تجلب الحلوى.

لكن جوزيف لم يتوقّف عن ذلك. كان يحدق بها كأنه يتحفص وجه زوجته للمرة الأولى، وأدرك عندئذ بأنها هي أيضاً تكافح في الحرب على الزمن. لم تكن هناك شقوق في خديها، فلم تسمح بحدوث ذلك، لكنّها لم تتمكن من القتال على جميع الجبهات، فقد انبثقت تجعيدة خفيفة من زوايتي عينيها وفمها. وكانت تتخلل شعرها الذي رفعته وعقصته في شكل كعكة براقة، خطوط رمادية اللون. متى حدث ذلك؟ هل يُلام على ذلك؟ لو كانا قد اتّحدا فربّما قلّت درجة معاناتهما.

«لماذا يجب أن أتوقّف؟» وضع جوزيف ذراعه حول خصرها عندما مالت لتأخذ صحنه. ثم تبعها إلى المطبخ، وقال: «لماذا يجب ألاّ أنظر إليك؟ أنا، لكن، يا ماتيلد، أبكيتك».

«كثيراً يا جوزيف. لكنه بكاء حزين أيضاً، عندما أفكر منذ متى. هذا اليوم غريب. عن أي شيء تحدثت أنت وسيغي؟ هل تعرف ماذا أخبرني على العشاء؟ قال إنه سيسمّي ابنته باسمي. قال إنه يريد أن تكون لديه امرأتان باسم ماتيلد في حياته».

كنا نشك دائماً إن كان سيغ ذكياً، وقد أصبحنا متأكدين من ذلك الآن. إنه يوم غريب. لكنه مهم. فقد قرّرت أن أتزوجك».

وضعت ماتيلد الصينية التي توجد عليها فناجين قهوة. وضعت يديها

على رأسه، وجذبته إليها، وقبّلت جبهته، وقالت: «هل شربت يا جوزيف؟ إنك تقول كلاماً سخيفاً». رفعت الصينية ثانية وأضافت، «لكنه يعجبني». وقبل أن تفتح الباب الدوار المؤدي إلى غرفة الطعام، التفتت وقالت: «ظننت أنك قرّرت أن تتزوجني قبل أربع عشرة سنة».

«المهم أنّني اخترت أن أفعل ذلك اليوم يا ماتيلد. وكلّ يوم».

بعد أن تناول القهوة والحلوى التي أعدتها ماتيلد، هرع فرويد إلى المستشفى، وأخذ بريوير وماكس كأسيهما من براندي الخوخ إلى غرفة مكتبه، وجلسا ليلعبا الشطرنج. وبعد لعبة قصيرة فاز فيها ماكس بسرعة، وضع بريوير يده على يد ماكس عندما همّ بالبدء في لعبة جديدة، وقال لنسيبه: «أريد أن أتكلم». سيطر ماكس على انزعاجه بسرعة، ووضع جانباً قطع الشطرنج، ثم أشعل سيجاراً آخر، ونفث هبة طويلة من الدخان، وانتظر.

منذ خلافهما القصير منذ أسابيع، عندما حدّث بريوير ماكس عن نيتشه لأول مرة، ازداد الرجلان قرباً. وبعد أن أصبح مستمعاً صبوراً ومتعاطفاً، بدأ ماكس يتابع روايات بريوير عن لقاءاته بإكارت موللر باهتمام شديد خلال الأسبوعين الماضيين. وبدا اليوم مأخوذاً بوصف بريوير بالتفصيل عن المناقشة التي دارت البارحة في المقبرة وعن جلسة الغيبوبة الاستثنائية هذا الصباح.

«إذاً، في غيبوبتك ظننت أولاً أنّني سأحاول أن أسدّ الباب لكي لا تخرج؟ ربما كان عليّ أن أفعل ذلك. من يمكنني أن أهزمه بالشطرنج غيرك؟ لكن بجدّ، يا جوزيف، أصبحت تبدو مختلفاً. إنك تظن حقاً أنك أبعدت بيرثا من تفكيرك؟»

«إنه شيء مدهش يا ماكس. بدأت أفكّر بها الآن كما أفكّر بأي شخص آخر. كما لو أنني أجريت عملية جراحية لفصل صورة بيرثا عن

جميع المشاعر العاطفية التي كانت تلتصق بها، وإني على ثقة تامة بأن هذه العملية الجراحية قد حدثت في اللحظة التي رأيتها فيها في الحديقة مع طبيبها الجديد».

«إني لا أفهم»، هزّ ماكس رأسه، «أم من الأفضل ألاّ أفهم؟»

«يجب أن نحاول. ربما كان من الخطأ القول إن افتتاني ببيرثا مات في اللحظة التي رأيتها فيها مع الدكتور دوركين، أقصد تخيّلي لها مع الدكتور دوركين الذي كان بالغ الوضوح إلى حد أنني اعتبرت أنها جرت بالفعل. وإني متأكّد من أن موللر قد ساهم في إضعاف افتتاني بها، خاصة أنه جعلني أفهم مقدار القوة التي منحتها لها. إن تخيّلي لبيرثا والدكتور دوركين في فترة الغيبوبة تلك جاءت في الوقت المناسب لإزالتها من تفكيري تماماً. فقد اختفت كلّ قوّتها عندما رأيتها تكرر تلك المشاهد المألوفة معه، كما لو كانت تحفظها عن ظهر قلب: وفجأة أدركت أنها لا تملك قوّة. فهي لا تستطيع أن تتحكم بتصرفاتها ـ في الحقيقة، لا حيلة لها ومدفوعة كما هو حالي. فكلانا مجرد ممثلين بديلين في المسرحية الاستحواذية لكل منا يا ماكس».

ابتسم بريوير ابتسامة عريضة، وقال: «لكن ثمة شيء أكثر أهمية يحدث لي، وهو التغير الذي طرأ على مشاعري تجاه ماتيلد. لقد أحسست به قليلاً أثناء الغيبوبة، لكنه بدأ يستقرّ بقوة أكبر الآن. فقد كنت أنظر إليها طوال فترة العشاء وظل هذا الشعور من الدفء يتدفق نحوها».

«نعم»، ابتسم ماكس وقال: «رأيتك وأنت تنظر إليها. من الجيد رؤية ماتيلد سعيدة. كان ذلك كما كنا نراكما في الأيام الماضية. لعل الأمر أبسط بكثير: فقد أصبحت تقدّرها الآن لأنك اقتربت كثيراً من تجربة فقدانها».

«نعم، هذا جزء منها، لكن هناك أجزاء أخرى أيضاً. كما تعرف، منذ

سنوات، كنت أشعر أن الشكيمة التي تضعها ماتيلد في فمي تلجمني. كان ينتابني شعور بأنها تسجنني وأنني أصبحت أتوق إلى نيل حريتي، لأخوض تجارب مع نساء أخريات، لأن أعيش حياة أخرى مختلفة تماماً.

«لكن عندما فعلتُ ما طلبه مني موللر، عندما نلت حريتي أصابني الذعر. أثناء الغيبوبة، حاولت أن أبعد الحرية. فقد مددت الشكيمة لبيرثا أولاً ثم لإيفا. فتحت فمي وقلت: أرجوك، أرجوك، إلجميني. احشري هذه في فمي. لا أريد أن أكون حرّاً. في الحقيقة، لقد أرعبتني الحرية».

هز ماكس رأسه بجدية.

واصل بريوير قائلاً: «هل تذكر ما حكيته لك عن الزيارة في غيبوبتي إلى فينيسيا: دكان الحلاق الذي اكتشفت فيه وجهي الهرم؟ الشارع الذي توجد فيه محلات بيع الثياب والذي وجدت فيه نفسي أكبر شخص سناً؟ شيء قاله موللر يعود إلى ذاكرتي الآن: «اختر العدو الصحيح». أظن هذا هو المفتاح. فطوال هذه السنوات كنت أحارب العدو الخطأ. فلم تكن ماتيلد هي العدو الحقيقي، بل القدر. إن العدو الحقيقي هو الشيخوخة والموت وفزعي من الحرية. كنت ألوم ماتيلد لأنها لم تسمح لي أن أواجه ما كنت لا أريد أن أواجهه حقاً. أتساءل كم عدد الأزواج الآخرين الذين يفعلون ذلك لزوجاتهم؟»

فقال ماكس: «أظن أنني واحد منهم. كما تعرف، فأنا أحلم في كثير من الأحيان أحلاماً عن طفولتنا معاً، عن الأيام التي أمضيناها في الجامعة. أقول لنفسي يا لها من خسارة. كيف تركت تلك الأوقات تنسل بعيداً؟ وفي سريرتي فإني أنحو باللائمة على راشيل، كأنها هي السبب في إنهاء تلك الطفولة، وهي السبب في أنني كبرت في السن».

«نعم، قال موللر إن العدو الحقيقي هو فك الزمن المفترس، لكني

بطريقة ما لم أعد أشعر الآن بأنني أقف عاجزاً أمام هذا الفكّ. اليوم، ربما للمرة الأولى، بدأت أشعر بأنني راغب في حياتي، وأنني أقبل الحياة التي اخترتها. الآن أشعر يا ماكس بأنني لا أتمنى أن أكون قد فعلت أي شيء بطريقة مختلفة».

«يبدو لي يا جوزيف أنك، بتصميم هذه التجربة في دخولك في غيبوبة جعلتك تتفوق على أستاذك. فقد وجدت طريقة لتعيش تجربة قرار لا رجعة فيه من دون أن تجعله لا رجعة فيه. لكن هناك شيء لا أزال لم أفهمه. أين كان ذلك الجزء فيك الذي صمّم تجربة الغيبوبة أثناء الغيبوبة؟ فعندما كنت في الغيبوبة، لا بد أن جزءاً منك كان يدرك حقيقة ما كان يجري».

«إنك على حقّ يا ماكس. أين كان الشاهد، «الأنا» التي كانت تخدع بقيّة نفسي؟ أحسّ بدوار عندما أفكر بذلك. في أحد الأيام، سيأتي أحد يفوقني ذكاء ليكشف ذلك اللغز. لكن لا، لا أظن أنني تفوقت على ذكاء موللر. في الحقيقة، بدأت أشعر بشيء مختلف تماماً: إني أشعر أنني خذلته. فقد رفضت تنفيذ وصفته، أو ربما، ببساطة، اعترفت بمقدراتي المحدودة. إنه يقول غالباً: «يجب أن يختار كلّ شخص مقدار الحقيقة التي يمكنه أن يتحملّها» أظن أنني اخترت. كما أنني، يا ماكس، خذلته أيضاً كطبيب. فلم أقدم له شيئاً. في الحقيقة، حتى أنني لم أعد أفكّر في أن أساعده».

«لا تجلد نفسك يا جوزيف. إنك دائماً قاس على نفسك. إنك مختلف عنه. هل تتذكّر ذلك الفصل الذي درسناه معاً عن مفكّرين دينيين ـ البروفسور جودل، أليس كذلك؟ ـ وكان التعبير الذي أطلقه عليهم هو «أشخاص ذوو بصيرة». هكذا هو موللر، فهو رجل صاحب بصيرة. لم أعد أرى منذ فترة طويلة من هو الطبيب ومن هو المريض، لكن إن كنت طبيبه، وحتى لو تمكنت من أن تغيره، ولن تستطيع، هل كنت

تريد أن تغيّره؟ هل سمعت في حياتك عن رجل صاحب بصيرة متزوّج أو مدجّن؟ لا، إن ذلك يدمره. أعتقد أن قدره هو أن يصبح يعيش وحيداً»

«إنك تعرف بماذا أفكر؟» فتح ماكس علبة الشطرنج، وأضاف، «أظن أن العلاج أصبح كافياً. بل ربما انتهى. ربما قدر أكبر من هذه المعالجة يقتل كلاً من المريض والطبيب».

الفصل ٢٢

كان ماكس محقاً. فقد حان الوقت للتوقّف. لكن مع ذلك، فقد أدهش جوزيف نفسه عندما دخل الغرفة رقم ١٣ صباح يوم الاثنين، وأعلن أنه تماثل للشفاء التام.

أما نيتشه، الجالس على سريره يمشط شاربه، فقد بدا أكثر اندهاشاً.

«تماثلتَ للشفاء؟» قال وألقى مشطه المصنوع من ظهر السلحفاة على السرير، وأضاف، صحيح؟ كيف ذلك؟ كنت تبدو في حالة ضيق شديد عندما افترقنا يوم السبت. كنتُ قلقاً عليك. هل كنتُ قاسياً جداً معك؟ تساءلت إن كنتَ ستوقف مشروع علاجنا. راودتني أسئلة كثيرة لكني لم أتوقّع أن تقول إنك شفيتَ تماماً».

«نعم يا فريدريك، أنا أيضاً فوجئت بذلك. لقد حدث ذلك فجأة، نتيجة مباشرة لجلستنا البارحة».

«البارحة؟ لكن البارحة كان يوم الأحد. لم تكن عندنا جلسة».

«كانت عندنا جلسة يا فريدريك. لكنك لم تكن موجوداً. إنها قصّة طويلة».

«احكِ لي ما حدث»، قال نيتشه، ونهض من السرير، «حدّثني عن كل شيء بالتفصيل! أريد أن أعرف كيف شفيت».

«هيا، لنجلس على كراسينا الناطقة»، قال بريوير، واستقر في كرسيه.

«هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها...»، بدأ كلامه. ومال نيتشه الجالس بجانبه إلى الأمام متلهفاً لسماعه، على حافة كرسيه.

ثم قال نيتشه بسرعة: «ابدأ من بعد ظهر يوم السبت، بعد جولتنا في سيمرنغر هايد».

«نعم، كانت تلك الجولة في الطبيعة رائعة، ورهيبة. إنك على حقّ، فعندما عدنا إلى العربة، كنت أشعر بضيق شديد. شعرت كأنني مثل السندان وكلماتك مثل ضربات مطرقة. ظللت أشعر بآثارها لفترة طويلة، وخاصة عبارة واحدة».

«وهي...».

«أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ زواجي هي أن أتخلى عنه. إحدى أكثر عباراتك تشويشاً: كلما فكّرت فيها أكثر، اعتراني دوار أشد».

«إذاً يجب أن أتحدث بوضوح شديد يا جوزيف. كنت أقصد أنه لا توجد علاقة زواج مثالية إذا لم يكن أحد الزوجين يشعر بأن بقاءه ضروري للآخر».

عندما لم ير نيتشه أي إشارة على وجه بريوير تدل على أنه فهم قصده، أضاف قائلاً: «أقصد أنه لكي يتعلّق أحد الزوجين بالآخر، يجب أن يتعلّق بنفسه أولاً، فإذا لم نتمكن من اعتناق عزلتنا، فإننا سنستخدم الشخص الآخر كدرع لحمايتنا من العزلة. وعندما يستطيع المرء أن يعيش كالنسر بدون أشخاص آخرين، مهما كانوا، فإنه يستطيع أن يلتفت إلى الآخر بمحبة، وعندها فقط يستطيع أن يهتم بتضخيم كينونة الآخر. *لذلك، إذا لم يكن قادراً على التخلّي عن الزواج فإن الفشل سيكتب على الزواج*».

«إذاً فريدريك، تقصد أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الزواج هي أن تكون قادراً على التخلي عنه؟ هذا أوضح». فكّر بريوير للحظة ثم أضاف، «إن

هذا الكلام تثقيفي رائع بالنسبة لشخص عازب، لكنّه يشكّل مشكلة كبيرة بالنسبة لرجل متزوج. ما الفائدة التي يمكنني أن أجنيها من ذلك؟ إنها أشبه بمحاولة إعادة بناء سفينة في عرض البحر. لفترة طويلة يوم السبت، كنت مذهولاً للمفارقة بأنني يجب أن أتخلّى عن زواجي إلى غير رجعة حتى أنقذه، وفجأة، جاءني إلهام».

عندما ثار فضول نيتشه، خلع نظارته وانحنى إلى الأمام. بعد إنش أو إنشين آخرين، قال بريوير لنفسه، فإنه سينزلق من فوق حافة الكرسي، «ما مدى معرفتك بالتنويم المغناطيسي؟»

«المغناطيسية الحيوانية؟ المسمرية (التنويم المغناطيسي)؟ قليلاً جداً»، أجاب نيتشه، ثم أضاف، «أعرف أن ميسمر نفسه كان وغداً، لكني قرأت منذ فترة قصيرة أن عدداً من الأطباء الفرنسيين المشهورين يطبقون أسلوب التنويم المغناطيسي لمعالجة أمراض طبية مختلفة. وطبعاً استخدمته أنت في علاجك لبيرثا. أفهم أنها مجرد حالة تشبه النوم يسهل فيها التأثير على المرء بقوة».

«الأكثر من ذلك يا فريدريك، إنها حالة يستطيع فيها المرء معايشة ظواهر هلوسة كثيفة. كان إلهامي يتمثل في أنني أستطيع أن أقترب من تجربة التخلّي عن زواجي إذا دخلت في غيبوبة التنويم المغناطيسي، لكني أستطيع المحافظة عليه في الحياة الواقعية».

مضى بريوير يروي لنيتشه كلّ ما جرى له. كلّ شيء تقريباً. بدأ يصف له كيف أنه رأى بيرثا والدكتور دوركين في حديقة بيلفيو، لكنه قرر فجأة أن يحتفظ بهذا السرّ، فوصف له بدلاً من ذلك الرحلة التي قام بها إلى مصحّة بيلفيو ومغادرته لها بسرعة فقط.

أنصت نيتشه باهتمام، وراح يومئ رأسه بسرعة أكبر، عيناه جاحظتان

من شدة التركيز. عندما أنهى بريوير روايته، جلس صامتاً كأنه أصيب بخيبة أمل.

«فريدريك، ألم تعد تجد كلمات تقولها؟ إنها المرّة الأولى. أنا مشوّش أيضاً، لكنّي أصبحت أشعر بالارتياح اليوم، أنني حيّ، أفضل بكثير مما كنت أشعر به منذ سنوات عديدة. أشعر أنني موجود معك، هنا، بدلاً من التظاهر بأنني هنا بينما أفكّر ببيرثا سرّاً».

كان نيتشه لا يزال ينصت بدقة، لكنه لم ينبس بكلمة واحدة.

واصل بريوير كلامه وقال: «فريدريك، أشعر بالحزن أيضاً. إني أكره أن أفكّر بأن أحاديثنا ستنتهي. أصبحت تعرف عنيّ أكثر مما يعرفه أي شخص آخر في العالم، وإني أقدّر كثيراً العلاقة التي نشأت بيننا، وينتابني شعور آخر. شعور بالخجل. بالرغم من شفائي فإني أشعر بالخجل، وأشعر أنني خدعتك باستخدام التنويم المغناطيسي. فقد أقدمت على مجازفة تخلو من الخطر! لا بد أنك ستشعر بخيبة أمل تجاهي».

هزّ نيتشه رأسه بقوة، وقال: «لا، لا، أبداً».

فقال بريوير محتجاً: «إني أعرف مبادئك. لا بد أنك تشعر بأنني لم أكن على قدر المسؤولية. فقد سمعتك تسأل أكثر من مرة «ما مقدار الحقيقة التي تستطيع احتمالها؟» أعرف أنك تقيس الشخص هكذا. أخشى أن يكون ردي «ليس كثيراً» حتى في غيبوبتي، لم أكن على قدر المسؤولية. تخيّلت أنني حاولت أن ألحق بك إلى إيطاليا، أن أبلغ الحدّ الذي كنت تتمنى أن أبلغه، لكن شجاعتي خذلتني».

استمر نيتشه ينحني إلى الأمام أكثر وهو يهزّ رأسه، مسنداً يده على ذراع كرسي بريوير، ثم قال: «لا يا جوزيف، لقد ذهبت شأواً بعيداً ـ أبعد من المتوقع».

فردّ بريوير، «ربما إلى أبعد حدود قدرتي المحدودة. فقد دأبت على القول إنني يجب أن أعثر على طريقي الخاص بي، وألاّ أبحث عن طريق آخر أو عن طريقك. ربما كان العمل والطائفة والعائلة هي طريقي إلى حياة ذات معنى، لكنني مع ذلك أشعر بأنني لست على قدر المسؤولية، بأنني آثرت الاستقرار للراحة، وأنني لا أستطيع أن أحدّق في شمس الحقيقة كما تفعل أنت».

«وأنا أتمنى أحياناً أن أجد الظلّ».

كان صوت نيتشه حزيناً. ذكّرت التنهدات العميقة التي أطلقها بريوير أن مريضين عقدا اتفاقاً بأن يعالج أحدهما الآخر، وأن أحدهما فقط هو الذي حصل على المساعدة. ربما، قال بريوير لنفسه، إنه لا يزال هناك وقت.

«على الرغم من أنني أعتبر نفسي شفيت بالكامل يا فريدريك، فإني أريد الاستمرار في الالتقاء بك».

هزّ نيتشه رأسه ببطء وبتصميم، ثم قال: «لا. لقد حان الوقت».

فقال بريوير: «ستكون أنانية مني إذا توقّفنا. فقد أخذتُ منك الكثير ولم أقدم لك بالمقابل إلا القليل. كما أعرف أنه لم تتح لي فرصة كبيرة لمساعدتك لأنك لم تكن متعاوناً كثيراً حتى في مرضك بداء الشقيقة».

«ستكون أفضل هدية تقدمها لي هي أن تساعدني على فهم الشفاء».

فردّ بريوير، «أظن أن العامل الأقوى كان تحديد العدو الحقيقي. فذات مرة، فهمت أنني يجب أن أحارب العدو الحقيقي: الزمن والشيخوخة والموت، ثم أدركت أن ماتيلد ليست خصماً ولا منقذاً، بل مجرد مسافرة تكافح في دورة الحياة. بطريقة ما، فإن تلك الخطوة البسيطة أطلقت العنان لحبّي المقيّد تجاهها. وأصبحت اليوم يا فريدريك

أحبّ فكرة تكرار حياتي إلى الأبد. وأخيراً، أصبحت أشعر بأنني أستطيع القول: نعم، لقد اخترت حياتي. وقد أحسنت الاختيار».

«نعم، نعم»، قال نيتشه، يحث بريوير على الإسراع، «إني أفهم أنك تغيّرت، لكنّي أريد أن أعرف *الآلية*، كيف حدث ذلك».

«يمكنني أن أقول إنني كنت في السنتين الماضيتين خائفاً من شيخوختي، أو كما تقول أنت، من «اشتهاء الزمن»، وكنت أحارب، لكن بطريقة عمياء، فرحت أهاجم زوجتي بدلاً من مهاجمة العدو الحقيقي. وأخيراً، يائساً، رحت أبحث عن وسيلة للإنقاذ بين ذراعي شخص غير قادر على الإنقاذ».

توقّف بريوير، حكّ رأسه، وقال: «لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول سوى أنني أصبحت أعرف، بفضلك، أن أساس العيش بهناء هو أن تُخضع أولاً ما هو ضروري لإرادتك ثم أن تحبّ ما أخضعته».

مسيطراً على اضطرابه، صدم نيتشه من كلمات بريوير.

«*Amor fati* ـ حبّ قدرك. الغريب يا جوزيف أن لدينا عقولاً متوائمة. فقد عزمت على أن يكون «حبّ قدرك» هو درسي القادم والنهائي. كنت سأعلّمك كيف تتغلّب على اليأس بالتحوّل من «هكذا كان» إلى «هكذا أردت أن يكون»، لكنّك سبقتني. لقد أصبحتَ قوياً، بل ربما ناضجاً، لكن، توقّف، مهتاجاً فجأة، ثم أردف، «بيرثا هذه التي غزت عقلك واستحوذت عليه، التي لم تمنحك السلام ـ لم تخبرني كيف تخلصت منها».

«ليس مهماً يا فريدريك. الشيء الأهم بالنسبة لي هو أن أكفّ عن الشعور بالحزن على الماضي و...»

«قلتَ إنك تريد أن تقدم لي شيئاً. أتذكر ذلك؟» صاح نيتشه. نبرته

اليائسة أفزعت بريوير، «إذاً امنحني شيئاً ملموساً .*أخبرني كيف تمكنت من إلقائها خارج عقلك*. أريد أن أسمع منك كلّ شيء بالتفصيل».

قبل أسبوعين فقط، تذكّر بريوير، أنه هو من كان يتوسل لنيتشه لأن يضع خطوات واضحة لكي يتبعها، ونيتشه، الذي كان يصرّ على أنه لا يوجد طريق واحد، وأنه يتعين على كلّ شخص أن يجدحقيقته الخاصة به. لا بد أن معاناة نيتشه شديدة الآن حتى أنه أصبح ينكر تعليمه ويأمل أن يجد في شفائي الدرب لشفائه، وعزم بريوير على أنه يجب ألاّ يمنحه هذا الطلب.

فقال: «لا أريد شيئاً يا فريدريك أكثر من أمنحك شيئاً، لكنه يجب أن يكون هدية ذات مضمون حقيقي. أسمع إصراراً في صوتك، لكنك تخفي رغباتك الحقيقية. ثق بي هذه المرة. قل ماذا تريد في حقيقة الأمر. إذا كان بإمكاني أن أقدمها لك، فهي لك».

قفز نيتشه من كرسيه، وأخذ يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، ثمّ توجه إلى النافذة ووقف. نظر إلى الخارج، مولياً ظهره لبروير.

«إن الرجل العميق يحتاج إلى أصدقاء»، بدأ يتكلم كأنه يكلم نفسه أكثر مما يكلم بريوير، «وإذا لم يتحقق ذلك، فلا يزال لديه آلهته، أما أنا فليس لديّ أصدقاء ولا آلهة. وأنا لديّ، مثلك، رغبات ولا توجد هناك رغبة أعظم من الصداقة الكاملة، الصداقة بين شخصين متكافئين. يا للكلمات الرائعة، متكافئين، كلمات تنطوي على الكثير من الراحة والأمل بالنسبة لشخص مثلي يبحث دائماً عن أحد، لكنه لم يقابل الشخص الذي يناسبه تماماً.

«في بعض الأحيان، كنت أفرغ مكنونات صدري بكتابة الرسائل إلى أختي، إلى أصدقائي، لكن عندما ألتقي اشخاصاً آخرين وجهاً لوجه، أشعر بالخجل وأبتعد».

«كما تبتعد عني الآن؟» قاطعه بريوير.

«نعم»، ولاذ نيتشه بالصمت.

«هل لديك شيء تريد أن تفضي به لي الآن يا فريدريك؟»

هزّ نيتشه الذي كان لا يزال يحدّق من النافذة رأسه، وقال: «في المرات النادرة التي تسيطر فيها الوحدة عليّ وأفرغ ما يجيش في صدري من التعاسة على الملأ، كنت أحتقر نفسي بعد مرور ساعة، وينتابني شعور بأنني غريب عن نفسي، كما لو أنني أسقط من صحبة نفسي.

«ولم أكن أسمح للآخرين قط أن يفضوا ما بأنفسهم لي، فلا أريد أن أرغم على رد الدين. لقد تفاديت كلّ ذلك، حتى اليوم، بالطبع»، والتفت لمواجهة بريوير، «الذي صافحتك فيه، ووافقت على إبرام اتفاقنا الغريب. إنك أول شخص أبقى معه طوال فترة العلاج هذه. وحتى معك، في البداية، كنت أتوقّع الخيانة».

«ثمّ؟»

«في البداية»، أجاب نيتشه، «كنت محرجاً من أجلك. فلم أسمع قط مثل هذه المكاشفات الصريحة. ثم نفد صبري، ثم بدأت أنزع إلى الانتقاد وإبداء الأحكام. لكنني بعد ذلك بدأت أُعجب بشجاعتك وأمانتك. ثم تأثرت كثيراً بثقتك بي. أما الآن، اليوم، فقد بدأت أشعر بكآبة شديدة عندما أفكر بأني سأغادرك. فقد حلمت بك الليلة الماضية، حلماً حزيناً».

«ماذا كان حلمك يا فريدريك؟»

عاد نيتشه من النافذة وجلس قبالة بريوير، وقال: «رأيت في الحلم أني استيقظت هنا في العيادة. كانت مظلمة وباردة. كان قد ذهب الجميع، وكنت أريد أن أجدك. أضيء مصباحاً وأبحث عنك عبثاً في غرفة فارغة، بعد غرفة. ثمّ هبطت الدرج إلى غرفة الاستراحة حيث

رأيت مشهداً غريباً: نار. لا في الموقد، بل نار حطب لطيفة في وسط الغرفة، وكانت توجد حول تلك النار ثمانية أحجار طويلة، كأنها تحمي نفسها. فجأة اعتراني حزن شديد وأجهشت في البكاء، عندها استيقظت».

فقال بريوير: «حلم غريب. هل لديك أيّ أفكار عن ذلك؟»

«اعتراني حزن شديد، شوق عميق. لم أبكِ قط في حلم. هل يمكنك أن تساعدني؟»

كرّر بريوير عبارة نيتشه البسيطة بصمت، وقال: «هل يمكنك أن تساعدني؟» كان ذلك ما يتوق إليه. هل كان يتخيل أن يسمع مثل هذه الكلمات من نيتشه قبل ثلاثة أسابيع؟ يجب ألا يضيع هذه الفرصة.

فأجاب، «ثمانية أحجار تحميها النار. صورة غريبة. دعني أخبرك ماذا يخطر ببالي. طبعاً تذكر عندما داهمتك الشقيقة بشكل حادّ في فندق هير شليغل؟»

هزّ نيتشه رأسه، وقال: «معظم الأشياء. ففي بعضها، لم أكن موجوداً».

«ثمة شيء لم أحدّثك عنه»، قال بريوير، «عندما كنتَ في غيبوبة، نطقتَ بعض العبارات الحزينة، كانت إحداها: «لا يوجد مكان، لا يوجد مكان»».

نظر نيتشه في الفراغ، وقال: ««لا يوجد مكان»؟ ماذا يمكن أن أكون قصدت؟»

«أظن أنك كنت تقصد إنه لا يوجد عندك مكان في أيّ صداقة أو في أيّ مجتمع. أظن يا فريدريك أنك تتوق إلى موقد، لكنك تخاف شوقك».

خفف بريوير من حدة صوته، وقال: «لا بد أن هذه الفترة من السنة

ستبقى فيها وحيداً. فقد غادر الكثير من المرضى الآخرين للقاء عائلاتهم في عطلة عيد الميلاد. ربما كانت الغرف فارغة في حلمك لهذا السبب، وعندما كنت تبحث عني، وجدت ناراً تدفئ ثمانية أحجار. أظن أني أعرف معنى هذا: إذ يتحلق حول موقدي أفراد أسرتي السبعة: أطفالي الخمسة وزوجتي وأنا. ألا يمكن أن تكون الحجرة الثامنة؟ ربما كان الحلم أمنية من أجل صداقتي وموقدي. إذا كان الأمر كذلك، فأهلاً بك».

انحنى بريوير إلى الأمام وشبك ذراع نيتشه، وقال: «عد معي إلى البيت يا فريدريك، فعلى الرغم من أن شعوري باليأس قد خفّ، فلا حاجة لنا لأن نفترق. كن ضيفي خلال فترة العطلة، بل امكث معنا طوال الشتاء. سيكون ذلك من دواعي سروري».

أرخى نيتشه يده فوق يد بريوير للحظة ـ للحظة فقط. ثمّ نهض وعاد إلى النافذة. كانت حبات المطر التي تدفع بها ريح شمالية شرقية، تضرب زجاج النافذة بقوة. التفت، وقال: «شكراً يا صديقي على دعوتك لي إلى بيتك، لكني لا أستطيع قبول دعوتك».

«لكن لماذا؟ إني على قناعة بأن ذلك مفيد لك يا فريدريك، ولي أنا أيضاً. لديّ غرفة فارغة بحجم هذه الغرفة، وطاولة مكتب يمكنك أن تكتب عليها».

هزّ نيتشه رأسه بلطف، لكن بحزم، وقال: «قبل بضع دقائق عندما قلت إنك بلغت أقصى حدود قدرتك المحدودة، كنت تشير إلى مواجهة العزلة، وأنا أيضاً أواجه حدود طاقتي. هنا، معك، الآن، ونحن نتكلّم وجهاً لوجه، روحاً لروح، فإني أشعر بأني أقترب من هذه الحدود».

«حدود يمكن توسيعها يا فريدريك. دعنا نحاول».

راح نيتشه يخطو ذهاباً وإياباً، وقال: «في اللحظة التي أقول فيها إنني

لم أعد أحتمل الوحدة، فإني أسقط إلى هوة عميقة في تقديري، لأني أكون قد هجرت أعلى قمة لديّ. فالطريق المرسوم لي يتطلب مني أن أقاوم الأخطار التي قد تغويني».

«لكن، فريدريك، إن الالتقاء بشخص آخر لا يشبه عزل نفسك. في إحدى المرات قلت إن هناك أشياء كثيرة تستطيع أن تتعلّمها مني عن العلاقات. إذاً دعني أعلّمك. في بعض الأحيان، من الصحيح أن يكون المرء مرتاباً وحذراً، لكن، في أحيان أخرى، يجب أن يكون قادراً على أن يخفف من شدة حرصه وأن يدع نفسه يُلمس»، ومدّ ذراعه له، وقال: «تعال يا فريدريك، اجلس».

مذعناً، عاد نيتشه إلى كرسيه، وأغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً عدة مرات، ثمّ فتح عينيه وقال: «لا تكمن المشكلة يا جوزيف في أنك قد تخونني: بل أنا الذي أخونك. فلم أكن صادقاً معك. والآن، بينما تدعوني إلى بيتك، وقد بدأنا نزداد قرباً، فإن خداعي ينهشني. لقد حان الوقت لتغيير ذلك! لا خداع بعد الآن في ما بيننا! اسمح لي أن أخفف العبء عن نفسي. اسمع اعترافي يا صديقي».

مشيحاً بوجهه، ركّز نيتشه نظرته على مجموعة صغيرة من الأزهار المرسومة على سجادة الكاشان، وقال بصوت مرتعش، «قبل عدّة أشهر، بدأت علاقة قوية مع امرأة روسية شابة رائعة تدعى لو سالومي. قبل ذلك، لم أسمح لنفسي أن أحبّ امرأة.

«ربما لأن النساء غمرنني في وقت مبكر من حياتي. فبعد أن مات أبي، أُحطت بنساء بعيدات، باردات: أمّي وأختي وجدتي وعمّاتي. لا بد أنه حدثت بعض المواقف الضارة العميقة لأنني بدأت منذ ذلك الحين أنظر بفزع إلى أي اتصال مع امرأة. يبدو لي أن لحم المرأة لا يثيرني على الإطلاق، بل يشكل عائقاً بيني وبين رسالتي في الحياة. أما لو سالومي فقد كانت مختلفة، أو هكذا خيّل إليّ. فمع أنها جميلة، فقد

بدت صديقة روحي أيضاً، توأم عقلي. كانت تفهمني، تشير إليّ إلى اتجاهات جديدة، نحو مرتفعات تثير الدوار لم تواتني الشجاعة من قبل لاستكشافها. ظننت أنها ستكون تلميذتي، تحت رعايتي.

«لكن الكارثة وقعت بعد ذلك. فقد انطلقت شهوتي. استخدمتها لكي تتلاعب بي ضد بول ري، صديقي الذي عرّفها عليّ في البداية. جعلتني أعتقد أنني الرجل المقدّر لها، لكن عندما تقدمت إليها، رفضتني. لقد خدعني الجميع: هي وري وأختي التي حاولت تدمير علاقتنا. لقد تحوّل كلّ شيء إلى رماد، وأصبحت أعيش في غربة من جميع من كنت أعتبرهم أعزاء عليّ ذات يوم».

هنا تدخّل بريوير وقال: «عندما تحدثنا في البداية، ألمحتَ إلى ثلاث خيانات».

«الأول كان ريتشارد فاغنر الذي خانني منذ فترة بعيدة. لقد تلاشت تلك اللدغة الآن، والشخصان الآخران هما لو سالومي وبول ري. نعم، لقد ألمحت إليهما، لكني ادعيّت بأنّني تمكنت من حلّ الأزمة. كانت تلك خدعة مني. الحقيقة هي أنني لم أتمكن من حلّها حتى هذه اللحظة. فقد استولت هذه المرأة، لو سالومي، على عقلي وقبعت فيه. لم أتمكن حتى الآن من إبعادها عن تفكيري. لا يمرّ يوم، وأحياناً، لا تمرّ ساعة، من دون التفكير فيها. في معظم الأوقات أكرهها. أفكّر بإذلالها، بإهانتها على الملأ. أريد أن أراها ذليلة، تتوسل إليّ حتى أعيدها. وفي بعض الأحيان، يحدث العكس، إذ أشتاق إليها، أريد أن أمسك بيدها، أن نذهب في نزهة بالقارب في بحيرة أورتا، أن نحيي شروق الشمس في بحر الأدرياتيك معاً...».

«إنها بيرثاك».

«نعم، إنها بيرثاي. عندما كنتَ تصفَ هوسك، عندما كنتَ تحاول

استئصاله من تفكيرك، عندما كنتَ تحاول فهم معناه، كنتَ تتكلّم عني أيضاً. كنتَ تقوم بعمل مزدوج: هوسي وهوسك. كنتُ أختبئ، كالمرأة، ثم أزحفُ بعد أن تغادر، وأضع قدميّ فوق آثار قدميك، وأحاولُ أن أتتبع دربك. ومن شدة جبني، كنتُ أجثم خلفك وأتركك وحدك لمواجهة الأخطار والإهانات التي تعترضك».

كانت الدموع تسيل على خدي نيتشه، ثم جففها بمنديل.

رفع رأسه الآن وأضحى في مواجهة بريوير مباشرة، وقال: «هذا هو اعترافي وإحساسي بالخجل. الآن، بدأت تفهم شدة اهتمامي بتحريرك. إن تحريرك قد يكون تحريري أيضاً. الآن أصبحت تعرف لماذا كان من المهم أن أعرف بدقة كيف تخلصتَ من التفكير ببيرثا. الآن هل تريد أن تخبرني؟»

لكن بريوير هزّ رأسه، وقال: «إن تجربتي في الدخول في الغيبوبة أصبحت باهتة الآن، لكن حتى لو كان بإمكاني أن أتذكّر تفاصيل دقيقة، فما قيمتها بالنسبة لك يا فريدريك؟ فقد قلت لي بنفسك إنه لا يوجد طريق واحد، وأن الحقيقة العظيمة الوحيدة هي الحقيقة التي نكتشفها بأنفسنا».

محنياً رأسه، همس نيتشه، «نعم، نعم، هذا صحيح».

تنحنح بريوير وأخذ نَفَساً عميقاً، وقال: «لا أستطيع أن أخبرك بما تتمنى أن تسمعه، لكن فريدريك»، توقّف، وقلبه يخفق بسرعة، فقد جاء دوره الآن في الحديث، وقال: «هناك شيء يجب أن أخبرك به. فأنا أيضاً لم أكن صادقاً معك، وقد حان وقت الاعتراف».

خطر هاجس مفاجئ لبريوير وهو أنه مهما قال أو فعل، فإن نيتشه سيعتبر ذلك الخيانة العظمى الرابعة في حياته. لكن فات الأوان للتراجع.

«أخشى يا فريدريك أن هذا الاعتراف قد يكلّفني صداقتك. أرجو أن

لا يكون كذلك. أرجو أن تصدقني بأنني أعترف الآن بدافع الولاء، لأنني لا أحتمل فكرة أن تعرف ما سأقوله لك من شخص آخر، بأنك تعرضت للخيانة مرة رابعة».

تجمّد وجه نيتشه وتحوّل إلى سكون مثل قناع الموت. أخذ نفَساً عميقاً عندما بدأ بريوير يتكلم، «في تشرين الأول، قبل أسابيع قليلة من لقائنا الأول، كنت في إجازة قصيرة مع ماتيلد في فينيسيا حيث كانت هناك رسالة غريبة تنتظرني في الفندق».

مدّ بريوير يده إلى جيب سترته وأخرج رسالة لو سالومي وأعطاها لنيتشه. راقب عيني نيتشه وهما تتوسّعان غير مصدق ما يقرأ.

٢١ تشرين الأول ١٨٨٢

دكتور بريوير،

يجب أن أراك لمناقشة مسألة بالغة الأهمية وعاجلة. إن مستقبل الفلسفة الألمانية على المحك. أرجو أن ألتقي بك في الساعة التاسعة من صباح الغد في مقهى سورينتو.

لو سالومي

ممسكاً بالرسالة في يده المرتعشة، قال نيتشه متلعثماً: «لا أفهم. ماذا... ماذا...»

«استرخ يا فريدريك، إنها قصّة طويلة ويجب أن أحكيها لك من البداية».

في الدقائق العشرين التالية، حكى له بريوير كلّ شيء، عن لقاءاته مع لو سالومي، عن علمها بمعالجة آنا و. من أخيها، جينيا، وتوسلها لمعالجة نيتشه وموافقته على طلبها لمساعدته.

«لا بد أنك تتساءل يا فريدريك هل وافق الطبيب على استشارة غريبة أكثر. بالفعل، عندما أنظر إلى الوراء وأستعرض حديثي مع لو سالومي، أجد من الصعوبة أن أصدّق أنني وافقت على طلبها. تخيّل! لقد طلبت مني أن أستنبط علاجاً لمرض غير طبي وتطبيقه سراً على مريض لا يريد أن يُعالج، لكنها أقنعتني بطريقة ما. في الحقيقة، اعتبرت نفسها شريكاً كاملاً في هذا الأمر، وفي اجتماعنا الأخير، طلبت تقريراً عن التقدّم الذي أحرزه مريضنا».

«ماذا؟» صاح نيتشه، «هل رأيتها مؤخراً؟»

«قبل عدة أيام دخلت إلى مكتبي من دون استئذان، وأصرّت على أن أزوّدها بمعلومات عن سير علاجك. طبعاً لم أقدم لها شيئاً فغادرت غاضبة».

واصل بريوير، كاشفاً عن تصوّراته لمسيرة العلاج معاً: محاولاته المحبطة لمساعدة نيتشه، معرفته بأن نيتشه يخفي شعوره باليأس لخسارة لو سالومي، بل وحدثه عن خطته الرئيسية، كيف أنه تظاهر بأنه يريد معالجة يأسه لكي يظل نيتشه في فيينا.

انتصب نيتشه في جلسته عندما سمع هذه المعلومات، وقال: «إذاً كان كلّ ذلك مجرد حجة؟»

فاعترف بريوير، «في البداية، كانت خطتي تكمن في إقناعك، في أن أؤدي دور المريض المتعاون ثم أقلب الأدوار شيئاً فشيئاً، لكن المفارقة الحقيقية حدثت عندما أصبح زعمي بأنني مريض حقيقة».

ماذا يريد أن يقوله أيضاً؟ أخذ بريوير يفتش في ثنايا عقله عن تفاصيل أخرى، لكنه لم يجد شيئاً. فقد اعترف بكلّ شيء.

مغمضاً عينيه، أطرق نيتشه برأسه وأمسكه بكلتا يديه.

«فريدريك، هل أنت على ما يرام؟» سأله بريوير قلقاً.

«رأسي. إني أرى أضواء وامضة في كلتا عيني. هالة بصري...».

على الفور تقمّص بريوير شخصيته كطبيب، وقال: «تحاول الشقيقة أن تبدأ هجومها. يمكننا أن نوقفها في هذه المرحلة. أفضل شيء هو أن تتناول الكافايين والإرغوتامين. لا تتحرّك. سأعود حالاً».

اندفع خارج الغرفة، وهبط الدرج بسرعة إلى مكتب التمريض المركزي، ثم انطلق إلى المطبخ، وعاد بعد بضع دقائق حاملاً صينية عليها كوب وقِدر من القهوة القوية والماء وبضعة أقراص. «أولاً، ابتلع هذه الحبوب: إرغوت وقليل من أملاح المغنيسيوم لحماية معدتك من القهوة، ثمّ أريدك أن تجرع القهوة كلها».

ما إن ابتلع نيتشه الحبوب حتى سأله بريوير، «هل تريد أن تضطجع».

«لا، لا، يجب أن نناقش الأمر كله».

«اسند رأسك إلى كرسيك. سأعتّم الغرفة. كلما قلّ التهييج البصري، كان أفضل». أسدل بريوير الستارة على النوافذ الثلاث، ثم أعدّ كمادات رطبة باردة، ثم وضعها فوق عيني نيتشه. جلسا صامتين بضع دقائق في شبه العتمة، ثمّ تكلّم نيتشه بصوت منخفض.

«بيزنطي إلى أبعد الحدود يا جوزيف، كلّ شيء بيننا، بيزنطي إلى أبعد الحدود، مخادعين، مخاتلين مزدوجين».

«ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير ذلك؟» قال بريوير بهدوء وببطء كي لا يهيج الشقيقة لدى نيتشه، «ربما كان عليّ أن لا أوافق في المقام الأول. هل كان عليّ أن أخبرك بذلك قبل الآن؟ كنتَ ستستدير وتنصرف إلى غير رجعة».

لم يحر جواباً.

«أليس هذا صحيحاً؟» سأله بريوير.

«نعم، كنت سأستقل أول قطار لمغادرة فيينا، لكنّك كذبت عليّ. لقد قدمت لي وعوداً بأن...».

«وقد أوفيتُ بجميع وعودي يا فريدريك. فقد وعدت بأن أخفي اسمك، وقد أوفيت بوعدي. وعندما سألتني لو سالومي عنك، أو بدقة أكبر طلبت أن تعرف، رفضت أن أتحدث عنك، حتى أنني رفضت أن أعلمها أننا نلتقي. وثمة وعد آخر أوفيت به يا فريدريك. تذكّر أنني قلت إنك عندما كنت في غيبوبة نطقت بعض العبارات؟»

هزّ نيتشه رأسه.

«كانت العبارة الأخرى «ساعدني» كرّرتها عدة مرات».

«ساعدني! هل قلت ذلك؟»

«عدة مرات! لا تتوقف عن شرب القهوة يا فريدريك».

بعد أن أفرغ نيتشه كأسه، ملأه له بريوير مرة أخرى بالقهوة السوداء الكثيفة.

«لا أتذكّر شيئاً. لا كلمة *ساعدني* ولا كلمة *مكان*، فأنا لا أقوال عبارات كهذه».

«لكنه كان صوتك يا فريدريك. جزء منك كلّمني. فهمت أن «أنت» هو وعدي للمساعدة. ولم أخن ذلك الوعد. اشرب مزيداً من القهوة. إن وصفتي هي أربعة أكواب كاملة».

بينما راح نيتشه يشرب القهوة المرّة، أعاد بريوير تقطيب حاجبيه. «كيف حال رأسك؟ الأضواء اللامعة؟ هل تريد أن تتوقّف عن الكلام لفترة وترتاح؟»

«أشعر أنني أصبحت في حال أفضل، أفضل بكثير»، قال نيتشه بصوت واهن، وأضاف «لا، لا أريد أن أتوقّف، لأن التوقّف سيهيّجني أكثر من التكلم. فأنا معتاد على العمل، لكن دعني أولاً أحاول أن أرخي

عضلات صدغي وفروة رأسي». لمدة ثلاث أو أربع دقائق، تنفّس ببطء وبعمق وهو يعدّ ببطء، ثم قال: «هذا أفضل. في أحيان كثيرة أعدّ أنفاسي وأتخيّل عضلاتي تسترخي خلال ذلك. أحياناً أركّز على التنفّس فقط. هل لاحظت أن الهواء الذي تتنشقه يكون دائماً أبرد من الهواء الذي تزفره؟»

أخذ بريوير يراقب وينتظر. حمداً لله لداء الشقيقة! قال لنفسه، فهي تجبر نيتشه، ولو لفترة قصيرة، على أن يبقى حيث هو. تحت الكمادة الباردة، لم يظهر إلا فمه. ارتعش شاربه كما لو كان على وشك أن يقول شيئاً، ثم بدا أنه خطرت له فكرة أفضل.

أخيراً، ابتسم نيتشه، وقال: «كان يخيّل إليك أنك تعالجني، وكان يخيّل إليّ أنني كنت أعالجك».

«لكن، فريدريك، ما كنا نتخيّل أنه معالجة تحوّل الآن إلى صدق».

«آخ. وراء كلّ شيء تقبع لو سالومي، في وضعيتها المفضّلة وهي تمسك بالرسن بيد، وبالسوط باليد الأخرى، تتحكم بكلينا. لقد حدّثتني عن أشياء كثيرة يا جوزيف، لكنك لم تذكر منها شيئاً واحداً».

مدّ بريوير يديه، وراحتا يديه إلى الأعلى، وقال: «لا يوجد هناك شيء آخر أخفيه عنك».

«دوافعك. كلّ هذا... هذا التآمر، هذا المكر، الوقت الذي أُستهلك، الطاقة. إنك طبيب مشغول. لماذا فعلت هذا؟ لماذا وافقت على أن تفعل ذلك؟»

«هذا سؤال طالما طرحته على نفسي»، قال بريوير، «لا أعرف جواباً إلا أن أقول حتى أرضي لو سالومي. بطريقة ما فتنتني، ولم أتمكن من رفض طلبها».

«لكنك رفضتها في المرة الأخيرة عندما زارتك في مكتبك».

«نعم، لكني كنت قد قابلتك حينذاك، قطعت عليك وعوداً. صدقني يا فريدريك، لم تكن مسرورة».

«إني أحيّيك لأنك واجهتها، فقد فعلت شيئاً لم أستطع أن أفعله أنا قط. لكن قل لي، في البداية، في فينيسيا، كيف فتنتك».

«لست متأكّداً من أنني أستطيع أن أجيب عن ذلك. لا أعرف شيئاً إلا أنني شعرت، بعد نصف ساعة من لقائها، بأنّني لا أستطيع أن رفض شيئاً تطلبه».

«نعم، كان لها نفس التأثير عليّ».

«كان يجب أن ترى الجرأة في طريقة مشيها وهي تتجه إلى الطاولة التي أجلس إليها في المقهى».

فقال نيتشه: «أعرف كيف تمشي، تلك المشية الرومانية الإمبراطورية. إنها لا تبالي بالمشاكل التي قد تتعرض لها، ولا شيء يمكنه أن يقف في طريقها».

«نعم، وتلك الثقة الواضحة البادية عليها. وشيء حرّ يكتنفها: ملابسها وشعرها وثيابها. تحررها التام من المألوف».

هزّ نيتشه رأسه وقال: «نعم، إن حريتها مميّزة وجديرة بالإعجاب. في هذا الأمر فقط يمكننا أن نتعلّم منها». أدار رأسه ببطء، وبدا مسرورا لزوال الألم، ثم أضاف، «أحياناً، أعتبر أن لو سالومي طفرة، خاصة عندما يرى المرء أن حريتها قد تفتّحت في وسط أجمة برجوازية كثيفة، فقد كان والدها جنرالاً في الجيش الروسي، كما تعرف». نظر بحدّة إلى بريوير، وأضاف، «أتخيّل أنها بدأت تتحدث إليك فوراً بألفة شديدة؟ وهل اقترحت أن تخاطبها باسمها الأول؟»

«تماماً، وكانت تحدّق في عيني مباشرة وتلمس يدي وهي تكلّمني».

«أوه نعم، هذا يبدو مألوفاً. في أول مرة التقينا فيها يا جوزيف،

جردتني من سلاحي عندما أمسكت بذراعي عندما كنت أهمّ بالمغادرة، وعرضت أن ترافقني إلى الفندق».

«فعلت معي الشيء نفسه».

تشنّج نيتشه، لكنه تابع كلامه، «قالت إنها لا تريد أن تتركني بهذه السرعة، بل تريد أن تمضي معي فترة أطول».

«نفس الكلمات التي قالتها لي يا فريدريك، ثم انزعجت عندما قلت لها إن زوجتي قد تنزعج إذا رأتني أسير مع فتاة شابّة».

ضحك نيتشه، وقال: «أعرف كيف ستكون ردة فعلها. إنها لا تنظر باحترام إلى الزواج التقليدي، بل تعتبره كناية عن عبودية الأنثى».

«نفس الكلمات التي قالتها لي».

غاص نيتشه في الكرسي، وقال: «إنها تتباهى بكلّ شيء سوى شيء واحد، وهو عندما يتعلق الأمر بالرجال والجنس، فإنها تصبح عفيفة مثل راهبة كرملية».

هزّ بريوير رأسه، وقال: «نعم، لكنني أظن أننا ربما نسيء فهم الرسائل التي ترسلها. فهي فتاة شابة، طفلة، لا تدرك تأثير جمالها على الرجال».

«هنا نختلف يا جوزيف. فهي تدرك تماماً أنها فتاة جميلة، وهي تستخدم جمالها لتهيمن على الرجال، لامتصاصهم، ثم تنتقل إلى رجل آخر».

قاطعه بريوير، وقال: «ثمة شيء آخر. فهي تتباهى بهذا السحر الذي تمتلكه والذي لا يستطيع المرء إلا أن يصبح متواطئاً معها. لقد فوجئت بأنني وافقت على قراءة رسالة كتبها فاغنر، مع أن الشكوك ساورتني بأنها لا تملك حق حيازتها».

«ماذا؟ رسالة من فاغنر؟ لم ألاحظ أنني فقدت إحدى تلك الرسائل. لا بدّ أنها أخذتها أثناء زيارة توتينبيرغ».

«حتى أنها لم ترني بعض رسائلك يا فريدريك. شعرت أنها لم تعد تثق بي». هنا شعر بريوير بأنه ربما أقدم على أكبر مجازفة.

انتصب نيتشه في جلسته فجأة. سقطت الكمادة الباردة من فوق عينيه، وقال: «هل أرتك رسائلي تلك الذئبة؟»

«أرجوك يا فريدريك، دعنا لا نوقظ الشقيقة ثانية. هيا اشرب هذا الكوب الأخير من القهوة ثم استرخِ ودعني أبدّل لك الكمادة».

«حسناً يا دكتور، إني أتبع نصيحتك في هذه الأمر، لكني أظن أن الخطر قد انتهى، فقد اختفت الومضات البصرية. لا بد أن دواءك بدأ يأخذ مفعوله».

أتى نيتشه على ما تبقى من القهوة الفاترة بجرعة واحدة، وقال: «انتهى، هذا يكفي. لقد شربت الآن من القهوة أكثر مما شربت خلال ستة شهور». بعد أن حرّك رأسه ببطء إلى الجانبين، أعطاه بريوير الكمادة، فقال: «لا أحتاج إليها الآن. يبدو أن الألم قد تلاشى. شيء مذهل. لو لا مساعدتك لاستمّر العذاب عدّة أيام. للأسف»، وألقى نظرة على بريوير، وقال: «لا أستطيع أن أحملك معي».

أومأ بريوير.

«لكن كيف تجرؤ على أن تريك رسائلي يا جوزيف! وكيف تمكنت من قراءتها؟»

فتح بريوير فمه، لكن نيتشه رفع يده ليسكته، وقال: «لا حاجة لأن تجيب. إني أتفهم موقفك، حتى الطريقة التي أحسست فيها بالإطراء لأنها اختارتك لكي تكون مؤتمناً على أسرارها. كانت ردّة فعلي مماثلة

عندما أرتني رسائل غرامية من ري ومن جيغوت، أحد معلميها في روسيا الذي أحبّها أيضاً».

فقال بريوير: «أعرف أنه لا بد أن يكون مؤلماً بالنسبة لك. كنت سأنهار لو عرفت أن بيرثا قد حكت لرجل آخر عن أكثر لحظاتنا حميمية».

«إنه شيء مؤلم. لكن مع ذلك فهو دواء جيد. أخبرني كلّ ما شيء عن لقائك بلو. لا تخبئ أي شيء».

الآن عرف بريوير السبب الذي دفعه إلى عدم إخبار نيتشه بأنه رأى بيرثا تتمشى مع الدكتور دوركين عندما كان في تلك الغيبوبة. لقد حررته تلك التجربة العاطفية القويّة منها، وهذا تماماً ما كان يحتاج إليه نيتشه، لا وصف تجربة شخص آخر، لا فهما فكرياً، بل تجربته العاطفية، القوية لتمزيق المعاني الوهمية التي كدّسها فوق هذه المرأة الروسية ذات الحادي والعشرين ربيعاً.

وماهي التجربة العاطفية القويّة لنيتشه أكثر من أن «يتنصت» على لو سالومي التي خلبت لب رجل آخر باستخدام نفس المكائد التي استخدمتها عليه ذات يوم؟ لذلك، فتّش بريوير في ذاكرته بحثاً عن كلّ تفصيل دقيق من لقائه معها. بدأ يردد على أسماع نيتشه كلماتها: رغبتها في أن تصبح تلميذته، وفي أن يرعاها، إطراؤها له، ورغبتها في أن تضم بريوير إلى مجموعتها من العقول العظيمة، ووصف تصرفاتها: تأنقها، التفاتها إلى جهة أولاً، ثمّ إلى الجهة الأخرى. ابتسامتها، رأسها المرفوعة بشموخ. نظرتها الصريحة الولهانة. تلاعبها بلسانها وهي تبلّل شفتيها. لمسة يدها وهي ترخيها على يده.

بدا أن العاطفة غمرت نيتشه الذي كان ينصت بإمعان، ورأسه الكبيرة مائلة إلى الوراء، وعيناه العميقتان مغمضتان.

«فريدريك، ماذا كنت تشعر وأنا أتكلّم؟»

«بأشياء كثيرة يا جوزيف».

«صفها لي».

«يصعب فهمها».

«لا تحاول. فقط اكنس المدخنة».

فتح نيتشه عينيه، ونظر إلى بريوير، كأنه يريد أن يطمئن نفسه بأنه لا توجد ازدواجية أخرى.

«هيا افعلها»، قال بريوير يحثّه، «اعتبرها أوامر طبيب. أعرف شخصاً بذات الإصابة يقول إن ذلك كان مفيداً».

متردّداً، قال نيتشه: «عندما كنا نتحدّث عن لو، تذكّرت تجاربي معها، انطباعاتي عنها ـ المتطابقة ـ المتطابقة إلى حد غير معقول. كانت معك كما كانت معي ـ أشعر أنني تخلصت من كلّ تلك اللحظات الحادّة، من تلك الذكريات المقدّسة».

فتح عينيه، وقال: «من الصعب أن تترك أفكارك تتحدث. أمر محرج».

«ثق بي، يمكنني أن أثبت شخصياً بأن الإحراج قلما يكون قاتلاً. تابع. كن صلباً بكونك ليناً».

«إني أثق بك. أعرف أنك تتكلّم من قوّة. أشعر أن...». صمت نيتشه، واحمرّ وجهه.

حثّه بريوير على الاستمرار، وقال: «أغمض عينيك مرة أخرى. ربما سيكون من الأسهل أن تتكلم دون أن تنظر إليّ، أو أن تستلقي على السرير».

«لا، سأبقى هنا. ما أردت قوله هو أنني سعيد لأنك التقيت بلو. الآن

أصبحت تعرفني جيداً، وأشعر أنني أصبحت على صلة بك. لكني في الوقت نفسه، أشعر بالغضب». فتح نيتشه عينيه كأنه يريد أن يتأكد أنه لم يسيء إلى بريوير، ثم تابع بصوت رقيق، «أشعر بالغضب لأنك دست فوق حبّي، سحقته وجعلته تراباً. إنه شيء مؤلم»، وضرب صدره بقبضته.

«أعرف هذا الشعور يا فريدريك، فقد انتابني أنا أيضاً ذلك الألم. تذكّر كيف كنت أشعر بالانزعاج كلّما دعوت بيرثا بالعاجزة؟ تذكر أن...»

فقاطعه نيتشه قائلاً: «اليوم أنا السندان، وكلماتك هي ضربات المطرقة... تقوّض قلعة حبّي».

«تابع يا فريدريك».

«هذه هي كلّ مشاعري، ماعدا الحزن. الفقدان، فقدان كبير».

«ماذا فقدت اليوم؟»

«لقد ولّت كلّ تلك اللحظات الحلوة، الثمينة في صحبة لو. ذلك الحبّ الذي تبادلناه... أين أصبح الآن؟ لقد ضاع. سُحق كلّ شيء وتحوّل إلى تراب. أصبحت أعرف الآن أنني فقدتها إلى الأبد».

«لكن، فريدريك، يجب أن يسبق الامتلاك الفقد».

«بالقرب من بحيرة أورتا»، أضحت نبرة نيتشه أكثر رقة كأنه يريد أن يمنع كلماته من أن تسحق أفكاره الرهيفة، «صعدنا أنا وهي ذات يوم إلى قمة جبل ساكرو لرؤية غروب الشمس الذهبي. مرت غيمتان مضيئتان بلون المرجان تبدوان مثل وجهين مندمجين. لامس أحدنا الآخر بحنان. قبّلنا بعضنا. تقاسمنا لحظة مقدّسة. اللحظة المقدّسة الوحيدة التي عرفتها في حياتي».

«هل تحدثتما أنتَ وهي مرة أخرى عن تلك اللحظة؟»

«كانت تعرف تلك اللحظة. أرسلت لها عدة بطاقات أشرت فيها إلى غروب الشمس في أورتا، نسمات أورتا، سحب أورتا».

«لكن»، تابع بريوير، «هل تحدثت هي عن أورتا؟ هل كانت تعتبرها لحظة مقدّسة أيضاً؟»

«كانت تعرف ما هي أورتا».

«كانت لو سالومي تعتقد أنني يجب أن أعرف كلّ شيء عن علاقتها بك، ولذلك حرصت على أن تصف كلّ لقاء من لقاءاتكما بتفصيل شديد. ادعّت أنها لم تحذف شيئاً. تحدثت بالتفصيل عن لوسيرن وليبزيغ وروما وتوتينبيرغ. أما أورتا ـ أقسم لك ـ فقد ذكرتها بشكل عابر فقط. لم يبد عليها أي انطباع، وثمة شيء آخر يا فريدريك. حاولت أن تتذكر، لكنّها قالت إنّها لم تتذكّر إن كانت قد قبّلتك».

صمت نيتشه. اغرورقت عيناه بالدموع، وأطرق برأسه.

عرف بريوير أنه كان قاسياً، لكنه عرف أنه إذا لم يكن قاسياً الآن، فسيكون أقسى فيما بعد. هذه هي فرصته الوحيدة، فرصة لن تتكرر.

«سامحني على كلماتي القاسية يا فريدريك، لكنّي أتبع نصيحة معلّم عظيم تقول: قدم لصديق يتألم مكاناً مريحاً لكن احرص على أن يكون سريراً صلباً أو سريراً صغيراً».

«لقد استمعتَ جيّداً»، أجاب نيتشه، «إن السرير صلب. دعني أخبرك كم هو صلب. هل يمكنني أن أجعلك تفهم كم فقدت. منذ خمس عشرة سنة وأنت تشاطر ماتيلد السرير. إنك الشخص المحوري في حياتها. إنها تهتمّ بك، تلمسك، تعرف ماذا تحبّ أن تأكل، تقلق إذا تأخّرت. وعندما أزيل لو سالومي من تفكيري، وإني أدرك أن لا شيء أقل من هذا يحدث الآن، هل تعرف ماذا سيتبقى لي؟»

لم تركز عينا نيتشه على بريوير بل على داخله، كما لو كان يقرأ من نصّ داخلي.

«هل تعرف أنه لم تلمسني امرأة أخرى قط؟ لم أُحبَّ أو أُلمس قط؟ أن تعيش حياة لا يلحظك فيها أحد، هل تعرف ماذا يعني ذلك؟ كثيراً ما تمرّ أيام لا أقول فيها كلمة واحدة لأحد، إلا ربما صباح الخير أو مساء الخير لصاحب الفندق. نعم يا جوزيف، كنت محقّاً في تفسيرك «لا مكان». لا أنتمي إلى أي مكان. لا يوجد عندي بيت، لا يوجد لديّ أصدقاء أكلّمهم كل يوم، لا توجد خزانة مليئة بأغراضي، لا موقد عائلي. حتى أنه لا توجد لديّ دولة، فقد تخلّيت عن جنسيتي الألمانية، ولا أمكث قط لفترة طويلة في مكان واحد يكفي للحصول على جواز سفر سويسري».

نظر نيتشه بعينين ثاقبتين إلى بريوير، كأنه يرجو أن يتوقّف. لكن بريوير لاذ بالصمت.

«آه، لديّ ذرائعي يا جوزيف، طريقتي السرية لتحمّل الوحدة، حتى تمجيدها. أقول إنّني يجب أن أكون منفصلاً عن الآخرين لكي أفكّر بأفكاري. أقول إن العقول العظيمة في الماضي هم رفاقي، إنهم يزحفون من مخابئهم إلى شمسي المشرقة. إني أسخر من الخوف من العزلة. أقول إنه يتعين على الرجال العظماء أن يعانوا كثيراً، بأنني حلّقت بعيداً في المستقبل، وأن أحداً لا يستطيع مرافقتي. أنا أنعق بأنه إذا أسيئ فهمي أو إذا خُشي مني أو رُفضت، فهذا أفضل بكثير. وهذا يعني أنني أحقق الهدف. أقول إن شجاعتي في مواجهة الوحدة بدون القطيع، بدون وهم وجود وهّاب إلهي، هي دليل على عظمتي.

«لكن خوف واحد يتملكني مرة بعد أخرى...» تردّد للحظة، ثمّ أضاف، «على الرغم من شجاعتي بأنني سأكون الفيلسوف المشهور بعد موتي، على الرغم من يقيني بأن يومي سيأتي، حتى على الرغم من

معرفتي بالعودة الأبدية ـ تراودني فكرة أنني سأموت وحيداً. هل تعرف كيف يبدو ذلك عندما تموت؟ أن لا يكتشف جسدك إلا بعد أيام أو أسابيع بعد أن تدل الرائحة على وجود شيء غريب؟ أحاول أن أهدئ من روعي. في أحيان كثيرة، في عمق أعماق وحدتي، أكلّم نفسي، لكن ليس بصوت مرتفع لأني أخاف من صدى صوتي الأجوف. الواحدة، الوحيدة التي ملأت هذه الوحدة، هي لو سالومي».

أنصت بريوير الذي لم يجد صوتاً لحزنه، أو لامتنانه بأن نيتشه اختار أن يفضي له بهذه الأسرار العظيمة، فظل صامتاً. في سريرته ازداد الأمل قوة بأنه يستطيع أن يكون طبيب نيتشه لعلاجه من اليأس.

«والآن، بفضلك»، أنهى نيتشه كلامه، «أصبحت أعرف أنها كانت مجرد وهم». هزّ رأسه وحدّق من النافذة، ثم أضاف، «الطبّ المرّ، يا دكتور».

«لكن فريدريك، من أجل البحث عن الحقيقة، ألا يتعين علينا، نحن العلماء، أن ننبذ جميع الأوهام؟»

«**الحقيقة!**» صاح نيتشه، «نسيت يا جوزيف، أنه يجب أن يتعلم العلماء أن **الحقيقة** هي أيضاً وهم، لكنه وهم لا يمكننا أن نعيش بدونه. لذلك سأتخلى عن لو سالومي من أجل وهم آخر مجهول. يصعب علي أن أدرك أنها ذهبت، أنه لم يبق هناك شيء».

«لم يبق شيء من لو سالومي؟»

«لا شيء جيد». انقبض وجه نيتشه اشمئزازاً.

«فكّر بها»، حثّه بريوير، «دع الصور تظهر أمامك. ماذا ترى؟»

«طائر مفترس. نسر بمخالب دامية. قطيع ذئاب تقوده لو وأختي وأمّي».

«مخالب دامية؟ لكنها طلبت مساعدتك. كلّ ذلك الجهد يا فريدريك. الرحلة إلى فينيسيا وأخرى إلى فيينا».

«ليس من أجلي؟» أجاب نيتشه، «ربما من أجلها هي للتكفير عن ذنبها».

«لا أظن أنها من أولئك الأشخاص الذين يشعرون بالذنب».

«إذاً ربما من أجل الفن. فهي تقدّر الفن، وهي تقدّر عملي، العمل الذي أنجزته، والعمل الذي سأنجزه. إنها تمتلك عيناً ثاقبة. إني أقدّر لها ذلك».

«إنه شيء غريب»، قال نيتشه، «فقد التقيتها في نيسان، قبل تسعة شهور تقريباً، وأشعر الآن بأن عملاً عظيماً بدأ يأتي بسرعة. لقد بدأ ابني زرادشت يتحرّك لكي يولد. ربما بذرت قبل تسعة شهور بذرة زرادشت في شقوق دماغي، ربما كان ذلك قدرها: تلقيح عقول خصبة بكتب عظيمة».

فتدخل بريوير قائلاً: «إذاً، عندما طلبت لو سالومي تقديم المساعدة لك، فقد لا تكون هي العدو».

«لا»، ضرب نيتشه على ذراع كرسيه، «لقد قلت ذلك. لم أقلها أنا ـ إنك مخطئ. لن أقبل أبداً أنها كانت قلقة من أجلي. لقد طلبت منك أن تساعدني من أجلها هي، لكي تحقق قدرها. لقد استغلتني. إن ما أخبرتني به اليوم يؤكد ذلك».

«كيف؟» سأل بريوير مع أنه يعرف الجواب.

«كيف؟ الأمر واضح. لقد أخبرتني بنفسك إن لو تشبه بيرثا. إنها إنسان آلي، تؤدي دورها، الدور نفسه، معي، معك، مع رجل بعد الآخر. إن الرجل طارئ بالنسبة لها. لقد أغوتنا كلينا بنفس الطريقة، بنفس مكر الأنثى، بنفس الدهاء، بنفس الحركات، بنفس الوعود».

«ومع ذلك تمكن هذا الإنسان الآلي من السيطر عليك. إنها تهيمن على عقلك: تخاف من الرأي الذي ستكوّنه عنك، وأنك تتوق للمسها».

«لا. لا توق. ليس بعد الآن. إن ما أشعر به الآن هو الغضب».

«من لو سالومي؟»

«لا! إنها ليست جديرة بغضبي. أشعر بأني أبغض ذاتي، غضب من الشهوة التي أجبرتني على اشتهاء هذه المرأة».

هل هذه المرارة، تساءل بريوير، أفضل من الهوس أو الوحدة؟ إن إبعاد لو سالومي من عقل نيتشه ما هو إلا مجرد جزء من كل هذه العملية. كما أحتاج إلى كوي الجرح الذي بقي مكانها».

سأله، «لماذا كل هذا الغضب من نفسك؟ أتذكّر قولك إنه يوجد لدينا جميعاً كلابنا البرّية التي تنبح في القبو. كم كنت أتمنّى أن تكون أكثر لطفاً، أكثر كرماً لإنسانيتك».

«تذكّر جملتي الأولى التي قدت من صوان والتي قلتها لك عدة مرات يا جوزيف *كن من أنت*؟ هذا يعني أنك لا تعمل لجعل نفسك كاملاً فقط، بل كذلك لكي لا تقع فريسة للدسائس التي يحيكها لك الآخرون، لكن السقوط في معركة أمام قوّة شخص آخر أفضل من الوقوع فريسة لامرأة، آلة لا تراك قط! هذا أمر لا يغتفر».

«وأنت يا فريدريك، هل رأيت حقاً لو سالومي؟»

هزّ نيتشه رأسه.

سأله، «ماذا تعني؟»

«لعلها أدت دورها، أما أنت، فما هو الدور الذي أديته؟ هل كنا، أنا وأنت، مختلفين كثيراً عنها؟ هل رأيتها؟ أم أنك، بدلاً من ذلك، لم تر إلا فريسة ـ مريد، تابع، أرض محروثة لأفكارك، وريث؟ أو ربما أنك، مثلي، رأيتَ جمالاً، شباباً، وسادة حريرية، وعاء لتفريغ شهوتك. ألم

تكن هي أيضاً غنيمة نصر في المنافسة الشديدة مع بول ري؟ هل رأيتها حقاً أم بول ري عندما، بعد أن رأيتها لأول مرة، طلبت منه أن يطلب يدها للزواج منك؟ أظن أنك لم تكن تريد لو سالومي، إنما كنت تريد شخصاً يشبهها».

لم ينبس نيتشه بكلمة. واصل بريوير كلامه، «لن أنسى قط جولتنا في سيمرينغر هايد التي غيرت حياتي بطرق شتى. من كلّ ما تعلّمته في ذلك اليوم، ربما أقوى فكرة، هي أنه لم تعد لي أي صلة ببيرثا، بل لجميع المعاني الخاصّة التي ربطتها بها ـ معاني لا علاقة لها بها. جعلتني أدرك أنني لم أرها قط كما كانت حقاً ـ بأن أحداً منا لم ير الآخر. فريدريك، ألا ينطبق هذا عليك أيضاً؟ ربما لا يوجد أحد مخطئ. ربما أُستغلت لو سالومي بقدر ما أُستغللت أنت. ربما كنا جميعاً غير قادرين على رؤية حقيقة كل منا».

«ليست رغبتي في أن أفهم ما تتمناه النساء». كانت نبرة نيتشه حادّة وجافة، ثم أضاف، «إن أمنيتي أن أتجنبهن. فالنساء يفسدن. ربما يكفي القول إنني لا أزال مناسباً لهن، وأترك الأمر عند ذلك، ومع مرور الوقت، قد تكون هذه هي خسارتي. من حين لآخر، يحتاج الرجل إل المرأة، كما يحتاج إلى وجبة طعام معدة في البيت».

جعل ردّ نيتشه المخادع المتصلّب بريوير يسقط في حلم يقظة. فكّر بالمتعة التي استمدها من ماتيلد وأسرته، حتى الشعور بالرضى الذي استمده من فهمه الجديد لبيرثا. كم من المحزن التفكير بأنّ صديقه سيُحرم من هذه التجارب إلى الأبد، لكن لا يمكنه أن يفكّر بأي وسيلة تجعله يعدّل رأي نيتشه المشوّه عن النساء. ربما كان يتوقّع أموراً كثيرة. ربما كان نيتشه محقاً عندما قال إن مواقفه من النساء قد تشكلت في السنوات القليلة الأولى من حياته. ربما كانت مترسخة بعمق فيتعذر التوصل إلى طريقة للعلاج بواسطة التكلم. بهذه الفكرة، أدرك أنه استنفد

كلّ الأفكار. بالإضافة إلى ذلك لم يبق وقت كثير، فلن يعود بالإمكان التواصل مع نيتشه كثيراً.

فجأة، في الكرسي إلى جانبه، نزع نيتشه نظارته، ودفن وجهه في منديله، وأجهش في البكاء.

أصيب بريوير بالذهول. يجب أن يقول شيئاً.

«لقد بكيتُ أيضاً عندما عرفتُ أنني سأتخلّى عن بيرثا. يصعب التخلّي عن تلك الرؤية، ذلك السحر. إنك تبكي على لو سالومي؟»

تمخّط نيتشه الذي ظل وجهه مدفوناً في المنديل، وهزّ رأسه بقوة.

«إذاً على وحدتك؟»

مرة أخرى، هزّ نيتشه رأسه.

«أتعرف لماذا تبكي يا فريدريك؟»

«لست متأكّداً»، جاءت الإجابة المكتومة.

فكرة غريبة طرأت ببال بريوير، فقال: «فريدريك، أرجو أن تحاول تجربة معي. هل يمكنك أن تتخيّل أنه يوجد لدموعك صوت؟»

خفض نيتشه منديله ونظر إليه بعينين حمراوين مضطربتين.

«جرّبها لدقيقة أو دقيقتين فقط»، حثّه بريوير بلطف، «اجعل لدموعك صوتاً. ماذا تقول؟»

«أشعر أنني شديد الحماقة».

«شعرت بالحماقة أنا أيضاً، وقد جربت كلّ التجارب الغريبة التي اقترحتها عليّ. ساعدني. حاول».

من دون أن ينظر إليه، قال نيتشه: «لو كانت إحدى دموعي تحسّ لقالت، لقالت بهمس مسموع: لقد تحررت أخيراً. كنت حبيسة طوال

تلك السنوات. هذا الرجل، هذا الرجل الجاف المتوتر، لم يتركني أتدفّق من قبل. هل هذا ما تقصد؟» سأله، عائداً إلى صوته الطبيعي.

«نعم، جيد، جيد جداً. تابع. ماذا بعد؟»

«أي شيء آخر؟ ستقول الدموع» ـ مرة أخرى بهمس هسيس ـ «من الجيد أن أتحرّر. أربعون سنة في بركة راكدة. أخيراً، أخيراً، بدأ الرجل العجوز ينظف بيته. آه، كم كنت أرغب في أن أهرب من قبل، لكن لا يوجد مخرج ـ ليس قبل أن يفتح هذا الطبيب الفييني البوابة الصدئة ـ» صمت نيتشه وجفف عينيه بمنديله.

«شكراً» قال بريوير، «فاتح البوابة الصدئة، مديح رائع. الآن، بصوتك العادي، حدثني أكثر عن الحزن القابع وراء هذه الدموع».

«لا، ليس الحزن. على العكس، عندما حدثتك قبل بضع دقائق عن الموت وحيداً، أحسست بدفع قوي من الراحة. ليس الكثير مما قلته، بل ما قلته، بأنني أفضيت أخيراً بما يجيش في داخلي».

«حدثني المزيد عن ذلك الشعور».

«قوي. مؤثر. لحظة مقدّسة! لهذا السبب بكيت. ولهذا السبب أبكي الآن. لم أفعل ذلك قط من قبل. انظر إليّ. لا بمكنني إيقاف سيل الدموع».

«هذا جيد يا فريدريك. فالدموع القوية تطهّر».

أومأ نيتشه الذي كان وجهه مدفوناً بين يديه، وقال: «غريب، لكن في اللحظة التي كشفت فيها، للمرة الأولى في حياتي، عن وحدتي بكلّ عمقها، بكلّ يأسها ـ في تلك اللحظة بالذات، تتلاشى الوحدة! في اللحظة التي قلت لك فيها إنني لم أُلمس قط كانت هي اللحظة التي سمحت فيها لنفسي لأن ألمس لأول مرة. إنها لحظة استثنائية، كما لو أن قطعة جليد داخلية تشققت وتصدعت فجأة».

«مفارقة»، قال بريوير، «فالوحدة لا توجد إلا في الوحدة. وفي اللحظة التي يشاطرك فيها أحد، فإنها تتبخّر».

رفع نيتشه رأسه وجفف ببطء خطوط الدمع من وجهه. مرر مشطه على شاربه خمس أو ستّ مرات، وأعاد نظارته السميكة. بعد صمت قصير، قال، «ولديّ اعتراف آخر. ربما»، ونظر إلى ساعته، «إنه الاعتراف الأخير. فعندما دخلت إلى غرفتي اليوم وقلت إنك تحسّنت يا جوزيف، شعرت بالانهيار. كنت في غاية التعاسة لأني فقدت سبب وجودي لأن أكون معك، لأنني لم أستطع أن أبتهج بخبرك الجيد. هذا النوع من الأنانية لا يغتفر».

فأجاب بريوير، «لا لا يغتفر. فقد علّمتني أنتَ نفسك بأنّ كلّ واحد منا مكوّن من أجزاء عديدة، كلّ منا يصرخ ليعّبر عن نفسه. يمكننا أن نتحمّل المسؤولية لنصل إلى تسوية نهائية، لا من أجل الدوافع المنفلتة من كلّ جزء من الأجزاء. إن ما يسمّى بأنانيتك «تغتفر» لأنك تحرص على أن تشاطرني إياها الآن. إن أمنيتي قبل أن أفارقك، يا صديقي العزيز، هي أن تحذف كلمة لا يغتفر من قاموسك».

اغرورقت عينا نيتشه مرة أخرى بالدموع، ومرة أخرى أخرج منديله.

«وهذه الدموع يا فريدريك؟»

«بالطريقة التي قلت فيها *صديقي العزيز* كنت استخدم غالباً كلمة *صديق* من قبل، لكن لم تكن هذه الكلمة، حتى هذه اللحظة، كلمتي. لقد حلمت دائماً بصداقة يلتقي فيها شخصان معاً لتحقيق هدف مثالي أعلى. وها قد تحقق ذلك الآن. فقد التقينا أنا وأنت بهذه الطريقة. لقد شاركنا في تغلب نفس على أخرى. أنا صديقك. أنت صديقي. إننا صديقان. إننا ـ صديقان». للحظة بدا نيتشه مرحاً. «إني أحبّ رنين هذه العبارة يا جوزيف. أريد أن أعيدها مراراً وتكراراً».

«إذاً، فريدريك، اقبل دعوتي للمكوث معي. تذكّر الحلم: موقدك في بيتي».

عندما وجه بريوير له الدعوة، تجمّد نيتشه. جلس يهزّ رأسه ببطء قبل أن يجيب. فقال: «إن الحلم يجذبني ويعذّبني في وقت واحد. فأنا مثلك، أريد أن أدفئ نفسي بموقد عائلي، لكني أخشى أن أستسلم للراحة، لأن هذا يعني أنني سأتخلى عن نفسي وعن رسالتي. بالنسبة لي، سيكون ذلك نوعاً من الموت. ربما كان ذلك يوضح رمز قطعة الحجر الخامدة التي تدفّئ نفسها».

نهض نيتشه واقفاً، مشى للحظة أو لحظتين، ثم وقف وراء كرسيه، وقال: «لا يا صديقي، إن قدري هو أن أبحث عن الحقيقة في الجانب البعيد من الوحدة. إن ابني زرادشت سيكون ناضجاً بالحكمة، لكن رفيقه الوحيد سيكون نسراً. سيكون أكثر الرجال وحدة في العالم».

نظر نيتشه مرة أخرى إلى ساعته، وقال: «إني أعرف برنامجك في هذا الوقت يا جوزيف، وأعرف أن مرضاك ينتظرونك. لا يمكنني أن أبقيك معي أطول من ذلك. يجب أن يمضي كلّ منّا في طريقه».

هزّ بريوير رأسه وقال: «يؤلمني كثيراً أن نفترق. هذا ليس عدلاً. لقد بذلت الكثير من أجلي، ولم تحصل بالمقابل إلا على القليل. ربما فقدت صورة قوة لو عليك، ربما لا. الزمن سيعلمنا ذلك، لكن يبدو أن هناك أشياء كثيرة يمكننا أن نفعلها».

«لا تقلّل من أهمية ما قدمته لي يا جوزيف. لا تقلّل من قيمة الصداقة، من معرفة أنني لست رجلاً غريب الأطوار، من معرفة أنني قادر على أن ألمس وأن أُلمس. ففي السابق لم أكن أتقبل مفهوم «حب قدرك» كثيراً: لكني درّبت نفسي، لعل أسلمت نفسي هو تعبير أفضل، لأني أحبّ قدري. أما الآن، وبفضلك، وبفضل صراحتك، أصبحت

أدرك أنه يوجد لديّ خيار. سأبقى دائماً وحيداً، لكن يا له من فرق، يا له من فرق رائع أن أختار ما أفعله. اختر قدرك، ثم حبّ قدرك».

استوى بريوير واقفاً في مواجهة نيتشه، الكرسي يفصل بينهما. دار بريوير حول الكرسي. للحظة، بدا نيتشه قلقاً، مشغول البال، لكن عندما اقترب منه بريوير فاتحاً ذراعيه، فتح ذراعيه هو أيضاً.

في ظهر يوم ١٨ كانون الأول ١٨٨٢، عاد جوزيف بريوير إلى مكتبه، إلى السيدة بيكر وإلى مرضاه المنتظرين، ثم تناول العشاء مع زوجته وأطفاله ووالدي زوجته وفرويد الشاب وماكس وأسرته. بعد العشاء، أخذ قيلولة وحلم بأنه يلعب الشطرنج، وواصل ممارسة الطب المريحة لمدة ثلاثين سنة أخرى، لكنه لم يستخدم العلاج بالتكلم مرة أخرى.

في عصر ذلك اليوم، استقل المريض الذي يمكث في الغرفة ١٣ في عيادة لوزون، إكارت موللر، عربة أجرة واتجه إلى محطة القطارات، وسافر جنوباً، وحيداً، إلى إيطاليا، حيث الشمس الدافئة والنسيم العليل، لموافاة موعد، موعد صادق مع نبي فارسي يدعى زرادشت.

ملاحظة من المؤلف

لم يلتق فريدريك نيتشه وجوزيف بريوير قط. وبالطبع، لم يستنبط العلاج بالتحليل النفسي من لقائهما. لكن وضع حياة الشخصيات الرئيسية يستند إلى الوقائع والمكوّنات الضرورية لهذه الرواية: الألم النفسي الذي يعتري بريوير، وحالة اليأس لدى نيتشه، وآنا و.، ولو سالومي، وعلاقة فرويد مع بريوير، والجنين الذي كان ينمو وهو العلاج بالتحليل النفسي، فهي صحيحة كلها من الناحية التاريخية في ١٨٨٢.

فقد تعرّف فريدريك نيتشه على لو سالومي الشابة عن طريق بول ري في ربيع عام ١٨٨٢، وأقام معها في الشهور التالية علاقة حبّ عفيفة، قوية، لفترة قصيرة. وستتقدم لو سالومي وتصبح أديبة لامعة ومحلّلة نفسانية متميزة، وستُعرف أيضاً لصداقتها الوثيقة مع فرويد، ولعلاقاتها الرومانسية، لاسيما مع الشاعر الألماني رينير ماريا ريلكه.

وانتهت علاقة نيتشه مع لو سالومي، التي تعقدت بسبب وجود بول ري ودمرتها إليزابيث، شقيقة نيتشه. وظل نيتشه حزيناً لسنوات عديدة من أجل حبّه الضائع ولاعتقاده بأنه تعرض للخيانة. وخلال الشهور الأخيرة من عام ١٨٨٢، التي يدور حولها هذا الكتاب، كان نيتشه يعاني من حالة اكتئاب شديد، بل من حالة اكتئاب انتحاري. وإن رسائله اليائسة الموجهة إلى لو سالومي، التي ترد أجزاء منها في هذا الكتاب، صحيحة، على الرغم من عدم التأكد أيها كانت مجرد مسودات وأياً منها

أرسلت فعلاً. كما أن رسالة فاغنر إلى نيتشه الواردة في الفصل الأول صحيحة.

لقد شغلت معالجة جوزيف بريوير الطبية لبيرثا بابينهيم، المعروفة باسم آنا و. معظم اهتمامه في عام ١٨٨٢. وفي تشرين الثاني من تلك السنة، بدأ يناقش حالتها مع صديقه الشاب سيغموند فرويد الذي كان، كما وصفته الرواية، يزور بيت بريوير كثيراً. وبعد اثنتي عشر سنة، كانت حالة آنا و. أول حالة توصف في كتاب *دراسات عن الهستيريا* بقلم فرويد وبريوير، وهو الكتاب الذي أطلق ثورة التحليل النفسي.

كانت بيرثا بابينهيم، شأن لو سالومي، امرأة رائعة. وبعد سنوات من علاجها على يد الدكتور بريوير، أصبحت اختصاصية اجتماعية رائدة، وأنجزت عملاً متميزاً إلى أن كرمتّها بعد موتها ألمانيا الغربية في عام ١٩٥٤ وأصدرت طابعاً بريدياً تذكارياً. ولم يكن اسمها آنا و. معروفاً للعامة إلى أن كشف عنها إيرنست جونز في سيرته الذاتية في عام ١٩٥٣، في كتابه *حياة سيغموند فرويد وأعماله*.

هل كان الدكتور جوزيف بريوير التاريخي مهووساً بالشهوة الجنسية تجاه بيرثا بابينهيم؟ لا يُعرف الكثير عن حياة بريوير الداخلية، لكن الدراسة ذات الصلة لم تستبعد هذه الإمكانية. وتوافق الروايات التاريخية المتضاربة على أن معالجة بريوير لبيرثا بابينهيم أثارت مشاعر معقّدة وقويّة لكليهما، فقد انهمك بريوير كثيراً بمريضته الشابة وأمضى فترات طويلة خلال زياراته لها، إلى حد أن زوجته، ماتيلد، شعرت بالاستياء والغيرة. وتحدّث فرويد بوضوح لإيرنست جونز، كاتب سيرته الذاتية، عن مشاعر بريوير العاطفية الجياشة تجاه مريضته الشابة، وفي رسالة إلى خطيبته، مارثا بيرنايس، التي كتبها آنذاك، طمأنها بأن شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يحدث له، واقترح المحلّل النفساني جورج بولوك أنه

ربما كانت لمشاعر بريوير القوية تجاه بيرثا جذور، لأنه فقد أمّه التي تدعى أيضاً بيرثا في سن مبكّرة.

إن رواية الحمل الكاذب لدى آنا و. ورعب بريوير وإنهائه العلاج بشكل مفاجئ ظل جزءاً من تقاليد التحليلي النفسي لفترة طويلة. وقد وصف فرويد هذه الحادثة أول مرة في رسالة بعث بها في عام ١٩٣٢ إلى الروائي النمساوي ستيفان زويغ، وكررها إيرنست جونز في السيرة الذاتية التي كتبها عن فرويد. ومؤخّراً فقط، أجريت دراسة على هذه الرواية، وتذكر السيرة الذاتية التي كتبها ألبريشت هيرشموليير عن الدكتور بريوير بأن هذه الرواية برمتها أسطورة اختلقها فرويد. ولم يوضح بريوير نفسه هذه المسألة. ففي دراسة الحالة التي نشرها في عام ١٨٩٥، زاد الأمر تشويشاً عن حالة آنا و. بالمبالغة الشديدة عن تأثير معالجته لها.

بالنظر إلى تأثير بريوير الهائل على تطوير العلاج بالتحليل النفسي، فمن الغريب أنه وجّه اهتمامه إلى علم النفس لفترة قصيرة من حياته المهنية فقط. ولا يذكر الطبّ جوزيف بريوير كثيراً كباحث هام في مجال علم وظائف أعضاء التنفس والتوازن فحسب، إنما يذكره كذلك كمشخّص بارز للأمراض، وكان طبيب جيل كامل من الشخصيات العظيمة في فيينا في نهاية القرن.

عانى نيتشه من سوء صحته خلال معظم حياته. ومع أنه انهار في عام ١٨٨٩ وأصيب بخرف شللي حادّ (شكل من أشكال مرض الزهري الثالثي الذي مات بسببه في عام ١٩٠٠)، ثمة إجماع عام بأنه كان يعاني من مرض آخر خلال معظم فترة حياته المبكرة. ويرجح أن نيتشه (الذي صوّرت صورته السريرية وفق السيرة الذاتية الرائعة التي كتبها ستيفان زويغ في عام ١٩٣٩) كان يعاني من داء شقيقة حادّ، لذلك استشار نيتشه الكثير من الأطباء في أوروبا كلها وربما أُقنع بسهولة للحصول على استشارة طبية من جوزيف بريوير المشهور.

إن شخصية لو سالومي المكتئبة لا تتوافق مع قيامها بالطلب من بريوير بأن يساعد نيتشه. ووفقاً لكتّاب سيرتها، لم تكن امرأة مثقلة بالشعور بالذنب، ويُعرف أنها أنهت العديد من علاقاتها الغرامية بقليل من الشعور بالندم. وفي معظم الحالات، كانت تتكتم على علاقاتها، وبقدر ما يمكنني أن أؤكده، لم تكن تتكلّم علناً عن علاقتها الشخصية مع نيتشه، ولم يُعثر على الرسائل التي أرسلتها له. ويرجح أن إليزابيث، شقيقة نيتشه، قد أتلفتها، التي استمرت كراهيتها للو سالومي طوال عمرها. وكان لدى لو سالومي شقيق يدعى جينيا، وكان يدرس الطبّ في فيينا في عام ١٨٨٢. لكن يستبعد تماماً أن يكون بريوير قد عرض حالة آنا و. في محاضرة ألقاها على طلاب الطب في تلك السنة. إن رسالة نيتشه (عقب الفصل ١٢) إلى بيتر غاست، وهو صديق ومحرّر؛ ورسالة إليزابيث نيتشه (عقب الفصل ٧) إلى نيتشه هما من ضرب الخيال، كما هو حال عيادة لوزون وشخصيتي فيشمان (سائق العربة) ونسيب بريوير ماكس (كان بريوير لاعب شطرنج نهم). كما أن جميع الأحلام الواردة هي من نسج الخيال، ماعدا حلمين من أحلام نيتشه هما: حلمه عن أبيه وهو يصعد من القبر، وحشرجة موت أبيه.

وفي عام ١٨٨٢، لم يكن العلاج بالتحليل النفسي قد انبعث بعد، وبالطبع لم يوجّه نيتشه اهتماماً في هذا الاتجاه. ومن قراءاتي عن نيتشه، فقد كان مهتماً بعمق وعلى نحو ملحوظ بالفهم الذاتي والتغيير الشخصي. ومن أجل الاتساق الزمني، قيّدت نفسي بذكر أعمال نيتشه قبل عام ١٨٨٢، لاسيما «هو ذا الإنسان» و«تأملات قبل الأوان» و«الفجر» و«العلم المرح»، وافترضت أيضاً أن الأفكار العظيمة في «هكذا تكلم زرادشت» التي كُتب معظمها بعد بضعة أشهر من انتهاء هذا الكتاب، كانت ترشح في عقل نيتشه.

إني مدين لفان هارفي، أستاذ الدراسات الدينية في جامعة ستانفورد،

لسماحه لي بحضور فصله الدراسي الرائع عن نيتشه، وللساعات العديدة من المناقشة والقراءة النقدية لمخطوطتي. وأشعر بالامتنان لزملائي في قسم الفلسفة، لاسيما إكارت فوريستر وداغفوم فوليسدال، لسماحهما لي بحضور فصول دراسية عن الفلسفة الألمانية وعلم الظواهر. وقد قدم العديد منهم اقتراحات حول هذه المخطوطة: مورتون روز، وهيربيرت كوتز، وديفيد شبيغل وغيرترود وجورج بلو، وكورت شتاينير، وإيزابيل ديفيس، وبن يالوم، وجوزيف فرانك، الأعضاء في الحلقة الدراسية عن السيرة الذاتية في ستانفورد، بتوجيه باربرة بابكوك وديان ميدلبروك - أقدّم لهم جميعاً شكري. وكانت بيتي فاديبونكوور، أمينة مكتبة تاريخ الطب في جامعة ستانفورد، على قدر كبير من الأهمية في بحثي. وقام تيموثي ك. دوناهوي بومبوش بترجمة الرسائل الموجهة من نيتشه إلى لو سالومي، وقدم كثيرون نصائح تتعلق بالتحرير والمساعدة خلال كتابة هذا العمل وهم: ألن رينزلر، وسارا بلاكبيرن، وريتشارد إلمان وليزلي بيكر، وزوجتي مارلين التي كانت أهم وأشد المنتقدين لعملي هذا التي لم تكتف بتقديم انتقادات شديدة منذ بداية المسودة حتى نهايتها فحسب، بل أنها اقترحت عنوان الرواية أيضاً.

الفهرس

هذا الكتاب

دكتور برويير،

يجب أن أراك لمناقشة مسألة بالغة الأهمية وعاجلة. إن مستقبل الفلسفة الألمانية على المحك. أرجو أن ألتقي بك في الساعة التاسعة من صباح الغد في مقهى سورينتو.

لو سالومي

يا لها من رسالة وقحة! فلم يسبق لأحد أن خاطبه بهذه الصفاقة. وهو لا يعرف أحداً باسم لو سالومي. لا يوجد عنوان على المغلف. لا توجد لديه وسيلة لإخبار مرسل هذه الرسالة بأن الساعة التاسعة ليست مناسبة، وأن السيدة برويير لن تكون سعيدة لتناول الفطور وحدها، وأن الدكتور برويير يمضي حالياً إجازته، وأنه لا يبدي أي اهتمام «بالمسائل البالغة الأهمية» ـ فقد جاء الدكتور برويير إلى فينيسيا للابتعاد عن المسائل العاجلة تلك.


ISBN 9933351182
9 789933 351182

